

أنيتا ديساي

ضوء نهار مشرق

ترجمة: لطفية الدليمي





أنيتا ديساي



ضوء نهار مشرق

رواية



ضوء نهار مشرق



المؤلف: أنيتا ديساي
عنوان الكتاب: ضوء نهار مشرق
ترجمة: لطفية الدليمي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: ريم الجندي

Author: Anita Desai
Title: Light Of a Bright Day
Translator: Lotfiah Al-Dolaimi
Al-Mada P.C.
First Edition: 2012
Cover Designed by: Reem Al-Jundi

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-134-9

نشرت هذه الرواية لأول مرة في بريطانيا عن دار وليم هاينمان سنة ١٩٨٠.

صدرت في الولايات المتحدة عن دار هاربر ورو سنة ١٩٨٠ ثم ظهرت طبعتها الثانية هناك سنة ١٩٨٢.

أعيد طبعها في بريطانيا سنة ١٩٨٤ وسنة ١٩٨٦.

الذاكرة جرس غريب

يبهج ويؤسي

إميلي ديكنسون

أنظر، تتلاشى الوجوه والأمكنة،

ومعهما النفس التي أحبتهما قدر ما استطاعت،

لتعود متجددة بهيئات أشكال أخرى.

ت. إس. إليوت

بين الاستقلال الشخصي والسياسي
رواية ما بعد الكولونيالية في الهند

لطفية الدليمي

تتابع أنيتا ديساي في هذه الرواية الشقيقتين تارا وبيم وهما تحاولان إعادة بناء ذكريات طفولتهما في منزلهما بدلهي القديمة ـ تزور تارا أختها بيم في البيت القديم الذي نشأتا فيه، وتحاول المرأتان التوفيق أو المواءمة بين أحلام طفولتهما وحياتهما الراهنة لعلهما تنجوان من شعورهما بالذنب إزاء الصراعات القديمة بين أفراد العائلة والصراعات الإثنية والدينية بين مكونات الأمة الهندية التي انعكست على علاقات الأسرة، فيتصادى نضال الجميع من أجل الاستقلال الشخصي والحكم الذاتي على خلفية الهند الجريحة حديثة التقسيم إلى بلدين: الهند وباكستان . .

نشرت الرواية سنة ١٩٨٠ وقمت بترجمتها باقتراح من دار المأمون سنة ١٩٨٧ وصدرت مترجمة للعربية في ١٩٨٩.

تصنّف هذه الرواية ضمن روايات الواقعية النفسية التي تستغور أعماق النفس البشرية لتكشف عن رغباتها ويأسها ومرارتها وتوقها للانعتاق من تقاليد وقيود المجتمع الخانقة، تدور أحداث رواية ضوء نهار مشرق في عام ١٩٤٧ حيث الاضطرابات الأهلية ذات الطابع الديني بين الهنود والمسلمين وتستعاد الأحداث السابقة التي جرت قبل خمسة عشر عاماً في استذكارات الأختين اللتين تتابعان مستجدات مايحدث للعائلة والهند على مدى خمسة عشر عاماً لاحقة بعد تقسيم شبه القارة الهندية..

ويعد بعض النقاد رواية أنيتا ديساي من روايات دراسة الشخصية الإنسانية بينما اعتبرها آخرون من الروايات التي تتقصى تاريخ المؤسسة العائلية ضمن ظروف المتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية فيما بعد الكولونيالية.

وتدور ثيمات ضوء نهار مشرق الأساسية حول الطفولة وحياة العائلة و اكتشاف الذات وهيمنة الذاكرة وأحداث سنوات الأربعينيات بموسيقاها وثقافتها المختلطة وهيمنة الثقافة الغربية على الهند من جانب والثقافة الإسلامية الأوردية من جانب آخر مع إهمال واضح للثقافة الهندوسية، كما تتقصى الرواية ذلك الشعور بالذنب الذي يميز الأخت الكبرى بيم إزاء عائلتها التي تمثل انهيار الطبقة الوسطى الهندية إثر تقسيم البلاد، مثلما تبحث في علاقة الأخوة بالأخوات والأخوات ببعضهن وتكشف تفاصيل حياة الناس في شرق الهند وهم يواجهون التحديات النفسية والاجتماعية الجسيمة، وتقدم الكاتبة خلال ذلك عرضاً ساحراً للتقاليد العائلية والطقوس الدينية وتقاليد الزفاف وولع الأخ راجا بالشعر الأوردي والشعراء الإنكليز والمسلمين مثل محمد إقبال من جانب وت أس إليوت وتنيسون ولورد بايرون من جانب آخر..

لقد ترك تقسيم شبه القارة الهندية إلى أمتين تأثيراً كبيراً في التخييل الهندي على امتداد أكثر من ثلاثة عقود وبخاصة في الرواية الهندية والأفلام السينمائية وشكّل الحدث نقطة تحول في حياة الشخصيات وكان له تأثيره البيّن على مواطني الهند عموماً بما تبعه من عنف واضطرابات متلاحقة أفضت إلى اغتيال المهاتما غاندي الذي يشكل مقتله منعطفاً مهماً في الرواية. .

وألقت عملية التقسيم بظلالها الثقيلة على مصائر الشخصيات ومسارات حياتها في هذه الرواية التي كتبتها الحكاءة البارعة أنيتا ديساي وبدل انتهاجها لأسلوب الواقعية الاشتراكية والرومانسية الكبلنغية نسبة إلى رود يارد كبلنغ ـ اللذين يروقان للأمزجة الهندية عمدت أنيتا ديساي إلى سرد حكاية ساحرة أخاذة عن عائلة بورجوازية تناضل ضد قوى التجزئة والتشظي. .

أفضى لقاء الشقيقتين اللتين حدث بينهما انفصال مكاني واختلاف في طراز حياة كل منهما ـ إلى نوع من تقييم وإعادة نظر في الخلافات المتراكمة ضمن إطار العائلة وعلاقة أفرادها بالمكان والزمان ـ بالمدينة والمتغيرات وتبدل المصائر وأمزجة الناس. .

فحين تعود تارا الجميلة والخبيرة بشؤون دنيوية كثيرة كالأزياء والموسيقى الغربية والحياة المترفة لزوجة دبلوماسي، بعد سنوات من العيش خارج بلادها ـ تلتقي أختها بيم التي ظلت محتفظة بعادات فتاة هندية تقليدية برعت في عملها واحتفظت بنمط حياتها في بيتها و عملها كمدرسة للتاريخ وهي التي كانت تبوح بحلم طفولتها (أريد أن أكون مرموقة عندما

أكبر) لكنها لم تتخل عن مدينة دلهي القديمة ولا ركود حياتها لأنها التزمت روحياً وأخلاقياً برعاية أخيها الصغير المصاب بالتوحد بعد وفاة أبويها، أما شقيقهما راجا الذي طالما أعلن في صباه بأنه الآخر سيغدو بطلاً في مستقبل حياته فقد كان شاباً مثالياً رومانسياً مولعاً بالشعر ومقلداً لكبار الشعراء الأورديين والإنكليز ثم تزوج فتاة مسلمة كان والدها الثري مثالاً للثقافة الأوردية الإسلامية ونموذجاً للأرستقراطية من طبقة ملاك العقارات المترفين ـوغادر راجا أسرته ومدينته والتحق بحيدر علي والد زوجته وأصبح رجل أعمال ناجحاً يدير عقارات حيدر علي في مدينة حيدر آباد..

كان ر اجا على نحو ما شخصية تعي بطولتها بطريقة ما، فهو ذو حس جمالي مثالي واضح ومولع بالشعر الإنكليزي والأوردي ـ وطالما حفظ وردد شعر اللورد بايرون وتنيسون ومحمد إقبال بل إنه مضى أبعد من ذلك فصار يقلّد الشعر الأوردي في كتابة قصائده الباهتة كما تعتقد بيم وكان شعره منسوخاً ومقلداً لنمط الشعر الأوردي وأوزانه، إذ لمست بيم تأثير الشعراء الذين أحبهم واستنسخهم لأنه كان يفتقر إلى مخيلة تنتج صوراً إبداعية مبتكرة أو استعارات شعرية وليس من شيء يؤكد أصالة عباراته في قصائده التي نسي أمرها بعد أن تحول إلى رجل أعمال ثري، كانت قصائده محض تأثرات ذوقية بما يقرأه من شعر وكل مافيها يشير إلى رغبته الجامحة في اقتفاء آثار أبطاله المحبوبين..

يشتغل عنوان الرواية الساخر على الحد الشبحي الفاصل بين الوهم والحقيقة، بين النور النهاري والإشراق المعشي للبصر وبين التوهم والوقائع الحاصلة على الأرض وتغطي انثيالات الذاكرة معظم الأحداث في الرواية، ورغم أن لكل

شخصيات الرواية منظورها الخاص لموضوعة البطولة إلا أننا لم نجد بطلاً رئيسياً في السياق السردي إذ تتبادل الشقيقتان سرد الأحداث بينما يبقى الآخرون شخصيات ثانوية تكمل سرد الشقيقتين لوقائع الحياة، فلم يظهر راجا ولا باكول أو الشقيق المعاق بابا أو العمة ميرا ماسي إلا كشخوص تلهم بيم وتارا خلال انهمار الذكريات وتؤشر لهما مسار الأحداث ومنعطفات حياة كل منهم . .

تبدو بيم في التقييم النهائي ـ أكثر أبطال الرواية حضوراً وتأثيراً وهي تحاول تحقيق توازن بين المثالية والواقعية في العمل الروائي، ولم يكن راجا شخصية فاعلة إلا بتجاهله للمخاطر الناتجة عن الاحتقان السياسي الذي جعل من مخططاته الشخصية مستحيلة التحقق،فانصرف الى الأعمال الحرة والاستفادة من ثراء حميّه وثقافته، بينما نجد تارا امرأة تعوزها طاقة الحلم ولاتمتلك أهدافاً شخصية بل تنتظر من زوجها باكول أن يدفع بها لتقوم بما تقوم به بينما تحلق شخصية العمة ميرا ماسي أشبه بشبح معذب ومحبوب تلوذ به بيم هرباً من وحشة طفولتها، وتبقى بيم تلك البطلة المستوحدة مع مثاليتها المقموعة التي أدت بها إلى التعايش مع خيبة آمالها . .

تقدم لنا الرواية رؤية ثقافية لهند مابعد الكولونيالية في امتزاج الثقافات وسعي الجيل الجديد للتنصل من الثقافة الأم لشعورهم بعقم التقاليد والتشبه بثقافة الغرب أو الثقافة الإسلامية وإن مظهرياً ورغم تحقق الاستقلال السياسي فإن المعضلة الثقافية تعقدت واضطرب المشهد وتفاقمت التطلعات الصاخبة لدى الشباب لاعتناق الثقافات الأخرى في سورة رفض عارمة للتراث والتقاليد المحلية ولم يكن استقلال البلاد عن الاستعمار

البريطاني كافياً لإعادة الاعتبار للتقاليد والثقافات المحلية، إلا بعد عقود طويلة من الاضطرابات والصراعات العرقية والثقافية وحروب الانفصال الدامية بين مكونات الهند، شأنها شأن معظم دول العالم التي استقلّت بعد قرون من الهيمنة الاستعمارية..

عمان ـ أيلول ٢٠١١

الفصل الأول

بدأت طيور الوقواق الهندي تتنادى قبيل انبلاج ضوء النهار، وتعالت صيحاتها من خلل الأشجار المعتمة أشبه بجوقة أجراس متناغمة الرنين، تصيح وتردد أصداء شدو الطيور الأخرى، تحاكي وتناغي بعضها بأصوات حادة بالغة الضجيج وسرعان ما تنادت جميعها لتشترك في غناء جماعي حال شروق الشمس، لم يعد باستطاعة (تارا) احتمال صرخات التشكي في غناء الطيور فغادرت سريرها ويممت صوب الشرفة لتفاجأ بوهج الشمس الصيفية الأبيض الساطع ينهمر من بين الأعمدة الأسطوانية و(الجهنمية) أرجوانية الزهور، أعشى سطوع الضوء بصرها فاتقت الضوء بيدها وهي تفتش عن الطيور التي تزايد صخبها واشتد ضجيجها لحظة ظهورها، غير أنها لم ترَ شيئاً.

ظلت كراسي الخيزران خالية في الشرفة ودَبَّ رتل من النمل متجاوزاً قدمي تارا لينحدر على درجات السلم نحو الحديقة، وفي تلك اللحظة تبينت هيئة اختها (بيم) في رداء نومها الأبيض تسير بخطىً وئيدة على امتداد ما كانوا يطلقون عليه في صباهم اسم (ممشى الورد).

هرعت تارا رافعة بيديها أطراف رداء نومها الطويل وهبطت سلم الشرفة بسرعة خافضة الرأس تحت وهج شمس الصباح الذي كان ينهمر ويحز مؤخرة عنقها أشبه بشفرة فولاذ قاطعة، ثم عبرت بين أعشاب المرج الجافة التي تحولت إلى هشيم لتنضم إلى اختها (بيم) التي كانت ترقبها وقد افترت شفتاها عن ابتسامة.

كان (ممشى الورد) عبارة عن مستطيل من العشب لا يزال محتفظاً ببعض الخطوط الخضر اليانعة إلى جانب الخطوط الذابلة الكئيبة، وهو يمتد بين حوضين من أحواض (ورد الجوري) عند أقصى طرفٍ في المرج حيث يسوّر الحديقة سياج من أشجار تين وبلوط فضي وتوت ويوكاليبتوس، لم يزل المكان هنا مظللاً فخيل لتارا أنه لا بد قد حظي ببعض الرعاية دون سواه، بينما ظلت أشجار (البابايا)[1] والليمون وشجيرات (الهيبسكوس)[2] والدفلى وألواح (زنابق الكنا)[3] مهملة تعلوها أكداس من الغبار وهي تقاوم بما أوتيت من قوة القيظ وحرارة شمس الصيف، بينما ظل (ممشى الورد) إلى حد ما ـ على ما عهدته في الأيام الخوالي، أتراه لم يتغير حقاً؟

وخيل لتارا أنه كان في ما مضى من أيام طفولتها مزدهراً بالورود، ورد جوري من شتى الأصناف، منها الوردية ملتزة الأوراق الفواحة بالشذى، ومنها البيضاء ذات البتلات الجعدة

---

(١) البابايا papaya: أشجار استوائية ذات ثمار صفر مستطيلة تؤكل (المورد)
(٢) الهيبسكوس Hibiscus: شجرة الخطمي الصينية وتسمى (زهرة الصين) أما محلياً في العراق فيسميها البستانيون (زهرة الجمال).
(٣) نبات (موز الزينة) Canna ـ كما يعرف محلياً في العراق.

(المترجمة)

المشوبة بظلال خضر، وتلك الورود ذات الصفرة الحريرية التي تعبق بعبير الشاي. وكانت تجد في الحوض آنئذٍ كل تلك الورود الرائعة لا هذه الرؤوس القرمزية القميئة التي تتدلى واهنة من أغصانها الهزيلة. وقد نشأت تارا على معرفة بتلك الورود وهي تعدو قافزة وراء أمها عندما نصحها الطبيب آنئذٍ بممارسة بعض التمرينات الرياضية، ولم تكن الأم تحب الرياضة، ولربما كانت زاهدة بالطفل القادم أيضاً. فكانت تقطع الممر جيئة وذهاباً عاقدة ذراعيها على صدرها وهي مستغرقة في تأملاتها، بينما كانت طيور الوقواق تقلد بعضها على نحو هازئ وهي تتصايح وتنقض ما بين الأشجار.

كانت تارا تقفز وترقص وقد غمرها الحبور وهي تقتفي خطى أمها عندما لمحت شيئاً ما يلتمع تحت كومة من بتلات الورود المتساقطة.

- أتراها لؤلؤة أم خاتم فضي؟...

واندفعت نحو الشيء الملتمع مطلقة صيحة اوقرت سمع أمها وجعلتها تتوقف وقد احتدم غضبها واكتسح العبوس محياها وتارا تزيح بتلات الزهور بنوع من هياج لتكشف عن بزاقة صغيرة شاحبة.

قطبت تارا وجهها اشمئزازاً بينما استدارت أمها لتعاود سيرها المتمهل من دون أن تفوه بكلمة تاركة ابنتها وهي راكعة على ركبتيها، مستغرقة في تأمل حقيقة ذلك الشيء الذي تبدى وخيبَّ ظنها، وها هي بيم اليوم لا تختلف في هيئتها البدينة الكئيبة عن أمها، سوى أنها أكثر يقظة وانتباهاً وهي تتفرس بتارا بكل دقة وتمعن.

وضحكت بيم وهي ترى تارا لاهثة الأنفاس قليلاً من فرط حماستها.

وبادلتها تارا ضحكتها وقالت:

ـ لا يزال ممشى الورد ماثلاً ها هنا يا بيم؟

ردت بيم: بالتأكيد، سوى أن الورد فيه يزداد سقماً وضآلة سنة بعد أخرى.

وانحنت لتهز غصن ورد طويلٍ ناحل تدلت منه زهرة كاملة التفتح فانفصلت بتلات الزهرة على الفور كاشفة عن قلب وردة أجرد تتشبث بقمته العارية بضع أسدية هزيلة بينما تساقطت البتلات في كومة على أرض داكنة لها لون الشيكولاته.

فغرت تارا فمها هلعاً إزاء الزهرة المكتملة النضج ـ كلا لن تفعل ما فعلته بيم أبداً ـ ها هي الزهرة وقد تساقطت بتلاتها التي كانت قبل برهة ملتمة متماسكة فتناثرت مبعثرة على الأرض.

وإذ كانت تحدق بها، ارتفعت إحدى الوريقات وانقلب الحلزون على ظهره فرأت الالتماعة العارية لـ. . . لاي شيء؟

شيء ما التمع، شيء ما تألق ثم خبا ألقهُ. . . عند ذاك أدركت أنه لم يكن سوى حلزون طفولتها، يشق طريقه ببطء ويتقلب تحت بتلات الزهرة متجهاً صوب كتلة تراب ندية ليعود فيتدحرج من جديد في مجاهدة يائسة، هذا السيزيف الأبدي الصغير.

صفقت بيديها وصاحت: بيم أنظري إنه الحلزون، نظرت بيم إلى أختها في ارتياح وعجب.

ـ ترى هل غدت تارا إمرأة حقاً؟. . هل كبرت حقاً لتصبح

أماً لفتاتين شابتين؟.. أم أنها لا تزال محتفظة بقدر من طفولة يبيح لها اللعب مع الحلزون الصغير؟

أتراها ستركع مرة أخرى على ركبتيها لترفعه فوق ورقة ورد ملونة وتتأمله وهو يخفي رائحته الزلالية ويدع مجساته الدقيقة خارج قوقعته محدقاً بعينين ناتئتين قبل أن تميل الورقة فينزلق نحو الأرض ثم ينسحب إلى قوقعة شاحبة البياض.

وإذ كانت تارا تستعرض طقوس طفولتها من خلال مخلوق ضعيف عاجز كان طوع نزواتها، وقفت بيم وهي تجذب شعرها المسدل حول وجهها مثلما كانت تفعل وهي جالسة إلى جانب سرير أخيها ذلك الصيف يوم رقد مريضاً وهي تحني جبهتها على حاجز السرير الخشبي وفي حضنها ديوان شعر مفتوح وهي تقرأ القصيدة بصوت مرتفع:

الزهرة القرمزية تنام

وبعدها البيضاء تغفو

ولا حركات لشجر السرو في ممر القصر،

وليس من زعنفة ذهبية تلتمع في النبع المصون.

اليراعة استفاقت..

كانت شفتاها تنتقلان بين أبيات الشعر التي نسيتها وما عادت تتذكرها الآن، حتى رأت البتلات القرمزية تسقط متراكمة فوق الحلزون القابع في التراب الندي، غير أنها لا تريد تلاوة تلك الأبيات على مسامع «تارا» وليست لديها الرغبة لاستخدامها كتعويذة تحيي بها ذكرى تلك السنة الغابرة، ذلك الصيف الذي رقد أخوها «راجا» عليلاً وكانت تعنى به وتقوم بواجبات تمريضه.

وفي ذلك الصيف توالت أمور كثيرة.

ولكي تدفنها جميعها مرة أخرى، مدت اصبع قدمها وبعثرت بتلات الزهور وسوّتها فوق التربة الرطبة، ارتعشت يد تارا بغتة، فمالت الورقة النباتية وانزلق المخلوق المحكوم بالموت نحو الأرض بهدوء وسكينة.

وقفتا كلاهما تتأملانه وهو يرقد هناك مذعوراً دونما حراك.

تمتمت تارا: تبدين عن بعد كثيرة الشبه بماما يا بيم.

ـ أعني ـ أن الأمر يبدو كذلك.. الشمس.. أدركت فجأة أن بيم تمقت المقارنة.

لم يبدُ على بيم أنها سمعت ذلك أو اهتمت به، بل إنها بدلاً من ذلك سألت تارا:

ـ أما نمتِ، قط؟

كانت تارا لدى عودتهم ليلة أمس من المطار مستغرقة في الثرثرة والضحك ومتظاهرة أن تأثرها وانفعالها قد حالا بينها وبين النوم.

هتفت تارا: أنى لي أن أنام؟

وأغرقت في الضحك وتحدثت عن طيور الوقواق التي ضجت في الصباح، والكلب الذي لم يكف عن النباح طوال الليل، والحشرات التي لم تتوقف عن الطنين واللسع تحت ستار الظلام.

وإذ هما تسيران على الممشى المعشوشب، تارا برداء نومها الأنيق المصنوع من نسيج النايلون الأزرق الفاتح وخفيها الفضيين الأنيقين، وبيم في ثوبها غريب الطراز الذي لا يمتلك شكلاً أو طرازاً محدداً وقد خاطته بيدها، أدركت تارا أن بيم صنعت ثوبها

من «ساري» قطني عتيق بعد أن وصلت كلا جانبيه وتركت مسافة مفتوحة تكفي لإخراج الذراعين منها، ثم قصت فتحة عنق واسعة، ولم ينقذ الثوب من الفجاجة التي أوحى بها سوى الحاشية السفلى لقماش الساري التي زخرفت بطواويس زرق وخضر.

وضحكت تارا بشيء من الاستخفاف وحدثت نفسها:

(إنه لثوب مبتكر).. ثم قالت:

- يا لنباحه، الا يتذمر الجيران من نباحه؟

- يبدو لي أنهم اعتادوا ذلك أخيراً، أو أنهم ادركوا عدم جدوى التذمر والشكوى، فأنا لا أقيده بسلسلةٍ أبداً، هكذا قلت لهم عندما اعترضوا، إن له صوتاً جميلاً ومن الممتع أن يسمعه المرء، فنباحه ليس كنباح وعواء تلك الكلاب الصغيرة الدنيئة التي يمتلكها الآخرون.

قالت ذلك مع نترة مفاجئة من رأسها الذي اكتسى بلون الرماد.

ومع أنهما كانتا تتحدثان بصوت رقيق لا يعدو كونه زقزقة طائرين يتناغيان، إلا أن الكلب ميزً اسمه أو لربما أدرك أنه كان موضوع حديثهما.

وعندما خرجت تارا إلى الشرفة ألفتهُ نائماً تحت الديوان الخشبي (الأريكة)، محتجباً عنها ببساط قطني مخطط كان يغطي الأريكة وينسدل عليها ولم يحرك سوى شعيرات شاربيه عندما سمعها تمر إلى جواره، أما الآن فقد قفز قفزة مفاجئة فوق العشب وشرع يسير إلى جانبهما. ثم ها هو يقف على قوائمه الأربع التي تباعدت عن بعضها ويدس أنفه في كومة التراب الرطب حيث لا

يزال الحلزون يرقد يائساً وهو يجاهد ليرفع نفسه، ثم استطاع أخيراً أن يستدير جانباً وعندئذٍ أطلق الكلب عطسة راعدة، فصاحت بيم مزهوة بالعرض المسرحي للحلزون:

- «بادشاه».

والتمعت إحدى عيني الكلب، حين ميزَّ الاستحسان في صوتها، بينما تابعت عينه الأخرى حركة الحلزون الذي كان قد اختبأ تحت بتلات الزهور أكثر من ذي قبل، وصار الكلب يتواثب باتجاههما ويرتطم أنفه الرطب بسيقانهما وتمتد مخالبه القذرة نحو كعوبهما ويبلل أقدامهما بلعابه ثم يندفع بغتة ليتخذ موقع القيادة أمامهما.

علقت بيم - يستهويه أن يكون الأول دائماً. . .

- أهو في سن التاسعة أم العاشرة يا بيم؟

ردت بيم: بل إنه بلغ الثانية عشرة من عمره، أنظري لقد إبيضَّ شعر شاربيه تماماً.

قالت ذلك واندفعت نحوه وأمسكت بأذنيه وجعلته يتوقف دونما حراك ورأسه يواجه فخذها. .

أغمض عينيه وابتسم ابتسامة بلهاء إزاء اهتمامها به، وما لبث أن مضى قدماً يسيل من شدقيه خط طويل من اللعاب فوق العشب.

- هذا الكلب ابن الكلبة (بيغوم) التي عمّرت حتى بلغت الرابعة عشرة:

- تنهدت تارا وأزاحت شعرها من وراء عنقها، ثم ألقت به تاركة إياه ينسدل بكل غزارته مرة أخرى.

كيف تجري الأمور ها هنا من دون أن يتغير شيء أبداً؟ كثيراً ما أقلقني هذا الخاطر..

ولوحت بيدها في حركة دائرية مشيرة إلى الحنفية التي يتساقط ماؤها في نهاية ممشى المرج، والى الأشجار التي ترتعش وتترنح بالطيور الجاثمة عليها، والى الكلب الذي سال لعابه، وأحواض ورد الجوري.

- كلما عدت إلى البيت ألفيت الأشياء على حالها تماماً.

سألتها بيم بشيء من الجفاء وهي ترمقها شزراً:

- هل يسبب لك هذا الأمر إحباطاً؟.. أكنت تودين أن تعودي لتجديه متغيراً؟

وتجهم وجه تارا فجأة واجتاحه العبوس، كما لو أن مثل هذه الفكرة لم تخطر لها على بال، إنها فكرة مربكة.

- متغيراً؟.. كيف؟.. أتعنين البيت الذي جُددّ طلاؤه؟.. والحديقة التي أعيدت زراعة نباتاتها؟..

وأن أناساً جدداً يروحون ويغدون إليه؟.. أوه كلا ما خطر لي هذا قط يا بيم..

وبدت كأنما أصيبت بصدمة حقيقية عندما فكرت بإمكانية حدوث ذلك الأمر.

وواصلت بيم أغاظتها بالنبرة القاسية ذاتها.

ولكنك لا تودين العودة إلى نمط حياة رتيبة راكدة، ظلت كما هي عليه. أليس كذلك؟..

أواه، كل هذه البلادة والركود والضجر والانتظار.

هل يعنيك أن تعودي لمثل هذه الحياة مرة أخرى؟

بالتأكيد أنت لا تريدين هذا! هل تعرفين أحداً يفضل حقيقةً ولو في سره وأعماق نفسه أن يرتد إلى عهد طفولته؟..

لبثت تارا متجهمة، وتمتمت دونما وعي بما تقول:

ـ ما الذي يفضله؟..

ـ اوه، يفضل الاستمرار، أن يكبر ويرحل، ويمضي بعيداً إلى العالم.

الى مكان ما أرحب وأكثر تحرراً وطلاقة وإشراقاً.

ضحكت «بيم» وهي تظلل عينيها بيدها متفادية سطوع الضوء الباهر:

أكثر إشراقاً؟.. أكثر إشراقاً؟.. وطأطأت رأسها وقد اكفهر وجهها تماماً... لم تكن واثقة من كون بيم جادة في ما قالته كلّ الجد، فهي تعرف من خلال خبرتها أن الأخت الكبرى لا تحمل أختها الصغرى محمل الجد، وأن كل ما تفوهت به محض هراء.

ـ لكنك لم تفعليها يا بيم، لم تغادري هذا المكان قط...

قالت بيم بنبرة فاترة وهي ما زالت تحجب عن عينيها الضوء المنهمر على المرج اليابس والمندفع نحو أشجار السياج:

ـ آه، كلا، أنا لم أغادر إلى أي مكان، وسيبدو ذلك غريباً بالنسبة إليكما، أنت وزوجك (باكول). أنتما اللذان سافرتما وتجولتما كثيراً لتعودا فتجدا أناساً مثل أخي (بابا) المتخلف عقلياً ومثلي أنا، أناساً لم يعرفوا السفر أبداً... ولو كانت الخالة (ميرا ـ ماسي) لا تزال على قيد الحياة، ألا تكون معالم الصورة قد اكتملت؟.. هذه الصورة القديمة الباهتة التي تحللت ألوانها وهي داخل إطارها المتحجر الميت؟

وتوقفت عن قطف أزرار الورد الميته المتبقية على شجيرة الجوري المكتسبة بغبرة المرض الكئيبة.

ميرا ـ ماسي التي كانت تكرع خلسة كميات هائلة من شراب البراندي، و (بابا) الذي يدير (غرامافونه) جهاز حاكية الذي لا يتوقف، وراجا! في ما إذا كان راجا لا يزال موجوداً وقد تقمص دور (لورد بايرون) على فراش موته، وأنا أقرأ له... إذاً هو ما عدتِ إليه يا تارا؟ وكيف كان كل ذلك يروق لك؟

لبثت تارا مطرقة تنظر إلى خفيها الفضيين، تنظر إلى كتلة من تراب الأرض المحروثة في الأحواض، والى رؤوس الورد الميته المبعثرة على الأرض، ثم أحست بوخزة الارتياب بأختها بيم.

ـ هل ستعاود بيم سلوكها القاسي معها؟

لن يكون ثمة دافع آخر، ولن يكون ثمة جواب، وهي لن تجيب أبداً.

مضت بيم سائرة بخطى واسعة إلى جانب بادشاه، وأعلنت بصوت قاسٍ أكد وخزة الارتياب لدى تارا والتي جعلت جسدها يقشعر إشفاقاً.

ـ تلك هي مجازفة العودة إلى البيت، إلى (دلهي القديمة) فدلهي القديمة لم تتغير، إنها تتفسخ، لقد أخبرتني طالباتي أنها عبارة عن مقبرة هائلة وكل بيت فيها هو محض قبر، لا شيء سوى المقابر الهامدة. أما (دلهي الجديدة) فيقال إنها شيء مختلف، هناك حيث تحدث الأشياء، إنهم يصفونها كما لو كانت عش دبابير يطغى عليه الطنين والازيز، وكثير من الأحداث تجري فيها ولا بد أنها مكان يتغير تغيرات مفاجئة، عشوائية. أنا لم أذهب إليها قط، ولم يزرها (بابا) أبداً، وهنا، هنا، لا شيء

يحدث، وما كان قد حدث فانه حدث منذ عهد بعيد، في عصر (توغلاكس) و(خيلجيس)، في عهد السلاطين والمغول، هذا هو قدرنا.

كانت وهي تلقي بعباراتها تطرطق أصابعها على نحو وقح.

- ثم أقام البريطانيون (دلهي الجديدة) فغيروا كل شيء. أما هنا فقد لبثنا واقفين على شفير هاوية النسيان. وقد ازددنا بلادة وغباء وكآبة. ومن لم يصبه التبلد والكآبة هاجر بعيداً إما إلى (دلهي الجديدة) أو إلى إنكلترا، إلى كندا، إلى الشرق الأوسط وما عاد منهم أحد قط..

ارتفع صوت تارا بشيء من الشجاعة:

إذاً، ضمن هذا المقياس، أجدني في موقع متميز، فقد أليت على نفسي أن نعود أنا وباكول إلى هنا.

قالت بيم: وقد دفعوا لكما أثمان تذاكر العودة، أليس كذلك؟

- لكننا اخترنا العودة يا بيم، كان علينا أن نعود إلى الوطن إذا شئنا أن لا نخسر تواصلنا أنا وأنت، أنا والبيت، أنا والبلد، لقد خطط باكول لرحلة تستغرق بضعة أشهر وعندما تصل ابنتاي، سنذهب إلى مدينة (حيدر آباد) لحضور الزفاف، فباكول يريد أن نواصل السفر من هناك في رحلة تشمل الهند كلها، كان قد قام برحلة مماثلة منذ عشر سنوات وهو يقول:

- لقد آن الأوان للقيام برحلة أخرى، يجب أن تكوني واثقة من هذا يا بيم.

- من أي شيء؟

كان السؤال ساخراً تهكمياً، غير أن تارا هزت رأسها باطمئنان

وزهو واكتسى صوتها بنبرة قوية، ولاحظت بيم ـ من دون ريب ـ أن تارا تلجأ إلى هذا كلما تحدثت عن زوجها.

قالت لبيم بهدوء: ذلك أنه لا يريد أن ينسى أو يفقد تواصله مع أشياء الوطن، فإذا ما فقد المرء تواصله عندئذٍ يصعب عليه تصور موطنه، هل بوسعك أن تفعلي؟

وختمت عباراتها بنبرة مفتعلة.

اكتشفت بيم الخدعة فتمتمت:

ـ لست أدري إن كانوا قد أبلغوك بهذا الأمر في الأوساط الدبلوماسية ثم أصبح قوله فرضاً عليك.

هتفت تارا بصوت جاد وقد تخلت عن نبرتها المصطنعة:

ـ ينبغي للمرء أن يعود إلى وطنه كل بضع سنوات ليكتشف ويعزز يقينهُ بأشياء وطنه من جديد، إنني في الحقيقة أحب السفر معه.

ثم هناك حفل الزفاف الذي سيقام في بيت راجا، واعتقد أن ذلك سيكون كفيلاً بإشغالنا طوال الوقت... هل ستأتين إلى حفل الزفاف أنت و (بابا)، ألن نذهب كلنا معاً؟..

حينذاك سيلتئم شمل عائلتنا التئاماً حقيقياً، قولي إنك ستأتين، فأنت الآن تتمتعين بعطلتك الصيفية، ما الذي ستفعلينه بمفردك في دلهي وفي هذا الجو القائظ؟ قولي إنك ستأتين...

لم تنبس بيم بكلمة، وفجأة في مسافة الصمت القصيرة انطلق سرب من طيور (المينا) من خلال قباب الأشجار الخضر في ضجة صاخبة بمناقيرها الصفر وأجنحتها السمراء، وما لبث السرب أن اختفى في وهج الشمس، في الوقت الذي ظلت فيه صيحات

الطيور وقوقأتها تسمع وتتردد في أنحاء الفضاء.

وتناهى إليهما صوت آخر، صوت جعل بيم تتسمر في مكانها وأدار الكلب رأسه وقد انتصبت أذناه، ثم انطلق مسعوراً نحو صف أشجار اليوكالبتوس التي نمت في مجموعة متراصة إلى جانب الجدار، ووثب منتصباً على قائمتيه الخلفيتين وانتزع قشوراً طويلة من لحاء أزرق ضارب إلى اللون البنفسجي من تلك الأغصان ذات اللون الوردي الحريري وألقى برأسه إلى الخلف وهو يجأر بذلك الصوت الفخم المهيب الذي تعجب به بيم أيما إعجاب، الصوت الذي كان سبباً في تسميم علاقاتها بالجيران حيناً وتحسينها حيناً آخر، صاحت تارا عندما هرعت بيم وهي ترفع ذيل ثوبها الطاووسي لتسرع في سيرها:

ـ ما الخطب؟...

كانت قطتها تجثم عند تفرع الشجرة ذات الزرقة الوردية، بلونها الداكن وإحساسها بالمرارة وهي في مأزق عجزها عن إيجاد سبيلها للهبوط من الشجرة، لقد اكتشفتها طيور «المينا» أولاً، ثم ما لبث الكلب بادشاه أن رآها فأحست أنها قد أهينت.

وقفت بيم تحتها مادةً ذراعيها نحوها ومنادية إياها، وهي تغريها بالقفز، لكن بادشاه أنذرها بسلسلة من العويل والنباح والهياج أن لا تفعل شيئاً من هذا القبيل.

وانتظرت تارا وطفقت تضحك وهي ترى القطة تدير وجهها الغاضب ونظراتها تنتقل بين الوجوه متسائلة عمن هو جدير بثقتها.

وأخيراً انتزعتها بيم فانزلقت على اللحاء الساتاني الناعم وهي تطلق هرير الشكوى وقد نفد صبرها لهذا الهبوط الاضطراري المشين، وها هي الآن بين ذراعي بيم، تهدهدها وهي مطمئنة

محمية من نباح بادشاه الغاضب ووثباته، تضمها وتسندها إلى صدرها بحنان ومحبة مبالغاً فيهما ولم تستطع تارا إذ رأت ذلك أن تطرف بأجفانها لفرط ارتباكها ودهشتها. وبالرغم من أن بيم كانت تداعب رأس القطة المسطح بذقنها وتقبل طرفي أذنيها الباردتين إلا أنها على ما يبدو تنبهت إلى انطباع تارا فقالت:

ـ أعرف في ما تفكرين، إنك تفكرين بالعوانس المسنات اللواتي يدللن حيواناتهن الصغيرة لأنهن محرومات من الأطفال، والأطفال هم الشيء الحقيقي الوحيد، هذا ما يشغلك؟

وتغيرت سحنة تارا من الدهشة إلى الإحساس بالذنب.

ـ ما الذي يدعوك إلى هذا القول؟.. كنت في الحقيقة أفكر بالبنتين، كنت أتساءل...

ـ «تماماً، هذا ما عنيتهُ بالتحديد، إنك تعتقدين أن الحيوانات تحتل مواقع الأبناء لدينا نحن العوانس المحرومات من الحب»، قالت بيم بقناعة تامة وهي تنزل القطة مشعثة الشعر على الممشى المفروش بالحصى وهما توشكان على بلوغ البيت.

قالت وهي تسير بخطى واسعة في الممر المظلل من وهج الشمس:

ـ ولكنك على خطأ يا تارا، فليس بوسعك أن تحسي تجاه الأطفال بما أحسه تجاه حيواناتي البائسة المسكينة.

ـ اوه، يا بيم،

اعترضت تارا وهي مدركة للحظة التي تمضي فيها بيم بعيداً جداً، اللحظة التي تنتهي لديها كل مواجهاتهما ونقاشاتهما ـ على مر الزمان ـ إلى أيام طفولتهما، غير أنها امتنعت عن توضيح موقفها

عندما تعالى قدر هائل من الضجيج بدا وكأنه يشق طريقه عبر نفق ضيق ويندفع فيه مبحوحاً ثم لا يلبث أن ينبثق في ضجة نحاسية جهيرة جعلت الحمائم المعششة في الطنف تحت سقف الشرفة تنشر أجنحتها بغتة وتنطلق مرتعبة كأنما سمعت صوت طلق ناري.

لم يكن المسؤول عن هذه الضجة المتنافرة هو باكول الذي كان يجلس مسترخياً على أحد مقاعد الخيزران في الشرفة وأمامه صينية الشاي في انتظار من سيأتي ليسكب له شايه، بل كان الصوت يتردد مدوياً في إحدى الغرف مسدلة الستائر من وراء باكول.

(عيناك يغشاهما الدخان)

صوت غناء رتيب أشبه بنواحٍ حزين.

تنهدت تارا وقد تهدل كتفاها على نحو واضح، ثم تساءلت وهما ترتقيان السلم العريض الممتد ما بين أصص نبات العنكبوت المتراصة وأصص سرخسيات الهليون في الشرفة.

- ألا يزال أخي «بابا» يدير هذه الاسطوانات العتيقة؟

قالت بيم وهي تبتسم: ولم يتوقف عن ذلك ولو ليوم واحد أبداً.

- ألا يضايقك هذا الضجيج؟

- كلا مطلقاً.

قالت بيم وقد تسلل شيء من الاستخفاف إلى نبرتها الحذرة.

علقت تارا متشكية بصوت محزون:

- إنه ضجيج صاخب.. سوف أبحث عن اسطوانات حديثة وأرسلها إليه، وأظنه بحاجة إلى تسجيلات جديدة ولكن، لم تعد

المصانع تنتج اسطوانات تدور بسرعة (٧٨) دورة على حد علمي.

قالت بيم:

ـ أوه، إنه لا يريد اسطوانات جديدة قطعاً، ولن يضعها على الحاكي أبداً، فهو مولع بتلك الاسطوانات القديمة.

قالت تارا وقد أجفلها الهدير الرتيب في نغمات الأغنية التي كانت تتردد مكتسحة الشرفة الساكنة الظليلة في انقضاض مدمر.

ـ قلت لك إننا غريبو الأطوار.

قالت بيم ضاحكة وهي تذرع الأرض المبلطة بالآجر باتجاه مقاعد الخيزران وصينية الشاي:

ـ أخي باكول، ها قد استيقظت، ولكن هل نمت؟

سألته دونما اهتمام وجلست أمام صينية الشاي، وبدلِ أن تصب لهم الشاي تناولت وعاء الحليب وانحنت لتملأ صحناً صغيراً للقطة الجائمة التي أخذت تلعق الحليب قبل أن تنتهي بيم من صبّهِ فتساقطت بضع قطرات منه على أذني القطة وشاربيها، أضحك المشهد بيم وهي ترفع وعاء الحليب في انتظار أن تأتي القطة على الحليب في الصحن، ثم انحنت ثانية وملأته.

انتظرت تارا التي صبَّت الشاي في كوب باكول أن تتنازل بيم عن إناء الحليب، وعندما فعلت كان قد تبقى القليل منه لشاي باكول.

خضّتهُ تارا لتسقط القطرات العنيدة الملتصقة في قعره، سألته في عدم ارتياح مشوب بالإحساس بالذنب وهي تقدم له الكوب:

ـ أيكفي هذا؟ .

لم يُعنَ باكول بالأمر، ولم يكلف نفسه مشقة الرد عليها،

كانت شفته السفلى تندفع إلى الأمام وهو يشرع بالعبوس، ولعل ذلك لم يكن بسبب قلة الحليب ـ وهو قليل فعلاً ـ وإنما بداعي الجلبة والضجيج الذي يتعالى حولهم أشبه بصفائح من حديد تتموج وتحول بينهم وبين الحديث.

وبينما كان منهمكاً في تحريك شايه بملعقة صغيرة. تعالى صوت الأغنية وسُمع صوت أجش يتصاعد صارخاً لكأن المغني طعن بخنجر في صدره وترك وهو يصُعدّ النبرات من أوتار قلبه، كآخر شكوى له في هذا العالم، وما لبثت أبرة الحاكي الصدئة أن توقفت وتعثرت في الثلم المبطن باللباد لتلك الاسطوانة الأثرية، فأطلق الجميع تنهداتهم في اللحظة نفسها. وغاصوا في مقاعدهم وقد أثارهم الأمر.

أما الحمائم التي تراجعت نحو السطح فقد عادت مرفرفة نحو أعشاشها واستقرت فيها وهي تطلق هديلها وشكواها بأصوات رخية تنبعث من حناجرها.

تحرك حاجز الخيزران عند الرواق وخرج «بابا» لتناول الشاي.

ولم يبدُ عليه أنه كان مسؤولاً بأي قدر عن أحداث ذلك الضجيج.

بلغ الشرفة وعيناه تطرفان كما لو أن الشمس فاجأته، كان مرتدياً بيجامته القديمة التي تنسلت أطرافها وقد ارتدى فوقها قميصاً رمادياً مغضّناً غدا شفافاً لكثرة ارتدائهِ وغسله. أما وجهه فقد كان شاحباً أيضاً أشبه بنبات ظلي ترعرع داخل الغرف وطال بقاؤه في الأفياء الظليلة، وكان شعره بلونه الأبيض الناصع يمنح وجهه الفتيّ الوسيم مظهراً شبحياً يروع من يراه إذا ظهر على حين غرة.

ولكن، لم يجفل أحد لدى رؤيته عندما ظهر في الشرفة، بل إنهم منحوه أرق وأجمل ابتساماتهم، في محاولة لجعل هذه الابتسامات تعبر عن مشاعر الارتياح والطمأنينة لا عن الإجفال والروع.

ونشطت بيم، وطلبت المزيد من الحليب، فجيء إليهما من غرفة المؤونة بإبريق طافح بالحليب الطازج، وقبل أن تطرف عينا باكول، كان قدح (بابا) قد امتلأ بالحليب الذي وصل للتو ولم يضف إليه الشاي، وعلاوة على ذلك وضعت فيه ملعقة ملأى بالسكر وقدمته بكل سخاء وكرم إلى أخيها «بابا» الذي تناوله من دون أن يظهر ما ينم عن الرفض أو الارتباك، وجلس على مقعده الخيزراني المستدير ليرشفه.

وسحرت القطة بهذا المشهد الاستعراضي أيضاً، فاستندت على قائمتيها الخلفيتين وأخذت تتفرس بعينين مستديرتين من زجاج أخضر ساطع.

وحدها بيم لم تلحظ أي شيء استثنائي في الأمر، بل إنها رأت أن من الضروري لها أن تتحدث أو تبدأ الحديث مع «بابا» فقالت:

- أنظر إليها.. أتظن أنني لم أعطها ما يكفي من الحليب؟

كلا، إنها تحس أن لها نصيباً في كل ما نتناوله.

أدركت تارا بعد برهة أن بيم تتحدث عن القطة لأنها كانت قد فقدت إلى الأبد عادة الطفولة بالتحدث عن الحيوانات باعتبارها من أفراد الأسرة، ونسيت ذلك عندما تزوجت وبدأت رحلاتها التي لا تنتهي وتنقلاتها الدائمة التي حالت بينها وبين فكرة تربية الحيوانات المنزلية، ولكنها وبجهدٍ بسيط أبعدت بصرها عن شقيقها

لتهتم بقطةٍ عرضةٍ للزجر، قالت وفي ظنها أن ملاحظتها تسرُّ المولعين بالحيوانات عموماً:

إنها سمينة، سمينة جداً.

ولم تكن الملاحظة حقيقية، فقد كانت القطة هزيلة مثل حبلٍ.

مدت بيم اصبع قدمها وداعبت القطة تحت أذنها، إلا أن القطة استدارات غضبى وهي ترفض مثل هذه العروض وثبتت عينيها على «بابا» حتى انتهى من رشفِ آخر قطرة من الحليب وأعاد قدحه إلى الصحن محدثاً به الرنين الفارغ الذي لا يخطئه السمع، فارتمت القطة على الأرض المكسوة بالآجر وشرعت تلحس فراءها بلسانها الخشن لشدة ما اعتراها من غضب...

وإذ جلست المرأتان منتصبتين مشدودتي الأعصاب وفي داخلهما يحتدم كلام لا تجرؤان على البوح به، بدا الرجلان أشبه بمخلوقين مجففين، خاويين لا يملكان ما يقولانه، بينما ظلت الحمائم وحدها تهدل بصوت مكتوم متكاسلة عن فتح مناقيرها وقانعة تماماً بهذه الغمغمة المخنوقة في حناجرها، مفضلة إياها على الشدو والصياح.

تمدد الكلب أمام قدمي بيم وهو يتلوى بشيء من الاضطراب ويمسك بذنبه بين أسنانه ويخمشه بمخالبه ويلتهم البراغيث ويلوك شعر ذيله ناسجاً مجموعة من الأصوات مع القطة التي انهمكت بمشاغلها الخاصة.

لم يعد بوسع باكول احتمال المزيد من هذا، وعندما بلغ به الأمر حد الانفجار قال بصوت راعى أن يكون جهيراً:

ـ هو ذا صباحنا الأول في «دلهي».

بدا الأمر مدهشاً وعجيباً بالنسبة لبيم، أما تارا فقد ابتسمت ابتسامة متسمة بالثقة والسعادة كما لو أنه أبدى ملاحظة ذات شأن يستحق التهنئة من أجلها فمنحها بالمقابل ابتسامة ناعمة حميمة.

ـ ما الذي سنفعله اليوم؟

وفجأة هرشت بيم رأسها وكأن الكلب كان ينبش شيئاً هناك وقالت: لست أدري، ما الذي ستقومون به أنتم؟

بالنسبة لي، ستحضر بعض طالباتي هذا الصباح.

ـ ولكن، كنت أظن أن عطلتك الصيفية قد بدأت يا بيم...

ـ أجل... أجل، لكنني أسعى إلى تزويدهن بقوائم كتب للقراءة لكي لا يهدرون أوقاتهن سدى بين النزهات في حدائق «سيملا» وارتياد دور السينما. فتضيع كل جهودي في تدريسهن وعندئذٍ يتوجب علي مراجعة بعض دروسهن، وكما ترين لست أنا من يثقلهن بالواجبات حسب، فإنهن يفعلن ذلك بالمقابل ولهذا طلبت إليهن الحضور، وإنهن تواقات للحضور وأجهل السبب تماماً، وعلي الآن أن أذهب وأهيئ نفسي فقد تأخرت، وأنتما؟

أنتما الإثنان؟ ماذا ستفعلان؟

وظلت تارا تحدق في زوجها بانتظار أن يسعفها بالجواب حتى خفض بصره متحاشياً الجص التالف أسفل السقف حيث كانت الحمائم تختال وتتبختر وقد نفشت ريشها وقال:

ـ قد أطلب من عمي أن يرسل لنا السيارة وسنذهب لزيارة بعض أقاربي في «نيودلهي» فإنهم يتوقعون وصولنا.

ـ إذاً عليّ أن استعد.

قالت تارا ذلك ومضت كأنما كانت تنتظر الغوث منه.

بيم؟ ترى من يهتم ومن يذكر هذه الفتاة الرخوة، عديمة الهمة المتثاقلة، لقد لاحظت بيم خفة حركة تارا وسرعتها المحكمة بشيء من الدهشة إلا أنها لم تفه بكلمة، بدلاً من ذلك التفتت بشيء من التراخي نحو شقيقها «بابا» ونطقت كلماتها ببطء شديد وهي تجمع الأكواب في الصينية الخشبية.

ـ وماذا عن «بابا»؟

نهض الجميع وانتشروا في أرجاء الشرفة باستثناء «بابا» الذي ظل جالساً بهدوء وقد تدلت يداه البيضاوان باسترخاء إلى جانبيه.

وعندما صاحت بيم ثانية: «بابا»، كان يبتسم بدعةٍ ويحدق إلى الأرض. «بابا» قالتها هذه المرة بصوت خفيض جداً حتى أن باكول الواقف على درجات الشرفة وهو يتأمل نبات الجهنمية المتسلق على الأعمدة لم يتسن له سماعها.

ـ أتظن أن عليك الذهاب إلى مقر الشركة هذا اليوم؟

وتسمّرت تارا في مكانها وهي قرب الباب توشك أن ترفع ستارة الخيزران وتدلف إلى الداخل، فقد سمعتها على أي حال، رغم أنها كانت مسرعة لارتداء ثيابها لتكون مستعدة لأي شيء يقترحه زوجها، فإنها توقفت على نحو مفاجئ عندما اكتشفت أن بيم لا تزال تبذل جهدها لإقناع أخيها «بابا» للذهاب إلى مقر الشركة. . .

مع إيمان تارا بلا جدوى كل ذلك، فقد كانت تظن إنهما تجاوزا هذا الأمر منذ عهد بعيد ولم تطق الوقوف والعودة إلى الشرفة وهي ترى بيم تجمع أدوات الشاي في الصينية وأخاها «بابا»

يجلس على مقعد أطفال مستدير دونما مسند ويداهُ تتدليان عاجزتين والكلب منهمك في اللعق والخربشة، بينما كان الصباح يتقدم، وقف الكلب بأقدام راسخة على الأرض المكسوة بالآجر.

سألته بيم بحنو وهي تصوب نظرها نحو أكواب الشاي متحاشية إياه:

ـ ألن تذهب هذا اليوم يا «بابا»؟.. أذهب وعليك أن تلحق بالحافلة، لسوف تغير جوّك قليلاً، وسنكون مشغولين جميعاً، ثم عد إلى البيت لنتناول غداءنا معاً، أو ابق هناك إذا طاب لك البقاء.

ابتسم بابا ناظراً إلى قطع الآجر المخلوعة ويداه تتأرجحان برخاوة كأنما تحركهما نسمة عليلة. نسمة لم يكن لها وجود أبداً، فقد انهمرت الحرارة من السماء وشخصت أمامهما أشبه بصفحةٍ معدنية رقيقة.

نهضت بيم ورفعت الصينية وسارت حافية القدمين نحو أقصى الشرفة المؤدي إلى غرفة المؤونة، وكان بوسع تارا أن تسمع حديثها مع الطاهية وهي تحدثها بنبرتها الاعتيادية، لكنها استدارات وذهبت إلى الغرفة من دون أن تجرؤ على مواجهة منظر أخيها «بابا» في الشرفة وحيداً يائساً.

إلا أن «بابا» هو الآخر غادر الشرفة فقد كان عليه الذهاب إلى غرفته، وبعد دقيقة أو إثنتين تناهى إليها ذلك الهدير المشؤوم يشق طريقه عبر النفق الموصد ثم ينبثق جياشاً بالعاطفة في أغنية «ليلي مارلين».

ـ هذا هو ما أردت بالتحديد أن أقوله لك.

قال باكول وهو منهمك في حركة دائبة داخل غرفة النوم بعد أن أنهى مكالمته التلفونية:

- لقد بينت لك كم سيكون الأمر ملائماً لو أننا سنقيم مع عمي وعمتي هناك في قلب المدينة تماماً، في شارع «اورانجب» كنا سنتجنب كل مشاق البحث عن سيارة للتنقل من مكان إلى آخر. فما كان من تارا التي كانت منحنية على السرير لترتب ملابسه إلا أن انتصبت وقالت بصوت متوتر:

- لكنني لا اعتزم الذهاب إلى مكان آخر، أريد أن أمكث هنا في بيتي..

ترك رداءهُ الحريري مفتوحاً وقال بنفاذ صبر:

- تعلمين جيداً أن ليس من حقك ذلك وأمامنا زيارات كثيرة للأقارب والزملاء الذين يجب أن نتفقدهم، ولا تنسي خططك الكثيرة للتبضع من المدينة.

- سأنتظر هنا حتى تصل إبنتانا وسوف أخرج للتبضع برفقتهما.

قالت ذلك بنبرة مشاكسة لم يعهدها فيها، ثم حملت مجموعة من أربطة العنق ووقفت متجهمة تنتظر أن يختار إحداها.

مد يده وأخذ ربطة عنق من الحرير الطبيعي موشحة بخطوط عريضة.

وقال لها: أنا على يقين بأنك لا تعنين ما قلتهِ، فلن يكون بوسعك الجلوس مع أختك وأخيك طوال النهار من دون أن تفعلي شيئاً.

- ولكن، ذلك هو ما أريده فعلاً، أن أكون هنا في بيت

أهلي مرة أخرى ومعهم، ثم هناك الجيران الذين سوف أراهم، لا أريد أن أذهب إلى أي مكان اليوم، لا أريد أبداً أن أذهب إلى (نيودلهي).

قال باكول محتداً: ستأتين بالتأكيد.

واتجه نحو الحمام حاملاً منشفة كبيرة: بالطبع ستأتين ولا أريد أي نقاش في هذا الموضوع.

وعندما أوصد باب الحمام عادت تارا إلى الشرفة مرة أخرى. كانت الشرفة تحيط بالبيت وتفضي إليها كل غرفِهِ، فهذه غرفتهما هي وبيم يوم كانتا صبيتين، تشرف على غيضةٍ كثيفة من أشجار «الغوافة» تفصل مؤخرة البيت عن أجنحة الخدم التي تنبعث منها أصوات الصباح الحيوية المشرقة: حنفية ماء تتدفق، رضيع يبكي، ديك يصيح، جرس دراجة يرن، لكن البيت معزول عن مساكن الخدم بحاجز واطئ من أشجار الغوافة المغبرة التي تقيم بينها ببغاوات لا مرئية تتصارخ وتتنازع الثمار، وتسقط بين آونة وأخرى إحدى الثمار فترتطم بالأرض محدثة صوتاً مكتوماً.

كان بوسعها رؤية بعض الثمار المتساقطة التي نقرت الببغاوات أجزاء كبيرة منها، آه لو أنها كانت أصغر قليلاً، لو أنها كانت متأكدة أن باكول لن يراها، لهرعت إذن نحو سلم الشرفة وبحثت عن ثمرة سليمة بين الثمار المتساقطة.

تحلب ريقها إلى قضمةٍ من ذلك اللب القابض القوي تحت قشرته الخضراء، وتساءلت: هل ستقوم ابنتاها بما امتنعت عنه عندما تصلان إلى هنا لقضاء عطلتهما؟ كلا.. لن تفعلا ذلك، فالسفر الكثير والتدرب في السفارات واللباقة وطلاقة اللسان بعدد من اللغات سيجعلهما غير قانعتين بمثل هذه المتع الريفية البسيطة،

إنها تعرف ذلك وتحس بالإثم تجاه نفسها لافتقارها إلى مثل تلك المزايا الخلابة.

لقد خدعت باكول وجعلته يصدق أنها اكتسبت مثل تلك المزايا لأنه هو الذي يسر لها السبيل إلى اكتسابها. لكن الأمر لم يكن غير ذرٍ للرماد في عينيه..

هناك في مقدمة الشرفة، كانت غرفة أخيها (بابا) ومن خلال حاجز الخيزران الموضوع في الرواق، كان يتسلل صوت محشرج وهو يردد:

(لا تحتجزني).. واسندت تارا رأسها برهة على العمود وأنصتت ولم يكن الأمر مستغرباً فحسب بل ومثيراً للقلق، كان جزء من نفسها يغوص مستسلماً. للمتعة الخفية، للعودة نحو الأشياء الأليفة، أشبه بحصاة تنطلق نحو الأعالي ثم تنقذف إلى أغوار البحيرة لتغوص وتقبع فوق الحثالة الطحلبية الخضراء عبر الأعماق السرية الباردة، نحو الطين الناعم الدسم في القاع مرسلة سيلاً من الفقاعات المعبرة عن ارتياحها واستمتاعها.

أما الجزء الآخر من نفسها فإنه كان مشدوداً ومتوتراً يتحرك أشبه بزعنفة من استياء وغضب:

ـ لماذا؟.. لماذا كانت البحيرة موحلة راكدة؟

لماذا لم يتغير أي شيء؟.. هي تغيرت فلماذا لم يمنعها أي شيء ويحول بينها وبين التغير؟

لماذا حالت بيم بين الأشياء كلها وبين التغير؟

وبالتأكيد ينبغي لبابا أن يكبر ويتبدل في النهاية لكي يتفتح ويبلغ مرحلة النضج والمرونة.

لكنها عندما رأتهما بعد فترات تراوح ما بين ثلاث وخمس سنوات، وجدت كل شيء باقياً على عهدها به.

انسحبت بعيداً عن العمود واتجهت نحو غرفتها، ولعلها مع كل استيائها وضيقها من هذه الحالة المتحجرة التي تعيشها أسرتها، وجدت باكول محقاً في توجيه النقد إليها واستهجانه لها.. أجل إن له مطلق الحق في ذلك.

قالت ذلك لنفسها وهي ترفع الحاجز الخيزراني المثقل بالغبار وتنسل إلى غرفة «بابا».

كان «بابا» جالساً على سرير نقالٍ قابل للطي مغطى بملاءة من القطن ومفرش عتيق، والسرير يتوسط الغرفة تحت مروحة كهربائية بطيئة الدوران، كان منحنياً في جلسته وهو ينصت جذلاً إلى ختام أغنية (لا تحتجزني) التي تنطلق من جهاز حاكي ماركة (HMV)(*) قابع على منضدة خيزران صغيرة جوار السرير، أما الاسطوانات فإن عدداً كبيراً منها (ولا بد أن بعضها تعرض للكسر والخدش) كانت مرتبة فوق رف أسفل المنضدة في أغلفتها الورقية الصفراء البالية. كان السرير الشبكي النقال والمنضدة والحاكي ماركة (HMV) (صوت سيدِهِ) والكرسي المنجدّ بقماش من القنب وخزانة الملابس هو كل ما تحتويه الغرفة من أثاث، وهي غرفة واسعة تبدو لمن يراها خاوية عارية وقد سبق أن كانت في ما مضى غرفة للخالة (ميرا ماسي). وحينذاك كانت مزدحمة بقطع الأثاث.

(*) (HMV) اختصار لكلمات (His masters voise) صوت سيدة وهي ماركة تجارية شهيرة لأول جهاز حاكي شاع في النصف الأول من القرن العشرين، تزّينه صورة كلبٍ أبيض يصغي إلى صوت ينطلق من بوق الحاكي. المترجمة.

نظر (بابا) نحوها وقفت تارا تتأمله من دون أن تدع وجهها الرقيق الشبيه بوجوه الحوريات يبوح بشيء. وهو بأصابعه الطويلة النحيلة ويديه اللتين تتحركان برقة كما لو أن نسمة عليلة تهزهما، أو تستلقيان مرتاحتين بهدوء إلى جانبيه، أشبه بملاك، هكذا قالت لنفسها، وضغطت بأسنانها على شفتها: ملاك هوى إلى الأرض ولكن لم يلوثه شيء من غبارها.

ترى لماذا يبدد أيامه وأعوامه في سماع هذه الأنغام المفزعة... ابنتاها أيضاً لا تطيقان تمضية يوم واحد من دون سماع جهاز الحاكي الذي كدستا عليه كومة من الاسطوانات تنزلق على القرص الدوار تباعاً فتغرقان في فيض مستمر من الموسيقى التي تعملان وترقصان على ايقاعها بالارتياح ذاته، ورغم ذلك فهي تود أن توضح له أن الاسطوانات التي تستمع إليها ابنتاها شيء مختلف تماماً، وإنها مختارات متطورة منتقاة، وإن استمتاعهما وتعلقهما بها شيء حيوي، ومنعش يتطور على مر الزمان.

وهي تدرك علاوة على ذلك أن حاجتهما إلى ذلك النوع من الموسيقى قد تغيرت، وأنهما لا بد ستستغنيان عن هذه الموسيقى، فها هي «مايا» الآن تذهب بصحبة أصدقائها إلى حفلات الموسيقى السيمفونية، لتعود متألقة بتلك المتعة الرفيعة التي تشع من وجهها وهي تتحدث عن رغبتها في تعلم العزف على آلة «الفلوت». وهكذا سرعان ما ستتخلى عن تعلقها السابق بتلك الأنغام البدائية الساذجة، أما «بابا» فلا، إنه لن يهجر موسيقاه ولن يغير موقفه أبداً.

جعلها نفاذ صبرها وضيقها مما هي فيه تقول «بابا» على نحو متسرع وبصوت مرتفع حال انتهاء الاسطوانة وقبل أن يتسنى له أن يوقف دورانها:

ـ هل ستخرج هذا اليوم؟ لقد استدعينا السيارة، هل نوصلك معنا إلى حيث تريد؟ . .

رفع «بابا» ذراع الحاكي المقوس بهدوء وجلس ويداه ممدودتان نحو الجهاز وكان واضحاً انه يود الاستماع إلى الاسطوانة مرة أخرى، لكنه كان متردداً خجلاً وعيناه مطرقتان تطرفان بسرعة كأنه خائف أو شاعر بالذنب.

وبدأت تارا تحس بالذنب لأنها سببت له هذا الذعر وسألته: هل ستأتي. . «بابا»؟

وحدجها بنظرة سريعة وبنوع من الدفاع عن النفس ثم جال ببصره بعيداً وهزّ رأسه هزة لا تكاد تبين.

وأوشكت إزاء هذه الحركة أن تنفجر بالبكاء.

ـ ولكن ألا تذهب إلى مكتب الشركة كل صباح؟

وأطرق وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، حزينة.

ـ ألن تذهب أبداً؟ . .

ورجعّت الغرفة صدى صوتها، ثم تردد صدى (الصمت) وفي الظلمة المعتمة اتخذ الصمت هيئة تنين شبحي وبدا موشكاً على إطلاق زئيره، وسيتردد صدى الزئير ويهيمن على المكان بكامله، ولا بد للمرء ـ لكي يهرب منه ـ من اندفاع متهور أو قسوة وحشية لينجو منه.

هل يلجأ بابا لتدوير كل هذه الاسطوانات والى ما لا نهاية ليدرأ عنه هذا الصمت ويحول بينه وبين الانقضاض عليه؟ كلا. . إن هذا ليس صحيحاً، فهي نفسها قد تعلمت من زوجها وابنتيها أن ترد على الأسئلة، تقدم إيضاحات، وتبوح بصراحة ودقة تامتين

بكل ما يخطر لها، ولهذا لم يكن لديهم شيء من هذا الصمت وتلك الظلال.

إن هذا ما يدعونه (انهيار دلهي القديمة)، وشبكت أصابعها ببعضها بحركة عنيفة وكأنها تعتزم كسرها وتحطيمها. وألحت عليه، وانبثقت حبات العرق ناضحة فوق شفتها العليا:

- هل تعتزم الذهاب إلى مكتب الشركة اليوم؟

وهنا رفع (بابا) ذراع الحاكي وتخلى عنه وقد اعتراه غم شديد، بينما تدلت ذراعاه إلى جانبيه رخوتين عاجزتين كذراعي رجل ميت، بينما ازداد رأسه اطراقاً وغاص بين منكبيه، اغتاظت تارا من نفسها لأنها سببت له هذا الإحساس بالذنب، وهذا الكمد. وكرهت تطفلها وأسئلتها التي عاقبته بها ولأي شيء عاقبته يا ترى؟.. ألأنهُ أتى إلى هذه الدنيا؟

أم لعجزه عن تحمل المسؤولية؟

رغم كل ذلك، كان من الخطأ ترك الأمور على ما هي عليه، كانت موقنة أن باكول وابنتيها أيضاً سيقولون الشيء ذاته كذلك. إن الأمر كله لجنون مطبق، فليس ثمة بعد من خيار أو حل للمشكلة، مؤكد أنهم لن يروا شيئاً هناك.

تحسرت وقالت في نبرة مخيّبة:

- سوف استطلع رأي بيم.

واهتدت أخيراً إلى القول الفصل، على غير قصد منها وربما بسبب من جبنها، ودفعت (بابا) إلى أن يرفع رأسه ويبتسم بعذوبة ورقة كمألوف عادته، حتى أنه هزَّ رأسه هزة واهنة تنم عن موافقته وبدا كأنه يقول: أجل، بيم - بيم هي التي ستقرر.. بيم تستطيع،

بيم هي التي تشاء، اذهبي إلى بيم، ولم تتمالك تارا نفسها من الرد على ابتسامته بابتسامة مقابل انفراج أساريره واتكاليته السعيدة.

واستدارات لتترك الغرفة فسمعته يدير جهاز الحاكي، وعندما هربت نحو الشرفة سمعت صوت المغني (بنغ كروسبي) يصيح منتشياً: (أحلم بعيد الميلاد الأبيض) لكن شيئاً ما حدث، فقد تعثرت إبرة الحاكي على الاسطوانة المخدوشة وظل المغني يردد بطريقة مملة: أحلم.. أحلم..أحلم.. ويتعالى صوته بمزيد من الابتذال الرخيص.

ذعر بابا وامتدت يداه الطويلتان بسرعة لتحررا إبرة الحاكي من الثلم الذي احتُجزت فيه.

ثم اكتشف أن الإبرة كانت صدئة مثلومة، وبينما كان يتفحصها وينظر إليها من جميع الزوايا ويديرها باصبعٍ مرتعشٍ قرّر عدم صلاحيتها للعمل.

أطلق (بابا) تنهيدة، وأسقط الإبرة في الجيب الصغير الذي يُسحب من الجانب الجلدي الأخضر للحاكي فظهرت الإبر العتيقة الأخرى الملقاة في هذه الحفرة الخفية وكان لذلك وقع كبير في نفسه. ثم أحس بخيبةٍ وإحباط لا حدَّ لهما، كم هو موئس ومخيّب أن يفتح علبة التنك المربعة الصغيرة التي تزينها صورة الكلب ويلتقط آخر إبرة ليثبتها في الرأس المعدني، فتبقى العلبة خاوية فارغة مثل فم أدرد، لسوف تتوقف الموسيقى إلى الأبد...

أطلقت طيور الوقواق الهندي صرخاتها المتوحشة الرنانة، ولما عدمت الجواب، كررت صيحاتها بمزيد من الإلحاح.

ظل بابا على مدى برهة من الزمن يذرع الغرفة وقد خفض رأسه على نحو يوحي بأنه في حالة غير طبيعية ومن المستحيل

تصورها. وكان يمرر أصابعه العجفاء العصبية خلال شعره الأبيض، حتى غدا شعره مخدداً مغضناً أشبه بوجه هرم غزته التجاعيد، وبدا سكون الغرفة الذي طالما اجتاحته موسيقى الأربعينات المرحة وكأنه سيفسح المجال لتلك الأصوات الخارجية التي لم تكن لتسرّي عن بابا أو تحميه، بل على العكس تماماً، سببت له الفزع وأفضت به إلى معاناة الذعر..

- صياح طيور الوقواق.. صياحها المتصاعد من قمم الأشجار الباسقة.. صراخ طفل في جناح الخدم، رنين جرس دراجة وهي تنطلق مسرعة، فأخذ بابا يذرع الغرفة بخطى سراع مثل من يريد الهرب من تلك الأصوات المفزعة. ثم لما نفدَ صبره وما عاد يحتمل المزيد، اتجه نحو خزانة الملابس وفتح بابها وأخذ يبحث مهتاجاً عن ثياب ليرتديها، وأخذ ما اعتقد أنه مناسب له وارتداه على عجل ملقياً بمنامته إلى الأرض وبالملابس الأخرى على مقعد (الكانفاس) القنب الموضوع إلى جانب السرير، سحب الثياب وخلعها وزرر الملابس الأخرى وربط الشرائط بسرعة بالغة حتى أحس بالرضا عن هيئته من دون أن يلقي نظرة على مرآة باب الخزانة وخرج من الغرفة مسرعاً من دون أن يعيد ترتيبها.

كانت تارا حتى هذه اللحظة جالسة على درجات الشرفة وقد أحاطت العمود بذراعيها في انتظار أن يخرج (باكول) لتذهب إلى الغرفة وترتدي ثيابها، فلمحت شبحاً طويلاً يجوس المكان متلصصاً ويخطو نحو الشرفة بحركات مضطربة، ثم لا يلبث أن يندفع نحو الممشى منحنياً إنحناءة غريبة كأنه يعاني ألماً أو يتوجس شراً، ولربما فعل ذلك بسبب حرارة الشمس التي كانت تطلق شواظاً من لهب أبيض. هبت تارا فزعة ومضت دقيقة قبل أن تتبين

في ذلك الشبح أخاها (بابا)..

حينذاك كان بابا قد بلغ البوابة وخرج منها نحو الطريق، هبطت تارا الدرجات على عجل وهي تفتح فاهها لتناديه، غير أنها تمالكت نفسها وتوقفت عن الصياح.

كم يبلغ أخوها (بابا) من العمر؟.. وإذا ما رغب بالخروج، فهل يتوجب عليه أن يُسأل ليقدم تفسيراً للأمر؟

ولكن إذا ما فعلت ونادته وسألته فلا بد أن بابا سيكون ممتناً، وإذا ما حال شيء ما أو أحد ما بينه وبين الخروج فإنه سيتراجع ويتخلى عن اندفاعه وإقدامه فجأة ويعود إلى البيت مثل كلب ظمآن يزحف نحو إناء مائه.

عندما جازف ذات يوم وخرج من البيت دهسته دراجة وهو يقف على حافة الطريق متردداً في العبور، وسقط سائق الدراجة أرضاً وتعالى صوته فصار زعيقاً، ثم توالى على رأس (بابا) مثل بيض أو شظايا زجاج.

وذات مرة كان يسير نحو محطة الحافلات ولكن عندما وصلت الحافلة حدث شجار بين أولئك الذين كانوا يحاولون الهبوط منها والذين كانوا يرومون الصعود إليها، كانوا يتدافعون ليشقوا لهم طريقاً في الصعود والنزول، ويصطدمون بالآخرين، ويزيحونهم بعيداً وإذ نجح أحدهم في النفاذ من بين الجمهور الملتحم ببعضه أشبه بكتلة متراصة.

اكتشف بابا أن كُمّ قميص الرجل قد انتزع وتدلى رخواً، فبدا الرجل أشبه بأكتع بترت ذراعه في عملية جراحية.

وظل بابا يفكر بالرجل ذي القميص الممزق، ويتراءى له

وجهه ويستعيد أصوات الصراخ والزعيق كل حين، الصراخ الذي تهاوى فوق رأسه وواصل الطرق عليه حتى أصابه الدوار.

كان صغيراً يوم وقف على الكثبان الرملية، في زمن لم يكن هناك من شيء غير الرمال الفضية والنهر الرمادي والسماء الناصعة، ولاح في ذلك السكون القمري الشاحب شبح عسكري بملابس خاكية معتمراً عمامة قرمزية اللون واندفع متجاوزاً إياه وهو يزعق بخشونة قاسية:

ـ «هاتو».. «هاتو» ابتعد.. ابتعد.. ليفسح الطريق لجواد أبيض مرق في سرعة بالغة من وراء الكثبان وأخذ يعدو نحو «بابا» الذي تهاوى على ركبتيه في الرمال، والفزع من حوافر الجواد يضرب رأسه، وعندما اجتازه الجواد انهمرت على وجهه هبّةٌ من الرمال المتطايرة بينما واصل الصوت زعيقه:

«هاتو» «هاتو» ابتعد.. إبتعد، ارتعدت ركبتاه وأيقن أنه سيتهاوى أرضاً إذا ما واصل سيره في الطريق، ولكن بدا الأمر له كما لو أن تارا دفعت به إلى أسفل منحدرٍ مائل.

كانت قد قالت: إن عليه أن يذهب.

وقالت بيم: إن عليه أن يذهب أيضاً.

بيم وتارا، كلتاهما أرادتا له الذهاب، فكان أن ذهب.

سحب قدميه في الصندلين غير الثابتين خلال أتربة شارع «بيلا» واندست حصاة حادة في نعلهِ ووخزته فتأرجحت ذراعاه بعيداً عن جسده واندفع إلى الأمام بينما ترنح رأسه وتطاير شعره الأبيض وعشى بصره فرأى البياض سواداً، هل سيغمى عليه؟ أم أنه سيتهاوى أرضاً؟ أينبغي له الآن أن يتوقف؟ أبوسعه ذلك؟ أم

أنهم سيلقون به بعيداً ويرغمونه على المسير.. هاتو..هاتو..

وسمع صوت الاصطدام العنيف الذي عرف أنه سيحدث فأحجم عن السير تواً ورفع يديه ليحمي وجهه.

على أن الصدمة العنيفة لم تصبه هو، إنما حدثت لعربة حمل موّسقةٍ بألواح الخشب الثقيلة، انقلبت عندما سقط الحصان الذي يجرها منهاراً على ركبتيه، ثم انكفأ على خطمه وهو يتلوى وسط الطريق، فارتد بابا مذعوراً نحو الجدار واضعاً ذراعه أمام عينيه، لكنه ظل يرى ما يحدث أمامه: فقد قفز الحوذي ـ وهو رجل ذو بشرة داكنة يربط خرقة حمراء حول رأسه ـ قفز من فوق كومة الخشب إلى الأرض رافعاً ذراعه ثم انهال على ظهر الحصان ضرباً بعصا أو سوط بكل ما أوتي من قوة، وعندئذٍ أطلق الحصان صرخة صاهلة وهو يرفع رأسه الذي تحدر عليه شعر معرفته المبلول، ثم مدد جسمه على الحجارة وسرت في قوائمه رعشة شديدة وانتفض ليتكوم منهاراً فيرفع الحوذي سوطه من جديد ويلهب ظهر الحصان وعنقه ورأسه وقوائمه بضربات متلاحقة، ويسمع (بابا) صرخات الرجل الذي كان يطلقها كلما ساط الحصان وكرر ضربه وهو ينهال بالسباب على الحيوان الذي كف عن الحركة وبدا كأنه سيغوص في أعماق التراب.

ـ خنزير إبن الخنزير، أيها الحيوان القذر..

كان الرجل يلهث وعيناه الحمراوان تتوهجان في وجهه القاتم، وأعاد تكرار لعناته ويداه ترتفعان وتهويان بين لحظة وأخرى تمزقان وتجلدان جسد الحصان حتى تدفقت مادة سوداء على التراب الأبيض وسالت وانتشرت، سوداء كثيفة من جسد الحيوان المعذب.

ورفع بابا كلتا يديه وطوق بهما رأسه وعينيه وأذنيه بإحكام وقوة وانطلق مثل أعمى يتعثر وكاد أن يسقط مراراً لولا أنه هرع مسرعاً في الطريق المؤدي إلى البيت وارتطم كتفه بعمود البوابة البيضاء، فإذا به يترنح ثم يتهاوى منهاراً على ركبتيه وينهض من جديد ولا تزال يداه مثنيتين فوق عينيه وحول أذنيه فلم يكن يرى أو يسمع شيئاً.

وأبصرت به تارا وهو يرتقي السلم زحفاً على ركبتيه فهرعت إليه تعينه على الوقوف، وجاهدت لتجذب يديه وتبعدهما عن وجهه وهي تصرخ به:

ـ هل أوذيت يا بابا؟.. قل هل أوذيت؟ هل أصابك أحد بسوء؟

وبسحبها ذراعيه عن وجهه انكشف لها وجهه فرأت عينيه تدوران في محجريهما مثل جوادين وحشيين وقد انفرجت شفتاه كاشفتين عن أسنانهِ كأنه كان يعدو في سباق، وكست الظلال القاتمة المزرقة ـ التي طالما استقرت تحت عينيه ـ وجهه كله فبدا كأنه امتلأ بالكدمات الزرقاء وقد خضلته الدموع. كفت تارا عن مطالبته بالكلام، وساعدته للوصول إلى غرفته وسريره، ثم أسرعت نحو الشرفة بحثاً عن بيم، بحثاً عن ماء، لم يكن ثمة أحد في الشرفة أو المطبخ، فقد خرجت الطباخة إلى السوق، أمالت تارا جرة الماء الفخارية وملأت القدح وعادت به مسرعة وهي تهرع عجلة وقد أقلقها وجه بابا المزرق، تقاطعت ساقاها مع رداء نومها الطويل وانسكب الماء رشقات صغيرة على الأرض القرميدية، رفعت رأسه لتساعده على ارتشاف الماء إلا أن معظم الماء انسكب وتساقط على ذقنه وقميصه، وعندما أحنت رأسه انكمش وتكور

جسده وأخذ يرتعش فلبثت تمسد له شعره وتربت على وجنتيه، حتى أيقنت من استعادته لطمأنينته ورأته موشكاً على الاستسلام للنوم.

عندئذٍ تركته وهرعت للبحث عن بيم، لكن باكول خرج من غرفتهما حاملاً رباط عنقه في يده وحذاءه في اليد الأخرى وسألها ألم تستعدي بعد للخروج يا تارا؟.. سوف نتأخر فالسيارة توشك أن تصل بين لحظة وأخرى، وأنت تعلمين أن «عمي» حريص على دقة المواعيد وليس من حقنا أن ندعه ينتظر طويلاً.

ثم عاد ليتم إرتداء ثيابه من دون أن يلقي نظرة على وجه تارا، ولم يكن ثمة شيء ليوقفه عما اعتزم القيام به، لم يلحظ شيئاً فقد سببت له أداة لبس الأحذية وأربطة الحذاء منسولة الخيوط إرباكاً بالغاً، إلى أن أقبلت تارا وقد تهدل كتفاها وانسدل شعرها وجلست أرضاً عند قوائم السرير بدلاً من أن تنصرف لارتداء ثيابها.

فقال بصوت أكثر حدة: لماذا لم تستعدي للخروج؟..

غمغمت: لا أظنني أستطيع المجيء على أي حال، إنني لن أذهب..

كانت تغمغم كلما داهمها الخوف كأنها لا تريد لصوتها أن يكون مسموعاً، فقد توقعت أن ينفجر باكول غضباً.

ولكن حتى بالنسبة لباكول نفسه كان الجو شديد الحرارة ثقيلاً، جو البيت القديم كان خانقاً لا يقاوم.

انحنى باكول ليربط أشرطة حذائه وقال بصوت نادب:

ـ ما أن أعوْد بك إلى البيت يوماً واحداً يا تارا حتى تتحولين

إلى مخلوقة ميؤوس منها مثل تلك التي كنتها قبل أن أتزوجك..

وغمغمت: (أجل.. ميؤوس منها).. شأنها شأن أخيها بابا، وبدا على وجهها الانكسار..

ـ ولا تريدين أن أمدَّ لك يد العون.. كنت على خطأ إذ ظننت أنني قد علمتك نمطاً مختلفاً من الحياة، وأسلوباً آخر من أساليب العيش، علمتك أن تفرضي إرادتك، أن تكوني قوية وتواجهين التحدي، أن تكوني حاسمة. ولكن.. لا..إنك في اليوم الذي تطأ قدماك هذا البيت تصبحين مسلوبة الإرادة، عاجزة وانهزامية إلى أقصى الحدود.

وقف لينظر إلى حذائه ويتأكد من أنه كان براقاً إلى الحد الذي يعكس بريقه صورة وجهه.

لم يكن ثمة شيء لم يفعله،.. أجل.. أجل وهز كتفيه كمن أسقط في يده:

ماذا بوسعي أن أفعل لكِ؟.. ليس من شيء سوى أن آخذك من هنا حالاً، دعينا نذهب، ونقيم مع عمي في (نيودلهي) وهزت رأسها رافضة: كلا.. اتركني هنا..

ـ أنت تفتقدين السعادة هنا..

وجعلتها الكلمات اللامتوقعة تنظر إليه مستغربة، فواصل الحديث:

ـ أنظري إلى وجهك إنه كئيب مهموم.

واقترب منها ولمس وجنتها لمسة خفيفة وكأنه لم يكن يطيق هذه اللمسة البغيضة ويرغم نفسه على الإتيان بها بعيداً عن مشاعر الحنان كلها.

ـ لو كنت فقط تأتين معي، إذن كنت سأريك كم ستكونين سعيدة، ومفعمة بالنشاط ومنهمكة بأشياء كثيرة، ثم إنك ستكونين في غاية السعادة، لو أتيت معي.

ولكن تارا هزت رأسها وهي مدركة أنها أطاعته وأذعنت له بما فيه الكفاية، إنه لمصدر إزعاج وأذى هائل أن ترغم على ما يتنافى وطبيعتها، فمثل هذا يستنزف الكثير من قواها ولن يكون أمامها سوى الانهيار المحتم.

تزوجها باكول وهي في الثامنة عشرة، ومن هنا فهو يعرفها معرفة دقيقة، لم يتحدث أكثر بل قال:

ـ سأبلغ عمي أنك مشغولة مع أسرتك وسوف تقومين بزيارته في وقت آخر.

ثم خرج لينتظر قدوم السيارة.

ومر قرب بيم عندما اجتاز قاعة الاستقبال، كانت بيم قد احتلت تلك القاعة وجلست على الأريكة وساقاها مثنيتان تحتها، ومثل تارا لم تكن بيم قد غيرت ثيابها، فهي لا تزال في قميص نومها وأمامها على السجادة جلست تلميذاتها، باقة نضرة من الفتيات اليافعات، في سراويل الجينز أو في قمصان (السالوار) النسائية، كن يتضاحكن ويحدقن ببعضهن وينظرن إليه وهو يجتاز القاعة. رفع حاجبيه وألقى نظرة خاصة على بيم كأنه أراد أن يقول لها:

ـ أهذا هو درس التاريخ؟

وأومأت بيم برأسها وضحكت وهي تلوي أصابع قدمها وتهز قلمها في غاية الارتياح ودونما أي إحساس بالذنب. وسمع صوتها وهو يمضي نحو الشرفة تقول:

ـ كلا، كلا.. لن ترغمنني على البدء بموضوع الامبراطورة (رازيا) ولا الامبراطورة (نورجهآن) كلا.. إنني أرفض ذلك، علينا أن نكون جادات فنحن بصدد مناقشة الحرب التي قامت بين شيفاجي و (اورانغسب).. لا.. لا حديث عن الملكات.

وتأوهت الفتيات وصخبن:

ـ ست.. نرجوك..

وسمع باكول توسلاتهن وقد جلس ينتظر على مقعد الخيزران الذي أحدث صريراً..

ـ نرجوك يا آنسة، دعينا نتحدث عن موضوع أكثر تشويقاً، سوف تتمتعين أنت أيضاً.

ـ أتمتع؟ يا لكن من وقحات.. أنا لم أحضركن إلى هنا من أجل أن تمتعن أنفسكن، هيا هيا يا «كيا»، تحدثي إنني مصغية إليك..

وبدا الأمر كما لو أنه كان واجباً، ودرساً خصوصياً، وهذا ما أدرك باكول وأراد إثباته. وتساءل وهو يضع ساقاً فوق الأخرى ـ مثلما كان يتساءل من قبل حين بدأ يأتي إلى هذا البيت وهو شاب. انخرط لتوه في السلك الدبلوماسي في وضع يتيح له أن يبحث عن زوجة مناسبة.

آه لو لم تكن بيم على هذا القدر من الصراحة والفظاظة، إذاً لكانت أفضل الشقيقتين، ولو لم تكن تمتلك تلك الميزات من الحزم والثبات والقدرة على اتخاذ القرار، هذه الميزات التي كان معجباً بها، حاول جاهداً أن يغرسها في زوجته التي تفتقر إليها افتقاراً مؤسفاً، ولو لم تكن لبيم مثل تلك الضحكة الفظة التي

يعوزها التهذيب ولا هذه الطريقة البدائية في الجلوس وقدماها فوق الأريكة. تارا لا تفعل ذلك الآن أبداً، ولو لم يكن أنف بيم بهذه الضخامة بخلاف أنف تارا الصغير...

لقد كانت تارا جمّة التهذيب وأكثر رقة من بيم.

وتنهد وغيرّ جلسته على مقعد كرسي الأسل المكسور.

لقد ظلت الأشياء على ما كانت عليه وكان يجب أن يحدث الكثير - كما يقول - في هذا البلد، وتنهد. وفي هذه اللحظة ظهرت سيارة العم عند البوابة وانعطفت ببطء وقد غمرت الشمس زجاجها الأمامي، ثم اقتربت لتتوقف في المرأب تحت ظلال شجيرات الجهنميات.

ومهما يكن من أمر فإن بيم جعلت تارا تغرق في الضحك قبل انتهاء صباح ذلك اليوم، فقد كانت تارا متكئة على عمود الشرفة تراقب معارك الببغاوات فوق أشجار (الغوافة) وتنصت إلى الأصوات المنبعثة من غرفة (بابا) آملة أن تسمع دوران اسطوانة على جهاز الحاكي، عندما خرجت بيم بصحبة تلك الباقة من الفتيات ونادت بأعلى صوتها.

- آيس كريم.. يا بائع الآيس كريم..

وقبل أن يرتد إليها طرفها أقبلت عربة ملونة على دراجة تتدحرج وسط الشارع الملتهب الخالي، ثم توقفت واستدارت نحو البوابة يقودها سائقها السيخي الذي كان يبتسم بوقاحة للفتيات المتضاحكات وأستاذتهن..

قالت بيم: .

أرأيت يا تارا هؤلاء الصغيرات؟ ما إن طرق أسماعهن نداء

بائع المثلجات حتى تشتت انتباهن وما عدن يصغين إلى محاضرتي، ولم يكن أمامي سوى شراء مخروط من (الآيس كريم) لكل واحدة منهن.

ـ أظنكن تفضلن مخاريط المثلجات مع ثمار توت الأرض (فراولة) أيتها الصغيرات؟.. هيا (ياساردارجي) مخاريط (فراولة) للجميع.

وتوقفت عن الضحك عندما رأته يحشو المخاريط بكميات هائلة من الآيس كريم الوردي اللون ويقدمها للفتيات اللائي كن يتضاحكن، وأدركت تارا أنهن ما كن ليظهرن كل هذا النزق إلا بمقدار ما أبدت أستاذتهن من نكوص نحو الطفولة.

لم تكترث بيم بشيء بل شرعت تؤرجح ذراعها، وعندما تحققت من حصول كل فتاة على مخروط المثلجات، إذا بصبية جميلة ترتدي قميص (سلوار) مزركش ببغاوات وردية وخضر، تحمل مخروطاً ممتلئاً يفيض منه (الآيس كريم) وتتجه به نحو الشرفة، إلى تارا..

قالت بيم: تارا، إنه لك، أعده (ساردارجي) خصيصاً من أجلك.

وأخذت تضحك.

وابتسمت تارا للبائع الذي بدا لها محرجاً إلى حد ما، في حين كانت هي المحرجة وهي تأخذ من الصبية المخروط الذائب الذي تتساقط منه القطرات وتلعقه لتمنحها فرحاً. وعاود لسانها لعق المذاق ذي الحلاوة الصناعية.

ـ أواه يا بيم، ماذا لو شاهدتني ابنتاي أو باكول في هذه

اللحظة؟ . .

غمغمت بهذا بينما كانت بيم تسير متجاوزة إياها وهي تحمل مخروطاً مكللاً على نحو استثنائي بآيس كريم وردي، أشبه (بقرن الوفرة) ثم تدلف إلى غرفة (بابا).

توقفت تارا عن تناول الآيس كريم وأخذت تنظر في محاولة لسبر ما يحدث وراء حاجز الخيزران في تلك الغرفة التي ظلت مكتنفة بالصمت والظلال طوال فترة الصباح.

وتناهى إليها صوتُ بيم بنبرة مرتفعة مرحة، إلا أن بابا لم يقم بأي ردة فعل ولم يظهر صوتاً مسموعاً.

وعندما عادت بيم بدون مخروط المثلجات تأكدت تارا أن بابا تقبله منها ولعله كان في غاية السعادة به.

كان ثمة شيء ما سحري في هذه الحلاوة الوردية المثلجة، في هذا اللون الوردي الحلو المصطنع، فقد عاودت تارا لعق المخروط المثلج.

صاحت بيم معنفة إحدى الفتيات عندما ألقت الفتاة ببقايا مخروطها للكلب الرابض على سلم الشرفة فرأته يدلي لسانه ويتلمظ.

ـ كم أنت سخيفة، ألا تعرفين أن الكلاب لا تطعم أي مأكولات حلوة لئلا يتساقط شعرها وتتكاثر عليها الحشرات؟ . . ستكونين ملومة إذا ما أبدى الكلب دلالاً وعزف عن تناول الحساء والخبز.

قالت الفتاة: دعيه يتمتع يا آنسة بيم.

وابتسمت ابتسامة فيها شيء من التواطؤ لزميلاتها الأخريات لأنهن كن يقدرن مدى ارتياح بيم وهي تجدهن يدللن كلبها.

ضيقت تارا عينيها وهي ترقب مشهد بيم التي تعنف تلميذاتها، ثم رأتها تبتسم فرحة لهذا الاهتمام الذي توليه البنات لكلبها الذي أخذ يلعق (الآيس كريم)، ثم استمر يلعق الأرض وكأنها تشربت تلك المادة اللذيذة، وتذكرت كيف لامتها بيم لأنها لم تربِ ابنتيها الصغيرتين كما يجب، ولم تدربهما على قبول أي طعام يوضع لهما في طبقيهما، كما أنها لم تعودهما على النوم في ميعاد يومي محدد.

وهزت رأسها أسفاً.

كان عليها الاعتراف أن لهذا (الآيس كريم) تأثيراً ناجعاً على كل ما يحيط بها، فخلال برهة غادرت الفتيات البيت وقد غطين رؤوسهن بطريقة بديعة بالبراقع الملونة إتقاء لوهج الشمس، وأطلقن صرخات حادة وهن يكتوين بحرارة الأرض التي أحرقت أقدامهن من وراء أخفافهن، وعاد الحاكي إلى دورانه في غرفة بابا ودبت فيه الحياة من جديد. كانت تارا ممتنة لأجل ذلك وقد تمنت لو كان بوسع باكول أن يراهم الآن، أن يرى أسرتها.

عاد باكول عصر ذلك اليوم متأخراً يكاد أن يغمى عليه بسبب حرارة الجو ووجبة الغداء الثقيلة التي تناولها، فما إن وصل حتى ألقى بنفسه على الفراش وغاب في نوم عميق، وانقضت تلك الفسحة من الانشراح، أو قد غطى عليها مرة أخرى مزاج هذا البيت..

واعتدلت تارا في كرسيها محاولة أول الأمر أن تكتب رسالة لابنتيها، ثم قررت أن ذلك سابق لأوانه، وسوف تنتظر حتى يتوفر لها المزيد مما يمكن قوله، وأعادت الرسالة إلى حقيبة يدها، وبدلاً من ذلك حاولت القراءة في كتاب تناولته من فوق رف غرفة

الاستقبال، وكان لا يزال في المكان ذاته منذ أيام طفولتها: (رسائل جواهر لآل نهرو إلى ابنته) كتاب ذو غلاف من قماش أخضر، وعادت للجلوس في مقعدها الوثير ذي الملمس الاسفنجي اللدن، فأحست أن روحاً ثقيلة قد حطت ملقية بكل ثقلها فوق جفنيها ووراء عنقها، فإذا بها تتسمر تحت وطأتها دونما حركة تدل على الحياة.

وتراءى لها أن بلادة وضجر أيام طفولتها وشبابها قد اختزنا ها هنا تحت هذه السجادات الحمراء المتربة العتيقة، وتحت هذه الأواني النحاسية الصدئة المدخنة وبين تلك الأعشاب الجافة والمزهريات المتناثرة، ووراء الصور الفوتوغرافية المصفرة داخل أطرها العاجية، كل شيء، كل شيء من الأشياء التي كانت تحمل لها كراهية عميقة يوم كانت طفلة، كل تلك الأشياء لا تزال مختزنة هنا كما لو أن هذا المكان مخزن متحفٍ محلي كئيب لا يسر أحداً.

ونظرت على مضض، ومن دون أن تدير رأسها، إلى اللوحة المائية الموضوعة فوق رف المدفأة زهور «كنا» حمراء، زهور (موز الزينة) مع مسيل ماء يجري رقيقاً تحت الورقة بنية اللون.

ـ ترى، من رسم هذه اللوحة؟.. ولماذا علقت ها هنا؟ وأنّى لبيم أن تحتمل النظر إليها طوال حياتها؟.. ألم تعد تمتلك أي قدرة على تنمية تذوقها؟

ألا تملك الولع، ما يؤجج رغبتها لتخلص البيت القديم من كل هذه القمامة وتضع مكانها أشياء من اختيارها الشخصي؟

وفكرت تارا بشيء من الحنين في شقتها ذات البياض الخزفي البالغة الأناقة في مدينة واشنطن، وفكرت بنظافتها وروعتها.

وتمنت لو أنها تمتلك إرادة وعزماً فتهرب من هذه الغرفة.. ولكن إلى أين؟..

الشرفة نفسها أفضل من هذه الغرفة، فهناك تهدل الحمائم هديلاً ناعماً وتعبر ببراعة فريدة عن شكاواها ورضاها بنبرة موحدة، وثمة الجهنميات الشائكة التي تعرش على الجدران الخارجية وتنثر زهورها الورقية بلونها القرمزي في الريح الساخنة ذات الصفرة الكبريتية.

ونهضت في الحال وأزاحت الستارة الخيزرانية المعلقة هناك إلا أن وهج الظهيرة الأبيض الساطع انحرف نحوها وساطها بنصاله المنطلقة كالبرق، فما كان منها إلا أن أعادت إسدال الحاجز الخيزراني، فأحدث هبوطه قرقعة وأثار زوبعة من غبار، وأطلق بُرص صغير كان يدب على الجدار صوتاً حاداً معترضاً على هذه المشاكسة المزعجة.

وعادت إلى مجلسها، آه لو كان بوسعها أن تنام. إذاً، لنسيت أين هي ولكنه أمر مستحيل، أن ينام المرء والعرق الغزير يتصبب أنهاراً من وجهه، وهذه الحرارة اللاهبة التي تحكم طوقها الناري عليه.

قال باكول: بإمكان الإنسان أن يسمو فوق حالة الطقس، أن يتجاهلها بأن يملأ رأسه بأفكار لا حصر لها وبأنشطة كثيرة..

ـ انصتي إلي، وأخذ يتحدث عن ذلك (الشتاء الجليدي في موسكو).

ـ أنا أسمح للبرد أن يزعجني، أليس كذلك؟

كانت تارا والبنتان يتدثرن بكل ما يملكنه من الثياب الدافئة

والملاحف والبطانيات التي ينتزعنها من فراشهن، أما هو فلم يكن يجاريهن في ذلك. ودرّبها باكول دونما كلل على أن تتحول بالتدريج إلى إمرأة منظمة تتفحص كل صباح دفتر مواعيدها وتضع المخططات والبرامج لليوم التالي، ثم تمضي في سبيل تحقيقها لتنسحب آخر النهار إلى غرفتها متعبة، ذلك التعب المتسم بزهو انتصار الفضيلة والواجب.

ها هو دفتر مواعيدها يرقد في قعر حقيبتها، ولم تقل بيم شيئاً عن ارتباطاتها ومواعيدها لأنها في الواقع لم تكن لتطيق الارتباط بشيء في هذا الجو القائظ.

وكان النهار طويلاً ممطوطاً مثل لوح من زجاج يعكس وهج الشمس التي كانت في أقصى حالات عريها وسطوعها.

وفي الحديقة كانت طيور نقار الخشب وحدها صاحية وهي تتعلق بجذوع الأشجار وتوقع نقراتها الآلية الرتيبة: تونك تونك. تونك تونك.

أما داخل هذا البيت فلم يكن الفراغ ولا أجواء الطفولة المخيبة تخيم عليه، وإنما كانت روحا والديها ذاتهما تهيمنان على المكان الذي ما زالوا يجلسون فيه، وتحوّم حول المفرش الصوفي الأخضر المنشور فوق المائدة القابلة للطي والتي ركنت في الزاوية وعليها كومة من صحف أسبوعية مصورة وإناء برونزي مليء بزهور زنابق (الكنّا) الحمراء والصفراء المرقطة وهو يتشبث بها كأنه يحول بينها وبين التفتح، أو الانقصاف، أو السقوط بعيداً عن هذه الأكداس من أوراق اللعب. وتلك الدفاتر المستطيلة والأقلام الرفيعة، حيث كان يجلس والداها يوماً إثر يوم، وسنة بعد أخرى حتى يوم مماتهما، يلعبان «البريدج» مع أصدقاء يماثلونهما كأنهم

هما نفسيهما، صامتين في الغالب، ورؤوسهم مطأطأة وقد برزت حناجرهم وأيديهم الناعمة المليئة باللطخات تخلط أوراق اللعب من حين لآخر، ويتلفظون تلك الأسماء والأرقام التي ظلت غامضة وسرية بالنسبة للصغار الذين كانوا يمنعون من دخول القاعة عندما تتصاعد حُمى اللعب، فيعمدون في بعض الأحايين إلى الاختباء وراء الستائر المغبرة ليسترقوا النظر إلى الغرفة وقد ملأتهم الدهشة إزاء ذلك الانهماك والانشغال الغريب الذي لا حد له، والذي يجعل الوالدين غاطسين في المركز الساكن لتلك الدوامة الضبابية العميقة، بينما يعوم الصغار على السطح وهم يحدقون إلى ذلك العالم السفلي وعيونهم تكاد تفرّ من محاجرها وهي مبهورة بما لا تدركه من أمور تدور أمامها.

وأقسم راجا أنه سيقوم ذات يوم بالقفز على المائدة الخضراء وهو يتنكر بقناع أسد ويلوح بمصباح يدوي ليؤجج النار في عالمهم الورقي، بينما رفعت بيم مقص الخياطة وجعلته يبرق في ضياء الشمس وأعلنت أنها ستزحف، فما كان من تارا إلا أن أخذت تمص اصبعها على نحو ساذج وانسحبت نحو الشرفة قاصدة غرفة الخالة (ميرا) حيث اعتادت أن تندس تحت لحافٍ زاهي الألوان تفوح منه رائحة العلاقات القديمة، ورائحة قطتها الصهباء وتخفي رأسها تحت اللحاف إلى جانب تلك المخلوقة المقرقرة فتشعر بدفء وراحة ناعمة، وتحس بحماية لا نظير لها فلا تعود بحاجة إلى تخريب هوايات والديها أو إثارة انتباههما، على أنها كانت خائفة بعض الشيء من احتمال أن يكونا قد تابعاها ولحقا بها وحاولا اكتشاف أمرها.

هي الآن تتململ في كرسيها في قلق واضطراب، رغم أن

الكرسي كان يهدهدها مثلما يهدهد المهد الرضيع، خائفة من احتمال نهوضهم من مقاعدهم لينثروا أوراق اللعب على المائدة ثم يجيئون إليها بوجوههم الورقية والأصابع التي تخلط أوراق اللعب برفق وأنفاسهم الدخانية فيعاودون الاحتفاء بها ويرحبون بها لعودتها إلى وطنها.

فذات مرة نهض والدها وسار بخطى وئيدة حذرة نحو غرفة والدتها، وراء هذا الباب الموصد، فانسلت تارا وراءه واختبأت خلف الستارة المسدلة من دون أن تحدث صوتاً وأخذت تراقبه، فرأته ينحني فوق فراش والدتها ويغرز إبرة محقنة طبية لامعة بحركة سريعة سهلة في ذراع أمها التي كانت ترقد في السرير وقد تقوس جسدها على المفرش الأزرق.

غرز الإبرة بقسوة، فما كان من المريضة إلا أن أدارت رأسها وأطلقت شهقه تنم عن نفرة وألم ورأت تارا ذقنها يرتفع إلى الأعلى ورأسها الرمادي يتهاوى على الوسادة، ثم تناهى إليها صوت آهات نشيج مرتفعة بدت لها أشبه بكيس هوائي أحدثت فيه ثقوب على نحو دقيق محكم..

فهربت تارا وهي ترتجف لفرط فزعها وكانت على يقين أنها رأت أباها يقتل أمها.

وصاحب هذا الرعب تارا طوال حياتها وظلت تعاني من آثاره.. إن أباها قتل أمها ـ وحتى بعد أن أوضحت لها الخالة «ميرا» وبيم وراجا أن ما كان يقوم به قد اعتادوه فهو يعطيها حقنة الأنسولين يومياً. لم تتخلص تارا من الشعور بطعنةِ الشك التي غاصت في روحها؛ فكانت تقترب في أحيان كثيرة من أمها وتتأمل البشرة الطحينية المتهدلة لذراعها الذي ثقبته مئات الأبر الدقيقة

فتكبت أنفاسها لئلا تنطلق من فمها الصرخة، أأيقنت أن تلك الثقوب لم تكن غير علامات الموت لا الشفاء؟

ها هي الآن تتفرس بنظرات ثابتة إلى الباب القائم في الجدار الذي طُلي بلون بُني بشع، وقد انتفخ الطلاء وظهرت عليه بثور وصدوع على هيئة نسيج عنكبوتي بفعل حرارة الجو.

أحست بنوع من رعب مرضي يجتاحها ولا يسعها مقاومته وهي تفكر بفتح هذا الباب في الجدار، إذا ما فتحته سينطلق منه الموت مترنحاً بهيئة زوج من الأشباح الأليفة المريعة، التي تصدر عنها أصوات خشخشة أوراق وقد ملئت فتحات أنفيها بمسحوق الموت الأبيض.

واصل نقار الخشب في الحديقة الغافية نقره الرتيب أشبه بعمال ميكانيكيين يطرقون على صفائح معدنية: تونك ـ تونك ـ تونك ـ تونك ـ تونك ـ تونك.

إذا ما أراد المرءُ التعرف على بيم فعليه أن يتخلى عن فكرة كونها عاشت الطفولة التي عاشتها تارا وخاضت التجارب ذاتها التي مرت بها.

تابعت طريقها بخفة وسرعة مرتقية السلم المفضي إلى السطح الواسع الفسيح حيث كان الصغار يطلقون طائراتهم الورقية ويخفون أسرارهم، وكان واضحاً أنها لم تعد تخشى مواجهة الأشباح هنا..

وها هم الآن يتكئون على الدرابزين ذي الزخارف الجصية وينظرون إلى الحديقة التي خططتها ولونتها، أضواء وظلال أول المساء، وانزاحت حرارة النهار وغسل الغبار الكثيف عن الحديقة عندما رشّ البستاني المياه من الأنبوب البلاستيكي على شجر الياسمين تارة وعلى النخل تارة أخرى، فإذا بأشذاء خضر تعبق من

الأرض المضمخة المروية والنباتات الغضة.

أقبلت أسراب ببغاوات، لألوانها خضرة وهاجة ساطعة، وهي تخفق بأجنحتها لتحط على أزهار عباد الشمس وتمزق لبها ذي البذور السود إلى قطع صغيرة، بينما تواثبت طيور المينا هنا وهناك فوق المرج تتنازع مع بعضها من أجل الحشرات.

وتلمست قطة بيم ذات السواد العنبري طريقها بحذر بين برك الماء الصغيرة التي تخلفت عن أنبوب البستاني الرشاش، وأخذت تنفض شعيرات شاربيها وماءت (ميو. .ميو. .ميو) بنوع من ضجيج عندما تصارخت طيور المينا على مرأى منها ورأتها تندفع نحوها وتكاد تنقض عليها لولا أنها انسحبت نحو السياج الشجري، وأقبل هدهدان يتنزهان بعظمة هادئة في أنحاء المرج، وهما يفتحان ويطويان ريش تاجيهما المخططين.

وتصاعد شذى زنابق نبات العنكبوت من الأصص التي رصت على درجات سلم الشرفة حالما نالها رشاش الماء، فبدت أشبه بسيدات مستحمات، متبرجات معطرات لحضور سهرة المساء.

وعند جانبي الحديقة كانت تمتد حدائق عدة، وبيوت الجيران الخامدة الرثه تماثل بيتهم وحديقتهم.. الحدائق التي بالغت أشجارها في نموها واكتست بالأدغال فهي مهملة تتزاحم فيها أنواع من الحيوانات البرية السائبة.

وكان بوسعهم ـ وهم فوق سطح البيت ـ رؤية الجدران الجصية المصبوغة باللون الوردي والأصفر والرمادي وقد تقشرت وتسلخت، أو أن يشاهدوا مصادفة شجرة «كول موهُر» وقد اكتست بأزهار الصيف القرمزية.

كان الطريق خارج بوابة الحديقة القديمة المخلخلة ينحدر

متجهاً نحو نهر (جُمنا) الذي اضمحل مجراه الآن واستحال إلى نهير آسن من وحول، واستطاعت تارا بالكاد أن تميّز ذلك الامتداد الفسيح المنبسط من الرمل الذي يمتد نحو الأفق الوبري الأصفر الذي يماثل أسداً رابضاً، أسداً هرماً متهالكاً.

ما كانت في النهر أي زوارق باستثناء بعض العبّارات التي انسابت متثاقلة وهي تقطع الطريق غدواً ورواحاً بين الضفتين، ولم تر أي علامة من علامات الحياة خلا غسال ثياب كان يجمع غسيله المنشور فوق الكثبان الرملية ويحملّه فوق حماره، وثمة بضعة كلاب صلعاء من فصيلة (بيا) تنسل بين الوحول الراكدة بحثاً عن رائحة سمكة نافقة أو ضفدع لالتهامه.

وفي النهر وقف صياد وقد فتح ساقيه وقذف الشبكة بحركة دائرية من يده ثم سحبها فارغة تماماً.

كان بوسع تارا التكهن بذلك لأنها لم تره ينحني ليلتقط شيئاً منها، لم يكن ثمة شيء فيها.

وقالت تارا: تصوّري.. وقد عرتها الدهشة فلم تكن لتصدق تلك الذكريات البعيدة، فلطالما كانت لذكريات الطفولة تلك الخلفية الكئيبة الشبيهة بهذا المشهد.

كان يستهوينا اللعب هناك.. في ذلك التراب والوحل. ما الذي كنا نجد في ذلك الوشل الهزيل الموحل؟.. لماذا؟.. إنه بالكاد يشبه نهراً، إنه لا شيء.. لا شيء..

عارضتها بيم: آه يا تارا، لقد جعلتك رحلاتك الخارجية معنية بالمظاهر، متفاخرة بما ليس فيك..

كانت تتكئ بكل ثقلها على مرفقيها وقد تركت شعرها الذي

خطه الشيب يتطاير حسبما شاءت له النسيمات القليلة التي كانت تهب عليها من جهة النهر، وها هي الآن تستدير لتسند ظهرها إلى الدارابزين وتتأمل السماء التي لم تعد الآن بيضاء ساخنة مسطحة إنما تخددت وخططت بضربات ولمسات زرقاء رمادية وبنفسجية.

حلق سرب من طيور البلشون (الفلامنكو) المائية الناصعة البياض من النهر، واتخذ طريقه بهدوء منظم عبر ذلك النسيج المتلاشي.

وأخذت بيم تردد ما أعلنت تارا من حكم قاسٍ على النهر.. «لا شيء».. «نهر جمُنا المقدس لا شيء؟!؟..»

هذا النهر الذي وقف الإله كرشنا على ضفتيه ليعزف في نايه فرقصت الآلهة «رادا»..

وواتت تارا الجرأة لتعلن:

ـ أوه يا بيم.. لم أقصد شيئاً من هذا.

وكانت موقنة أن هذا الكلام يضايقها...

ـ ما هو إلا غدير صغير من وحل وضفاف متربة على الجانبين..

وقالت بيم على نحو مفاجئ:

ـ هنا سوف يلقون برمادي عندما أموت وتحرق جثتي.. وهنا حيث رموا برماد الخالة ميرا ـ ماسي فانحدر الرماد مع النهر إلى البحر.

وإذ رأت تارا تجفل مرتجفة أضافت بنبرة أشد طيشاً واستخفافاً:

ـ وهنا.. حيث لعبنا سباقات الجري يوم كنا صغاراً فوق

الكثبان، وحفرنا الحفر لندفن أنفسنا فيها، وكنا نتحايل على مالك العبّارة لينقلنا مجاناً للوصول إلى حقول البطيخ. . ألا تذكرين البطيخ الذي كنا نشويه في الرمال الساخنة ثم نفلقه ونأكله وقد سخن وأحمرّ وسال منه عصير وردي غزير.

ذكرّتها تارا: كنتما أنت وراجا ولم أكن أجرؤ قط على الصعود إلى تلك العبّارة، أما أخي (بابا) فقد كان في البيت، أنت وراجا اعتدتما اللعب هنا يا بيم. .

قالت بيم وقد استغرقتها الذكرى وهي تواصل النظر إلى السماء حتى اخترق رداء الغيوم الرقيق سرب طيور البلشون ثم اختفى في الغسق مثل بضع بلورات ضائعة:

ـ أنا وراج. . أنا وراج. .

قالت تارا: والحصان الأبيض و (حيدر علي صاحب) وهو يمارس هوايته المسائية في ركوب الخيل.

قالت تارا ذلك محاولة استجداء الموافقة كأنها غير واثقة من أن تلك الصورة كانت حقيقية أو أنها محض تهيؤات، كانت تخلق اسطورة فيها بذرة من حقيقة.

أيمكنك تذكر حادثة لعبنا فوق الرمال في وقت متأخر من المساء وكان (حيدر علي صاحب) يمتطي جواده الأبيض ويقفز من فوقنا وكان خادمه يعدو أمامه زاعقاً وكلبه يجري وراءه نابحاً.

وضحكت وقد اعتراها الانفعال التام وهي تتحدث عن ذلك المشهد المستعاد الذي تذكرته نصف تذكر.

وكنا نقف لنتفرج عليهم وهم يجتازوننا، وكان بالكاد ينظر إلينا والتابع يصرخ بنا لنفسح له الطريق، يخيل إليّ أن (حيدر علي

صاحب) كان معتاداً أن يرى نفسه بمقام أمير أو (نواب) وهذا ما كان يسحر راجا، والتمعت عيناها بالمكر أكثر مما كانتا تلتمعان من انفعال التذكر.

(وكان راجا ينتصب واقفاً وهو يتفرس بالرجل، إنني على يقين أن راجا كان يتوق إلى امتطاء الجواد الأبيض والكلب يعدو وراءه مثلما كان يفعل العجوز (حيدر علي صاحب) تماماً. كان (حيدر علي صاحب) مثالاً يقتدي به راجا أليس كذلك؟) هكذا اختتمت حديثها.

حفرت كلماتها غضوناً غائرة في جبين تارا، فواصلت الضغط على مرفقيها بقوة وقد شعرت أن الدرابزين يجرح جسدها ويخترقه وهي مستغرقة في التذكر، أتراها كانت تتذكر الأمر حقيقة؟.. أم أنها لم تكن تشاهد غير صورة بيم منطبعة بألوان وظلال بيض وسود وقرمزية بعيداً عند الضفة الرملية الوهمية؟

ولكي تخفي اضطرابها الذي أخفقت في تبديده، قالت: أجل، ولا شك أنك تذكرين جيداً أن راجا كان يتمشى أمامنا فوق السطح مؤرجحاً ذراعيه وهو يلقي أبيات شعره على مسامعنا، بينما كنا نجلس هناك عند الدرابزين نؤرجح سيقاننا ونصغي، وكان يجتاحني إحساس أشبه بالبكاء، كم كانت تلك القصائد رائعة وهي تتناول موضوع الموت والحب والشراب والعواطف المتأججة؟

قالت بيم ببرود لا حد له:

ـ كلا، لم تكن قصائده رائعة، كانت قصائد فظيعة.

ورفعت رأسها في حركة مفاجئة تنبي عن عنادها كأنها فرس حرون:

ـ فظيعة، فظيعة كانت تلك القصائد التي كتبها راجا فظيعة.

صاحت تارا مفزوعة وقد اتسعت حدقتاها لفرط رعبها من قدرة بيم على انتهاك قدسية تلك القصائد التي عُدّت مأثرة كبرى للعائلة، أن يكون راجا شاعراً، ويكتب قصائد عظيمة فتلك مأثرة جليلة، والآن، تُقدم بيم شقيقته الأثيرة لتنكر عليهم ذلك الاعتقاد، ما الذي حدث يا ترى؟..

وواصلت بيم تأكيداتها: أجل يا تارا، كانت قصائد شنيعة، نحن لم نكن قد تجاوزنا الخامسة عشرة والعاشرة من عمرينا، هل جربت قراءتها الآن؟.. إنها مغثية مثيرة للاشمئزاز، هل بوسعك تذكر بيتين منها من دون أن يعتريك الغثيان والتشوش؟

كانت تارا مصعوقة ومشفقة من الكلام، فخلال سني طفولتها وقفت على تخوم ذلك العالم الموصد أمامها.. عالم الحب والإعجاب الذي كان راجا وبيم يطوفان في أرجائه بينما تقف هي مطرودة منه ترقبهما وتمص اصبعها.

وها هي ذي بيم الآن، تقدم بكل ما لديها من قسوة وفظاظة على تدمير ذلك العالم الساحر بسخريتها وانتقاداتها بينما تقف هي مرتعبة خائفة مما يجري.

بدت بيم رهيبة قاسية. وكفت عن الاتكاء على الدرابزين وتوقفت عن التذكر وأخذت تتمشى في حالة من الهياج وهي تؤرجح ذراعيها مثلما كان راجا يفعل أيام كان شاعراً.

ـ في الأقل بالنسبة لهم.

ـ (حبذا لو أتيت إلى غرفتي)

قالت على نحو مفاجئ وتوقفت ـ ثم تابعت ـ فسوف أريك

بعضاً من تلك القصائد التي أظنها لا تزال قابعة في مكان ما من غرفتي، رغم أنني لا أجد سبباً واحداً يدعوني لعدم تمزيقها بأكملها.

هتفت تارا: مؤكد إنك لن تفعلي ذلك..

واندفعت بيم نحوها: ولم لا؟.. هيا تعالي وسترين، ثم قولي لي إن كانت جديرة بالاحتفاظ بها. وانسحبت بيم واجتازت درجات سلم الشرفة بخطى عسكرية صارمة والتفتت لحظة نحو تارا لتقول لها:

- ثم إن مقطعاً من إحدى تلك القصائد يصف هذه الشرفة يوم قصصت شعرك ودفعتك إلى الصراخ والعويل. أوه ما أشد الضجة التي أثرتها حول قصي لشعرك..

وأدارت رأسها بنترة سريعة:

- وها أنت الآن، وقد نما شعرك وطال من جديد، وها أنا أمامك بشعري المقصوص الذي لا يعني أحداً إن كنت قصصته أم لا..

توقفت تارا برهة، كان يكفيها الآن تماماً أن تذرع الشرفة جيئة وذهاباً مع هبات النسيم العليل وهي تنتظر هبوط الظلام وتألق النجوم لتتحدث عن الأيام الغابرة، حتى وإن دار الحديث عن قص شعرها بتلك الطريقة الموجعة التي اقترفتها بيم.

هبطت بيم السلم محدثة طقطقة على درجاته الحجرية.

جلجلت على نحو مفاجئ أجراس معبد «البرج الوردي» عند منعطف النهر، وضجت مثيرة صخباً لا حد له. واستحال لون السماء إلى أخضر قاتم يخترقه أخدود أرجواني فقد حل الليل

وغمر كل شيء، ولم يعد أمامها إلا أن تلحق بأختها بيم وتهبط السلم المفضي إلى داخل البيت حيث ستجد الجو خانقاً وساخناً على نحو لا يطاق مقارنة بالجو النقي البارد في شرفة سطح البيت، ثم إن عليها أيضاً أن تذهب إلى غرفة بيم المهملة التي تسودها الفوضى.

كانت هذه الغرفة في ما مضى غرفة عمل والدهما ولا يزال أثاثها يوحي بأثاث مكتب رسمي، فالخزانات الحديدية التي تستعمل في حفظ الملفات والأشياء الثمينة لا تزال هناك إلى جانب الأرفف ذات الشقوق التي كُدست عليها السجلات والكتب، وأمامها منضدة ذات غطاء مسطح دوار مؤلف من شرائح خشب متوازية، وبيم تدخل بخطاها العسكرية ذاتها، بينما تقف تارا لدى الباب مترددة، محجمة عن الدخول.

وبدأت بيم بسحب الأوراق من أماكنها وقد أزاحت غطاء الصندوق، ثم أخذت تنبش بين الملفات وأوراق دروسها الخصوصية وسجلات المدرسة، ومن بين تلك الأكداس المرصوصة من الورق استلت بضع صفحات وأتت بها نحو تارا في حالة من شرود الذهن.

تأملت تارا الأوراق، ثم أدركت أنها مكتوبة باللغة (الأوردية) التي تجهلها. وإذاً، لا جدوى من إبقاء هذه الأوراق بين يديها والتظاهر بقراءة القصائد التي كان راجا قد قرأها لهما ذات يوم فأذهلتها برونقها الشرقي.

إلا أن بيم لم تلحظ ما هي فيه من حرج، كانت لا تزال منهمكة في نبش محتويات منضدة الكتابة حتى عثرت أخيراً على

بغيتها المنشودة وحملتها إلى تارا أيضاً وقد زمت شفتيها في حركة تجهم مريعة، ما جعل تارا ترتعش فزعاً.

ـ ما هذا يا بيم؟

سألتها وهي تنظر إلى الأوراق ثم تكتشف أنها مكتوبة بالإنكليزية بخط راجا.

ـ رسالة كتبها راجا ـ اقرأيها. . إقرأيها. . كررت الأمر على تارا المترددة وهرعت نحو النافذة وجلست على عتبتها تنظر إلى الخارج في صمت وهي ترغم تارا على القراءة وتنتظر ذلك متوترة مشدودة الأعصاب.

واضطرت تارا أن تقرأ وهي غير مصدقة.

لقد كتبها راجا منذ سنوات بعيدة كما تبينت، وحاولت تخمين تاريخها مقارنة ببعض الأحداث العائلية التي يمكن إجراؤها مع محتوى الرسالة.

هل تسلمت برقيتنا بشأن خبر نعي (حيدر علي صاحب) أعرف أنه سيحزنك مثلما أحزننا ولا بد أن القلق يعتريك بشأن ما سيأتي، ولكن ضعي في حسابك أنني عندما تركتك كنت قد وعدتك أن أعنى بأمورك يا بيم.

فعندما كان (حيدر علي صاحب) طريح الفراش وكتب وصيته تحدثت إليه (بنازير) بنفسها بشأن البيت وطلبت إليه أن تقيمي فيه بالايجار القديم الذي اعتدنا أن ندفعه له عندما كان الوالد والوالدة على قيد الحياة. وقد وافق الرجل، فأنت تعرفين ـ إن المال لا يعنيه قط ـ ولكنه من جانب آخر يقدر الصداقة حق قدرها وها أنا ذا الآن أريد أن أوكد لك أنه إذ توفى ترك لنا كل ممتلكاته ولسوف

تستمرين بدفع الايجار نفسه لي، ولن أفكر برفع مبلغ الايجار أو بيع البيت طالما أنت وأخي (بابا) بحاجة إليه. وإذا أقلقك أي أمر فلا تترددي يا بيم، أخبريني حسب.

«راجا»

لبثت تارا شاخصة ببصرها برهة من الزمن تفكر في مجمل ذلك التشابك والاضطراب في مضمون الرسالة، ثم بدأت بدراسة تاريخها محاولة استذكار تاريخ وفاة (حيدر علي)..

وبدلاً من سلسلة الصور والرؤى المشوشة الراعشة والتخيلات الخاصة بعائلة (حيدر علي) والتي كانت تطوف بأرجاء الغرفة نصف المعتمة، كان ثمة (حيدر علي) الآخر الذي كان جارهم في يوم ما، ومالكاً للبيت الذي يقيمون فيه، (حيدر علي) الوسيم المهيب الذي تشبه طلعته لوحة زيتية معلقة فوق عباءة فضفاضة وكل شيء فيه يأتلق بالفضة واللونين الرمادي والقرمزي، إذ كان يعتلي صهوة جواده الأبيض ويسير به خبباً بمحاذاة ضفاف النهر في تلك الأمسيات البعيدة حيث يصطف الصغار للتفرج عليه، وكان يستنبت أفخر أنواع الورد الجوري في دلهي القديمة ويقيم حفلات يرتادها شعراء وموسيقيون. أما والداها فلم يكونا من ضمن أصدقائهِ.

وإضافة إلى ذلك كانت هناك ابنته اليافعة (بنازير) الفاتنة ريانة الصبا والنقاب ينسدل على رأسها وهي تهرع نحو العربة المقفلة التي تقلها إلى المدرسة، وتلك السيدة (البيغوم) التي تقيم في جناح الحريم المغلق في ذلك البيت، وقد كانت ترسل إليهم والى الجيران من المستأجرين أطباق الحلوى الفاخرة مغلفة بورق فضي على صينية مفروشة بمناديل مطرزة. وكانوا يقيمون في بيت مستطيل مطلي بالجص يقع على الجانب الآخر من الطريق، ويمكن تمييزه من بين

بقية البيوت بلمسات زينته الوافرة مثل النوافذ الزجاجية مروحية الشكل التي تعلو الباب الأمامي، والقرميد الصيني على امتداد جدران الشرفة، إضافة إلى قناديل ومصابيح الزجاج الملون.

كانوا يملكون نصف بيوت ذلك الشارع وعندما غادروا دلهي خلال اضطرابات التقسيم (سنة ١٩٧٤) باعوا معظم تلك البيوت لجيرانهم الهنود بأثمان بخسة باستثناء البيت الذي تسكنه بيم فهي لم تحاول شراءه واستمرت تدفع الايجار القديم الذي كانت تدفعه لهم من قبل.

وقد ألمح راجا إلى هذا الأمر ـ زوج ابنة علي، ووريث ثروته المحترمة ـ في رسالته وكانت رسالة قديمة جداً.

قالت تارا وقد اعتراها الاضطراب:

ـ إنها رسالة قديمة جداً يا بيم، رسالة مضت عليها سنوات طويلة.

قالت بيم بحدة، ولكنني لا أزال محتفظة بها.

وأخذت تنظر صوب النافذة كما لو أنها ترى صوراً متحركة في العتمة.

ـ لا أزال احتفظ بها في أدراج منضدتي لتذكرني كلما تُقت إلى رؤية راجا أو تمنيت عودته إلينا، تجدينني التقط هذه الرسالة وأعيد قراءتها ـ أيه... نعم ـ لقد كتبت له جواباً على رسالته ولا بد أنه ظل يتذكره على مدى سنوات طويلة.. وأطلقت ضحكة مبتسرة أنهتها بما يشبه الغصة وهي تقول:

ـ وتقولين إنه يجب عليّ الذهاب معك إلى (حيدر أباد) لحضور حفل زفاف ابنة راجا، فأنى لي أن أقدم على ذلك؟ كيف

أدخل بيته؟ بيت صاحب الملك؟.. ما أنا إلا مستأجرة فقيرة وبسبب فقري لم يرفع قيمة الايجار ولم يعرضه للبيع ليعود عليه بمكسب كبير، تصوري ذلك يا لجسامة تضحيته.

قالت تارا بنفاذ صبر: أوه يا بيم.

وشخص أمامها ذلك التشابك، التشابك العاطفي للجنس البشري، وتعالى أمام ناظريها، لم تكن تريد شيئاً سوى أن تعود وتهرب إلى الأرض النقية النظيفة الطاهرة التي تعيش عليها مع باكول بكل قوانينها وأنظمتها، بكل نقائها وانضباطها واحتشامها أيضاً ـ احتشامها.

جلست متهالكة على حافة سرير بيم ووضعت الرسالة جانباً على المنضدة بجوار كدس من كتب التاريخ، وأخذت تقلب صفحات كتاب (بلاد الهند والباكستان قديماً) للسير مورتيمر ويلر، وخطر لها أن عنوان الكتاب يتلاءم تماماً مع وضع عائلتها، فقد تزوج أخوها ابنة حيدر علي، وتمنت أن تمتلك الجرأة لتبوح بهذا الخاطر لبيم، أو لتوحي لها بمضمونه، غير أن بيم وقفت وقد تقوس ظهرها في وقفة عسكرية متحدية لا تعرف الخشية.

ـ لماذا تركت كل شيء يتخذ هذا المسار؟

وتنهدت، لماذا لا تقوم بوضع حد لكل شيء وتذهب لحضور حفل زفاف (موينا) ثم تنسى كل شيء إلى الأبد؟..

ـ لقد انتهيت وحزمت أمري.

قالت بيم بشيء من التصميم: لن أذهب إليهم ولن أدعهم يأتون إلى هنا أبداً، لقد انتهى الأمر.. ولكنني لم أنس. كلا، لم أنس..

ـ كلا، ما كنت لأصدق قط، ولن يصدق أحد أن يبلغ بكما العداء إلى هذا الحد، وأنتما الشقيقان المتحابان ـ القريبان كل القرب إلى بعضكما، إنه لأمر مستحيل يا بيم، وقضية لا مبرر لها على الإطلاق.

وختمت عباراتها بصوت أقرب إلى النحيب.

قالت بيم بازدراء ـ نعم؟

واستدارات لتواجه أختها وهي تتفرس في وجهها:

ـ أما أنا فلا أرى كما ترين، ولا أعتقد أن القضية لا مسوغ لها، أن يرتضي المرء الإهانة عندما يُهان أو يُزدرى، ترى ما الذي حاول أن يقوله لي؟

أتراه قصد أن يبتز امتناني له، وأن أسعى إليه زحفاً على ركبتي وأقدم له آيات شكري من أجل هذا البيت الذي نشأنا جميعنا في حماه؟

أم أنه كان يحاول تهديدي بانتزاعه مني؟ أو لربما كان ينذرني بما يمكن أن يحصل لو أنني توقفت عن التسبيح بحمده والإعجاب بشخصه؟

ـ كلا يا بيم، يقيناً أن الأمر ليس بهذه الصورة، ما هذا السخف، كل ما في الأمر أنه لم يوفق في التعبير عما كتبه لك، ويخيل إلي أنه كان يجتاز ظرفاً حرجاً أثر موت حميّه (حيدر علي صاحب)، وأنت أعلم بما يكنه له من مشاعر المحبة، ثم لا تنسي مدى انغماره وانشغاله برعاية مصالح أسرة (بنازير) وحجم المسؤولية المترتبة عليه. كلا، إنه لم يكن يعي ما سطره لك في رسالته..

أطلقت بيم ضحكة ساخرة وقالت:

ـ شاعر ولا يعرف ما يكتبه؟

ثم التقطت الرسالة وأعادتها إلى الدرج في منضدتها، ويبدو أنها خصصت لها موضعاً محدداً في الدرج كأي أثر مقدس مثل أظافر مقصوصة أو ضرس أصفر منخور، صاحت تارا وهي تقفز واقفة:

مزقيها، ولا تحتفظي بها، لا تعيديها إلى مكانها فتخرجينها من مكمنها وتتأملينها فيتأجج حقدك على راجا، مزقيها يا بيم، ألقي بها، مزقيها.

رفعت بيم الغطاء المعدني للدرج ووضعتها، وعلى فمها حركة انزعاج، قالت:

ـ سأحتفظ بها، يجب أن أنظر إليها وأذكر نفسي بمضمونها في كل حين، وعندما تأتين وتسأليني عن سبب رفضي الذهاب إلى (حيدر أباد) لأزوره وأرى أبناءه الصغار، حسنٌ ثم عليَّ أن أوضح لك وأن أثبت لك..

وتأتأت قليلاً وارتبكت ثم كفت عن الكلام.

ـ لماذا يا بيم؟

لم تفصح بيم عن شيء، ولم تخبرها عن سبب احتياجها لكل ذلك الإحساس بالمرارة والمهانة والغضب.

وتناولت فرشاة شعر رمادية قديمة فقدت معظم شعيراتها الخشنة وتلبدت عليها كتلة من الشعر، فارتعدت تارا إذ اعتراها الاشمئزاز لمرأى الفرشاة المتسخة، بدأت بيم تمشط شعرها بضربات سريعة عنيفة.

ـ هيا، لنذهب في زيارة لآل ميسرا، إنهم يسألون عنك،

وبهم توق للقائك، وحبذا لو طلبت من باكول أن يرافقنا، لا بد أنه ضجر، وهو يعرف آل ميسرا لأنكما تعارفتما في بيتهم، آه كدت أغفل ذلك. قالت هذا وضحكت شبه ذاهلة، تبعتها تارا إلى خارج الغرفة فأحست بالارتياح لأنها تقف في الهواء الطلق من جديد، بعيداً عن شبكة العفن الكثيفة في غرفة بيم وأحابيل بيم، ارتاحت وهي ترى أضواء المساء والحديقة وشجرة ملكة الليل التي ترش أشذاءها عليهم فتغمرهم بسحابة من غبارها العطري.

نبح الكلب بادشاه واندفع متوقعاً أمراً ما، ولاحقتهم أنغام موسيقى رقصة (الفوكس تروت) التي شاعت في الأربعينات منبعثة من حاكي (بابا)، وتسللت وراءهم في الممر المؤدي إلى البوابة مثل طائر ميكانيكي احتل موقع طيور الوقواق وحمائم النهار.

وهنا توقفت بيم وأمرت (بادشاه) بنبرة حازمة أن يقعي على الأرض، ولبثوا يترقبون في انتظار أن يذعن الكلب لأمرها، فأطلق همهمة احتجاج وظل يدور ويخمش قدمي بيم بمخالبه، وأطلق نباحاً مكتوماً ثم أخذ يولول مستسلماً واقعى على عجزه، وحينذاك استداروا وخرجوا من البوابة وما عادوا يسمعون صلصلة موسيقى رقصة (فوكس تروت) أيام الحرب.

مضوا قدماً باتجاه الطريق الخاص المؤدي إلى بيت آل ميسرا وتناهت إليهم بدل ذلك ضجة دروس الموسيقى والرقص التي تعطيها الشقيقتان ميسرا في المساء بعد أن توقفت دار الحضانة الصغيرة التي تديرانها منذ يوم واحد، وأعطى الأمر احساساً أن ابنتي ميسرا لن تتوقفا قط عن الكدح والعمل، ولن تكفا عن ملاحقة لقمة العيش.

رصفت فوق المرج المغبر مقاعد خيزران بهيئة دائرية جلس

عليها الأخوة أبناء ميسرا، يستمتعون باستراحتهم التي تبدو أبدية، وأنهم لن يتوقفوا قط عن الاستمتاع بها.

كانوا يرتدون ثياباً صيفية من الموسلين الرقيق، ويحتسون المشروبات المثلجة والنقاش محتدم بينهم حول نهارهم الخاوي الذي كان بائساً ولا نفع فيه أشبه بقدح فارغ.

نهضوا لاستقبال جيرانهم، لكن بيم توقفت بعض الوقت واعترتها رغبة ماكرة لدخول البيت ورؤية المرأتين الكهلتين بنظارتيهما وشعرهما الرمادي، كانت الشقيقتان قد تزوجتا وهجرهما زوجاهما بعد الزواج مباشرة فكرستا نفسيهما لتعليم الأغاني والرقصات الصوفية التي يدور معظمها حول تسابيح الإله (كريشنا) بحمد الآلهة (رادا)، أما الرقصات فقد كانت مكرسة على الدوام لـ (رادا) وهي توجه لومها وعتابها لـ (كريشنا).

لم تكن بيم غير إنسانة عديمة الرحمة، فبدلاً من أن تشارك الرجال في مجلسهم فوق المرج، ارتقت درجات الشرفة نحو السيد ميسرا الوالد الشيخ الذي كان بين مضطجع وجالس فوق الحشايا التي صفت على الأريكة الخشبية وبيده قدح من الصودا، ناظراً ومصغياً إلى نقاش أبنائه، وبين الآونة والأخرى يلقي أمراً لا يستمع إليه أحد، ثم ينصرف محزوناً إلى تجشؤاته.

جلست تارا وباكول مع الأخوة ميسرا فوق المرج وتحدثوا وأنصتوا إلى أصوات التلاميذ والمدرستين تتعالى مشوبة بالحزن، ثم تعود خفيضة إلى قرار الأنغام التي تعزف على أرغن كئيب، وكانوا أثناء أحاديثهم عن دلهي وواشنطن والسياسة والسفر يحاولون تخيل المشهد الذي لا يتوقع أحد حدوثه داخل البيت.

وأخيراً خرج الصغار وقد أنهكهم التدريب وتفصدت

أجسادهم عرقاً فاندفعوا مسرعين نحو البوابة حيث تنتظر وصيفاتهم وهن يمضغن أوراق (الفوفل).

ولم تلبث المدرستان أن خرجتا إلى الشرفة باديتيْ الإعياء وناضحتين عرقاً، وقد اكتسى محياهما بكآبة التعب، وضاعت كل معالم البهجة من حولهما.

صاحت الأختان بصوت واحد:

- بيم.. بيم، لماذا تجلسين هناك مع الوالد تعالي إلى الحديقة وأشربي شيئاً.

ولم تستجب بيم لندائهما، إنما ثنت قدمها ودستها تحت ساقها الأخرى مبينة لهما أنها لن تغادر مكانها..

- كلا.. كلا إنني أحب الإصغاء إلى العم ميسرا، لم تقل لهما أنها زاهدة في صحبة أبناء العم ميسرا.

- إن العم يروي لي كيف أرسل في بعثة إلى انكلترا لدراسة القانون، ولكنه غادر السفينة في (بورما) ووجد فرصته وواتاه الحظ هناك، أريد أن استمع إلى القصة كاملة، وعليكما أن تذهبا للقاء تارا وباكول فقد حضرا إلى هنا.

صرخت الشقيقتان: تارا وباكول؟.. ورفعتا نظارتيهما وسوتا شعريهما والساري الذي ترتديه كل منهما وأسرعتا نحو الحديقة بينما لبثت بيم جالسة بجانب الشيخ العليل.

- ولكن، أهي قصة حقيقية يا عماه؟

(أزعجته بسؤالها) لم أعرف ذلك عنك..

تساءل الرجل: ألا ترين البرهان على ذلك؟

واهتزت يده بقدح الصودا فانسكب السائل وطشطش فقاعات ورغوته على ذراعه.

ـ حسن، لو كنت قد رحلت شمالاً إلى أوروبا أو عملت في تلك البلاد ذات المناخ البارد وتعلمت كيف أجعل حذائي لامعاً على الدوام، لكنت عدت إلى هنا شخصاً مرموقاً ورجلاً جم التهذيب منظماً، ولكني بدلاً من ذلك اتجهت شرقاً لأحقق نبؤة الـ (سوامي) معلمي الهندوسي العراف، فحصلت على الثروة دونما كد أو عمل، فكنت أمضي وقتي وقد خلعت ملابسي لشدة الحر طلباً للابتراد، وأنام في فترة الظهيرة قيلولتي اليومية واحتسي شرابي طوال الأمسيات، ولذا عدت بثروة ولكن دونما شخصية منظمة أو درجة علمية.

وقهقه الرجل وبحركة متأنية أراق المزيد من ماء الصودا إشارة لإيمانه بالقضاء والقدر.

ـ ماذا يا عماه؟ أكل ذلك لكي ترضي (السوامي)؟

ـ أجل أجل، إنها الحقيقة يا بيملا، لقد اعتاد والدي أن يذهب إلى ذلك المعلم الهندوسي الذي لم يكن غير معلم هندوسي من عامة «السوامي» الصغار الذين يجلسون خارج محطة القطار ويوقعون في شراكهم أولئك القرويين الذين يقدمون إلى المدينة ليجربوا حظهم فيها (سوامي ـ جي.. سوامي ـ جي هل سيحالفني الحظ؟..) هكذا يسألونه فيضع يده على رؤوسهم لمنحهم بركته وهو يقول:

أجل يا بني، إذا أنت وضعت في جيبي خمس «روبيات»، إنه من هذا الطراز من الرجال، وقد قصده والدي ليشتري (مباركته) لي لأنني سأغادر إلى انكلترا في اليوم التالي، وكنت قد حزمت

حقائبي وحجزت بطاقة السفر. وذرفت أمي الدموع لفراقي، غير أن والدي ـ على ما يبدو ـ لم يكن قد منح (السوامي ـ جي) المال الكافي فقال له:

ـ أسيذهب ابنك إلى انكلترا؟ إلى (الولاية)؟

كلا بالتأكيد إنه لن يرحل أبداً إلى الشمال بل سيتجه شرقاً.

صاح أبي: كلا. .كلا. . لقد تم كل شيء وحجزنا له بطاقة على باخرة شركة (او ـ بي) وسيغادر إلى بومباي غداً ليلحق بها، وسيدرس القانون في إحدى الكليات المرموقة في انكلترا.

غير أن سوامي ـ جي اكتفى بتحريك رأسه ورفض أن يضيف كلمة أخرى.

وعاد والدي إلى البيت، محزوناً كاسف البال، والتقى عند بوابة دائرة بريد كشمير بصديق قديم كان يدرس معه في مدرسة واحدة ثم غادر البلاد إلى بورما ليعمل في تجارة خشب الساج إلا أن ذلك الرجل الوغد الذي كان ينبغي له أن يموت ويلفه الردى ـ آه، لقد نسيت يا بيملا ـ فإنه قد مات منذ زمن بعيد وترك لي كل ثروته.

عانق أبي وضمه إلى صدره وهو يقول:

ـ أنت بمثابة أخ لي، وابنك هو ابني، أرسله إليّ دعه يعمل لدي وسوف أجعل منه رجلاً، وألغيت كل استعدادات السفر وتخليت عن دراستي، ويممت وجهي صوب الشرق، نحو (بورما).

وعبَّ الرجل نصف قدح من ماء الصودا بلهفة ظمآن آذاه العطش. .

وقال: «آه.. ذلك السوامي» وأخذ يتجشأ.

سألته بيم وقد أثار فضولها:

- أوتظن ذلك؟.. أكان والدك سيرفض عرض صديقه لو لم يطلق الكاهن الهندوسي نبوءته؟

تحسر الرجل العجوز وقال: من يدري..

ثم غيّر جلسته إلى وضعية أدعى للراحة وقال:

- قدر محتوم، إنهم يتحدثون عن القدر، ما هو القدر؟! وضرب رأسه بيده على نحو مؤثر - أواه من ذلك القدر..

- ما الأمر يا عماه؟ أتحس بألم ما؟

سألته بيم، لأنها رأت وجهه الطبيعي الناعم الرقيق مثل زبد قد أربد وتجهم والتمع عليه العرق، غاص في مقعده وتنهد:

- لا شيء، لا شيء يا ابنتي بيملا، إنها الشيخوخة وحسب، إنه القدر والشيخوخة وليس بوسع أحد منا أن يفلت منهما، أنت لا تريد، ولا تعرف ولا تفكر بأمر ما، ثم يقع الأمر بغتة وعندئذٍ فقط ستعرف كل شيء.

وضحكت بيم وانشغلت بتناول بعض أوراق (الفوفل) الموضوعة في علبة فضية إلى جانبه، ثم أضافت إليها عصير الليمون ورشت عليها اليانسون والهيل وقالت:

- هل يخالجك الظن أن المرء لا يقاسي الألم عندما يكون في مقتبل العمر؟

تعال واجلس يوماً واحداً وبين يديك تسعون ورقة امتحانية يتوجب عليك تصحيحها، وحاول أن تميز بين تسعين نوعاً من خط اليد، وكلها خطوط رديئة تصعب قراءتها، ثم تكتشف أن

الصف بأجمعه قد كتب لي تسعين رواية مختلفة عن الموضوعات التي علمتهم إياها، وكل رواياتهم مغلوطة، ضحكت وجمعت أوراق (الفوفل) في يدها ووضعتها في فمها.

- هذا ما أقوم به كل يوم فيسبب لي نوعاً من الألم القاسي..

وأمسكت برأسها على نحو مسرحي مصطنع فضحك الشيخ، لقد كانت بيم تُضحِك هذا الرجل على الدوام، يوم لم تكن غير صبية صغيرة تقوم بحركات بهلوانية على دراجتها وهي تسير في الطريق وتهيب بها ابنتاه:

- بيم، سوف تسقطين أرضاً..

قال لها:

أنتِ تجهدين نفسك في العمل ولا تعرفين كيف تتمتعين بحياتك، أنت وابنتاي، جميعكم من طراز واحد، أنت تعملين وتدعين أخوتك يستمتعون بحياتهم، هاك أنظري إلى أبنائي، هناك..

وأشار بيده نحوهم فانزلق كم ردائه الموسلين وكشف عن تميمة مربوطة على ذراعه بخيط أسود يلتف حول منطقة مكسوة بالشعر الأبيض..

- أنظري إليهم.. أجلاف مترهلون، كسالى، يكرعون الويسكي، يحتسونه طوال النهار لأن الشقيقتين تدفعان ثمنه، هل سمعت طوال حياتك بمثل هذا؟

في زمننا كانت الشقيقات يعقدن الخيوط الملونة حول معاصمنا في عيد (راخيباندان) (عيد التآخي) وهن يلتمسن منا الحماية، فكنا نقدم لهن الهدايا والهبات ونعدهن أن نبذل لهن

الحماية والرعاية. وإن لم يزد الأمر عن كونه تقليداً في مهرجان سنوي.. غير أننا كنا نعني ما نقوله في الأقل، وعندما توفي زوج اختي أحضرتها إلى هنا لتعيش معنا، وقد مكثت هنا على مدى سنوات هي وأبناؤها، ولربما لا تزال مقيمة في الدار هنا وأنا لا أدري لأنني لا أراها.

كان يواصل حديثه دونما وعي وعلى نحو مبهم ليختم كلامه بصوت منفعل مهتاج لكأنه مرغم على الكلام:

ـ ولكنهما.. لكنهما يدعان شقيقتيهما تقومان بالطقوس ثم لا يعبآن بشيء قط ولا يفقهان ما تعنيه الطقوس طالما يتوفر لهما الويسكي والوقت للجلوس باسترخاء وراحة وهما يحتسيان المشروب، لا فائدة ترجى من هؤلاء الأبناء، إنهم سقط متاع، أبنائي، وكل ما يقومون به مآله الفشل.

ـ ماذا؟.. هل فشلا أيضاً في أعمالهما الجديدة؟

وذلك العمل الحقيقي المحترم الذي بدأ (بريج) يمارسه؟..

هل أخفق فيه أيضاً؟

ـ أجل بالتأكيد.

صاح العجوز بشيء من الانشراح ـ بالطبع أخفق فيه، فهل يمكن لعمل يديره (بريج) أن يكون عملاً موفقاً؟ وهو الذي يتقاعس عن الذهاب إلى مكان العمل لاعتقاده أن العمل شيء مزرٍ، وهو يرفض التحدث إلى مرؤوسيه لا لشيء إلا لأنهم بنجابيون من الباكستان ولا ينتمون إلى عائلات دلهي العريقة... ما الذي يمكن أن يفعله المرء مع أحمق على شاكلته؟.. هل أركله بقدمي إلى خارج البيت وأرسله إلى مقر عمله؟.. ثم تأملي ما

يقوم به ابني الآخر (مَلكْ) ـ موسيقينا العظيم! إن كل ما يقوم به هو التلويح بيديه في الهواء والبحث عن النجوم في سماء النهار ثم يغني، ويغني، إنه يريد أن يغني فحسب، لماذا؟ ولمن؟.. ومن يطلب منه الغناء؟.. لا أحد!.. إنه يريد ذلك فقط، هذا كل ما في الأمر.. فهو لا ينتظر أن يطلب منه أحد أن يعمل أو يحصل على المال، فالجميع يجب أن يتوقعوا منه الغناء..

وانفجرت على المرج هناك زوبعة من الضحكات.

ـ وماذا عن سير العمل القديم في معمل الثلج وماء الصودا؟.. لديهم مدير جيد يدير أمور العمل هناك..

ـ آه.. نعم مدير جيد، جيد جداً، لا سلطان لهم عليه، كانوا يظنونه ملاكاً هبط على الأرض (فارشتا)، نبياً أتى ليؤدي الخدمات من أجل سواد عيونهم، ويملأ خزائنهم بالذهب. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قصدوا فيه إدارة المعمل ليفتحوا الخزانة من أجل بعض الذهب الذي كانوا بحاجة إليه لتقديمه إلى أولئك (الغانيات) اللائي يزورونهن في شارع (غرانت) ـ المغنيات والراقصات ـ حتى اكتشفوا ان الخزانة قد خوت، وأن المال قد ذهب.

ـ والمدير؟

ـ ذهب أيضاً، لقد كان مولعاً بالمال وعندما ذهب المال ذهب الرجل معه ليهتم بشأنه ويعنى به..

وهمهم الرجل العجوز ثم ضرب بيده على فخذه مما جعل مئزره ينزلق جانباً فيكشف عن الشعر الرمادي الذي كسا الجسد المترهل الفاني.

فأعاد تسوية المئزر كيفما اتفق ثم أضاف:

ـ بأي شيء يفكر أولئك الأبناء؟ ما الذي يظنونه؟ أن يجهد الآخرون أنفسهم في العمل ليأكلوا هم؟

ـ لم أكن على علم بهذا من قبل.

قالت بيم باهتمام: هي التي كانت تظن أن لآل ميسرا أعمال مضمونة تكفل لهم العيش الآمن ـ شأنهم شأن عائلتها ـ إذ لا يزال لدى العائلة دخل من أسهم والدهم في حقل التأمين، وظل الأمر على حاله دونما ضجيج أو تفاخر، ودونما عون منهم وكفلت لهم النقود السكن والطعام، فإذا كان المدير الذي يتكفل بإدارة أعمال والدهم الراحل قد حصل على مزيد من المال إضافة إلى أجره فإن بيم لن تحقد عليه، فهي تكسب مالاً لتضيفه إلى ذلك الدخل الذي تكسبه بجهدها وعرق جبينها.

وثمة في الواقع أخوها (بابا) وهو الوحيد الذي يحتاج إلى إعالة، أما أبناء آل ميسرا هؤلاء السمان، هذه البهائم المكسوة بالشعر، فلماذا يعيلهم الآخرون؟

يا لبؤس ابنتي ميسرا، المرأتان الكئيبتان الهزيلتان، ما زالتا تتقافزان وهما تؤديان رقصات (راداوكريشنا) وتمثلان أدوار العذراوات والعوانس المحرومات من الحب من أجل كسب لقمة عيش هؤلاء الأخوة.

وهزت بيم رأسها: حمقى!

ودمدم الأب باحثاً عن شيء ما تحت الحشايا والوسائد عبثاً.

وعرفت بيم أنه يبحث عن النارجيلة (الشيشة) إذ لم يعد مسموحاً له بأن يدخن اللفائف.

صاح العجوز: أف..

وانحدرت زاويتا فمه تماماً فقد كان على وشك أن يصرخ مثل طفل.

ـ حتى (النارجيلة) استكثروها عليَّ، قال الطبيب لا، وأذعنت البنتان للطبيب. وأهملتا شكوى والدهما، وما جدوى هذا الأب وكيف سيكون أمره وهو يعيش من غير شراب أو دخان؟

وانطلقت الضحكات على المرج من جديد، وتصاعدت مثل دوامات في دجى الليل كالضوء أو الدخان.

قال الرجل العجوز: اضحكوا.. اضحكوا، أجل اضحكوا الآن قبل أن يفلت كل شيء من أيديكم. كما حدث معي وحكمت عليَّ الأقدار..

ثم قال لبيم: ولكن، لا تأبهي ولا تأسفي أبداً، ورفع رأسه باستقامة وثنى ذراعيه فبدا هادئاً مرة أخرى وأقرب إلى هيئة تمثال من حجر..

وقال: عندما كنت شاباً في مثل أعمارهم أتظنين أنني كنت أفضل منهم؟..

وغمز بعينه أمام دهشة واستغراب بيم..

ـ أتظنين أنني كنت قديساً؟.. كلا، لم أكن بأقل منهم،

وأطلق ضحكة ـ سأحكي لك الآن.. لم أكن بأقل من أي منهم بدانة وشراهة وحمقاً، ومجونا، وأخذ يضحك ماداً ذراعه كما لو أنه يدفعهم عن طريقه باحتقار.

سكير، زير نساء، مفلس، يجري وراء الشراب والنساء والمال.. هذا ما كنته، شأني شأنهم تماماً، بل أسوأ منهم، أسوأ من أي منهم.

وأخذ يطلق قهقهات مزقزقة مكتومة، ورأسه يتأرجح على عنقه مثل شيء سائب:

ـ أشد مجوناً وفسقاً من أي واحد منهم. كرر العبارة بزهو المستميت.

وأنزلت بيم ساقيها بحذر وقد احمرَّ وجهها في عتمة الظلال، وأخذت تبحث عن خفيّها.

وهنا قدمت ابنته (جايا) صاعدة الدرجات لتصحب بيم إلى حيث يجلس الجميع:

ـ هيا يا بيم تعالي وشاركينا، (تارا) تحدثنا عن (واشنطن) إنه لأمر ممتع، وأبي سوف يتناول عشاءه ويخلد إلى النوم.

ـ أبي، لسوف أرسل الطاهي ليعد عشاءك.

ثم أسرعت صوب المطبخ بينما هبطت بيم درجات الشرفة نحو الحديقة فغطس الشيخ بين الحشايا والوسائد وأغمض عينيه حتى خيل إليها أنه قد استغرق في النوم لأنه كان هامداً تماماً، غير أنه صاح بعد برهة:

ـ المخلل، لا تنسي يا جايا مخلل الليمون الأسود دعيني أتناول شيئاً منه.. هل ستحضرينه لي؟

ازداد الحديث رصانة ووضوحاً فوق مرج الحديقة، بالرغم من وجود الويسكي الذي يشارك الحظوة لديهم..

أحضر بعضهم لبيم قدحاً طويلاً ممتلئاً بمكعبات الثلج وتساءلت بيم مع نفسها، أيكون هذا الثلج من مصنعهم؟ وأخذت ترشف منه وتمطي قدميها العاريتين على العشب، فتحس بدغدغاته الناشفة.

قال أكبر أبناء ميسرا وهو يحرك مكعبات الثلج في قدحه.

- قل لي يا باكول بصفتك دبلوماسياً في السفارة الهندية كيف تفسر الوضع للأجانب؟.. وإذا ما داهمتك الصحافة الأجنبية الآن وسألتك فماذا عساك تقول؟..

لعلك ستقول (لا تعليق!!..) ولكنك عندما تلتقي بأصدقاء في حفلة ويسألونك ما الذي يجري هنا، وكيف يتصرف رئيس وزراء كما يفعل رئيس وزرائنا، وكيف يفلت الوزراء ويهربون مع كل ما يقومون به، وما الذي ستفعله إزاء مشكلات البلاد؟ ومن الذي سيجد الحلول الناجعة لها؟ كيف ولماذا تسير الأمور على هذا النحو؟ فماذا ستقول لهم عند ذاك يا باكول؟

وتوقفت بيم التي أشعلت لنفسها سيكارة وأخذت ترقب صهرها باكول وهو يواجه هذا الاستجواب، كان الظلام قد أطبق تماماً على المرج وأنيرت الأضواء في الشرفة ليتمكن الوالد العجوز من تناول طعامه، وأخذت المصابيح تلقي أضواءها بأشكال هندسية باهتة عبر أحواض زهور موز الزينة (زنابق الكنا) المحاذية للبيت، ولكنها لم تكن كافية لإضاءة وجه (باكول) وترك الجميع يترقبون صامتين كما قدرّ وبدأ يزن رده الدبلوماسي بدقة متناهية، حمل سيكارته بأناقة في مبسم سكائر على مبعدة ذراع ونطق بأشد نبراته مداورة وملاءمة للموقف:

- ما أشعر أنه واجبي، ومهمتي هي عندما أكون خارج البلاد فأنا سفير لبلادي، وكل الذين في الخارج مهما اختلفت مناصبهم ودرجاتهم هم سفراء لبلادهم، أرفض التحدث عن (المجاعة) أو (الجفاف) أو (الصراع الطبقي) أو..أو النزاعات السياسية.. أرفض..أرفض مناقشة مثل هذه الأمور (لا تعليق!..).

هذا هو الجواب إذا ما سئلت، بوسعي مناقشة هذه الأمور هنا، معك، ولكن لن أفعلها مع أجانب وفي بلاد غريبة، هناك أنا سفير وقد اختاروني لأعرض وأقدم الوجه الأفضل والأبهى وحسب.

سألت بيم وهي تمج دخان السيكارة التي توهجت في الظلام وهي تتجنب عيني أختها تارا المراقبتين الاسيانتين:

ـ (تاج محل) مثلاً؟

ـ أجل بالضبط ـ قال باكول على الفور.

أجل (تاج محل) ـ البهاغافادا غيتا (الفلسفة الهندية) الموسيقى ـ الفن ـ القيم الخالدة العظيمة للهند العريقة، فعلام نتحدث عن السياسة الإقليمية والنزاعات الحزبية والممارسات السيئة إبان الانتخابات ـ نهرو وابنته، وحفيده، ومثل هذه الأمور التي سرعان ما تنسى؟.. هذه أشياء زائلة لا قيمة لها مقارنة بالهند، الهند الأبدية الخالدة، قالت بيم وهي ذاهلة متفكرة:

ـ أجل.. إن مثل هذه المشاعر تعينك إلى حد كبير على العيش في الخارج.

كانت قدمها تعبث بأطراف ساريها وهي تحدق بعيداً:

ـ أما إذا عشت هنا، وبالأخص إذا عملت في خدمة الدولة هنا، فأظنك ستكون ملزماً، بل ومرغماً على ملاحظة أشياء من هذا القبيل، وسوف ترى أهمية مثل تلك الأمور، ولست على يقين من كونك تتجاهل أموراً مثل الرشوة والفساد، والمجاعة والصراع الطبقي وسوى ذلك لأن العيش والعمل هنا ـ في الحقيقة ـ سوف ينسيك بسهولة ـ تاج محل ـ ورسالة (غيتا).. قاطعها باكول بعزم:

ـ جزء مني يعيش هنا إلى الأبد، الجزء الأعمق من نفسي، التفتت بيم معترضة: آه، وإذن، فإن من المناسب والضروري لك أن تعيش في الخارج بتلك الرفاهية وأسلوب الحياة المترف الراقي في السفارة لأن الأمر سيكون أكثر دعة وهناء، أعظم يسراً لكي يتركز حديثك عن (تاج محل) والامبراطور (أكبر) أما هنا فإنك تنشغل في الوقوف في الصف لانتظار حصتك من الأرزاق، وتحوّر في ميزانيتك وتقتر في الإنفاق.

انفجرت تارا معترضة: كلا يا بيم، إنك تبالغين، أنا لم أرك تقفين في الصف من أجل الخبز ولا من أجل انتظار حافلة. وأطلقت بيم ضحكة منتشية مرحة لأنها نجحت في إثارة تارا وهي تقر أنها تغالي بعض الشيء في ما قالته.

أغاظ ذلك باكول الذي حمل كل شيء على محمل الجد تماماً، ونقر بمبسم سيكارته على ذراع الكرسي مصطنعاً هيئة قاضٍ يدق بمطرقته في جلسة حكم عاصفة صاخبة.

أدارت تارا عينيها في جميع الجهات بحثاً عن مهرب، ولكن بيم ألقت برأسها إلى الوراء وقد استغرقت في الضحك.. فأغرق الرجال الجالسون إلى جوارها في الضحك أيضاً، ثم انحنت إلى أمام والسيكارة بين شفتيها فاقترب باكول منها وأشعل لها السيكارة فأضاء لهب عود الكبريت واشتعلت السيكارة في جمرة صغيرة وامضة.

آلم تارا إدراكها أنها، وإن كانت الأخت الأكثر جمالاً والتي طالما حام حولها الشبان أشبه بنحل يملؤه الفضول والثقة والحماسة باحثاً عن رحيقٍ ما استبشر بوجوده حوله، إلا أن بيم كانت هي الأشد جاذبية وسحراً. بيم الفارعة ذات الكتفين المربعين اللذين

منحا جسدها المزيد من الجمال، ها هي الآن وقد إبيضّ شعرها وغدت على قدر كبير من النضج، لاحظت تارا إنها بلغت ذلك المنعطف من العمر الذي يمكن أن توصف المرأة فيه بأنها مليحة وسيمة، وبدا أن كل الرجال قد سلموا بهذا وأشادوا به.

وإذ كانوا يضحكون لما تتفوه به بيم، تشيع في الجو رعشة حسية ناعمة فيظهر في حركة بيم بعض الازدهاء الواثق وهي تمتص وجنتيها لتشعل سيكارتها، ثم وهي تدفع بنفسها إلى الوراء على مقعدها وتحرك رأسها حركات مفاجئة وهي تستل سيكارتها من فمها فتنطلق جراء حركتها حلقات من دخان تظل دائرة بهدوء حول يدها.

لاحظت تارا مقدار فتنة المرأة وهي تدخن، فثمة علاقة ما تنبثق مع الرجل الذي ينحني أمامها حاملاً عود الثقاب والمرأة تدني رأسها نحو ذلك الضوء المتوهج كما فعل باكول وبيم..

إن تارا لم تدخن ولم يهبها ذلك الضوء، أو لعلها فقدت بزواجها كل حق في المغازلة، بينما لم تفقد بيم بعزوبيتها مثل ذلك الحق.

كلا، إن الأمر مختلف تماماً فلا يمكن أن يدعى الأمر مغازلة بالنسبة لبيم..

وصفعت حشرة كانت تدب على ذراعها.. وقالت (لمانو) الذي تطوع ليأتي برشاشة مبيد الحشرات:

- إن في ذلك ازعاجاً كبيراً لك..

غير أن بيم لا تنزعج أبداً.

لم يكن أبناء وبنات آل ميسرا يبدون اهتماماً بالتلميحات

الرقيقة الغامضة الكامنة وراء مثل تلك المناقشات، فقد أراد أحد الأبناء أن يعرف سعر أجود أنواع الويسكي في واشنطن، الويسكي الرفيع وليس ذلك الشيء الرديء المسمى شراب (البوربون)، بل السكوتش، أيمكنك الحصول على الويسكي (الاسكتلندي؟)

بينما سألت البنات تارا: من أين حصلت على الساري المصنوع من قماش الشيفون وحقيبة اليد الجلدية، وما هو ثمنهما؟

انصتت بيم لتارا وهي تقدم لهن معلومات امرأة ذات خبرة بالتسوق، طلقة اللسان إلى حد أنها كانت تتحدث بسرعة، مما جعل صوتها غير موثوق به.

وبدا الأمر ممتعاً لبيم التي رأت عبر ضباب دخان السيكارة أن تارا لم تستوعب كل الاستيعاب (النزعة الأمية) التي كانت تبدو ناشزة عليها، مثل طفلة ارتدت حذاء أمها ذي الكعب المرتفع فبدت طويلة لكنها كانت تتأرجح وتترنح في سيرها.

اقترب رأسا الشقيقتين من تارا وقد انخفض صوتاهما إلى حد الهمهمة وهما تتحدثان عن يمينها ويسارها. (ولكن كم ستمكث ابنتاك في الخارج؟.. ألا ينبغي لهما العودة إلى الوطن لكي تتزوجا؟)

انكمشت تارا في مقعدها الخيزراني الشبيه بالسلة، وأوضحت لهما الأمر:

- إن إحدى البنتين في السادسة عشرة والأخرى في السابعة عشرة فحسب.

ولولت المرأتان: هذا أوان الزواج، من الخير لهما أن تتزوجا في أوانهما المناسب.

دعكت تارا اصبع قدمها ـ الذي لدغته حشرة ـ بالعشب وبدا عليها الانزعاج والألم.

ورفعت بيم ـ التي سمعتهن عرضاً ـ حاجبيها مستنكرة والتفتت نحو (مَلْك) الابن الأصغر الذي تعاطف معهن من خلال صمته.

كان قد احتسى المزيد من كؤوس الويسكي التي لا يمكن تخمين عددها. وجلس متجاهلاً المجموعة وواضعاً إحدى يديه على ركبته وهو يغني مقاطع قصيرة بصوته الأجش المتكسر، ورأسه يترنح طرباً للموسيقى التي لم يكن أحد ليسمعها سواه.

ما كانت بيم قد رأته جيداً حتى هذه اللحظة، فقد لاحظت أن لحيته لم تحلق منذ بضعة أيام، وقد ارتدى قميصاً فقدت بعض أزراره واتسخ كمه ببقع من عصير ورق (الفوفل) قديمة العهد، أما خفاه اللذان انتعلهما في قدميه المتسختين فقد كانا بحاجة إلى الرتق. أدار عينيه في محجريهما مثل كلب ينبح بوجه القمر، وأخذ يدندن لنفسه:

ـ زنداكي.. أوه زنداكي (الحياة، آه أيتها الحياة).

كان يغني دونما دوزنة، وبين لحظة وأخرى ينعش نفسه برشفة من الويسكي.

وفجأة تمزق المشهد بصرخة حادة. فقد انسكب الويسكي من الزجاجة المفتوحة وأخذ مَلْك يجاهد لإزالة الشراب من فوق كرسي (الكانفاس) الذي ضاق بجسده الضخم.

وإذ توقف الجميع لينظروا إليه أشار بيده في تلويحة عريضة وصاح على نحو دراماتيكي:

ـ أين عازف الطبلة؟.. أين عازف الهارمونيوم؟.. أين

العازفون الذين يرافقونني؟

أين هم؟ (شوتا ميا؟.. بيرميا؟)ووقف مترنحاً على ساقيه الضخمتين وهدر موجهاً زعيقه نحو البيت المضاء والأشخاص الراكضين في الشرفة.

ـ إش.. أخي مَلْك..

صاحت جايا وسارلا وقد تغضن وجهاهما مثل عقدتين مظلمتين:

ـ إش، لسوف توقظ الوالد، لماذا تصرخ؟ أنت تعلم أنهم لم يأتوا.. إنفجر فيها صائحاً، أجل، أعرف أنهم ليسوا هنا، ثم استدار ومضى يترنح باتجاههما، وسحبت بيم وتارا أقدامهما خشية أن يتعثر بها.

ـ أعرف من الذي طردهم، أنتما الإثنتان، أنتما طردتماهم من هنا.

صاح أخوته: مَلْك، مَلْك..

ضم قبضتي يديه إلى صدره كأنهما طائران سمينان وارتفع صوته الراعش وقد اكتسى وجهه بإيماءات شنيعة.

ـ إن في ذلك مضيعة للمال، كيف بوسعنا أن نبقي الموسيقيين، علينا أن نطعم أنفسنا أولاً، قل لهم أن يذهبوا، يجب أن يذهبوا.

ودفع بالطائرين المتشبثين بصدره بعيداً عنه فسقطا إلى جانبه، (هذا كل ما أسمعه منهما، من تينك الأختين).

وتعالت دندنة خفيضة مسالمة من الحمائم الجائمة فوق الكراسي:

مَلْك.. مَلْك استدار مَلْك.. مترنحاً ليواجه بيم وتارا وباكول.

- لقد طردوا عازفي فرقتي..

وكاد أن يجهش بالبكاء..

- طردوهم، فكيف سأغني من دون فرقة ترافقني؟

- رويدك، رويدك يا مَلْك، إننا لم نطردهم بل أعلنا لهم أننا لم نعد نملك ما يكفي من المال لندفع أجورهم ونطعمهم الكباب والرز والكورماس، كما كنت تنتظر منا.. أتراه خطأنا عندما هربوا حالما توقفنا عن تقديم تلك الأطعمة لهم؟

- الطعام - الطعام.. ليس الطعام هو ما يريدونه إنكما بهذا توجهان لهم الإهانة، إنكما تهينان معلمي (الغورو) الذي لا يريد طعاماً ولا نقوداً، إنه لا يطمع بغير الاحترام والتقدير، وهذا ما يجب أن نقدمه لـ (الغورو).. غير أنكما لا تحترمان ولا تقدران أحداً، ولا تفكران بغير المال.. المال.. المال هذا كل ما يشغل ذهنيكما أنتما الإثنتان.

- ملك، ملك.

- لديكم رؤوس محشوة بالمال، يا لها من رؤوس قذرة، إنهم لا يفهمون الفنان،ولا يدركون كيف يحيا من أجل فنه، حتى أنهم لا يعرفون ما تعني الموسيقى أبداً. وهنا أمسك صدره بيد رطبها العرق وتابع يقول:

- الموسيقى، هي الوحيدة التي تجعلني أحيا، وليس الطعام أو المال. الموسيقى، ماذا تعني الموسيقى لأولئك الذين لا يفكرون إلا بالمال؟ إذا قلت أريد فرقة ترافقني في الغناء، فإنهم

سيقولون (أوه، لا مال لدينا) وإذا قلت أريد أن يأتي أصدقائي هذه الليلة لأغني لهم وأرجو أن تهيئوا لهم طعام العشاء، يزعقون بي: لا مال لدينا، أيحتاج المرء إلى المال ليعزف الموسيقى؟

زمجر مَلْك ولوح بذراعه فأظهر الكم الممزق إبطه ودغلاً من الشعر الرمادي فيه.

وقف وترنح، وذراعه لا تزال مرفوعة وتهدل الكم الممزق عندما واجه ضيوفه.

ـ أيمكنكم ذلك؟

وتطاير الرذاذ من فمه وانتشر حيث جلسوا مغلوبين على أمرهم..

ـ قولوا لي.. أبوسعكم ذلك؟

كان الضيوف قد تجمدوا واهتاج أفراد العائلة وتفجرت الأختان أشبه بقرني بزاليا يابسين عتيقين فألقتا بذوراً سوداء من المعارضة والسخط، وقالتا بصوت واحد:

ـ المال؟ من أين لهما بالمال تدفعانه للحفلات الموسيقية والولائم؟

ارتفع صوت ملك وقد أحنى رأسه وأخذ يحركه يميناً ويساراً وقال بصوت متوعد:

ـ ألم أعطكما المال؟.. ماذا حل بذلك المال الذي قدمته لكما؟ أنتما لماذا لا تتكلمان؟ أين ذهبت الخمسمائة روبية، ألم أقدمها لكما؟ أين هي؟ أرياني إياها، أريد أن أراها، أريدها، وشرع يدفع بقدميه داخل العشب ثم يرفعهما وكأنه وحش أفلت من زمامه وأصبح من المستحيل كبحه، فانقلبت إحدى المناضد

الخيزرانية الصغيرة، وانسكب الكأس وتحرك باكول آخر الأمر ووقف على قدميه بحركة رشيقة غير مقصودة وأمسك بذراع مَلْك وهمس في أذنه شيئاً بصوته المكتوم وقاده نحو الدار.

وسمعوا صوت مَلْك يهذي بكلمات لا رابط بينها ـ معلّمي ـ غورو ـ عيد ميلاده، أريد أن أقدم.. إنهم يمنعونني.. معلّمي..

ثم تعالى صوت نشيج وشهقات أنفاس ولهاث بسبب محاولة الإقناع والكبح، ثم ما عاد يُسمع شيء سوى تدفق صوت باكول، الصوت الزلق الممدود الهادئ السلس كأنه الزيت، ثم تبعه ذلك الصمت الذي أثار قلقهم على كلبهم «بادشاه» الذي كان يطلق نباحاً عنيفاً وسط الطريق، وقفت بيم نافضة ساريها كما لو أن فتات طعام قد علقت به وقالت:

ـ انصتوا، إنه (بادشاه) ينادينا، يدعونا لأن نعود إلى البيت هيا يا تارا، فإذا لم نذهب الآن فإن طاهيتنا ستنام ولن نتناول عشاءنا، وسينام (بابا) من دون أن يأكل شيئاً.

وأفاقت ابنتا ميسرا من حالة ذهولهما ونهضتا:

ـ ولماذا لا تمكثون فنتناول طعام العشاء معاً، نأكل ما قسمه الله لنا، لا نستطيع إقامة حفلات عشاء كعهدنا في الأيام الخوالي، ولم نملك إلا القليل مما يتيسر لنا..

صاح أحد الأخوة: فلتحضروا بابا، أنبئوه أن لدينا موسيقى سوف تنسيه تلك الرخيصة التي اعتاد سماعها، سنطلب من مَلْك أن يغني لنا بعض أغنياته.

استغربت تارا وبيم الأمر، وانتابتهما دهشة بالغة، وانفجر «مانو» و «بريج» بالضحك وأخذا يتشاكسان بالضربات مثل تلاميذ

صغار، مسح أحدهما عينيه من الدموع وقال:

ـ سنرغم مَلْك على الغناء لنا، سيغني مَلْك من أجلنا، قال العبارة وكأنها مزحة مألوفة لا تحتاج لغير إشارة عابرة فيفلت بعدها زمام الجميع.

اقتربت الشقيقتان بشيء من الحذر وحاذتا تارا وهما تقولان لها:

ـ إن مَلْك يفعل هذا كلما أفرط في الشراب، وهو لا يعني ما يقوله أبداً، ولسوف ينسى الأمر كله، فنقدم له عشاءه، ابقي معنا يا تارا لنتناول ما يتيسر لنا من طعام.

ولم تشأ بيم الاستجابة إلى رغبتهما، فقد كانت آخر مرة استجابت فيها لدعوة منهما من هذا القبيل حدثاً باعثاً على الأسى والحزن الكبير، فقد أثارتا حزنها وهي تراهما تتقاسمان (الجاباتي) (الخبز) مناصفة بينهما. وتأتدمان بالمخللات بدل اللحم والخضار. كلا لن تعيد الكرة أبداً.

ـ كلا.. لن نبقى.

قالت بنبرة قاطعة، (ألا تسمعان نباح بادشاه؟ أنصتا إليه.. هذا النباح الذي سيزعج كل من في الجوار ويوقظ والدكم..)

وانسلت إلى الشرفة وألقت تحية الوداع على الشيخ الذي كان مستلقياً على (الأريكة) وقد برزت قدماه البيضاوان المليئتان بالعقد من تحت المفرش الذي غطى به جسده، وعندما وجدته مستغرقاً في النوم عادت وانضمت إلى تارا وباكول اللذين سارا في الممر المؤدي إلى البوابة.

رافقتهما ابنتا ميسرا حتى البوابة وأبطأتا قليلاً عند شجرة

الياسمين لتقطفا زهوراً لتارا، ثم قدمتا لها قبضة من الزهور وقالت جايا:

ـ أواه يا تارا، هذه الزهور تذكرني بتلك النزهة التي قمنا بها قبل سنوات، ألا تتذكرينها أنت أيضاً؟.. كان ربيعاً والأزهار تملأ حدائق (لودي).

وصاحت سارلا على نحو مباغت:

ـ والنحل أيضاً، وأمسكت تارا من معصمها، فتساقطت بعض أزهار الياسمين.

(ألا تتذكرين؟ هاجم النحل بيم.. أوه لا بد أنك تتذكرين ذلك).

ولكن تارا سحبت يدها وأسقطت ما تبقى فيها من زهور وهي تسترجع يدها منها وتهز رأسها في حركة رفض لاستذكار أي شيء.

ابتسمت بيم ابتسامة باهتة وغطت أذنيها بيديها وقالت:

ـ يا لنباح هذا الكلب، إن له صوتاً يشبه النفير..ثم لحقت بتارا وباكول مجتازة الطريق نحو بوابة بيتهم حيث ينتظر الكلب (بادشاه) وحالما عبروا الطريق الترابي ألقى باكول نظرة على البيت الطويل المظلم الذي يحاذيه سياج من الأشجار وتساءل:

ـ ما الذي حدث لبيت حيدر علي؟ ألم يسكنه أحد حتى الآن؟

ـ كلا.. أعني، أن ثمة قريباً بائساً يسكنه، ولا بد أنه سبب الكثير من الازعاج لراجا في مدينة (حيدر أباد) فأرسلوه إلى هنا ليعمل (قيّماً) على البيت. إنه مدمن على تعاطي (الأفيون) وينام

أينما اتفق له، بينما يتداعى البيت على مسمع ومرأى منه، فلم يقم أحد بترميم البيت أو إعادة طلائه منذ سنوات.

قالت تارا: أوه، يا للعار، لقد كان بيتاً رائعاً كما تعلم يا باكول.

إزداد نباح بادشاه إلحاحاً، وكفوا عن الكلام.

كان أخوهم (بابا) قد استغرق في النوم وهو على سريره في الشرفة.

عندما انسلت الشقيقتان بهدوء من ورائه وألقتا عليه نظرة فوجدتا أنه مضطجع على جانبه وإحدى ساقيه ممدودة بينما أنثنت الأخرى عند الركبة، فبدا كما لو كان يعدو راكضاً أو كأنه نصف محلق في السماء، وإحدى يديه مطوية تحت ذقنه والأخرى مستوية إلى جانبها وراحتها إلى الأعلى وأصابعها مضمومة إلى داخلها. وكان يبدو بالتالي قطعة جامدة من تمثال أبيض. رخام أو حليب أو أدنى من ذلك.. نسيج عنكبوت شبحي باهت، أو نور قمر ما منسكب على السرير. كان ثمة شيء غير حقيقي في طوله ونحول جسمه وهو بثيابه البيضاء المضيئة، شيء أشبه بغياب شامل للوجود، للشخصية ولكل سمة توحي بالصخب، غياب لكل الخصائص الإنسانية حتى لكأنه لا يزيد ولا يقل عن كونه زهرة بيضاء أو عنكبوتاً مسالماً من عناكب الحدائق الوديعة. وقد اعتقدت الأختان أن والديهما الطاعنان في السن قد انجباه عندما فقدا كل حيوية وتميز شخصي يمكن أن يورثاها له، لكأنهما منحا كل ما لديهما للأطفال الذين أنجباهم قبله.

هوذا الآن مستلقٍ في العتمة وقد تلفح بالبياض، يتنفس تنفساً

هادئاً لا يكاد يحس، لكأنه كان مخلوقاً يعيش دونما دم يجري في عروقه ومن غير لحم يكسو عظامه. هكذا تخيلته الأختان وهما تسيران على رؤوس أصابعهما وتعبران وراء سريره ثم تهبطان نحو المرج.

كان كل من في جواره ساكناً هادئاً، وقد استغرق الجميع في النوم، وضجيج المرور على الطريق السريع كان بعيداً وقد خفف الغبار والعتمة من صخبه فأمسى بوسع المرء أن يعي حضور النجوم المشعة ويستنشق أشذاء زهور نباتات الليل.

اندفعت الأختان بسرعة وهما تنقلان الخطى بين أعشاب المرج بمحاذاة سياج الأشجار والقطة السوداء تمشي الهوينا إلى جانبهما لتثب بغتة في الهواء وتندفع جانباً كأنها السهم وتختفي عن الأنظار.

تمتمت بيم ويداها وراء ظهرها وهي توسع خطاها.

ـ أتدرين يا تارا، إنني بعد مضي فترة طويلة على موت الخالة (ميرا ـ ماسي) ومنذ عهد بعيد اعتدت أن أراها هنا، هنا بجانب السياج، صاحت تارا بنبرة ارتياب: بيم.

ـ أجل، أجل يا تارا، لطالما شعرت بأنني أراها، ليس رؤية مباشرة من الأمام، إنما ألمحها بطرف عيني أتدرين؟.. كنت أراها تنسل من هناك وراء سياج الأشجار.

ومدت يدها وأمسكت بغصن من نبات (الجاندني) تكسوه الأزاهير البيضاء ومضت تقول:

ـ بيضاء وعارية، تماماً مثلما كانت عندما.. عندما.. عندما (وأسعفتها تارا وهي تقاوم ألمها):

ـ وإذاً، رأيتها عند ذلك.

ـ أجل، صغيرة أشبه بكلب صغير نحيف، أبيض، تنسل إلى البعيد بهدوء تام، شعرت كما لو أنها ذهبت باتجاه البئر التي تقع وراء الدار.

ـ البئر التي غرقت فيها البقرة؟

لطالما قالت إنها ستغرق نفسها فيه، إلا أنها أخيراً ماتت في سريرها، ولم يتسن لها إغراق نفسها، أشعر أنها لا تزال تحاول الوصول إليها، فالمرء بحاجة إلى أن يختار موته، ولكن حالما التفتُ إليها بسرعة أجدها قد اختفت وتلاشت، كانت تختفي كلياً في السياج الشجري.

ومستها يد بيم ثانية بقصد شحذ ذاكرتها فخدشت ظاهر يدها بشوكة وسمعت مخلوقاً صغير الحجم ينزلق بين الأوراق ويختفي.

ـ أحس كأنني واحد من مكتشفي القطب الجنوبي الذين كتب عنهم (ت. إس. اليوت) في دفاتر ملاحظاته عن (الأرض اليباب) هذه الأبيات أتعرفينها يا تارا؟..

(من هو الثالث الذي يمشي دائماً بجانبك، حين أعد، ما من أحد هناك ألا أنا وأنت معاً لكن حين أنظر إلى أمام على الطريق البيضاء، هناك دائماً آخر يسير بجانبك يتهادى متسربلاً بقباء قاتم حتى قمة رأسه، لا أعرف إن كان رجلاً أو إمرأة.

لكن من الذي إلى الجانب الآخر منك؟).

لبثتا صامتتين وهما تسحقان الأعشاب التي علقت بأقدامهما، وخفضتا هامتيهما ولكنهما لم تكونا تنظران إلى شيء..

أطلقت تارا آهة صغيرة موهتها لتبدو شبيهة بالتثاؤب، فكثيراً

ما استمعت إلى بيم وراجا وهما يستشهدان بالشعر، فقد كان لديهما الكثير من الشعر الذي يثقل رأسيهما، أما هي فكأي فتاة صغيرة خجول معقودة اللسان كانت تتهيب حتى من محاولة تلاوة الشعر أو استذكاره.

وهناك مقطع هزيل من قصيدة مدرسية كانت تارا تقف وتبدأ في إلقائه: (الصبي الواقف على سطح سفينة تحترق) ثم تحس بعد برهة أنها عاجزة عن متابعة الإلقاء ولا تستطيع أن تتجاوز قراءة عنوان القصيدة. فكانت تقف وقد أخرستها الدهشة أمام قدرة بيم وراجا على التذكر والاستشهاد بأبيات الشعر، وهي اللعبة المضافة إلى الألعاب الأخرى التي كانا يمارسانها ويهملان أمرها فلا يشركانها معهما، فكان لا بد لها الآن أن تحس بالضآلة لتعود تلك المسكينة البائسة التي كانتها قبل عشرين عاماً يوم كان الإعجاب والتقدير كله من نصيب أختها ممشوقة القوام المتفجرة حيوية، الأخت التي تستشهد بأشعار (لورد بايرون) و (إقبال) وحتى بـ(ت.اس. اليوت) وهي جاهلة أو بالأحرى لا مبالية بما يعذب روح أختها ماضياً وحاضراً. فقالت: حسبي أنني غير معرضة لأي نوع من أنواع الخطر التي يتعرض لها الرواد، مكتشفو الأصقاع المتجمدة الذين اعتادوا على رؤية الأشكال الشبحية، ثم تابعت:

ـ لكنني لم أعانِ من التجمد، وما كنت جائعة أو مخبولة، ولم تثقل عليّ الوحدة بوطأتها لأنني أعيش مع أخي (بابا) فبعد زواجك ورحيل (راجا) إلى (حيدر أباد) ووفاة الخالة (ميرا ماسي) ظل معي (بابا) وحصلت هذا الصيف على عمل في الكلية، فغمرني الإحساس بالرضا إلى حد كبير لأنني سأكون قادرة على كسب عيشي بجهدي وعرق جبيني.

وتوقفت بغتة كما لو أنها تعثرت بحجر مخبوء بين الأعشاب. بينما واصلت تارا السير غير عابئة بما يدور حولها حتى أدركت أن بيم قد أبطأت عنها، وعندئذٍ توقفت لتنظر إلى الوراء بشيء من الفزع، غير أن بيم لم تتابع خطبتها العنيفة في هجاء (راجا) بالرغم من أن تارا كانت في خشية من انزلاقهما ثانية في هذه الخطيئة: (هجاء راجا).

ـ بالتأكيد لم أكن مجنونة إطلاقاً.

قالت بيم ذلك وهي تواصل سيرها ثم أردفت:

ـ ثم إنني كثيراً ما تأملت في عقيدة أهل (التيبت) بشأن الموتى، فهم يؤمنون أن أرواحهم تظل هائمة على الأرض ولا تغادرها بشكل مؤكد إلا بعد اليوم التاسع والأربعين عندما تولم الوليمة الاحتفالية الكبرى، وتتلى آخر الصلوات، وتُقام طقوس الوداع الأخيرة لتتم المغادرة النهائية. إن ذلك كله يستلزم مرور تسعة وأربعين يوماً، كما يذكرون في كتابهم (باردول ثودول)، ليتم الرحيل والتنقل عبر أقانيم الموت الثلاثة، وكل ما يتبعها من مراحل..

أشعر أن الخالة (ميرا ـ ماسي) لا تزال هنا، في الحديقة غير قادرة على الرحيل لأنها لم تشهد جميع المراحل، بإقامة الصلوات والطقوس المناسبة التي تليق بالمقام، ولكن بعد كل شيء من تراها تكون؟

قالت بصوت أعلى من ذي قبل وهي تهز رأسها.

ـ من بوسعه الموت بسلام غير الرهبان والراهبات البوذيات في أديرتهم القابعة فوق جبال الهيمالايا؟ ولم نكن نعرف السلام والطمأنينة في ذلك الصيف قط.

تمتمت تارا: نعم، أي صيف.. أليست غريبة تلك الطريقة التي تجري بها الحياة، إنها أشبه بنهر، لكن هذا النهر يجري بقفزات كما لو أنه يحتجز بمغاليق تفتح وتوصد بين حين وآخر فتجعله يتواثب إلى أمام كأنه طوفان متقطع، ولكن تظل هناك تلك المديات الطويلة التي لا يحدث فيها شيء، فكل يوم لا يختلف عما سبقه، والأيام تسير متباطئة خلواً من الوقائع المثيرة، ثم بغتة يحدث شيء ساحق، وتحتل الأحداث الجبارة مواقعها، تلك الأحداث جليلة الشأن، وإن لم يدركها المرء في حينها. ولا تلبث الحياة أن تمهد مرة أخرى وتعود إلى ركودها حتى تأتي الدفقة التالية من الفيضان القادم.

كان ذلك الصيف أحد تلك المواسم المحتدمة صيف (١٩٤٧).

ـ كان ذلك الصيف رهيباً بالنسبة لأهل الهند جميعاً بما فيهم، الهندوس والمسلمون سواء في الهند أو باكستان..

ـ في بعض الأحايين تتقمصين صوت باكول وتتحدثين بنبرته تماماً.

توقفت تارا مستاءة وقد أوذيت وجرحت مشاعرها. لقد امتلكت بيم على الدوام هذه القدرة على مقاطعتها فجأة وإيذائها. حتى من دون أن تعني ذلك، غير أنها الآن كما يبدو كانت ترمي إلى ما قالته وتعنيه، لأنها لمست مرفق تارا بشيء من الحنو.

ـ من البديهي أن تفعلي ذلك من دون قصد، فقد تزوجتيه منذ عهد بعيد.

وأخذت تشرح الأمر بشيء من المسايرة والدعابة التي تنم عن رغبة في الاعتذار.

قالت تارا بنبرة باردة، ولكن، هل أنت متفقة معي بهذا الشأن؟..

ـ أجل، أجل، أنتِ على صواب في ما قلتيه يا تارا، إن الأمر كان سواء بالنسبة لنا جميعاً، بالنسبة للعائلة بأجمعها وبالنسبة لمن حولنا. هذه الألف وتسعمائة وسبعة وأربعون وذلك الصيف.. كنا نرى النيران تتصاعد كل ليلة في المدينة.

واجتاحت تارا رعدة: كم أكره التفكير في تلك الأحداث.

ـ لماذا؟.. إنه لحدث هائل في حياتنا جميعاً، حدث ذو شأن في أيام شبابنا، ما الذي كان سيعلق بذاكرتنا عن أيام شبابنا غير هذا الحدث الذي جرى على ذلك النحو الدراماتيكي الخاص.

ارتجف صوت تارا بالألم الذي طالما جاهدت لكتمانه.

ـ كم أسعدني انتهاء الأحداث، أنا في غاية السعادة لأن الأمر انتهى ولن نكون شباباً مرة أخرى.

قالت بيم مستغربة وهما تدنوان من الشرفة:

ـ شباباً؟

ـ وانحنت وهي تتقي الدرجات حيث نشر متسلق (الكويسكاليس) أفرعه ذات الظلال القاتمة على الدرجات النظيفة المجلوة، وجلست هناك وهي تضم ركبتيها.

اتكأت تارا على العمود بجانبها وهي ترنو إلى النجوم التي كانت تتدلى دانية كأقرب ما تكون كلما أوغل الليل في سكونه.

وسببت لها النجوم قلقاً غامضاً حين بدت لها أشبه بصور تؤشر إلى الأمداء القصية، الامداء المظلمة التي تمتد وتتسع إلى ما وراء إدراك البشر وتخيلاتهم.

وجثمت على العمود محتضنة إياه بذراع واحدة أشبه بطفل صغير. قالت بيم، الشباب، ورأسها يهوم كما لو كانت مستغرقة في النوم أو الأسى.

ـ أجل، لقد كنت أنا الأخرى سعيدة، انقضى ذلك العهد. لا أريده أن يعود أبداً، إنه لأمر فظيع، ما أشد الهول الذي أصاب الإنسان، وأصابنا جميعاً حينذاك، لقد كنا أصغر من أن نعي كيف نواجهه، وكيف نتعامل معه كأول طوفان مريع في حياتنا.

ما كان أمامنا سوى الرضوخ له، وقد جرفنا تياره زمناً طويلاً. وكم اقتضى الأمر من سنوات وسنوات قبل أن يقوى أحدنا على النهوض مرة أخرى ويستطيع مواجهته.

وهزت رأسها كما يفعل النائم:

ـ كلا.. لا أريد أن يعود ذلك.. ولا يمكن أن أعود شابة بأي حال من الأحوال ولأي سبب كان.

وفي هذه اللحظة أخذ (جُدجُد) غير مرئي عند قدمها بنحيب لا يمنح أي عزاء.

الفصل الثاني

كانت المدينة مضطرمة بالحرائق في ذلك الصيف، وفي كل ليلة كانت النيران تضيء عند الأفق، وراء أسوار المدينة. . وكانت السماء مصطبغة على نحو رهيب بمهرجان من اللهب ذي الألوان البرتقالية والوردية، بين آونة وأخرى يتعالى عمود من دخان أبيض ويظل متماسكاً صلباً أشبه بمسلة منتصبة في الظلام.

كانت بيم تذرع السطح العلوي جيئة وذهاباً، وأغلب الظن أنها كانت قادرة على سماع أصوات الطلقات النارية والصراخ والاستغاثات لأنها كانت تعيش بعيداً خارج المدينة، عند حدود المدينة حيث الحدائق والبيوت الريفية تقبع هادئة ومحمية وراء أسيجتها الخضر.

ولم يكن الأمر قابلاً للتصديق فقالت لنفسها:

ـ لعلي أتخيل ذلك، وأن ما سمعته لم يزد على نقيق ضفادع لا ينقطع أبداً يتعالى من أوحال نهر جُمنا، ويختلط معه وقع حوافر حصان عربة وهو يضرب اسفلت الشارع بنفاذ صبر.

أخذ راجا ـ الذي ظل مريضاً طوال تلك السنة ـ يئن متوجعاً

وهو عاجز عن ارتقاء السلم والوصول إلى الشرفة العليا ليكون معها. وواصل أنينه حتى هبطت بيم وأخبرته بما شاهدت.

وإذ ألفته غارقاً في العرق بسبب رقاده الطويل في السرير داخل الغرفة راكدة الهواء في تلك الليلة الصيفية ثقيلة الوطأة، هرعت مسرعة لتحضر أسفنجة رطبة تمسح بها وجهه.

قالت بصوت كالأنين: ما الذي يجري حسب ظنك؟

أيمكن أن تناشدي آل ميسرا الذهاب ليستطلعوا جلية الأمر؟ هل لمحت ضوءاً في بيت (حيدر علي صاحب)؟ وأين تراه ذهب؟ أين تظنين حيدر علي صاحب قد ذهب؟ وكيف يرحل من دون أن يرسل رسالة إلى أحد واليّ أنا بالذات؟

أنى له أن يفعل ذلك؟ إنه لأمر غاية في الخطورة يا راجا!

صرخ راجا: كان عليه أن يثق بي.

ورأت بيم أن تذكره بالحقيقة، إنه ليس أكثر من صبي لا يزال طالباً في الكلية، أما (حيدر علي صاحب) فهو ذلك الجار الثري المهاب الجانب، الذي يتعذر عليه أن يحمله محمل الجد ويجعله موضع ثقته، إلا أنها أدركت أن من الخير أن لا تحبطه ولا تزعجه لأن أي قدر من الاضطراب أو القلق كفيل برفع درجة حرارته.

غمست الأسفنجة في وعاء دهان ووضعت فيه قوالب الثلج ومسحت رأسه بلمسات رقيقة منها ورفعت شعره القاتم المموج وسحبت الأسفنجة على امتداد جبينه فأدركت كم كان وجهه الشاحب شمعياً وعليلاً ومفصحاً عن مدى ألمه الجسدي، مما جعلها تغص بأحزانها.

كان وجهه في ما مضى وجهاً مليئاً وشفتاه برمتين توحيان

بالاستياء، أما الآن فقد بدا كل شيء فيه شاحباً رقيقاً ناحلاً.

أدار رأسه جانباً في حركة غاضبة وتساقطت قطرات العرق باردة على الوسادة التي امتصتها، تضرع إليها متوسلاً.

ـ إذهبي إلى بيتهم يا بيم وتبيني حقيقة الأمر.

ـ قلت لك كنت قبل قليل على سطح البيت لأستطلع ما يجري، بوسع المرء رؤية الحديقة مباشرة من الأعلى، لا أحد في البيت والبستاني نفسه قد غادر، والبيت غارق في الظلام والأبواب موصدة كلها، لا أحد هناك، يبدو أنهم خططوا مسبقاً لهذا الأمر يا راجا، فكل شيء منظم تماماً كما يخيل إلي وكأنهم دبروا كل شيء واستعدوا له، كما اعتادوا الذهاب للاصطياف في مدينة (سيملا).

ـ لا بد أنهم أخرجوا بالقوة وانتزعوهم من هنا وأخذوهم بعيداً.

ـ لم يحصل قطعاً ما تتخيله.

ردت بيم بنبرة: (لو أن شيئاً من هذا القبيل حدث لكنا علمنا به ولسمع الجيران بالأمر، ولتناهى إلينا صوت سيارة أو رأينا أنوار مصابيحها وسمعنا كل ضجتها، لا بد أن عائلة (حيدر علي) استدعيت لتقديم المساعدة، وعلينا جميعاً أن نذهب لنعرض مساعدتنا لم يكن ثمة من صوت، لم يأتِ أحد، لقد ذهبوا فحسب.

ـ قال راجا محتداً بقدر ما كان راغباً:

ـ وأنى لكِ أن تعرفي أنهم ذهبوا وحسب؟

قالت بيم بصوت ساخط:

ـ راجا، لا بد أنهم فعلوها بهدوء فلذا لم يدعوا أحداً

يكتشف الأمر، وما عليك الآن إلا الانتظار لتسمع ذلك منهم، ولا بد أنهم سيرسلون بكلمة حالما يشعرون بالأمان.

ـ الأمان؟ وللمسلمين، هنا، هنا في الهند؟

سيتحقق الأمان بعد أن تُحَزَّ الأعناق كلها.

قال راجا ذلك بوحشية بالغة وقد رفع جسمه قليلاً عن السرير ثم عاد وألقى بنفسه بعنف إلى الوراء.. وأضاف بمرارة.

ـ وهنا أنا هنا، وقد بلغ بي المرض حتى لا أستطيع معه أن أقدم لهم العون، وهي المرة الوحيدة التي أرقد فيها مريضاً طوال حياتي.

ـ ظلت بيم ساكتة وهي تعوم الأسفنجة جيئة وذهاباً في الإناء بأصابع مغضنة مثلجة.

وأحست بالسخط يتملكها إزاء أسلوب راجا في التفكير والإحساس، هذا الأسلوب المختلف تماماً عما يفكر به الآخرون في هذا الوقت بالذات.

ولم تتمالك نفسها لحظتئذٍ من الاعجاب بما لمسته فيه من اسلوب مستقل في التفكير، وبسالة كانت على يقين من أن لراجا ذلك المعدن الذي يُصنع منه الأبطال، وها هو الآن راقد في الفراش، يا للسخرية، وهو مريض إلى الحد الذي يحول بينه وبين القيام بدور البطل الذي يتوق إليه، وهي التي لم تكن لتؤمن بذلك، أرادت له أن يكون بطلاً.

رفعت عينيها فرأت صدره يعلو ويهبط بأقصى سرعة، مهتاجاً ويداه المتألمتان تشدان حافة الفراش بقوة.

قالت بصوت مفجوع: إذا لم تكن على ما يرام يا راجا

لسوف استدعي الطبيب.

ثم نهضت من فوق كرسي الخيزران بجانب السرير وقالت: فلأقرأ لك، لعل ذلك يشغلك عن الأمر...

انفجر قائلاً: كلا.. لن ينفع شيء في إشغال ذهني، ولكن لا بأس من أن تقرأي لي.. ثم أخذ يغمغم.. اقرأي.. اقرأي إذا شئتِ واتجهت نحو رفوف الكتب المصطفة على جدار الغرفة ووقفت مباشرة أمام كراسة لأشعار (لورد بايرون) الذي تعرف بخبرتها أنه سيأسره حال الاستماع إليه ويسحره ويمضي به بيسر نحو حالة من الحبور والإعجاب العميق.

أتت بالكتاب إلى السرير وجلست على مقعد الخيزران ثانية، وفتحت كيفما اتفق وبدأت بصوت مرتفع تقرأ.

(وصل الاشوري أشبه بذئب في حظيرة.

وكتائبه تزدهي بالأرجوان والذهب).

اضطجع راجا هادئاً وضم يديه على صدره وسكن أمام تلك الرؤية الشعرية، جذلاً منتشياً بالقوة والايقاع الكاملين في تلك الأبيات الشعرية.

أحست بيم بالارتياح لأنها استطاعت أن تأخذ بيده بمثل ذلك اليسر نحو عالم بعيد عن حالته المرضية، وعن مشاعر القلق والحصر والاضطراب التي تتأجج حولهم وتجتاح البلاد بأجمعها في ذلك الصيف.

ولبثت طوال الصيف ترعاه وتقرأ له وهي جالسة على المقعد الصغير الذي لا ظهر له إلى جوار سريره، وشعرها ينسدل متهدلاً على جانبي وجهها الأسمر الداكن، وعيناها تحدقان بالكتاب

الموضوع على حجرها، وهي تتلو بصوت مرتفع أشعار (تنيسون) و (بايرون) و (سوينبرن) التي تستهويهما كلاهما:

الزهرة القرمزية تنام، وبعدها البيضاء تغفو..

ولا حركات للسرو في ممشى القصر.

وليس من زعنفة ذهبية تلتمع في النبع المصون.

واليراعة استيقظت، بالرغم مني

والطاووس الحليبي يسترخي مثل طيف

ومثل طيف أراها تومض لي..

صمتت برهة، ورفعت عيناً لترى ما إذا كانت عينا راجا مفتوحتين على عادته وهو يحدق بالحشرات الضاجة على السقف، أو أنه أغمضهما بينما كان يصغي نصف نائم واستبدلت الكتاب بآخر وقرأت:

تحرر من فرط حب الحياة

من الخوف والأمل تحرر

أوجزنا شكرنا،

فمهما يكن من أمر الآلهة،

فإن الإنسان لن يحيا إلى الأبد،

ولن يبعث الأموات قط،

وحتى أشد الأنهار تعباً

ينعطف في مكان ما سالماً إلى البحر..

كانت هذه إحدى القطع الشعرية الأثيرة لدى راجا، وقد اعتاد تلاوتها أمامها عندما كان ذات يوم على السطيحة معها، رافضاً

الهبوط إلى البيت في الغسق، محاولاً أن يطيل أمد المساء والإحساس بالانعتاق الذي غمرهما وهما تحت السماء اللانهائية.

لكنه الآن لم يشأ التعبير عن حماسته المتأججة على نحو بالغ الصراحة، بل أخذ يهمهم ويقول:

(ما أروع ما أسمع، ولكن، كثير من الكلمات، كله كلمات.. كلمات وحسب، بينما بوسع أي شاعر (اوردي) أن يوجز كل هذه الكلمات بمقطع واحد يا بيم، مقطع واحد...)

وكان أن توقفت عن القراءة من أجله لتلقي عليه مختارات من الشعر الأوردي الأثير إلى نفسه والذي يبدو لها ذو جرس ومضمون واحد متشابه، وهي تفضل أن تقطع لسانها ولا تبوح له برأي من هذا القبيل، ولكنها في ما مضى كانت لا تتورع عن ذلك.. القدح والشراب والنجمة والمصباح والرماد والورد.. الشيء ذاته على الدوام، أما بالنسبة له فإن كل مقطع شعري يبدو أشبه بحجارة كريمة صقلت تواً.

(نحن قد أمضينا بالألم أيامنا من الصباح إلى المساء

وتجرعنا إلى الأبد دموعاً من دماء..)

كان قد تلا هذه الأبيات بصوته المتهدج وهو يدير عينيه فوجدت ذلك مؤثراً إلى حد بعيد، ومدعاة لحرجها ولذا فإنها هزت رأسها موافقة لكي تتجنب انفجار معارضتها له.

قال راجا متأوهاً وقد شبك يديه على صدره:

ـ ولكنك لا تفهمين.. أنت لا تعرفين شيئاً من لغة الاوردو ـ ليس بوسعك أن تفهمي..

كان راجا قد درس اللغة الاوردية في تلك الأيام التي سبقت

الانفصال عندما كان الطلبة يخيّرون بين دراسة لغة (الهندو) أو لغة (الأوردو).

وكان أمراً طبيعياً إلى حد كبير أن يختار ابن عائلة من دلهي، الأوردو فقد كانت (الأوردية) هي اللغة الرسمية على عهد الحكام المسلمين والمغول، وظلت مستخدمة باعتبارها لغة للتعليم والثقافة، بينما لم تغدُ لغة (الهندو) لغة تاريخية عريقة. فلم يكن لها غير حظ ضئيل في الاستخدام اليومي وفي التجديد والاشتقاق اللغوي، أما آدابها فإنها دونت جميعها بلهجات محلية عتيقة منقرضة، وكان راجا الذي قرأ كثيراً وامتلك قدرة سماع لغوي جيدة، معنياً بمثل هذه الاختلافات بين اللغتين.

وكان راجا يقول لها: أنظري، وهو يأخذها على حين غرة عندما كانا منهمكين في كتابة واجبهما البيتي على منضدة الشرفة: الإنشاء باللغة الهندية في موضوعاتها مثل: (قريتي) أو (البقرة).

ـ انظري لا يمكنك أن تسمي هذه لغة، وكان يطلق صوتاً ناخراً ينم عن الإزدراء، ويحمل أحد دفاتر اللغة الهندية كما لو كان جورباً بالياً، ويقول:

ـ كل ما فيها خطأ، وهذا يحتم عليك أن تراجعيها وتضعي علامة على كل كلمة حال انتهائك من كتابتها.. إنه لأمر محبط ومعوق، كيف بوسعنا التفكير بطلاقة.

عندما يتوجب علينا المراجعة والتشطيب. إن ذلك يعيق انسياب النص الإنشائي.

كان قد أخبرهم بذلك فصعقوا لهذا الاكتشاف العبقري.

ـ أنظروا..

قال مرة أخرى وكتب بعض السطور من نصٍ باللغة الأوردية بشيء من المباهاة والزهو جعلهم يهتزون إعجاباً بما فعل.

كان جارهم مالك العقارات الثري (حيدر علي صاحب) قد حضر ليشهد اهتمامات الأولاد وأولاعهم، فقد كان هو نفسه يمتلك مكتبة حقيقية أقيمت في ما يشبه البرج الغريب الطراز الذي يبرز بناؤه عند إحدى زوايا البيت. ورأى راجا يتأرجح على بوابة الحديقة عندما كان عائداً من رياضة الفروسية المسائية التي يمارسها على ضفاف نهر جُمنا فتوقف ليدعوه إلى زيارة مكتبته.

وهال راجا أن يفاجأ في أيام الطفولة الخوالي، أيام التعلق على بوابة الحديقة المتأرجحة ذات الصرير وهو مبهور بالشخصية المثيرة للإعجاب لهذا الشيخ المهذب بشعره الفضي وثياب الفروسية البيضاء وقد امتطى صهوة جواد أبيض طالما غبطه راجا عليه وتسلق جدار الحديقة ليتفرج عليه وهم يطعمونه أو يعتنون به في الاصطبل الواقع وراء البيت.

غلبه أمر منحه الدعوة التي ما كان يحلم بها في سره قط. هزّ رأسه موافقاً في صمت أبكم جعل المالك العجوز يبتسم أمامه.

وقدم راجا نفسه إلى عائلة (حيدر علي) في اليوم التالي بوساطة خادم يبعث على الارتياب. وأخذ يجوس في المكتبة ماراً بـ (حيدر علي) المعتكف في غرفة مكتبه، وضل طريقه ما بين الكتب والمخطوطات التي كانت بالنسبة له أشبه بكنوز (هارون الرشيد).

وسوف يمضي بضع ساعات كل يوم جالساً يقلب مخطوطات حيدر علي التي لا تقدر بثمن تحت رقابة موظف عجوز عينّه المالك للعناية بالكتب وخزنها، راهب مسن له وجه معزى بيضاء

يحدق بعينين ضيقتين طويلتين من وراء عدستي نظارته المؤطرة بسلك رفيع - ويتابع هذا الصبي - ابن الوثنيين - الذي سُمِحَ له بفعل نزوة عابرة خطرت للمالك الثري - أن يأتي ويلمس المخطوطات المقدسة التي لا يحق له أن يقترب منها.

كان الجو صارماً بسبب ارتياب الموظف الهرم ونفوره من وجود الصبي، فكان أن شعر راجا بتعب جسماني مما حدا به للعودة سريعاً إلى البيت حاملاً بضعة دواوين شعر أعاره إياها الرجل الكريم المدهش (حيدر علي).

بدت الخالة ميرا مرتابة - شأنها شأن ذلك الموظف العجوز - بهذه الصداقة الغريبة غير المتكافئة، وقد رأت راجا وهي جالسة ترفو الملابس في الشرفة - يخرج من غرفته حاملاً رزمة من الكتب ليعيدها إلى (حيدر علي).

وحذرته بلهجة تعوزها اللباقة:

- ألا تعتقد يا راجا، أنه ينبغي لك أن تخفف من زياراتك إلى هناك في بعض الأحيان؟ أواثق أنهم يريدونك في ذلك البيت؟

- ولكن، (حيدر علي صاحب) هو الذي دعاني، وقال لي: بإمكانك أن تأخذ كل الكتب التي تريد ومتى ما شئت.

- هذا كرم منه لكنه ربما لم يقصد أن تذهب متى شئت، أو تأخذ هذا العدد من الكتب.

- لماذا؟

سألها راجا بنوع من العناد وتوقف برهة على درجات الشرفة منتظراً أن تجيبه الخالة (ميرا) وإذ لم تفعل. غادر مكانه مشمئزاً.

لو كان (حيدر علي) وجد أن زياراته غدت متقاربة وأن

الساعات التي يمضيها في المكتبة أطول مما يجب، لكان أخبره، أو ألمح إلى الأمر بنظرة أو إشارة، فهو مشغول دائماً إما بشؤون أعماله في الخارج أو في غرفة مكتبه المحاذية للمكتبة مستغرقاً بين مراسلاته وملفاته بصحبة إثنين من العاملين لديه، فهو رجل يملك الكثير من العقارات في دلهي القديمة، وإن مثل هذا الثراء يستلزم على ما يبدو قدراً من الأعمال المكتبية والمراسلات التي لا حصر لها.

وكان راجا قد سمعه وهو يملي رسائله على معاونيه وتناهى إليه صرير أقلام الحبر بينما كان يجلس القرفصاء على السجادة في البرج أو فوق الأريكة المقوسة المكسوة بالمخمل وعلى ظهرها رقائق مرسومة ثبتت داخل خشب الورد المنحوت المزخرف، يقرأ ويعظم تلك المخطوطات الرائعة والقصائد الباهرة ـ وهو مبهور بتلك الحقيقة التي لا تصدق ـ كونه هنا، في هذا المكان.

عندما بلغ راجا مبلغ الشباب وملأه الاعتزاز بنفسه احتل موقعاً خاصاً ضمن حياة عائلة (حيدر علي) وتآلف الجميع معه وخفت الرقابة الصارمة عليه لتستحيل إلى قبول يبعث على الحيرة.

وعندما كان يغادر المكتبة، كان يرى زوجة (حيدر علي) وابنته تجلسان على (الديوان) الأريكة الكبيرة في الشرفة تقطعان الخضار لصنع المخللات أو تطرزان البراقع الملونة. فيقبل تناول شريحة من ثمار (الغوافة) تقدمها له (البيغوم) زوجة (حيدر علي) أو يتوقف ليخبرها عن حال والديه، أو يثرثر معهما حول تظلمات الخدم ومطالبهم.

أما الأمسيات، فكان ضجيج شقيقتيه وخالته (ميرا ـ ماسي) الغريبة الأطوار وشقيقه الأصغر الأشد غرابة منها يزعجه ويثيره،

فكان يطوف في أرجاء حديقة (حيدر علي) وممراتها في الوقت الذي يبدأ فيه تجمع الأصدقاء شبه الدائم في الأماسي حيث رتبت الأرائك الوثيرة والمقاعد والطنافس بهيئة دائرة على المرج، لتقدم المشروبات المثلجة وأوراق (الفوفل) في صحاف فضية بينما ينشغل الرجال المثقفون في مناقشة شؤون السياسة أو قراءة وإلقاء الشعر.

وشكل هذا الأمر بحد ذاته نقيضاً موجعاً لرثاثة بيت راجا، وسببت له خصائص بيت حيدر علي وفرادته أذى وحرجاً كبيرين ظل يتنامى إحساسه بهما عندما أخذ يجري المقارنات بينه وبين بيتهم وعائلتهم، والبيوت والعائلات الأخرى.

كان من الطبيعي أن ينزع راجا لحياة المجتمع الراقي وما فيها، ويتمتع برفقة الصحاب ويتوق إلى تصفيق الإعجاب والاستحسان ويصبح ميالاً إلى المظاهر الخارجية والغناء والسحر والجمال، فقد سحره وبهره أن تشكل تلك العناصر المترفة جزءاً أساسياً من حياة أسرة حيدر علي وخلفيتهم الثقافية، أما في نطاق أسرته، فإن ذلك كله يُعد من الأمور الغريبة المرفوضة.

فكان يحس أنه ما من بيت أشد قتامة وإثارة للضجر والسخط والنفور من بيته، إنه بيت بائس ممل كئيب قبيح، ويكاد يكون موقناً أن أسرته تنفرد بكل ذلك القدر من العلل والغرابة، فما من أسرة تنطوي على هذا القدر من الأشياء التي لا يمكن الإفصاح عنها بل يجري ـ على العكس من ذلك ـ تمويهها وتجاهلها.

وأثارت رغباته ومطالبه المزيد من التخفظ إزاء ما سببت له من إثارة ـ هو الذي يتفجر بالكلام ويفيض حماسة ـ بطبيعته، ويبالغ في الثناء وتسهل إثارته.

وأغرته هذه الخصائص على المقاومة واحتمال كل شيء يبدر

من أسرة (حيدر علي) تجاهه.

وفي تلك الفترة كبر راجا فصار يرتدي السراويل الطويلة وقمصان الموسلين الأبيض الرقيق بدل السروال الخاكي القصير، فاكتسب من الثقة بنفسه، ما يتيح له الانضمام إلى حلقة الرجال الراشدين الجالسين هناك على المرج، فكان يجلس متخذاً هيئة رصينة وهو ينصت إليهم من دون أن يتبادل الأحاديث معهم ويرجئ ما يريد قوله حتى انتهاء الجلسة أو لحين اعتزامه العودة إلى بيته ليروي لأخته بيم التفاصيل كاملة وكيفما تعنُّ له من دون تمحيص بين ما يجب أن يُحكى وما يجب أن يحجب لضآلة شأنه أو تفاهته، وإذ تجرفه حماسة الحديث تومض عيناه بإشعاعات خاصة لا تلتمع في مقلتيه إلا عندما يذكر شيئاً ما يتعلق بأسرة (حيدر علي).

وذات ليلة عاد إلى البيت متأخراً وفاته موعد تناول العشاء، فأثار حفيظة أفراد أسرته كلهم، فما كان منه إلا أن فرش معطفه واضطجع عليه في الحديقة وأخذ يروي لبيم بصوت أقرب إلى الهمس أخبار الحفلة الرائعة التي أقيمت في بيت (حيدر علي).

قال بصوت هامس متوتر بفعل مغالبته للنوم:

ـ قرأ لنا شاعر قصائده الليلة ـ شاعر حقيقي من مدينة حيدر أباد ـ كان في زيارة لأسرة حيدر علي ـ ألقى قصائده أمامنا، كانت مدهشة رائعة.

فقدم له حيدر علي صاحب خاتماً مرصعاً بالياقوت الأحمر تمتمت بيم مغالبة النعاس بعد أن أرهقها طول انتظارها لراجا ونحيب الخالة ميرا بسبب (انحراف سلوكه):

ـ أكانت قصيدته جيدة حقاً؟ أبهذه الجودة؟

ـ جيدة؟ أجل! ولكن بوسعي أن أكتب بالجودة ذاتها، ويجب أن تعلمي أن حيدر علي طلب إليّ أن أتلو أمامهم الشعر.

ـ أفعلت؟

ـ بلى.. ولكن لم أقرأ من شعري، وأضاف بشيء من الأسف (طلبوا إليَّ أن أقرأ قصيدة مفضلة لدي) فقرأت لهم من شعر (محمد إقبال) وأخذ يقرأ مزهواً وبنبرة الظافر بضعة أبيات على مسمع بيم:

(أنت خلقت الليل وأنا ابتدعت المصباح

أنت خلقت الطين ولكني صنعت القدح

أنت أوجدت الصحارى والجبال والغابات

أما أنا فقد زرعت البساتين

والحدائق والغياض..

وأنا من صنع البلور من الحجر

وأنا من أحال السم إلى ترياق..)

وذابت الكلمات في حديقة الليل المغبرة الطافحة بالنعاس والسكينة والتي بدت فياضة ممتلئة لكأنها تحط عليهم بكل ثقلها.

وسألته بيم بنبرة ساخرة:

ـ ترى، هل منحك حيدر علي خاتماً مرصعاً بالياقوت أنت الآخر؟

وكان لا بد لراجا أن يحس بجرح بليغ عندما أدرك خيط السخرية في صوتها الواطئ، غير أنه لم يكن ليسمع في تلك اللحظة سوى ضجة أصوات الضيوف في حفلة (حيدر علي) وهم يثنون على أسلوب إلقائه الرائع ومخارج ألفاظه المتقنة، وقد ربت

الشاعر الكبير القادم من (حيدر أباد) على كتفه وهو يقول له:

- سيكون لهذا الفتى شأن كبير يا حيدر علي صاحب، لأن العقل الذي يتحسس ويدرك شعر (إقبال) وفي هذه السن المبكرة سيكون له مستقبل مرموق.

ولم يفطن راجا إلى نبرة التملق الذليل واللمز الخفي الكامن وراء الكلمات.

أما الآن فإن راجا قد اشتعل بوهج الحماسة عندما ألقى الشعر وكأنه كاتبه ومبدعه، ولم تستطع بيم ولا الحديقة المظلمة النيل من زهوه.

لكنه أحس بطعنة بليغة من المهانة عندما رأته بيم عصر أحد الأيام وهو يكتب على نحو مجنون مهتاج، وكان كل من في البيت قابعاً في الداخل وقد احتجزهم هبوب عاصفة ترابية في الخارج، فسألته:

- أتراك يا راجا ستصبح شاعراً باللغة الأوردية عندما تكبر؟

وشعر آنئذٍ أنها يجب أن تعرف راجا شاعر من (شعراء الأوردو) ولكن أنى لأخت صغيرة جاهلة أن تدرك ذلك، فاكتفى بأن حدجها بنظرة قاسية تنطوي على مرارة من خلال دخان سيكارته. لقد اعتاد على التدخين..!

ارتأى والدا راجا في الصيف الذي ظهرت فيه نتائج امتحاناته النهائية أن الواجب يحتم عليهما توجيه بعض النصح والارشاد إليه.

وكان راجا في بعض الأحيان يعترض طريقهما وهما يهبطان درجات الشرفة نحو السيارة المنتظرة لتقلهما إلى نادي (روشونارا) لممارسة لعبة (البريدج) اليومية، أو كان ينتظرهما في الشرفة حتى

عودتهما متأخرين في الليل وقد آوى الجميع إلى أسرتهم وناموا، فكانت والدته تتضجر متأففة من سلوكه وتندفع بسرعة نحو غرفة نومها منهكة، شأنها دائماً، وتقول له:

ـ ما الذي جعلك تسهر إلى هذه الساعة؟

قال راجا: يا أبي، سوف أقدم أوراقي إلى الكلية ولا بد أن توقعها لي.

نخر الأب من بين رقائق تبغ السيكار المتفلتة:

ـ هيا، إليَّ بها.

وأمعن النظر في نموذج الاستمارة تحت النور الخافت المتسلل من الباب الأمامي المفتوح ثم تجهم وجهه:

ـ ولكن، هذه الكلية لا تناسبك، إنها استمارة (Jamia Millia) (مسجد الأمة).

ـ وفيها اعتزم أن أكمل دراستي فقد ذهبت إلى هناك وحصلت على الاستمارة.

قال الوالد وهو يرفع السيكار من فمه ويلفظ قطعة من ورق التبغ:

ـ لن تدرس هناك، إنها كلية خاصة بأبناء المسلمين.

ـ كلا، بوسع أي فرد الانتساب إليها، إذا كان يريد التخصص في «الدراسات الإسلامية».

وهي عبارة كان يحلو لراجا استخدامها بعد أن التقطها من (حيدر علي)، وكان لهذه العبارة (الدراسات الإسلامية) تأثير بالغ في شقيقتيه وخالته (ميرا ماسي).

وأخذ يتفرس في محيّا والده عله يعثر على التأثير نفسه فيه،

إلا أن وجه الوالد غام وراء بضعة من ظلال وأخذ يتأتىء بصوته الخشن:

ـ التخصص في الدراسات الإسلامية؟! ما الذي تتحدث عنه أيها المغفل؟

ـ (هذا ما أسعى لمواصلة دراستي فيه يا والدي) قال راجا عبارته بثبات وحرص على الزهو باختياره الاستثنائي وسرعة حسمه للموقف وسخريته من هذا الرجل العجوز الغامض الذي لا يستطيع أن يفهم.

قال الأب بفتور وهو يردد مفردات مفضلة لديه:

ـ قذارة، هراء.. هراء.

ومزق الأنموذج إلى مزقتين قبل أن يغادر غرفته.

كان صيفاً عاصفاً، وتارا وبيم تعضان بأسنانهما على شفاههما وتتبادلان النظرات الحائرة وهما تنصتان من وراء الستائر، بينما كان الوالد والابن يدخلان في نقاش ساخن كلما أتيح لهما اللقاء الذي غالباً ما يكون عرضياً ومبستراً، فكانت النقاشات التي يخططان لها في دخيلتيهما تندفع متهورة متفجرة خلال فرص اللقاءات العرضية، فيزداد راجا آنئذٍ عناداً، ويصبح من العسير التنبؤ بما سيؤول إليه مزاجه، بينما يبدي الوالد ميلاً للتراجع بعيداً عن مسرح الأحداث وحيث يتعذر على أبنائه مشاهدة توتره وهياجه.

ولكن، أخيراً عندما أرغمه راجا على الجلوس بعد عودته من النادي في وقت متأخر من إحدى الليالي، لم يحاول المرور به بسرعة وهو يجتازه، ولربما كان قد استمتع بلعبة موفقة في النادي أو لعله حظي بعشاء جيد هناك، وكان ينفخ دخان سيكاره، بطريقة

تنم عن الثقة الراسخة بالنفس وهو يوجه الحديث إلى راجا.

ـ لو كنت طلبت مني هذا الأمر قبل سنوات قليلة لكنت وافقت تواً، ولكنت أجبتك: نعم، ليكن، أدرس ما يحلو لك..

ـ كيف بوسعي أن أطلب ذلك قبل سنوات وأنا لم أكمل دراستي إلا في شهر نيسان من هذا العام؟

ـ أعرف، أعرف ذلك، أنا لا أتحدث عنك، أو عن التسجيل في الكلية، وأشار بسيكاره فانتشرت رائحة التبغ مهيمنة على جو الغرفة المغلقة أشبه بستارة ثقيلة.

ـ أنا أتحدث عن الوضع السياسي، ألا تعرف شيئاً عنه؟

ألا تدري أي اضطرابات تعم البلاد من أجل (باكستان)؟ وكيف يضغط المسلمون على السلطة البريطانية من أجل تقسيم البلاد ومنحهم نصفها؟ ستكون ثمة الكثير من المشكلات والمصاعب يا راجا وستحدث أعمال شغب وإرهاب وإخلال بالأمن و (خفض صوته حذراً).

فإذا انتسبت أنت (الولد الهندوسي) إلى كلية (مسجد الأمة Jamia Millia) أو مركز الدراسات الإسلامية كما تدعوه أنت فسوف يمزقونك أرباً أو إنك ستحرق حياً.

تساءل راجا متظاهراً بشيء من الاندهاش لأنه على معرفة جيدة بالوضع السياسي من خلال الاجتماعات المسائية في حديقة (حيدر علي) إذ كان الرجال يتحدثون بحرية، ناسين وجود الشاب الصغير وانتماءه الديني. وكان هو بدوره يصغي قلقاً محرجاً، ولكن لم يكن ليربط بين مثل تلك (الأحاديث وبين خطط حياته المستقبلية، ففي ذلك الوقت كان لا يزال طفلاً إلى الحد الذي

يعتبر الحديث لعبة كبار لا دور له فيها).

وقد أرضى غروره الآن أن والده صار يعتبره كبيراً من دون كل الآخرين الكبار، واجتاحته النشوة وهو يصغي إليه بيقظة وانتباه الكبار.

- من سيفعل بك ذلك؟.. المسلمون!

لأنك تحاول أن تكون شريكاً لهم في الوقت الذي يرفضونك فيه ويرتابون بك، والهندوس أيضاً، لأنك تخليت عنهم وخذلتهم وانضممت إلى صفوف العدو، الهندوس مثلهم مثل المسلمين، سوف يأمرون بهدر دمك، إنه ليس بالأمر الذي تسلم عواقبه يا راجا، إن له عواقب وخيمة يا بني.

وأصاب راجا الرعب جراء هذه الفكرة، وبدا بهيئة طفل توهجت عيناه أمام مرأى سيف قاطع، لولا أن تناهى إليه من غرفة النوم صوت كالآنين الرفيع مشحون بالاستياء.

ما هذا الذي تقوله للفتى؟

صاح الأب: لا شيء، بعض الحقائق!

ثم أضاف بتصميم وعزم مفاجئين.

- هذا ما يجب أن يعرفه.

كان قد رأى أن ثبات راجا قد بدأ يتزعزع، فأسرع ينتهز الفرصة، لقد كان لاعب بريدج متمرساً، مقامراً محترفاً.

وإذ رأى راجا انتصار والده انزوى وجلس على المقعد المستدير وقد اكفهر وجهه، فما كان ليتوقع سرعة الاستجابة ولا المجابهة المتعلقة من قبل الرجل الذي بدا أنه يتعامل مع كل من العائلة وشؤون العمل بسياسة التغافل والاستخفاف.

وما كان راجا يعرف عن والده أكثر من أنه لا يخرج إلى أي مكان سوى دائرة عمله وناديه الذي يعود منه متأخراً ومنهكاً إلى حد عجزه عن فعل أي شيء. وقد أفزعه هذا الجانب غير المتوقع في والده، أفزعه تماماً وأساء إليه.

وكان الوالد واثقاً من هذه الميزة في شخصه بدهاء عيني لاعب الورق وقوة رصدهما، فمضى قدماً ليطرح موضوعه ويبسطه أمام الفتى بإفاضة كاملة، فهو في الحق لا يحتاج إلى أكثر من هذا.

وعندما نادت زوجته مرة أخرى، ذهب إليها ليهدئ روعها، ثم شغله موضوع راجا من جديد وعلى مدى اليومين التاليين.

والآن راجا هو الذي تراجع عن موقفه وأخذ يتجنبه ويحاول التنصل والفرار بعيداً عن هذه المواجهات بالمكوث قرب الخالة ميرا وشقيقتيه وقد أصابتهم الدهشة للطريقة الغريبة التي كان والدهم يتعمد الظهور بها ليكون بينهم، إذ كان يأتي وهم يتناولون الشاي في جو هادئ أو يتطفل على شؤونهم البيتية، وأخذ يخاطب راجا ويتعامل معه ليس كواحد من بين الأبناء، وإنما كشخص كبير راشد، شخص يناقش معه شؤون الكبار.

ولزم راجا الصمت حتى الآن، فلم يكن ليتوقع هذا التحول، إنما كان ينتظر من أبيه أن يواجهه ولكن عبثاً، فقد كان يتعامل معه بشيء من الاستعلاء والصلف والصمت. ولم يكن راجا في الحقيقة مستعداً لخوض النقاش أو التباحث في الأمر مع أبيه.

وجرفت الأفكار راجا على أجنحة من خيال يعوزها التعقل أو القدرة على التحليل.

وإذ أدرك مدى هيمنة والده، كفّ عن النقاش يائساً، وتوقفت

زيارات والدهم لهذا المكان الذي يجتمعون فيه داخل البيت، وعاد إلى صمته من جديد ومن دون أن يوجه كلمة واحدة لأي منهم وهو في طريق خروجه أو عودته إلى البيت، وعرفوا فيه سيداً مهمته الدخول والخروج فحسب.

وتخلفت الأم عن الذهاب إلى النادي للمرة الأولى منذ عشرين عاماً وهي تقول إنها تحس بوعكة صحية وسوف تلزم فراشها.

وفي تلك الليلة راحت في غيبوبة طويلة هادئة فلم تكن قادرة على توجيه السؤال لزوجها عن (لعبة) تلك الليلة التي كانت لعبة خاسرة مع شريك غير مناسب.

وجدها مستلقية في سكون واسترخاء على سريرها مغمورة بالهدوء وغائبة عن وعيها تماماً.

هبَّ الأبناء من فراشهم مذعورين عندما استدعيت سيارة الإسعاف ووصلت البيت فرأوا أمهم محمولة مثل لفافة تضم مادة خطرة تستدعي مزيداً من الحيطة والحذر ليتسنى لهم حملها.

واستحوذت على ذهن تارا في اليوم التالي ذكريات الطفولة يوم كانت تجري وراء أمها على امتداد (ممر الورد) في صباح ذلك اليوم الصيفي وهي تضج وتصخب من دون توقف لكي تثير إليها الانتباه لكن الخالة ميرا المرتعشة حملتها بين ذراعيها كانها تريد حمايتها من شأن لا يليق بها قط..

وأنبأهم الوالد دونما لباقة أو ترو أن والدتهم لا تزال سادرة في غيبوبتها ولا يسمح لأحد بزيارتها، وبدل الذهاب إلى النادي على جري عادته، كان يذهب إلى المستشفى كل مساء، فيجلس الأولاد على سلم الشرفة في انتظار عودته إليهم ببعض الأخبار عن

أمهم، وكانوا ينشغلون في فترات انتظارهم بسرد الحكايات وممارسة بعض الألعاب والنسيان.

ولم يكن ثمة شيء يذكرهم بكون والدهم عائداً من المستشفى سوى رائحة المطهرات والبنج العالقة بملابسه. وكان وجهه يبدو أشد جهامة وكدَراً مما كان يبدو عليه بعد عودته من لعبة (بريدج) خاسراً، فيحدق الأولاد نحو الخالة ميرا التي تبتسم على نحو عجائبي مضحك في وجوههم الحائرة فتجعلهم ينفجرون بالضحك عندما تبدأ باسقاط أشياء ونسيان أخرى وهي تسير مضطربة الخطى مترنحة في أرجاء البيت مثل مهرج حزين.

وماتت الأم من دون أن تتاح لها رؤية أحد منهم، وإن كانت قد استعادت وعيها لبرهة قصيرة، فلكي تهذي بأسماء ورق اللعب المعروفة التي كانت تتداعى في مخيلتها مع حفيف أجنحة الموت.

وإذ لم يسمحوا لهم بحضور تشييع أمهم ومشاهدة طقوس الجنازة، فقد كان من العسير عليهم إلى حد ما إدراك أن أمهم لم تكن مستغرقة في لعب الورق في النادي بل ميتة في عداد الموتى.

ولم يكن الفارق كبيراً بالقدر الذي يفترضه الأصدقاء والجيران، فقد تبادل الأولاد نظرات الإحساس بالذنب عندما حضر الجيران وذرفوا الدموع كما تقتضي التقاليد وقدموا المواساة والعزاء اللازمين وعندئذٍ اتفق الأولاد ضمناً على إبقاء إحساسهم بالذنب أمراً سرياً في ما بينهم.

فأعاد السر إليهم حضور أمهم في البيت باعتباره نوعاً من بديل وهمي، لم يعترفوا بوجوده قط وتجاهلوه ـ غالباً ـ بالنسيان.

وذهب راجا محبطاً إلى كلية هندوسية برفقة أحد أبناء جارهم (ميسرا) الذي استدعاه والد راجا ليصحب ابنه معه ومنذ ذلك اليوم

أصبح طالباً في الكلية الواقعة في منطقة (كشمير غيت) التي اختارها له والده باعتبارها الكلية الأنسب له لأنه سبق أن درس فيها.

وعندما عاد إلى البيت ملئت الاستمارات ودفعت الأجور وانتسب راجا إلى قسم الأدب الإنكليزي.

ارتمى راجا على سريره واعتصم أسبوعاً بكامله ملتزماً الصمت رافضاً مبارحة فراشه، وامتنع عن الذهاب إلى بيت (حيدر علي) بالرغم من أن البيغوم نفسها كانت قد سمعت بنبأ وفاة أمه فأرسلت إليه دعوة شخصية.

قالت له بيم مداعبة وهي تقف في الرواق: ـ هيا.. هيا يا راجا، لقد غادر الوالد إلى النادي ونحن نلعب لعبة (البلاطات السبع)، هيا انهض ألا تلعب معنا؟

كانت تخشى ألا يكون اكتئابه نتيجة هزيمته في قضية دخوله مسجد الأمة Jamia Millia فحسب، بل بسبب وفاة والدتهم، ولم تكن بيم لتطيق التفكير في مشاعره المكبوتة الصامتة.

رد عليها بزمجرة وقذَفَ بالكتاب نحوها ليطردها، كان ديوان شعر أوردي صغير، فانحنت مذعورة ذاهلة وتناولت الكتاب ونفضت عنه الغبار وإعادته إلى رف المكتبة بكل هدوء.

وبدأ راجا يذهب إلى الكلية مع أبناء ميسرا على دراجته، وكان واضحاً أن هذا النوع من النشاط الحيوي قد انتشله من أعماق صمته وكآبته وازداد ـ بالرغم منه ـ استمتاعه بالحياة الجامعية وموضوع دراسته للأدب الإنكليزي، فصار يأتي بدواوين (تنسيون) و (سوينبرن) إلى البيت ليعيرها لأخته بيم.

لم يدرس أحد من أسرة راجا الأدب من قبل، ومن هنا أحس راجا وبيم بنوع من النهم والفضول أمام هذه الكتب وكأنها عنصر غذائي طال افتقادهما له في حياتهما، ثم أصبح الآن ميسوراً ومتاحاً لهما فشرعا يلتهمانه بشهية ورغبة، كانا يقرآن بصوت عالٍ ويصغي أحدهما للآخر، ويحفظان أبياتاً من الشعر ليتلواها بصوت جهوري مؤثر حتى يرغما تارا على الترنح جذلاً رغم ارتباكها الدائم وخجلها وتحرك الخالة ميرا فكيها مبدية إعجابها البالغ بهما.

ولم يكن (الأدب الإنكليزي) الذي أدهشه وفاجأه بإشعاعه المتجدد هو البوابة الوحيدة التي شرعت أمام راجا فحسب، فقد كان ثمة أمر آخر أثار اهتمامه، ورغم أن والده كان طالباً جامعياً في شبابه إلا أن الوضع كان مختلفاً كل الاختلاف على عهده، فلم تكن لديه أدنى فكرة عن تنامي الوضع السياسي لدى طلاب هذا الزمان، وكيف تكون الكلية مرتعاً خصباً للتعصب السياسي، ولا يدري كم من السياسيين والمتعصبين يتسللون إليها، فكان أن انجرف راجا الذي كبر فجأة وامتلأ بالحماسة في ذلك الجو المحموم ما بين فضول وما بين حاجات تتطلبها مراهقته للتبرير والظهور.

اكتشف فيه الفتية عنصراً مطواعاً سهل القياد، لولا أنه لم يبد أي إشارة تنبي عن صدقه، ولم يصدر عنه أي رد فعل يمكن الاعتداد به تجاه معتقداتهم الهندوسية المتعصبة، مما سيجعل منه أحد المعارضين الذين سينتهكون حرمة تلك المعتقدات.

ولم يسبق لهم أن تعرفوا إلى مدى إعجابه البالغ بشخص (حيدر علي صاحب) والشعر الاوردي بأي حال ولا علموا بأمسيات تجمع الشعراء والسياسيين في حديقة بيت (حيدر علي).

وحدثت بين الشبان مصادمات ومشادات مباشرة، مما كان يدفع كل واحد منهم ليبدي حماسة أكبر وضراوة أكثر لقضيته الخاصة كل لأسباب منفصلة تخصه وحده، وكان الجو شديد التفجر، جواً يتذبذب ما بين التهديدات والاعتداءات والشائعات وأعمال العنف والإرهاب، وتراجع راجا وانسحب، وبدأ يحتاط لكل كلمة يفوه بها، وانتحل شخصية الفتى اللامبالي الذي يتفرج ويصغي فقط، وغالباً ما كان يقرأ (لورد بايرون)، يقرأ كما يبدو من أجل أن يحدد شخصيته التي ستدركها بيم قبل أن يدركها أحد من معارفه وأقرانه في الكلية.

وتذكرت بيم كيف كانا طفلين صغيرين وراجا يعلن بزهو وأبهة (عندما أكبر سأكون بطلاً) ويحفزها البريق المتوهج في عينيه فتستجيب للنداء وتعلن (وأنا أيضاً سوف أكون بطلة).

وكان سلوكهما يؤدي بتارا إلى الشعور بالعزلة والتعاسة فتهرع نحو الخالة ميرا وهي تغمغم:

بيم وراجا، يقولان إنهما سيكونان بطلين، وهما يضحكان مني عندما أقول لهما (إنني أريد أن أصبح أماً) فتناديهما الخالة ميرا وتقرعهما.

تتذكر بيم يوم قرأ لها راجا بصوت عالٍ هذا المقطع من قصيدة (للورد بايرون).

«ضعني على منحدر (سانيوم) الرخامي،

حيث لا شيء سواي والأمواج.

لعلك تسمع همهماتنا المشتركة وهي تنجرف

هناك دعني أغني وأموت مثل بجعة،

فلن تكون أرض العبيد أرضي.

فأرشق عليها قدحاً من خمرة (ساميان)»

وروى لها راجا قصة اشتراك (لورد بايرون) في القتال من أجل استقلال الشعب اليوناني، وكيف واتته المنيّة في اليونان، مات بطلاً وشاعراً.

وهمست له بيم: مثلك..

فأخذ يتفرس في وجهها ليتأكد من كونها لم تكن تسخر منه، ونظرت إليه بمنتهى البراءة، فما كان منه إلا أن لوى شفته قليلاً كمن غمرته النشوة. فأحست بالغيظ والاستياء من نفسها، فلم يكن ذلك ليروق لها. وتساءلت: ما إذا كان زرع مثل تلك الأفكار في رأسه يشكل خطراً عليه، تلك الأفكار المتهورة النزقة حول بطولته وشاعريته، ولا بد أنه قد دفع بزملاء المدرسة إلى معرفة ذلك الأمر عنه بطريقة أو بأخرى، فقد تناهى إلى سمع بيم عرضاً أن أولاد ميسرا ينادونه: (لورد بايرون) وفي مرات تالية كانوا يدعونه (لورد) بمنتهى البساطة، وأغاظها الأمر وأجج غضبها وندمها على دورها في ترسيخ تلك الفكرة لديه.

وعاود راجا حضور الأماسي واللقاءات الشعرية في بيت (حيدر علي)، فجزعت الخالة ميرا التي كانت قد سمعت حديث والد راجا وتناهت إليها أحاديث زادت من قلقها كانت تدور في أوساط الخدم وبين أهل الجوار.

زمت الخالة (ميرا) شفتيها وأطبقتهما حول الخيط الذي بللته لتنعم طرفه من أجل إدخاله في ثقب الإبرة، قطبت جبينها وهزت رأسها أمامه وهو يقفز على درجات الشرفة ثم يمضي عدواً نحو الطريق الخاص المفضي إلى البوابة.

سألتها بيم وهي تضع يدها على ركبتيها مستثارة بسبب سيماء خالتها المتجهمة: ما الخطب يا ميراماسي؟

كانت خالتها جالسة لا حول ولا قوة، وهي تمص طرف الخيط الذي تدلى من شفتيها أشبه بذيل رفيع، وعندما رفعت يدها لتبعده عن شفتيها ارتعشت يدها وغمغمت بصوت كأنه الأنين:

- يجب أن لا يفعل، إن في ذلك خطراً عليه.

هتفت بيم وقد فوجئت:

- إنهم جيراننا يا ميرا ماسي..

همست الخالة وقد اعترتها رعشة:

(لكنهم مسلمون، ذلك ليس بالأمر المطمئن) ثم أضافت شبه ذاهلة: أوه بيم، هلا أتيتني بزجاجة براندي والدك من الخوان؟.. قطرة، قطرة واحدة وحسب، أضعها في قدح شايي، إنني بحاجة إليها كي تساعدني، فالأمر جد خطير.

دهشت بيم وقد أبهجتها الفكرة فاندفعت من دون تروٍ لتأتي بالزجاجة من فجوة الجدار المظلمة ذات الرائحة الكريهة، والتي ثبت فيها الخوان الضخم الكئيب في غرفة الطعام، وأمالت الزجاجة نحو قدح شاي الخالة ميرا ماسي وصاحت والقطرات تتساقط: أمزيداً منه يا خالتي ميرا ماسي، هل تريدين المزيد؟..

كانت الخالة ميرا ماسي تضغط بأصابعها على شفتيها المرتعشتين وتهز رأسها:

(المزيد، المزيد)

حتى طفح القدح إلى حافته فأمسكت به وشربته وبيم تحدق نحوها فاغرة الفم، وسمعتا صوت احتكاك حافة القدح بطقم

الأسنان الصناعية لخالتهما فأخذتا تضحكان.

ـ كلا، إنه ليس بالأمر المطمئن.

رددت هذه العبارة مع شهقات الفواق الذي أصابها ثم أعادت القدح إلى صينية الشاي محدثة ضجة تنبي عن اضطراب أعصابها:

ـ أسرعي يا بيم وأعيدي الزجاجة إلى موضعها فالأمر خطير..

لم يأبه راجا بالأمر، بل تسلق البوابة وقفز إلى الشارع من دون أن يكلف نفسه مشقة فتحها وإغلاقها. ومضى في حديقة بيت (حيدر علي) ماراً بشجيرات الياسمين والدفلى المزهرة وأحواض الورد والنافورة.

ودهش قليلاً عندما وجد أن الاجتماع قد تقلص عما كان عليه في آخر زيارة له، وبدا أن بعض أصدقاء حيدر علي قد اختفوا، أتراهم ذهبوا من فورهم إلى (باكستان) التي ستصبح دولة؟..

تساءل راجا ثم تردد وتوقف قليلاً عندما أحس أن استقبالهم له كان أقل حرارة وترحيباً من قبل، وأن لقاءهم به لم يكن حميمياً ولطيفاً كسابق العهد بترحيبهم به، وتساءل عما إذا كان السبب انتماؤه (للكلية الهندوسية) ودراسته للأدب الإنكليزي بدل (الأوردو) في (مسجد الأمة) كما نصحه حيدر علي، لكنه لم يلحظ في استقبال حيدر علي نفسه شيئاً من الفتور، بل كان يبدي له في الحقيقة بعضاً من الحب الرقيق، وقد أحاط بذراعه كتفي الفتى عندما أقبل نحوه، وفسر راجا هذا الود الذي يبذله له لكونه قد حرم من انجاب ابن له ولم يرزق بغير ابنته الوحيدة (بنازير) إنها لفكرة غريبة ـ لم يكن قد باح بها لأحد قط، أما الآن فقد اتضح له شيء، إنهم أصدقاء (حيدر علي) من آثروا الصمت حالما أقبل

راجا بل إنهم غيروا موضوع النقاش بشيء من التظاهر ليلفتوا الانتباه، ولم تتوقف السماجة عند هذا الحد بل دارت كؤوس الويسكي وألقي بعض الشعر.

ونُسي أمر راجا على الفور، بل نسوا وجود راجا (الهندوسي) واختاروا أن يتحدثوا ـ حالما رأوه ـ في موضوع (باكستان) باكستان وليس سواها، وأنصت راجا صامتاً وهم يتحدثون عن (محمد علي جناح)[1] و (تشرشل) و(غاندي) و(نهرو) و(اللورد مونتباتن)[2] و (أتلي)[3]، وظل ملتزماً الصمت لأنه كان يدرك أهمية الابتعاد عن إبداء الرأي في مثل تلك الأمور فآثر الإصغاء وبدأ يرى باكستان كما يرونها: ممكنة، قريبة إلى نفوسهم، شيئاً ملموساً وحقيقياً، وعندما اكتشف شباب الكلية الهندوسية أن (راجا) هو الوحيد من

---

(١) محمد علي جناح: ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨ ـ مؤسس باكستان، ولد في كراتشي لأب مسلم، عمل في التجارة، تلقى دراسته في انكلترا، كان يناهض الطائفية ويدعو إلى الوحدة الوطنية في الهند، ثم اختلف مع غاندي وترك حزب المؤتمر، وأصبح زعيماً للمسلمين في الهند، وبدأ يدعو إلى دولة إسلامية منفصلة، وتحقق له ما أراد بظهور دولة باكستان سنة ١٩٤٧. (المترجمة)

(٢) اللورد مونتباتن: (Mountbatten - Lord Louis)
أميرال بحري نائب الملك في الهند قبل الاستقلال قائد قوات الحلفاء في جنوب شرق آسيا، حاكم الهند العام بعد الاستقلال وقبيل التقسيم، رئيس أركان حرب بريطانيا ١٩٥٩ ـ ١٩٦٦، أميرال البحرية ١٩٦٥.
(المترجمة)

(٣) أتلي Attle - clement Richerd سياسي بريطاني زعيم لحزب العمال، ترأس الحزب ١٩٢٥ ـ أصبح نائباً لرئيس الوزراء، ١٩٢٤ ـ ١٩٤٥ ـ في وزارة تشرشل ـ رأس الوزارة ١٩٤٥ قامت حكومته بتأميم كثير من الصناعات وتأمين الخدمة الصحية، تزعم المعارضة بعد فوز المحافظين ١٩٥١ ـ توفي سنة ١٩٦٧.

بينهم الذي يتقبل فكرة (باكستان) كأمر محتمل التحقق، تحولوا من أصدقاء مفتونين به، إلى أعداء خطرين، ولما كان راجا قد تزود من بيته وأسرته بخلفية منغلقة ومصانة على نحو استثنائي فإنه لم يدرك الأمر بسرعة، وكان الشبان في السابق يصطحبونه إلى صالات الشاي ويزودنه بالسكائر والشطائر وأخذ يرتاد دور السينما معهم ويشاركهم ترديد أغانيهم وهم يعودون على دراجاتهم ليلاً.

أما الآن فقد أصبحوا غرباء وتغيروا فجأة، وعندما تحدث إليهم عن باكستان باعتبارها قضية مسلماً بها، هاجموه صراحة ونعتوه بالخائن، وكبحوا كل محاولاته من أجل تعقل يرافق نقاشات المتعصبين الجادة.

وقد كشف له بعضهم ـ وهم إثنان أو ثلاثة من أقرب أصدقائه ـ سر انتمائهم لمنظمات إرهابية، وأنهم لن يسلموا أو يقرّوا مثل الجبناء بتقسيم البلاد وتجزئتها، ولا يأبهون بما أعلنه غاندي أو ما فعله نهرو، وسوف يواصلون النضال من أجل الدفاع عن بلادهم ومجتمعهم ودينهم، وإذ كانوا يندِدون ويخطبون، كانوا يرصدون راجا بكل حذر علّهم يقعون على لمحة أو علامات تنبئ عن تخاذله أو ضعفه، فقد كانت لهم رغبة كبيرة لأن يضموه إلى حركتهم فهو شخص جذاب ومطلوب ليغدو عضواً في منظمتهم لما يتمتع به من حماسة نموذجية وبسالة رائعة وبطولة مبدئية. كانوا يريدونه وكانوا يطاردونه وعندما يتغيب عن الكلية يذهبون إلى بيته بعد حلول الظلام.

وبسبب من كل هذا سقط راجا مريضاً، وكان والده والخالة (ميرا ماسي) مقتنعين بأن شيئاً ما قد حدث له في أجواء ذلك الربيع، أجواء التهديدات وتزايد العنف، في الوقت ذاته الذي

كانت تتجمع فيه العواصف الترابية ثم تنقض عليهم انقضاضاً وتزعق طيور الوقواق الهندي بحدة بين الأشجار، وترتفع الحرارة المروعة من الأرض الظمأى المحروقة التي كساها الإصفرار إضافة إلى ذلك القدر الهائل من الشائعات التي كانت تهب عليهم من المدينة أشبه بسحب الرمال والدخان.

فحصه الطبيب بسماعة وأمر بإجراء تحليلات وفحوص مختلفة ليكتمل التشخيص وعندما اطلع على النتائج قال:

- كلا.. لم يكن مرضاً فكرياً أو ذا منشأ عاطفي، الفتى مصاب بالسُل..

صرخت الخالة ميرا ماسي: السُل؟

واخترق صوتها الحاد مثل سكين باردة روح بيم، وتمتمت بيم وهي تمزق طرف ساريها بيديها: كيف؟

كيف يحدث هذا والفتى يحيا حياة صحية ويشرب الحليب ويتناول البيض واللحم؟

قال الطبيب وبانفعال:

- كلا.. كلا، إن سوء التغذية لا يسبب السُل دائماً ولا بد أنه التقط الجرثومة لدى شربه الشاي من قدح ملوث، أو أنه استعمل منشفة ملوثة في مكان ما، إنه السُل ولا شيء سواه.

وظل يؤكد الأمر ويلح عليه بإزاء عدم تصديقها له.

وارتاب راجا بالأمر أيضاً ولم يقو على تصديقه، غير أنه أحس بالمرض وأنه عاجز عن الوقوف على قدميه، أو القيام برفع رأسه من أجل رشفة الماء التي صارت تتطلب منه جهداً هائلاً وتجعل الألم الواخز يتنقل وينبض في صدغيه، وكان على يقين من

كون الأمر لا يزيد عن تعب بسيط أو حصراً نفسياً، إنه شيء ما له علاقة بشيء، ولكن أي شيء؟

لم يكن بقادر على التعبير عن تلك الأشياء التي تدوّم وتدوم في رأسه:

لورد بايرون، البطولة، باكستان، محمد علي جناح، غاندي، شباب الكلية الذين يطلقون أصواتاً كالصفيح للهزء به من وراء عمود البوابة، وحيدر علي الذي يرشف الويسكي هادئاً وهو يتأمل تلك الجمهرة من الشعراء والسياسيين في الحديقة عبر الشارع، إن ذلك كله يصيبه بالدوار ويزعزعه كما لو أنه يدور في قلب عاصفة ترابية.

لم تتقبل العائلة كلها مرض راجا ولم تحمله محمل الجد، وبعد حين من الوقت سمحوا لزملائه في الكلية بزيارته والجلوس على سريره ليقدموا له أخبار مخيمات اللاجئين وأنباء المجازر وأعمال النهب والسلب والحرائق في هذه المدينة والتمسوا منه مرة أخرى وبنبرة منافقة أن ينتمي إلى جمعيتهم، وأعلنوا أنه لن يفلت منهم قط، ثم أضافوا هازئين:

ـ السُل..؟ لا شك أن هذا الطبيب مصاب بمس من الجنون.. إنها محض حرارة حمى بسيطة، ولسوف تشفى على الفور ثم تأتي معنا، وسوف نريك أين نخبئ بنادقنا ومسدساتنا وخناجرنا، ونعرفك على أماكن لقائنا حيث نجري تدريباتنا ونتمرن على القتال.

ولما كانوا يعرفون مدى اندفاعه وجرأته وقدرته على الاقتحام، وأن هذا الضرب من الكلام سيؤجج روحه فقد كانوا يناورونه ويتملقونه ويغالون في إرضاء غروره بمداهنتهم له.

وقدمت لهم الخالة ميرا عصير الليمون، ولكنهم جوبهوا بمعارضة غاضبة من قبل راجا، كان في حالة من الوهن لا تسمح له بمواصلة الكلام، كان واهناً ومصاباً بالدوار، غير أنه عندما فكر بحيدر علي وبمكتبة حيدر علي، والبيغوم زوجة حيدر علي وابنتها وهما تدندنان وتثرثران أثناء تطريزهما للغلائل والبراقع، فكر بكل تلك الأماسي اللطيفة الهادئة في حديقتهم، تلك التي منحت روحه جَيَشان الفرح ووهبته كل ما يتوق إليه ويشتهيه، شعر أنه محتدم بالغضب على أولئك الشبان وكل ما يناضلون في سبيله.

وقال لهم وقد أوشك على البكاء في شدة وهنه ويأسه:

ـ سوف أبلغ الشرطة بكل هذا، ما عليّ إلا أن أحدثهم بالهاتف فيتوقف كل شيء..

شهقوا جميعاً: لن تفعل ذلك أبداً.

وتراجعوا ثم قالوا ـ سوف نرى، إنك لن تقدم على ذلك قط، وسوف نشي بك لدى الشرطة، فأنت أشد خطراً على الهند منا، أنت خائن..

وكان هذا ما أقدموا عليه بالفعل، وعلى الفور ظهر رجل بوليس سري بملابس عادية يحوم حول بوابة بيت راجا منذ الساعة السادسة مساءً حتى السادسة صباحاً. وكان يصلح لأي مهنة أخرى ما عدا مهنة رجل البوليس السري.

نظرت بيم ملياً من خلال حاجز الخيزران نحو البوابة حيث يقف الرجل وخيل إليها بادئ الأمر أنه لا بد أن يكون لصاً يخطط للسطو على البيت. كانت تترصد حركاته وراجا يهوّم في إغفاءة قصيرة وعندما أفاق، أنبأته بما ترى، فأدرك على الفور أن أصدقاءه الإرهابيين قد أبلغوا البوليس عنه كونه من (المسلمين المتعصبين)

ولعلهم قدموا لهم البراهين على أنه سيكون جاسوساً باكستانياً. وعلى مدى لحظة، أفزعته فكرة أهميته وخطورته، ورأى نفسه يقاتل من أجل حماية أسرة (حيدر علي) شاهراً سيفه وهو يعيد عنهم الغوغاء ويضطر للدفاع عنهم بضراوة وقوة.

وجعلته هذه الأفكار بالذات يتفصد عرقاً حتى ابتلت ملابسه وتندى فراشه ولبث واهناً وقد اعترته القشعريرة.

عندئذٍ اعترف لبيم بخوفه وأخذ يتمتم:

ـ ما الذي سنفعله إذا هوجم بيتنا؟ ومن الذي سيحمينا؟ الشرطة؟..

كلا! لن تقوم بذلك لأنها تخشى الغوغاء، حاولت بيم أن تعيد إليه طمأنينته ورباطة جأشه، ولكنه لم يشأ الإصغاء إليها فقد واصل كلامه، كان يتحدث عن حيدر علي والبيغوم زوجته، وعن ابنتهما الشابة (بنازير) وسأل بيم عنها، ولكن بيم لم تكد تعرفها ـ إنها تتمتع بنضارة الصبا وهي لا تزال طالبة في المدرسة، صبية رائعة بوجه كأنه صحن بورسلين، تتشبث على الدوام بكتف أمها مثل حمامة صغيرة بحاجة إلى من يطعمها. قالت بيم محاولة أن تجد شيئاً ما تتحدث به:

ـ إنها لم تعد تأتي إلى المدرسة أبداً، الفتيات المسلمات انقطعن عن الدراسه هذه الأيام فالأسر تخشى أن ترسل بناتها خارج بيوتها، أتمنى أن أستطيع الذهاب إليها لأراها.

أعلم أنني لست بمستطيع ذلك، فقد منع الطبيب الاختلاط بي، اللعنة على هذا السل، اللعنة عليه، لماذا كان عليّ أن أصاب بالسل الآن؟

قال الطبيب إنه حدث بسبب قدح شاي ملوث أو منشفة قذرة..

صرخ راجا وهو يرفع رأسه من فوق الوسادة لينظر إليها:

ـ قدح شاي؟ أو منشفة قذرة؟ عندما يتوجب علي أن أكون في الشارع لأقاتل الغوغاء وأحمي عائلة (حيدر علي) وابنته (بنازير)..

ولولت بيم: يا إلهي.. أواه يا راجا..

(إهدأ وإلا فإن حرارتك سترتفع لا محالة بسبب هذا الاضطراب وهذا الهراء..)

قال لاهثاً وقد اكتسى وجهه بالشحوب واحتدم غيظاً: هراء؟

أراد أن يصرخ هادراً في وجهها فقد كان غضبه مستعراً وخيبته لا حد لها، غير أنه لم يقو على شيء غير اللهاث.

صرخت بيم غاضبة وهي تمسح وجهه باسفنجة وتحضر له قميص نوم آخر لتغير له ثيابه:

ـ هيا، إن هذا الانفعال يسيء إلى صحتك هيا، وإلا كيف تتحسن صحتك وتتماثل إلى الشفاء وأنت منشغل بأمر قتال الشوارع؟.. أي قتال شوارع هذا؟

ـ ألا ترين؟ ألا تدركين؟ سينشب قتال شوارع، وسيبعد الناس من أمثال (حيدر علي صاحب) إلى خارج البلاد وتحرق ممتلكاتهم وتنهب أمتعتهم، والحكومة لا حول لها ولا قوة، ولن تحول دون وقوع الكارثة، لن تحول دونها..

واختنق بعبرات صعّدها إحساسه بضعفه، فأطبق فمه وأخذ يدير رأسه من جهة لأخرى، كأنه كلب رُبط برَسنٍ.

كان في حالة عاطفية مؤثرة، وعندما مسحت بيم وجهه بالاسفنجة وساعدته في مجاهدته لخلع قميص الموسلين واستبداله بآخر، لاحظت جسده المنهك المتراخي وهي ترفعه وتعينه، كان مرهقاً، واهناً أشبه بسمكة مستنزفة مطروحة خارج الماء و (دلهي) تضطرم نيران حرائقها على مقربة منهم.

كان راجا يأمل شأنه شأن (لورد بايرون) أن يهب ليدافع عن أولئك الذين يحيق بهم الخطر وينقذهم مثل لورد بايرون يرقد الآن مريضاً ويعاني سكرات الموت. كانت بيم موقنة من موته، فغاضت عيناها بالدموع وهي تثبت أزرار قميصه.

سألته وهي تبتلع غصتها:

ـ هل تحب أن أقرأ لك شيئاً يا راجا؟

وتجرأت وسألته:

ـ هل أقرأ لك يا راجا شيئاً؟

كان أحياناً يومئ برأسه: أن نعم، وفي أحيان أخرى يهز رأسه مبدياً الرفض.

ـ ألن تصعدي مرة أخرى إلى السطح لتري ما الذي يجري الآن من أحداث حولنا؟

سألته بيم وقد بوغتت وأسقطت الكتاب من عجب إلى حجرها:

ـ هنا، في (بيلارود)؟

وبانتفاضة هياج مؤلمة أوضح لها راجا:

ـ أجل ـ لتري دار حيدر علي من دون شك.

كانت بيم تتذمر في أحيان كثيرة، وتدمدم لكنها تذهب في

النهاية مجرجرة قدميها وهي موقنة من عدم حدوث شيء سواء في شارعهم (بيلارود) أو في حديقة (حيدر علي) أو في بيت (آل ميسرا) أو في أي مكان أقرب من ذلك الأفق حيث يتصاعد الدخان من أسوار المدينة أثناء النهار وتتوهج ألسنة اللهب أثناء الليل.

يسرها في بعض الأحايين أن تغادر غرفة المريض الخانقة المغلقة بكل نتانتها وروائح المطهرات التي تثقل هواءها، وتبتعد عن معنويات راجا المتدنية، وصداعها، فتذهب لترفه عن نفسها في الشرفة العليا لفترة من الوقت وتشاهد طيور النهر وهي تنقض من السماء لتحط على الكثبان الرملية طوال الليل وهي تزعق بصرخات هياج تنذر بالشر.

أو تتشبث بالدرابزين لتكتشف الحدائق الكثيفة والأرباض المسورة علها تعثر على حركة أو نأمة حياة يمكن أن تبلغ راجا بأمرها.

ترى دراجة تتهادى مترنحة وهي تنطلق من جناح الخدم وراء البيت مجتازة صف أشجار الغوافة، ويمضي غسال الملابس إلى بوابة حديقة آل ميسرا حاملاً رزمة أنيقة نظيفة من الغسيل الناصع البياض على رأسه.

وترى كلباً كان ينبح في حديقة (حيدر علي)، هذا كل ما هنالك، وهو بمجموعه لا أهمية له.

يوم واحد أقل من لا شيء.

وعندما هبطت من السطح إلى البيت قالت لراجا بشيء من فظاظة:

ـ يبدو البيت خالياً، أظنهم قد رحلوا...!

ـ من؟

ـ قالت وقد عيل صبرها واستشاطت غضباً:

ـ آل حيدر علي، بالطبع.

واتجهت نحو منضدة الزينة حيث صفت الأدوية التي وصفت ليتناولها مساء.

ـ ذهبوا؟.. إلى أين ذهبوا؟

ـ لا أعلم يا راجا، صعدت إلى السطيحة لأتفرج حسب فوجدت البيت غارقاً في الظلام وقد أوصدت المنافذ كلها.

صاح بما يشبه صرخة مكتومة:

ـ وإذاً؟.. وإذاً يا بيم عليك أن تذهبي وتتحري الأمر، اذهبي واكتشفي الحقيقة.

ورمقته بيم بنظرة قاتمة من وراء الملعقة الطافحة بالدواء.

ـ سأذهب إذا أخذت هذا الدواء وكففت عن الصراخ.

ـ (أنا لا أصرخ، أنا أرفع صوتي) وابتلع الدواء واختلطت في صوته حالة الانفعال الهستيري بالجهد الذي يبذله:

ـ ولكن اذهبي.. اذهبي.

ولم تتورع عن القول: بودي لو كان في البيت من يذهب إلى هناك، سواي، ومضت مسرعة وهي تردد: «ليس هنا من أحدٍ سواي».

أجل، ليس من أحد غير بيم وكل شيء موكل إليها، وقد اختفت الخالة ميرا على نحو غريب وهي التي اعتادت المجيء إلى غرفته متعثرة الخطى وهي تحاول عبثاً ترتيب وتنسيق كتبه وأدويته، ثم تسأله على سبيل اختبار صحته: عن وجبات طعامه ودرجة

حرارته، أو أنها كانت تأتي لتتكوم على مقعد خيزراني في الشرفة قرب باب غرفته وهي تقول لبيم:

ـ أطلبيني عندما تحتاجين إليّ، فسوف أجلس ها هنا في انتظار تارا.

كانت تارا تكثر من الخروج هذه الأيام فمنذ وفاة أمها ومرض راجا، بدأت تزور عائلة آل ميسرا كل مساء، وغالباً ما كانوا يصطحبونها معهم إلى السينما أو إلى (كونوت بليس) أو إلى السوق أو إلى نادي (روشونارا) ليلعبوا (تنس الريشة) أو يشربوا عصير الليمون.

وكانوا يعيدونها إلى البيت بسيارة العائلة في مواعيد دقيقة، وفي الساعة التي تحددها الخالة «ميرا».

إلا أن الخالة ميرا قلما كانت تواصل المكوث ها هنا لفترة طويلة، فكانت تجلس بعض الوقت محنية الظهر إلى الأمام فوق كرسي الخيزران وهي تتفحص بعينين كليلتين يديها الهزيلتين بأظافرهما الزرق، وعليهما تتلوى أوردة غليظة كأنها الديدان الخضر، ثم تنتابها رعشة وتبدأ بالتحدث إلى نفسها وبيم ترمقها من طرف عينها وهي في مجلسها بجانب سرير راجا، ولا تلبث أن تراها تمضي متعثرة الخطى عبر الشرفة في طريقها إلى غرفتها لتتوارى في فراشها.

ويساور بيم القلق على الخالة ولكنها تكون مشغولة بأمر راجا إلى أقصى الحدود مما يحول بينها وبين المضي في قلقها عليها.

وعندما تذهب بيم في بعض الأحيان إلى غرفة الطعام لتناول عشائها، لا تجد تارا ولا الخالة ميرا على المائدة، بل تكتشف أن طبقيهما مقلوبين على المفرش في انتظار حضورهما. فيتجهم

وجهها وتندفع نحو غرفة الخالة ميرا تدعوها لتناول شيء من الطعام، فكرت بيم أن وجبات طعامهم على المائدة لم تكن مغرية أو شهية، ولكن عليهم في كل الأحوال أن يتناولوا وجباتهم.

لكن الخالة ميرا تنكمش ملتمةً تحت البطانية، في سريرها. ولكن علام التدثر بالبطانية في منتصف الصيف القائظ؟ إنه لعمل أخرق، وكانت تهز رأسها وتبتسم وقد تدلت شفتها السفلى مسترخية وهي تلتمع مبللة بلعابها في عتمة الغرفة.

وهناك رائحة نتنة غريبة في الغرفة الموصدة. علت وجه بيم علامات الاشمئزاز وعادت لتجلس في الشرفة وتنتظر تارا بدل خالتها ميرا.

كان أخوها (بابا) الأخرق يجلس هناك على درجات الشرفة بجانب أصيص زهور (البتونيا) التي تفتحت في الظلمة تواً وشعت بما يشبه الضياء القمري وهي تنشر حولها عبقاً أبيض رقيقاً يدفع المرء إلى الإحساس بالبرد والهدوء، ولم يكن حضور بابا ذلك الحضور الحي، بل كان أقل ما ينبغي لوجود إنساني. لم يكن حضوره مغيظاً أو منطوياً على التطفل ولم يكن ليعبأ ببيم أو يتحدث إليها، ولديه حفنة من حصى أملس كانت الخالة ميرا قد أعطته إياها منذ سنوات خلت، كان يلعب بها على الدوام مما جعل الحصى مدملكاً تام الاستدارة والنعومة بسبب من استمرار اللعب بها.

وكان كل من في البيت يميز الصوت الذي يحدثه الحصى عندما يلقي به على قرميد الأرض مصحوباً بإشارة صغيرة هادئة من يده المفتوحة ولا يلبث أن يجمعه من جديد بالحرص الأكيد نفسه والابتسامة الرصينة ترتسم على وجهه النحيل.

كان ذلك (صوت البيت) كما كان صوت هديل الحمام الهانئ في الشرفة يوحي به (صوت البيت) الذي يمنح الزمن معنى استمراريته واعتياديته التي تعلنها تكتكات ساعة الصالون في البيوت الأخرى.

تبدي بيم أحياناً امتنانها لهذا (الصوت) بينما، يثير أعصابها إلى درجة لا تطيقها في أحيان أخرى كما تفعل الرتابة الأبدية لحركة عقارب الساعة.

ـ لقد تأخرت تارا..

قالت له بيم، وتنهدت.

ابتسم (بابا) ابتسامة مبهمة لم تكن موجهة إليها بالتحديد وأخذ يهز الحصى برهة في يده قبل أن يسمح له بالتساقط على الأرض.

كزت بيم على أسنانها لتمنع نفسها من توبيخه على هذه الضجة والقعقعة التي أحدثها.

وبينما كانت متكئة على ظهر كرسيها الخيزراني، كانت عيناها ترصدان بوابة الحديقة الماثلة في نهاية الممشى بشيء من القلق والهياج.

كان مصباح الشارع يتوهج فوقها من دون أن يضيئها إذ كان واهن النور، والجو مغبر إلى درجة كبيرة، هي تعلم أن تارا ستأتي من دون أن يمسها سوء، فقد كان الأذى والسوء بعيدين تماماً عن طفولة تارا. ولكنها قلقة الآن لأن القلق كان يعم الأجواء أشبه بأسراب حاشدة من الميكروبات، مثل وباء بدائي ينفثه نحوهم ذلك البيت الخاوي المقابل لبيتهم وفي خوائه وعتمته يكمن النذير وربما التهديد لحياتهم.

كانت بيم مستغربة من أمر زيارات تارا المتكررة إلى ابنتي (آل ميسرا) بعد أن كانتا تغيظانهما لصداقتهما الوثيقة مع فتيات كانتا تعتبرانهن مضجرات بليدات ومتزمتات، ورغم ذلك كانت البنات يقدن دراجاتهن معاً في طريق الذهاب إلى المدرسة أو العودة منها بحكم الجوار، وكان أمراً يبعث على الطمأنينة أن تقود أربع فتيات دراجاتهن معاً فذلك آمن وأفضل من ذهابهن زوجاً زوجاً.

وفي أيام معينة كن يحضرن دروسهن معاً في الأمسيات أو يتسللن زحفاً عبر السياج النباتي بين حديقتي البيتين المتجاورين لاستعارة كتاب، أو لتعلّم مبادئ الخياطة التي تمارسها خالات وعمات عديدات نافعات في بيت (آل ميسرا).

أما الآن، فإنهما تنظران إلى ابنتي (آل ميسرا) أو تنظر إليهما بيم - في الأقل - باعتبارهما فتاتين مملتين، لا يمكن إقامة علاقة ود وصداقة معهما إضافة إلى أن البنتين كانت تتصرفان بأسلوب عصبي متوتر مع اخوتهما من الأولاد الذين كانوا في طفولتهم سمجين صخّابين، أما الآن وقد نمت لحاهم وتضخمت سيقانهم وبرزت كروشهم فقد أخذوا يلاحقون الفتيات بنظراتهم وهم يتكلفون الابتسام ويتفحصونهن بطريقة تقشعر لها أبدانهن مثلما تقشعر الخيول إذ يحط الذباب على أبدانها.

وعندما أتمت بيم دراستها الثانوية والتحقت بالكلية سرّى عنها علمها أن ابنتي ميسرا لن تواصلا الدراسة فقد مكثتا في البيت تساعدان أمهما وخالاتهما في إدارة شؤون البيت انتظاراً لزيجة سترتب لهما، وكانت تارا تزورهما بمفردها في معظم الأمسيات تقريباً وتسأل بيم قبل خروجها:

- بيم أترين من اللائق أن أتزين بأساور والدتنا؟

أو تسألها: هل بوسعي ارتداء ساريك الأبيض يا بيم؟ هذا اليوم فقط يا بيم، فسوف يصطحبونني معهم إلى النادي.

وعندما ظهرت تارا في بركة من النور الأخضر الذي يموج بالحشرات عند البوابة، لم تكن بمفردها.

أدركت بيم ذلك من خلال صريف أسنان (بابا) وهو يلقي بالحصى فوق بلاطات الأرض بين آونة وأخرى.

أدركت أن تارا ستأتي بصحبة أحدهم لدى عودتها وها هو ذا..

ـ أقدم لك باكول..

قالت تارا بهمهمة لا تكاد تُسمع وهي تحرك أساور أمها حول معصميها وتديرها.

ثم قالت متلعثمة:

ـ آل ميسرا.. آل ميسرا أخذونا إلى نادي (روشونارا) فقد كانت هناك حفلة رقص.

وإذ وجدها باكول متلعثمة مترددة، حاول بشهامة رجل محب أن يعينها ببضع عبارات منمقة لتأكيد ما أعلنته، ثم تدفق بالحديث في ثقة عالية بالنفس ليسد الثغرات التي خلفتها تارا، ويدعم تلك الكلمات القليلة التي استطاعت بها تارا أن تتدبر أمرها، بشيء من التماسك والقوة.

وخرجت الخالة ميرا من غرفتها لترى ما يحدث، فهمست تارا: هذه خالتي.

وخفضت تارا بصرها متجنبة أن ترى فم الخالة المزموم المرتعش وتلك التشنجات العصبية على وجنتيها والتي جعلت عينها

اليسرى غير مستقرة.

قال باكول فجأة: لقد جئت لأسأل ما إذا كان بوسع تارا الحضور إلى حفلة تعتزم أخواتي إقامتها في بيتنا، وستحضر ابنتا ميسرا، وتأتي تارا معهما إذا تفضلتم بالموافقة، وانحنى انحناءة صغيرة عندما فاه بعبارته الأخيرة.

وأبدت الخالة والأخت الاحترام على نحو يثير الدهشة مما جعل وجه العمة يرتجف ويضطرب فيتحول وجها البنتين إلى حجرٍ أصم.

كان ينبغي لهما أن تتفرسا على هذا النحو لو أن أميراً شاباً أتى ليختطف تارا على صهوة جواده ويهرب بها بعيداً، هذا الشاب المهذب ذو المظهر الراقي والمتحدث اللبق البارع الذي وصل إليهم ووطأ عتبة بيتهم مع تارا على غير توقع أو انتظار مثل طيف، وهو بعد هذا كل ما يرجونه ويتوقعونه لتارا.

وأعلنت الأخت والخالة موافقتهما دونما أي تردد:

- أجل، بوسعها حضور الحفلة.

قالت بيم متمهلة، أليس كذلك يا خالتي ميرا؟ هكذا طلبت بيم الإذن من خالتها.

هزت الخالة ميرا رأسها بعجالة، وانتظرت دقيقة أو اثنتين لتعبر الشرفة وترتمي على باكول لتحتجزه من أجل ابنة قريبتها قبل أن يتسنى له الإفلات والفرار. وبدل أن يطمئن ذلك تارا سارت مترنحة على رؤوس أصابعها مولية ظهرها لهم ودلفت إلى غرفتها تاركة بيم تقدم توجيهاتها لباكول وغادر، دخلت لترى الخالة ميرا برهة. وإذ كانت مستغرقة في التفكير بذلك المشهد الذي قدمته

لهم تارا لم تتنبه أو تلحظ أن الخالة ميرا كانت تسكب الشراب في قدحها من زجاجة ألفت وجودها على رف معين في الخزانة.

ولم تزد على القول: ميرا ماسي، أتظنين أنه يعتزم الزواج من تارا؟

ـ أجل..

قالت الخالة ميرا مع شهقة حادة..

ـ أجل أجل.. اعتقد ذلك..

ثم انحنت ترشف من القدح بشيء من الهياج وكأنها تهرب من مشهد لا يحتمل ذلك الذي استغرق بيم استغراقاً كاملاً.

وذات ليلة توفي الأب على نحو مفاجئ وهو في طريق عودته من النادي عندما اصطدمت السيارة اصطداماً بسيطاً بافريز الشارع، ودارت حول نفسها في الطريق الموحش عند السفح، وأدى الارتطام البسيط إلى اقتلاع الباب الذي انفتح على الفراغ فانقذف الوالد منها ومات بعد أن دق عنقه وعندما ترجل سائق السيارة منها بعد أن أوقفها وأسرع نحوه وجده قد أسلم الروح ولم تصب السيارة بأذى يذكر. ولا يكاد الأمر يكون حادث اصطدام، وكما بدا ظاهرياً فإن الإصابات جد طفيفة إلى درجة لا تستحق الذكر، وهذا ما يجب أن توصف به، غير أنها من جانب آخر كانت قاضية مميتة.

بدا الأب في بدلته القاتمة التي اعتاد ارتداءها في النادي وهو يضع منديلاً أبيض وسيكاراً في جيب سترته العلوي، بدا كأنه قد استعد للموت كما يستعد لحفلة تُقام في النادي.

وأدرك المعزون القلائل ـ وكان معظمهم من أعضاء النادي

ولاعبي البريدج ـ كم كان الفارق الذي نجم عن موته ضئيلاً بالنسبة لأهل بيته الذين ألفوا خروجه وانسجموا مع غيابه الدائم في النادي، فلم يزد الاختلاف عن تغيير صغير من المؤقت إلى الأبدي.

ولم يترك الرجل إلا القليل من بعده: خزانة ملابس ملأى ببدلات في منتهى القتامة والرصانة، وبعض قمصان بيضاء مغضنة ورفاً صفت عليه الأحذية وكلها أحذية عتيقة لكنها بالغة اللمعان بألوانها التي يعكسها بريقها: لون الخشب وخشب الجوز، والماهوغني والطلاء الأسود. وترك إلى جانب ذلك منضدة ركمت عليها ملفات رسمية. هذا كل ما هناك، حتى أنه أتى على آخر بقايا السيكار في العلبة، كما لو أنه كان يستعد لنهايته ولم يترك لابنه سيكاراً واحداً لعله يتوق لتذوقه أو ليمنح غرفته نفحة رائحة أليفة قد تمكث بعده..

ولم يقلق الأولاد على مدى فترة من الزمن، ولم يربكهم سوى حضور السيارة المستمر في مرآب البيت، وسلب التفكير بها طمأنينتهم فهم ـ ببساطة ـ لم يألفوا بقاءها طويلاً في البيت، فمتى ستغادر إلى النادي؟

ومتى تذهب إلى الدائرة؟ ولماذا لا تذهب؟

أما السائق، ذلك الرجل الفظ الذي قلّما كان يتفوه بكلمة، فقد جلس مقرفصاً لدى باب المرآب، يدخن تارة أو يحدق من وراء عظمتي ركبتيه، وتارة يكتفي بالتحديق فقط، ويثيره ويستفزه حضورهم الدائم في ساحة البيت الخلفية.

قالت بيم لراجا: يجب أن نقرر ما سنفعل بشأنه.. واتصل راجا بمالك مرآب تعرف بابنه في الكلية وباع له السيارة بأول ثمن

عرضه عليه. ثم أخذت السيارة إلى المرآب في اليوم التالي مباشرة، تاركة السائق في جلسته الأبدية وهو يواصل التحديق بمزيد من الفظاظة والبلاهة.

وروعت بيم وهي ترى السيارة في الشارع، خلال ذهابها وإيابها من وإلى ومن الكلية وأحست أنها سوف تصاب بصدمة إذ تتخيل وجود شخص أليف فيها، ولكنها ستكون كارثة كبرى لو رأت في داخلها أناساً غرباء، غير أن ذلك لم يحدث فالسيارة قديمة جداً، كبيرة جداً فلا يريدها هنا بعد أحد، وتركت لتتآكل في ساحة (السكراب) خلف المرآب وكانت بيم تراها من نافذة الحافلة رقم (٩) وعلى مر الأيام حتى لم يتبق منها سوى هيكلها الصدئ.

وإذ انتظر السائق حيناً من الزمن مثل من يتوقع عودة السيارة من جديد إليه تحامل على قدميه وسار نحو الحديقة وشرع يساند البستاني في إصلاح خرطوم الماء وتزييت آلة جز الأعشاب في الوقت الذي كانت بيم تتساءل فيه عما ستفعله بشأنه. وها هي المشكلة تُحل ببساطة لا نظير لها، إذا استُدعي البستاني على غير توقع من قبل أهله بعد أن توفي أخوه الأكبر وتوجب عليه العودة إلى قريته والعمل في الحقل، فما كان من السائق إلا أن بدأ العمل وحل محل البستاني، ذلك كل ما حدث.

ولبث باب المرآب موصداً على نسيج العنكبوت وبقع الزيت التي تلوث الأرض والصفائح الفارغة.

كان تأثير حادثة الموت في وسط العائلة تأثيراً مالياً فحسب، فقد كان الوالد ـ محتاطاً للمستقبل ـ قبل أن يكون شيئاً آخر وعندما استدعوا شريكه في مؤسسة التأمين إلى بيت العائلة أتى عدد كبير من العاملين في الشركة وبعض لاعبي (البريدج) المتميزين إما بكبر

سنهم أو حسن مظهرهم.

حتى راجا نفسه تحامل على ضعفه ونهض من فراشه وجاء إلى قاعة الاستقبال بمنامته. وكانت هذه القاعة محتفظة بسكونها وتحجرها كما كانت على عهد.. أمه وأبيه، فمنضدة لعب الورق مهيأة في الزاوية ومزهريات البرونز مليئة بأزهار موز الزينة (الكنّا) المرقطة المقطوفة من الحديقة. وظلت الستائر الحمراء الثقيلة والسجادة الحمراء والأرائك الملكية الحمراء في أماكنها تنبعث منها غمائم من غبار خفيف، حتى بدت كأنها ستخنق كل من يدلف إلى الغرفة التي تشبه سرداباً يحتوي على بقايا مهلكة تخلفت عن الراحلين.

كان راجا محموماً فقد توجب عليه أن يحضر إلى (المحرقة) في اشتداد قيظ الظهيرة ليحرق كومة الحطب فوق جثة والده ـ وهذا ما ينبغي أن يقوم به بنفسه ـ فألقى حطبته بسرعة وهو يومئ بيديه اللتين بدتا أشد طولاً ونحافة ورهافة بعد أشهر عدة من المرض والحمى.

ـ كلا.. أنا لا يعنيني ما كتبه والدي في وصيته ـ لا أريد أن أكون شريكاً في العمل ـ لا أريد امتلاك أي شيء أو تحمل مسؤولية شيء: أنا لست برجل أعمال.. أنا.. وانفجرت بيم ثائرة: راجا، تريث.. عليك أن تفكر، رد عليها بحدة وهو يزيح الشعر الغزير الطويل عن جبهته المتفصدة عرقاً.

ـ بيم أنا أدرك ما أقول، وأعرف ما أفعله فليأخذ أخي (بابا) كل ما كان أبي قد أوصى به إلي.

ـ (بابا)؟ عم تتحدث يا راجا؟

أنت تعرف (بابا)

كانت بيم تصرخ غير مصدقة، أنت ولا شك تسخر منه تجعله إضحوكة، تلك قسوة بالغة منك، لعلك تريد أن تتركه يعمل في المكتب أيضاً؟

وهدأ روعها رجل شاب من منتسبي الشركة:

ـ كلا. . كلا، ذلك غير ملزم على الإطلاق، وكان جاثماً على حافة الأريكةِ مثل حمامة متأرجحة وهو يحدث ضجة منسجمة مع جو التعزية:

ـ ليس ضرورياً على الإطلاق. أنت تعلمين أن الوالد لم يكن ليكترث قط بما يحدث في الشركة يوماً بيوم، فقد أوكل كل شيء إلي والى العاملين الآخرين، وكنا نتدبر الأمر كله. وجُلّ ما نحتاجه هو الاسم، التوقيع.

الاسم هو ما يجب أن يبقى، من أجل الشركة، هذا كل ما في الأمر.

قالت بيم: أهذا كل ما في الأمر، حقاً؟

ونظر إليها راجا مزهواً بانتصاره:

ـ أترين؟ ذلك كل ما في الأمر أكنت تظنين أن (بابا) لا يستطيع تدبر الأمر؟ توقيع الأوراق فحسب.

قالت بيم وقد استشاطت غضباً:

ـ كلا إنه غير قادر على ذلك، أما أنت فإنك تستطيع.

ـ هراء، سوف أتحدث إلى (بابا) وأشرح له، بوسعه الذهاب ساعة أو ساعتين إلى المكتب، وسوف يقدم له السيد شارما العون، لا تفسديه بالدلال يا بيم، أنت تعاملينه مثل طفل صغير.

احتدم وتأجج غضبها على راجا لأنه تحدث دونما تروٍ بهذه

اللهجة الساخرة والتهور، وسخطت على السيد شارما لأنه كان ينصت إليهما.

ـ ماذا أفعل الآن؟

ـ دعيه يصبح رجلاً، دعيه يتحمل بعض المسؤولية فليتسلم مهمة بسيطة، أو إثنتين وينجزهما وسوف نرى ما إذا كان سيفلح في ذلك.

ـ وإذا فشل؟.. ماذا نفعل عند ذلك؟

قال السيد شارما وهو يهب فجأة عن الأريكة ليلفت إليه الأنظار ويبعدهم عن الجدل الحاد:

ـ عندئذٍ، سأتدبر الأمر بنفسي وسوف أحضر الملفات إلى البيت لترينها بنفسك.

ـ أجل ستقوم بهذا يا سيد شارما، هكذا صاح راجا متسرعاً:

ـ أجل ستقوم بهذا، يا لها من فكرة موفقة، وسأوقع أنا وبابا ما تطلبه منا..

زعقت بيم مرة أخرى محذرة راجا وقد امتقع وجهها وبدا متهدلاً مسناً منذراً:

ـ راجا..

ـ ابتسم لها السيد شارما مطمئناً وقال:

ـ وذلك هو ما كان يفعله والدك تماماً في سنواته الأخيرة وهو كل ما فعله.

كان العمل يناط بالموظفين الآخرين أو يوكل إلي، وكنا نسّير الأمور بحسن تدبير، وينبغي أن لا يساوركم أي قلق بهذا الخصوص.

ـ وإذاً، كل شيء على ما يرام.

قال راجا بشيء من الانفراج والراحة ووقف ليعود إلى فراشه، بينما أسرع السيد شارما للمغادرة مبيناً أن عليه العودة إلى منزله قبل سريان منع التجول.

وعندما دخلت بيم غرفة راجا لتقيس درجة حرارته وجدته قد استعاد هدوء نفسه فقال لها:

ـ ليس ثمة ما يوجب القلق، فكري يا بيم ليست هذه هي الأشياء التي تقلق الإنسان في الحياة.

قالت وهي تخض الترمومتر بحركة احترافية:

ـ كلا..؟ وإذاً، ما هي الأشياء التي تقلقك أنت؟

ـ أوه..بيم..بيم.

قال ذلك بإيماءة دراماتيكية مشيراً إلى الباب الذي انفرج على ضوء الشفق الكدر المغبر.. ثم تابع قائلاً:

ـ أنظري هناك، أنظري.. المدينة تحترق، ودلهي تنهار ويعمها الخراب، والبلد يتصدع والجميع سيصبحون لاجئين مشردين، وأصدقاؤنا الذين أخرجوا عنوة أو قتلوا، وأنت تطلبين إليّ أن أهتم ببضع شيكات وملفات في مكتب والدي.

ـ كلا، إن هذا هو ما يسبب القلق لي..

وكانت متجهمة مثل والدها، مثل بيتهم، وهي تدخل المحرار في فمه.

ـ هذا ما يقلقني، والايجار التي يجب أن ندفعه لمالك البيت، والخمس أو الست أو السبع أفواه التي يجب أن نطعمها كل يوم، وتارا التي يجب أن تتزوج، و«بابا» الذي يحتاج إلى

الرعاية ما تبقى من حياته، وأنت الذي يجب أن تتعافى وتستعيد قواك، وما لا أدريه من أمور أخرى..

وتمتم راجا قليلاً فتحرك المحرار بين شفتيه.

فصاحت بيم: لا تتكلم..

كانت بيم في غاية الانزعاج طيلة ذلك اليوم، وقد أعاد إليها طمأنينتها وهدأ روعها إلى حد ما، نقاشها مع راجا عندما عاده الطبيب مساء، فلم تدفع إليه بالورقة التي تدون عليها درجات حرارته وتطالبه بتعليمات ووصفات جديدة، إنما دعته للجلوس معها في الشرفة قبل أن يغادر البيت.

- كم من الوقت يلزمه في اعتقادك قبل أن يسترد عافيته ويتحسن تماماً؟

كان الطبيب البنغالي الشاب رقيق الصوت، الأخرق إلى حد ما، والذي أرسله إليهم شريك والدهم السيد شارما، والذي لم يكن مختلفاً عنه. فقد انضم كلاهما إلى جمعية (راما كريشنا) لتلقي المحاضرات وتعلم التراتيل والأناشيد الدينية. كان الطبيب قد بوغت بدعوتها الاستثنائية له للجلوس والتحدث، فوهنت ركبتاه وأخذ يتشبث بأريكة الخيزران ذات الصرير، وكان عليه أن ينتظر بضع دقائق ليفقه ما سألته عنه وليلاحظ وجهها الذي اكتسحته التجاعيد، وجهها الباهت الذي لا رواء فيه، ويرى شعرها المسترسل المهمل، وقد بانت فيه بعض الشعيرات البيض فوق أذنها اليسرى تحديداً وبدت له سنواتها العشرون صغيرة جداً أمام هذا الذبول المبكر، فأحس لذلك بما يشبه الصدمة.

كانت النسوة في عائلته يغسلن شعورهن بمستحضر (شيكا كاي) ويدهنونه بزيت جوز الهند كل صباح فتجدهن يحتفظن وهن

في سن الأربعين أو الخمسين بشعرهن الأسود اللامع كأن علبة صباغ أحذية فتحت تواً.

كان فمه فاغراً إلى حد ما وهو يتفرس فيها. ثم واصل حديثه بصوت غشيته الهموم:

ـ آنسة داس، يجب أن لا تبالغي في قلقك، إنها إصابة سل من النوع غير الحاد، وقد أصبح بوسعنا السيطرة على السل في هذه الأيام عن طريق الأدوية وبصورة ناجعة ونهائية تماماً. . أجل، الأدوية، مضافاً إليها العناية الدقيقة والتغذية المتوازنة سوف تعجل بشفائه الشفاء الحاسم، نعم. . ولكن ذلك يستغرق بعض الوقت. . أجل، وعلى المرء أن يتحلى بالصبر أيضاً، وتمادت بيم في إلحاحها:

ـ كم من الوقت يقتضي ذلك؟. . أنت تعلم أن والدي ـ (قالت ذلك وصمتت برهة وهي مستغربة كيف سمحت لنفسها المضي إلى مثل هذا المدى في الحديث. .).

كان وجه الطبيب الشاب وهيئته وتشبثه بحقيبة أدواته الطبية الرابضة على ركبتيه المضمومتين بطريقة محكمة لكنهما كانتا بين آونة وأخرى تبديان خلجة أو رجفة لا يمكن السيطرة عليها، كان وجهه وهيئته مثل أي مخلوق نكرة، شأنه شأن سواه ممن يقفون في صف انتظار الحافلات، أو مثل أولئك الذين ينحنون فوق مائدة في المقهى أو مثل أولئك المجهولين الذين يتزاحمون في قطار الضواحي، أو ممن يجلسون وراء المكاتب في الدوائر الرسمية الصاخبة، أو باعة المخازن المزدحمة، هيئة رجل مهموم، قلق، متبرم، ومشفق من الانزلاق في الخطأ، متوجس من عدم قدرته على إدارة دفة الأمور، ويحاول أن لا يفصح عن ذلك كله.

لم يكن لديه ما يقدمه لبيم، فلماذا تسأله؟..

- أعلم ذلك، أعلم ذلك.

تلعثم الطبيب الشاب وقال بإصرار وخجل:

- إنه توفي، أنا في غاية الأسف.. حضرت التشييع أنت لم ترينني.. كنت مع السيد شارما.

قاطعته بيم بفظاظة وعدم تصديق:

- أعرف، هل لك أن تحتسي قدحاً من الشاي. قال الطبيب الشاب لاهثاً:

نعم،

وكانت دهشته إزاء نفسه لا تقل عن دهشته أمام بيم.

ابتعدت بيم عن الشرفة ونادت:

- ميرا ماسي.. هل لك أن تأمري بإحضار الشاي للطبيب؟ قولي لجاناكي أن تعد الشاي للطبيب.

وأطلقت ميرا ماسي صيحة راعشة من غرفتها.

عادت بيم إلى حلقة كراسي الخيزران في الشرفة وجلست.

- أفهم ذلك، أفهمه كله..

قال د. بيسواس متعجلاً وهو يحدق بإمعان في حذائه مبدياً أقصى ما بإمكانه من فورة الشجاعة الاستثنائية وهي تتدفق في روحه:

- هناك مشاكل جمّة، والدك والبيت، العائلة، مرض راجا، إن ذلك كثير على سيدة شابة مثلك، راجا يجب أن يشفى ويأخذ موقع الوالد.

وأطلقت بيم ضحكة، أو نخرة، صوتاً بشعاً كبح تدفق حديثه برهة، وفي الصمت المفاجئ سمعا صوت (الكريات الزجاجية) تنقذف محدثة ضجيجاً على درجات الشرفة مما أثار انتباههما أيضاً لظهور (بابا).

لم يكن الطبيب قد انتبه (لبابا) فتنفس الإثنان الصعداء وأضافا (بابا) إلى قائمته. قائمة المشاكل.

- يحل محل أبي؟

قلدته بيم هازئة، ثم توقفت فلم تشأ أن تبوح بأكثر مما باحت به.

ازدادت الأسيجة النباتية حول الحديقة نمواً وارتفاعاً لتخفي وتكون حجاباً حامياً، ولم تكن بيم لتشذبها أو تقصرها فتكشف الحديقة.

نهضت وقد نفد صبرها وهبطت الدرجات نحو المطبخ لتبلغ جاناكي بنفسها وقد أيقنت أن الخالة ميرا لم تفعل شيئاً بشأن الشاي.

وحدجتها جاناكي بفظاظة من وراء الدخان الأصفر الذي كانت تثيره من موقد الفحم.

وحملقت بها بيم وظهر الشاي أخيراً فوق صينية من البرونز لم تكن قد جُليت بالورنيش منذ سنوات، سقطت حقيبة الطبيب عندما نهض بحركة مفاجئة ليتلقى قدح الشاي، فحمل القدح بيد والتقط الحقيبة باليد الأخرى وانسكب منه الشاي وهو يرفع الحقيبة، وكان عليه أن يضم ركبتيه إلى بعضهما ليبدو واثقاً ومطمئناً. ولكي يهدئ من روعه ويداري حرجه ظل يحرك الشاي

بالملعقة مراراً محدثاً ضجة عالية، ثم ما لبث أن رفع بصره نحو بيم باحترام يشوبه الجبن.

- إنني أدرك الأمر.

قال ذلك راجياً أن تدرك بيم ما قد أدركه.

- أنا أفهم مدى صعوبة الوضع - أعني - بالنسبة إليك، المشاكل..

- كلا.. كلا.. أي مشاكل..

قالت بيم متبجحة وهي ترمي إلى صرفهِ عن خصوصياتها.

قالت بصوت مرتفع.

- (بابا) ألا تريد أن تشرب الشاي؟ السكر؟..

- أعتقد أن من واجبي أن أطمئنك على نقطة واحدة في الأقل - أن راجا سيتحسن.

ورمقته بيم بنظرة سريعة لتكشف ما إذا كان أميناً في قوله أو مشفقاً وحسب، كان وجهه ينم عن الأمانة التامة، هذا ما قررته: نزاهة وأمانة موجعة، مثل قطعة خضار مقشرّة، لكنه كان عطوفاً أيضاً، عطوفاً على نحو مروّع وشنيع.

وتنهدت: هل أنت واثق من ذلك؟ ألا ترى أن علينا إدخاله إلى المستشفى أو إلى مصح؟

استمر الدكتور بيسواس في تحريك الملعقة في قدح الشاي محدثاً قرقعة خرقاء، متجهماً في شيء من التركيز جاعلاً الملعقة تواصل دوراناً داخل القدح أشبه بأداة ميكانيكية لا سيطرة عليها. وبعد قليل أوقفها بحركة مفاجئة سريعة من اصبعه الصغير فطفح الشاي من حافة القدح لينسكب في الصحن.

ـ دعينا نقول إن . .

قال وهو يحدق ببركة الشاي المنسكب:

ـ دعينا نقول إن ذلك غير ضروري بالمرة في الوقت الراهن لعدم حدوث تدهور في صحته، فإذا بقي الوضع مستقراً إلى حين تغير الجو إلى البرودة فإنني أشعر أن صحته ستأخذ بالتحسن، وسيستعيد قوته ويظهر تحسناً أكبر في الشتاء.

وإذا لم . . وإذا لم يحصل ذلك، كرر عبارته بنبرة يائسة جعلت الملعقة ترتجف والقدح يتذبذب والبركة تندلق: عندئذٍ، وفي نهاية الشتاء عندما تخف وطأة البرد سنقوم بادخاله إلى المصح في (كازوالي) أو (داغشاي) ولكن . .

ونظر إليها وهو يحس بنوع من تأنيب الضمير:

ولكن، أنا لا أشك قط . . أن ذلك لن يكون ضرورياً وسوف يشفى.

نظرت بيم مرة أخرى بارتياب بالرغم من أنها هزت رأسها علامة الموافقة لكنها بدت غير واثقة مما يقوله.

وإذ أدرك د. بيسواس أن مساعيه خابت ولم تفلح في طمأنتها. رفع قدح الشاي إلى فمه ورشف الشاي البارد في جرعة واحدة بينما كانت قطرات منه تتساقط على ركبتيه، ثم نهض ليغادر وهو يعلم أنه لم يمنحها حتى الآن ما كانت بحاجة إليه، ولم يؤدِ فروض الواجب تجاهها، وكما اعتاد دائماً لم يقم بالواجب وتغلبت سيماء العاجز اليائس على سيماء القلق فيه.

عندما عادت تارا مع باكول إلى البيت ألفت بيم وحيدة في الشرفة وقد اكفهر وجهها وشاخ أكثر من ذي قبل فانطفأت بهجة

تارا واستسلمت لما يحيط بها.

لم يلحظ باكول شيئاً فجلس ليتبادل الحديث مع الأختين بذلك اللطف اللامتناهي الذي مَيّزَ الثقة العالية بنفسه، والتي لطفت صوته وأضفت عليه شيئاً من الهدوء جعل تارا ترنو إليه باعجاب صبياني، فاضطرت بيم إلى أن تحيد بنظرها عنهما وتتأمل الحديقة الغارقة في الظلام بشيء من الضجر والملل.

كان صوت باكول مناقضاً تماماً لصوت د. بيسواس المسكين، فلماذا تحس بالضجر إزاء الإثنين معاً؟

هكذا ساءلت نفسها وهي ترى قطة الخالة ميرا تطوف وراء أصص الزهور بحثاً عن طريدة ما بين العشب المتطاول الذي يحاذي المرج المهمل، وقد لاحقتها غيمة من حشرات مظلمة تحوم فوق رأسها المسطح وأذنيها المنتصبتين مظلة رقيقة.

لبثت بيم ترقبها وذقنها يستقر في يدها وهي الشيء الوحيد المتحرك في هذه الحديقة اليابسة المضجرة التي يتناوب على رعايتها في هذا الوقت إثنان من البستانيين.

نطق باكول فأخفقت في سماعه، ذلك أن القطة كانت في تلك اللحظة تنقض على فريستها بين الأعشاب فتطير فراشة إرجوانية لتحلق بعيداً عن متناول مخالبها في توقيت ودقة متناهيتين.

قالت تارا وقد ضايقها شرود ذهن أختها:

ـ تلقى باكول أمر تعيينه تواً يا بيم.

ـ أهذا ما كان يقوله؟..

والتفتت لتنظر إليهما وتبتسم لكلا الإثنين.

ـ قل لها يا باكول. .

ألحّت عليه تارا وقد تحول انتباه بيم إليهما واجتذباها رغم ما كان يبدو عليها من إرهاق وعدم رغبة في تقدير باكول حق قدره.

قال باكول بشيء من الاعتداد كما تراءى إليها:

ـ بلغت بالتوجه إلى سيلان. ومن دون ريب فإن سيلان ليست بالبلد الذي يمكن أن اختاره، ولكنها ستكون المكان الذي اتدرب فيه فحسب، وأتوقع أن أرسل بعد عام إلى الغرب لأنني تخصصت في اللغات الأوروبية، وطلبت أن أخدم في أوروبا الغربية، ذلك هو اختياري بالدرجة الأولى وليست سيلان.

واستجابت بيم أخيراً: سيلان؟

وأخذت تارا تفكر حالمة تماماً وكأنها تثير في ذهن بيم صوراً خيالية رومانسية عابقة بالأشذاء أشبه بتلك التي تطوف في مخيلتها، ثم لم تزد على القول:

ـ سيكون الأمر ممتعاً. .

قال باكول مزهواً.

ـ بالتأكيد ـ هذا ما قلته لتارا!

لم يكن باكول قد لحظ ذهول بيم واستغرابها، ابتسم لتارا التي كانت تجلس إلى جانب أختها وهي ترقبهما وقد اعتراها التوتر، ابتسمت له تارا بدورها، حملقت بيم فيهما، تأملت في سعادتها وكأنها تراها من خلال شاشة شفافة غامضة غائمة.

وعلى حين غرة سألته بيم بنبرة واضحة:

ـ ما الذي يجري يا باكول؟

قال وهو يدير نحوها جانب وجهه الوسيم وينظر مباشرة إلى وجهها:

- ما الذي يجري؟ لا شيء، سوى أنني كنت أتوقع ذلك كل يوم، العمل في السلك الخارجي، ومع ذلك، كنت قد أخبرت تارا بالأمر.

- كلا.. كلا يا باكول، إنني أتساءل عما يحدث هنا في (نيودلهي)

- في نيودلهي؟

- أجل.. أجل - قالت وقد نفد صبرها - أجل، أعني ما يتعلق بالاستقلال وباكستان.

قال باكول: آه، حسناً، الجميع في انتظار اليوم الذي سيتم فيه التقسيم والاستقلال، ولا بد أن ذلك سيتحقق في أي يوم تحت ظل الظروف الراهنة.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك! ستحدث اضطرابات وأعمال شغب.

قال ذلك ببساطة ودونما رغبة في إضفاء مسحة درامية على الموقف الذي كان يخافه هو نفسه.

ثم أضاف: غير أن الأمر لا يستدعي القلق، فقد اتخذت كل الخطوات ليجري التقسيم بهدوء تام، ونحن نأمل أن يتم ذلك فعلاً في جو آمن مطمئن، كما أقيمت مخيمات للاجئين وُهيئت قطارات خاصة، واستنفرت قوات الجيش والشرطة ووضعت في حالة تأهب، ومهما يكن من أمر فسوف تكونون في آمان تام هنا خارج

أسوار المدينة، لن تحدث أعمال شغب هنا، أما المسلمون الذين يعيشون هنا..

- أجل، هذا ما أريد معرفته بالتحديد، إنني وراجا نشعر بالقلق من أجلهم، فهم جيراننا كما تعلم، عائلة حيدر علي، لقد اختفت العائلة.

- معظمهم قد رحلوا على الفور، وتصرفوا بسرعة وحكمة. ولا بد أن عائلة حيدر علي قد رحلت أيضاً.

- ولكن، يجب أن يكونوا هنا، في مكان ما من البلاد، ترى ما الذي سيحدث لهم؟..

- إنهم في حماية الشرطة، وبوسعهم الذهاب إلى مخيمات اللاجئين، لقد تم تدبير كل شيء.

هزت بيم رأسها في صمت بينما واصل باكول حديثه حول الاجراءات التي اتخذتها الحكومة، ونوايا «اللورد مونتباتن» الحسنة واستقامته، ونهرو ونظريته المثالية وكمال خلقه، و(محمد علي جناح) وباكستان، إلا أن بيم أحست وهي تنصت إليه كأنها تستمع إلى مقالة صحفية يقرأونها بصوت عالٍ، فما كان منها إلا أن دعكت جبينها بيدها ونهضت قائلة:

- سوف أنقل إلى راجا ما أخبرتني به، إنه لا يكف عن تسقط الأخبار، وقد غلبه القلق واللهفة لسماع شيء عن عائلة (حيدر علي).

وقف باكول فوراً وقال:

- ويجب أن تخبريه أن لا ضرورة لقلقه. أرجوك أن تبلغيه بأنني سوف أذهب لأقدم التماساً من أجلهم وأتحرّى الأمر بنفسي

لأتيقن من عدم تعرضهم لأي أذى.

رمته بنظرة ساخرة وهي تنصرف:

نحن لا نعرف أيضاً أين انتهى بهم المطاف، ونظر باكول متحيراً طوال لحظة وهو يتساءل عما إذا كان في قولها هذا نوع من التعريض به، فقد كانت بيم بارعة في استخدام مثل هذه الأساليب التي تثبط العزائم.

لقد كان مجرد مستخدم صغير جداً في السلك الخارجي، تلك هي الحقيقة، وأنه ما زال في الواقع يتدرب من دون أن يعرف بالتحديد ما سيوكل إليه، غير أنه يواصل الإيحاء لمن حوله بقدرته على فعل شيء ما.

وإذ ذاك عاد وجلس بجانب تارا وأمسك بيدها وضغطها برقة في يده، يستطيع التحدث إلى تارا بلهجة مختلفة، فهو يجد استجابة مغايرة منها.

ابتسم لها بإعزاز وحنان مثل أب متسامح فابتسمت له ابتسامة امتنان كبير، فما كان أبوها أباً مسامحاً، بأي حال.

كانت تضع زهرة (شاملي) بيضاء في شعرها وقد أخبرها باكول أنها تشبه هذه الزهرة كل الشبه.

ـ سوف آخذك معي يا تارا ـ قال بنبرة رقيقة ـ فهذا المكان الرديء لا يناسبك فيه الكثير من الأوبئة والكثير جداً من القلق والمخاوف وأنت أصغر من أن تتحملي كل ذلك، يجب أن أهرب بك بعيداً عن هنا.

كانت الاضطرابات تعم كل أرجاء البلاد والمذابح تتزايد على جانبي الحدود الجديدة عندما وصلت رسالة من حيدر علي.

هرعت بيم نحو الغرفة عندما ناداها راجا بصوت مرتفع يرتعش بالانفعال:

قالت وهي مبهورة الأنفاس: لا تزمجر على هذا النحو يا راجا، إن ذلك يسيء إلى صحتك كما قال د. بيسواس.

صاح: بيم.

وجلس على سريره وقد طال شعره كثيراً وأحاط بوجهه المتوهج على نحو بدائي ثائر.

ـ أنظري يا بيم، إنها رسالة من (حيدر علي صاحب).

فاعترتها رعشة كما لو أنها لمست جليداً.

انتقلت إليها لهفة راجا وانفعالاته فقد أمضت الليالي ساهرة وكلاهما يتساءل إن كانت عائلة حيدر علي قد تعرضت للموت، أو أنهم قتلوا أثناء محاولتهم الهرب إلى باكستان.

ـ أين هم راجا؟

ـ في مدينة (حيدر أباد) وفي أتم الطمأنينة والأمان، يعيشون في بيت (حيدر علي صاحب) فإن والدته وأخته تقيمان هناك.. والجميع بخير، يقول حيدر علي لا وجود لأي اضطرابات هناك في (حيدر أباد) إنهم مختبئون، ولكنهم مع ذلك في أمان، حتى أنهم عثروا على صديق ليرسلوا لي معه هذه الرسالة يا بيم.

ثم تابع بفرح غامر: أليس جميلاً من حيدر علي أن يكتب لي رسالة؟

بل إنه يقول إن ابنته (بنازير) تبلغني أرق تمنياتها، وقدم الرسالة إلى بيم لتشاركه احتفاءه وفرحته بها.

كانت تجلس على حافة السرير تقرأ وتضحك وقد غمرها

الارتياح من أجل شقيقها ومن أجل عائلة حيدر علي كذلك.

بدا أن ضوء المساء الذي شع عند انتهاء ذلك النهار كان أرق وأكثر اعتدالاً وأقل رهبة. أصغيا إلى طيور المينا وهي تزقزق فوق المرج وانصتا إلى أخيهما (بابا) وهو يلعب بالحصى فوق درجات الشرفة ثم نظر أحدهما إلى الآخر بارتياح وحبور.

كان راجا يجلس معتدل القامة في سريره وبدا كأنه موشك على الإبلال من مرضه.

ـ إني اتساءل كيف غادروا؟ إنه لم يذكر شيئاً عن الأمر.. ولكن من الطبيعي أن لا يقول شيئاً.. ليس بوسعه أن يفعل، كنت أتمنى لو أنه أخبرني فقد كان عليه أن يثق بي.

ـ أنى له أن يفعلِ ذلك يا راجا، ورجل الشرطة السري منتصب أمام بوابتنا، وذلك الطراز من أصدقائك الذين أتيت بهم من الكلية؟

ـ ما كانوا أصدقاء لي.. كانوا خونة، وكان عليه أن يفهم بأن راجا لن يكون واحداً منهم.

ـ لا بد أنه عرف ذلك ولذلك كتب إليك..

ـ إنه يطلب مني أن أعتني بأمر منزله، اذهبي لتري ماذا حل بالبيت، هل ستقومين بذلك من أجلي؟

ـ بالتأكيد.

قالت بيم وهبت مسرعة ـ هل ترك شيئاً هناك؟ أيريدني أن أرى ما إذا كانت الأشياء سالمة وفي أمان؟

وعندما قال راجا إن لا وجود لمثل هذه التعليمات وليس من

شيء معين، ذهبت من فورها ونادت (بابا) وطلبت منه أن يلقي بكريات الحصى جانباً ويذهب معها.

عبرا الطريق معاً وقد أمسكت يدها بمرفقه واتجها صوب البيت الذي انتصب على مدى أسابيع وهو مغمور بالسكون في مواجهة بيتهما.

أدارت مقبض البوابة رافعة اياه ثم تركته يسقط مرة أخرى عندما دخلا الحديقة، التفت بابا مثل من يريد التراجع، ثم ما لبث أن تحرك ليكون أقرب إليها. ورغم أنها بثت فيه دفقة من شجاعة إلا أنها تأثرت هي الأخرى بعدم رغبته في الدخول.

سارا وكأنهما يدخلان شبكة عنكبوت، كانا يحسان بالخيوط على وجهيهما، متماسكة، ضبابية رقيقة متشابكة، كانا يزيحانها عن وجهيهما بأصابع لا مجدية.

بدا البيت في منتهى الغرابة وهو يغرق في الظلام والوحشة، كما لم يرياه من قبل وطوال عهدهما به، لاح لهما أشبه بجسد كان ينبض بروح حية ودفء ألفاه فيه، ثم بغتة داهمه البرد والجفاف وتبددت الحرارة، ويبدو كأنه يتهمهم أيضاً ويحملهم مسؤولية ما آل إليه.

أما ورود الجوري التي كانت موضع حسدهم فهي ما تزال متفتحة مزدهرة في الأحواض المرسومة بدقة هندسية ذات أشكال متقنة، لكن بتلات الزهور تساقطت متناثرة هنا وهناك ولم يكنسها أحد فقد رحل البستاني أيضاً.

وتساقطت الثمار الناضجة على الأرض تحت الأشجار المحاذية للممشى، ثمار المانغو والغوافة المفعمة بالعصير، وقد تناثرت ودب إليها الفساد بعد أن نقرتها الطيور ثم عافتها مشوهة

فاسدة. كان طائر (البوقير) ذي الذنب الطويل يحط منقضاً على شجرة (الجكرندا) الشامخة المجاورة للرواق المسقوف محدثاً أصواتاً جشاء قاسية، وناعقاً بصرخات منذرة وهو يقعقع محلقاً ما بين الأشجار المحاذية للممشى، فما كان من (بابا) إلا أن رفع يده ليحمي وجهه من الطائر وهو يخفض رأسه بحركة سريعة، لكن بيم قبضت على يده وقادته.

كانت النافذة المروحية التي تعلو الباب تشع بنور المساء البرتقالي المذهب، مضللة إياهما على مدى برهة إذ خيل إليهما أن ثمة نوراً مضاءً في قاعة البيت. إنما لما أدارا مقبضي الباب المصنوعين من البورسلين المزخرف ودخلا البيت، كانت البصيلة الزجاجية داخل المصباح الكهربائي المتأرجح خامدة لا نور فيها، ولم يكن ثمة غير مشجب للقبعات تمتد كلاليبه الفارغة وبضع نباتات ذاوية في أوانيها.

كانت الغرف كلها شاسعة الأبعاد بسبب خوائها إلا من بعض الأشياء الصغيرة من طُرفَ وتحف وقد غابت عنها مظاهر الرفاه والنعمة لم يتركوا في البيت سوى قطع الأثاث الضخمة: الأرائك الكبيرة المحفورة المزخرفة، والمناضد ذات السطوح المرمرية، وصفوف من الوسائد والطنافس والمزهريات والصناديق الفضية وآنية الزجاج الملونة، كل تلك الأشياء بدت قاتمة كئيبة توجه اتهاماتها وفي غم مثل أزواج مهجورين.

أما تلك الأطر المربعة والمستطيلة التي تعلو الجدران والصور منزوعة من داخلها فقد وسمت بخطوط من سخام أسود. سارا قدماً في الممر المكسو بالقرميد وفتحا أبواباً من زجاج مبرغل على يمين الممر ويساره وتلفتا إلى الوراء كأنهما يتوقعان ظهور أحد ما

نُسي هناك، قد تكون خالة مريضة عجوز تكومت في حجرها مكبات خيوط التطريز وهي تُنَسمٌ لنفسها بمروحة شبحية، أو لعلهما سيعثران على قطيطات (بنازير) التي اعتادت أن تداعبها وتعانقها، ولكن ما كان ثمة أحد قط. عكست عليهما مرآة الجدار وهجاً كامداً خاوياً ـ كشيء وثني مرفوض ـ وترددت بيم أمام باب المكتبة ويدها فوق المقبض البلوري تحدوها رغبة عارمة للدخول والتفرج على هذه القاعة التي ظل راجا يحمل لها الإجلال على مدى سنوات كأنها صومعته الخاصة، بيته الروحي، ولم تكن لتجرؤ بأي حال من الأحوال على انتهاك ما كان يكتمه من هواجس سرية.

تساءلت بيم وهي ماضية في سيرها من دون أن تكلف نفسها مشقة النظر والتأكد:

ـ أترى، هل ظلت الكتب في أماكنها؟ في يوم ما سوف يأتي راجا إلى هنا ويتجول بينها.

احتفظت غرفة بنازير وحدها ببقايا طفولة وانوثة متناثرة هنا وهناك فوق السرير الضخم المزخرف: قطع من شرائط ومخرمات، رسوم متقطعة من المجلات المصورة، حقيبة مخمل صغيرة لها شراريب ذهبية.

قلبت بيم شفتيها: لم تكن بنازير بنتاً أنيقة نظيفة. هكذا استنتجت: فتاة وحيدة أفسدها الدلال.

ـ أيمكنني أن آخذ هذه الأشياء لي؟

وبدا عليها أنها سمعت صوتاً غاضباً مستاء فقالت بنبرة إزدراء:

ولماذا؟.. ما يمنعني من أخذها؟ وجمعت كل الأشياء في كومة لتعيد ترتيبها.

ظل أخوها (بابا) صامتاً طوال هذا التطواف الشبحي محاولاً قدر الإمكان أن يظل قريباً منها طوال الوقت باستثناء اللحظة التي وجهت إليه فيها ملاحظة غاضبة عندما قفز بعيداً عنها.

أما الآن فإنه يشير باصبعه إلى شيء وهو يحدث صوتاً يائساً أشبه بجرس يضغطون عليه فيمتنع عن الرنين.

ونظرت بيم: ماذا؟

وأشار برأسه: ذلك..

فذهبت معه إلى الزاوية حيث وضع جهاز حاكي من طراز قديم علامة (صوت سيدة) فوق منضدة ثلاثية القوائم وتكدست على رفها الأسفل كومة من اسطوانات كانت (بنازير) وصويحباتها يستمعن إليها في أوقات العصر عندما كان والدها يخرج من البيت، وتخلد أمها إلى النوم عازفة عن سماع تلك الأصوات الدنيوية التي تنتهك المقدسات، خلاف تلك الموسيقى التي تستمتع العائلة بها تحت تأثير ثريات قاعة الاستقبال أو في الحديقة الصيفية المزهرة اليانعة.

بعثرت بيم الاسطوانات بفضول لا نظير له، وقد أضحكها وأثار بهجتها أن تتصور ابنة شاعر عالم تستمع إلى موسيقى - (الفوكس تروت) الأمريكية والموسيقى السريعة التي أتت بها الحرب العالمية والمجندون الأمريكان والجيش البريطاني إلى الهند.

- ترى ما الذي سيظنه راجا بشأن ذوق (بنازير).

قالت بيم: هيا لنذهب.

واستدارت لتغادر: دعنا نذهب إلى أجنحة الخدم لعلنا نجد أحداً هناك، لكن (بابا) لم يذهب. كان قابضاً على العضد المعدني الصغير اللامع في الصندوق الأخضر واصابعه الطويلة تحيط بالبوق الفضي المقوس باعجاب وافتتان.

ـ تعال (بابا) هيا، هيا بنا.

صاحت بيم مرات عدة، وقد نفد صبرها تماماً.

غير أن (بابا) ظل يبتسم لنفسه في منتهى التظاهر بالصمم، غير مستجيب لندائها غارقاً في حدود حلمه الذي يحيط به.

ولم يتنبه إليها حتى قالت له:

ـ حسناً ـ سأذهب بمفردي.

وعند ذلك ترك مقبض الحاكي مرغماً ثم أغلق الصندوق محدثاً صريراً ناعماً وتبعها وهو يجرجر قدميه وعلى وجهه سيماء المخذول، مما دفعها إلى أن تقول له حانقة: إذا شئت أن تأخذه، فلا أظن أن هناك ما يمنع من أخذه، ولكن دعنا نذهب أولاً لنتأكد ما إذا كان هناك أحد خارج البيت ووراءه ممن يمكن أن نسألهم عن الأمر.

رفع ذقنه وصوب إليها نظرة خائفة خجلى مفعمة بالرجاء ثم ما لبث أن سار وراءها طائعاً.

سمعا أنيناً عندما دخلا المطبخ الكهفي المظلم القابع وراء البيت والذي فاحت منه رائحة الفحم والدخان وانتشرت فيه البقع وبقايا المآدب والولائم المختلفة وآثار أعمال السخرة والعنت.

فتحا الخزائن ونظرا إلى الحفر التي يخزنون فيها الفحم

لكنهما لم يعثرا على شيء، ثم فتحا باباً يفضي إلى الشرفة الخلفية، وهناك إلى جانب صندوق خشبي عثرا على كلب يئن متوجعاً من ألم شديد بصوت مجفل شديد الخفوت.

تبينا أنها كلبة أسرة حيدر علي التي لم يتسن لهم اصطحابها معهم، كانت كلبة حلوة رقيقة الوجه على نحو لا نظير له، لها أذنان طويلتان متدليتان وعينان دامعتان تفيضان بالضراعة والتوسل، نظرت بهما إلى الزائرين في شيء من الخشية ثم حركت ذنبها الطويل من ترحيب تختبر به نواياهم.

أطلقت بيم صيحة ارتياح عظيمة وهي ترى شيئاً حياً في هذا البيت المهجور: إنها (بيغوم)..

ربتت بيم على هذه المخلوقة البائسة المهجورة مبدية لها الشفقة لتشعرها بالطمأنينة، في الوقت الذي ركع فيه (بابا) على الأرض يلاعبها وهو يضم خطمها الذي يسيل منه اللعاب إلى صدره في رعاية ناعمة.

قالت بيم: علينا أن نأخذها معنا، وإلا فإنها ستموت جوعاً.

خفض (بابا) رأسه واقترب من جبين الكلبة وقبلها بامتنان وعرفان بالجميل.

أثارت أصواتهما وأنين الكلبة الموشكة على الموت جوعاً شخصاً ما كان في جناح الخدم، كانا في البدء متوجسين من احتمال أن يتلصص عليهما أحد من خلال شقوق الباب الخشبي الضخم المتربس، غير أن ملامح وجهيهما وسلوكهما لم تكن باعثة على الارتياب أو الخشية لكل ذي بصيرة، فبعد مرور ما يزيد على دقيقة واحدة طرق الباب وفتحته وظهر خادم عجوز من خدم عائلة حيدر علي، وكان يعمل سائساً يرعى فرس حيدر علي البيضاء،

وها هو يقبل على حياء ويلقي السلام على بيم بطريقة مبالغ فيها وبيم تصرخ لهول المفاجأة.

ويهمس الرجل: أرجوك لا تصرخي بصوت مرتفع فقد يبلغ صوتك أسماع الناس ويستدعون الشرطة ويأخذونني إلى السجن.

سألت بيم في حيرة: لماذا؟.. وقد كرهت الطريقة التي تَذَلل بها الرجل بينما أثار تذلل الكلبة شفقتها.

سألته بشيء من البرود والقسوة:

- ما الذي فعلته؟.. أتراك قمت باغتيال عائلة حيدر علي، أفعلتها؟

أوشك الرجل أن يصرخ لفرط رعبه وجحظت عيناه وأخذتا تدوران في محجريهما وتومضان يمنة ويسرة كما لو أنه ينتظر أن تهبط عليه الشرطة من فوق أشجار الغوافة أو يثبون من أعماق البئر.

- لسوف يأخذونني إلى السجن ويستجوبونني.

وخفض صوته الذي استحال إلى ما يشبه الفحيح:

- سوف يعذبونني حتى أتكلم، هذا ما سيفعلونه بي، لقد سمعت بهذا.

- ولكن لماذا؟.. وأي معلومات لديك؟

- لا شيء، لا شيء البتة.

أطلق الرجل أنيناً وهو يضرب رأسه بيديه.

- لقد حزم حيدر علي أمتعته وغادر وعائلته بهدوء، وحضر أصدقاؤه لمساعدته وأرسلوا إليهم السيارات لتنقلهم إلى المحطة مع حراس مسلحين أيضاً، غير أنهم لم يخبروني عن الوجهة التي

قصدوها، ولم أعرف أين ذهبوا، وسوف تصر الشرطة على معرفة الأمر، ويسألونني، يحققون معي فهم يعتقدون أنني ساعدتهم على الهرب.

تساءلت بيم بشيء من الإزدراء:

ـ الهرب؟.. ما الذي تعنيه بالهرب؟ أنهم يملكون كل الحق في مغادرة منزلهم في دلهي والذهاب للعيش في بيتهم في مدينة (حيدر أباد) وإذا كانوا قد أخذوا أمتعتهم معهم فهي أمتعتهم على أي حال، إنها ليست مسروقات أبداً.

قال العجوز بصوت منتحب:

ـ ألا نعم ـ ولكنهم مسلمون.

وانثنى بسرعة ليواجهها وانحنى حتى كاد يلامس الأرض.

ـ ما كان علينا أن نسمح لهم بالذهاب.

قالت بيم مشمئزة:

ـ من الخير لك أن تذهب، من الخير لك أن تعود إلى قريتك، هل ترك لك حيدر علي شيئاً من المال؟

ـ أجل.. أجل، كان حيدر علي صاحب نِعَم السيد طوال عمره، رغم كونه مسلماً ـ ليحفظه الإله إلهه وإلهنا ـ ولكن ـ كيف أسافر ـ وهذه أوقات عصيبة والقتلة وقطاع الطرق في كل مكان، وإذا ما صادف وقابلت أحداً من الذين يعرفون أنني كنت أعمل لدى عائلة مسلمة، فلسوف.. (وسحب اصبعه على عنقه وأجحظ عينيه) لسوف أُذبح.

ـ إذاً من الأفضل أن تأتي إلى بيتنا وسوف تهيء لك جاناكي فراشاً، بوسعك أن تبقى معنا حتى تهدأ الأمور، عندئذٍ تستطيع

العودة بأمان إلى أهلك . .

وعندما أيقنت أنه سوف يتمرغ على قدميها قالت بحدة :

ـ وأين فرس حيدر علي؟

نهض وأخذ يهذر بسرعة عجيبة :

ـ آه، لقد أعطاها حيدر علي إلى (لالا رام ناريان)، الذي ساعدهم في حزم أمتعتهم وشحنها وأعانهم على سفرهم. وحاول أن يرسل إليهم الكلبة (بيغوم) ولكن الكلبة لم تشأ أن تغادر المبنى وربضت على الأرض ورفضت أن يمسها أحد حتى أنها حاولت أن تعضني، وأخذ يبرم طرف كمه ليريها آثار العضة.

ـ وإذاً، يجب أن نأخذ الكلبة بيغوم معنا، قالت بيم وصفرت للكلبة التي زحفت وراءهم على قوائمها المقوسة، وهم يسيرون في طريق عودتهم إلى القسم الأمامي من البيت والرجل العجوز يسير وراءهم وقد ارتفع كمه عن ذراعه التي لا تزال ممدودة كأنه يريد أن يريهم عضة الكلبة أو يستعطي منهم شيئاً.

وعندما ارتقت بيم الدرجات نحو الباب الأمامي لتتيقن من إغلاقه اندفع (بابا) مثل السهم أمامها ودلف إلى داخل البيت.

ووقفت تنتظره وهي تتساءل مستغربة حركته الحاسمة التي لم تعتدها.

وبعد برهة وجيزة خرج مترنحاً تحت ثقل الحاكي الذي يحمله بين ذراعيه بحذر متناهٍ وهو يوازن كومة الاسطوانات التي وضعها فوقه.

دمدمت بيم متذمرة: أواه يا (بابا). .

وساعدته إذ أخذت الاسطوانات وحملتها عوضاً عنه:

ـ هل أنت مصرٌ على أخذ هذا الشيء العتيق المضجر؟

لا أعتقد أنه شيء ذو شأن.

وأضافت إذ رأت علائم الخذلان في وجهه.

ـ بوسع بنازير أن تكتب لنا عنه إذا شاءت هيا ـ يا بيغوم ـ تعالي..

نادت بيم تشجع الكلبة التي تسلقت البوابة ولا تعرف بالتحديد ما يجب أن تفعله وصارت سواء لديها معارضتها هجر بيتها أو الاستسلام لحماتها الجدد الذين سيقدمون لها المأوى والطعام وتبعتهما آخر الأمر مجتازة الطريق ثم دخلت حديقتهم وازدادت حيوية ونشاطاً واستقامت خطاها عندما أدركت أنهم سيرحبون بها في هذا البيت.

كان راجا ينتظرهما في الشرفة، فهرعت إليه بيم مسرعة وهي تصرخ بأعلى صوتها:

ـ راجا.. لماذا لم تلزم فراشك؟

اذهب إلى السرير فوراً سآتي وأخبرك بكل شيء حالما أجد مأوى لـ (بهاكتا) هنا وأعد الطعام لـ (بيغوم)، هما كل ما وجدناه في البيت، إنه خال تماماً، ثم، آه، هذا (الحاكي)..

صاح راجا وقد اعترته الدهشة لدى رؤيته (بابا) حاملاً كنزه الثمين باحتراس وزهو كبيرين:

ـ إنه (غرامافون) بنازير!

وهذه هي الاسطوانات التي كانت تسمعها عندما تزورها صديقاتها، لطالما رأيتهن وهن يرقصن معاً في غرفتها وأنا في طريقي إلى المكتبة، لا أظنها ستمانع إذا أخذه (بابا) أليس كذلك؟

ـ يمكنك الكتابة إليها حول الموضوع.. ولكن عد الآن إلى فراشك وسأذهب إلى (ميرا ماسي) وأتحدث إليها بشأن (بهاكتا) والكلبة المسكينة.

ـ هذا ما أريد أن أقوله لك يا بيم.

قال راجا بنبرة وقور، وأضاف:

ـ من الأفضل أن تذهبي وتري (ميرا ماسي) يبدو أنها ليست على ما يرام.

قالت بيم مستفهمة.. أوه، كلا؟

وتوقفت بغتة وهي في طريقها إلى المطبخ ثم انطلقت بسرعة نحو الشرفة باتجاه غرفة (الخالة ميرا) والخوف يخز خاصرتها بشدة.

كان راجا قد ثبت رتاج الباب من الخارج، فسحبت المزلاج ودفعت الباب ثم أغلقته وراءها بسرعة لكي لا تتيح لأحد الدخول إلى الغرفة، فقد كانت (الخالة ميرا) في حالة مزرية، حالة لم يسبق لأحد أن رآها فيها. فقد مزقت ملابسها عن جسدها وتدلت بلوزتها شرائط وقطعاً متغضنة صغيرة فوق ثدييها بعروقهما الزرق، أما ساريها فقد انسدل وراءها على الأرض وهي تطوف الغرفة كأنها تؤدي رقصة مريعة، وقد اشتبكت قدمها بمزقة من الموسلين من تلك المزق التي تناثرت في أنحاء الغرفة وإحدى يديها تهتز اهتزازات عنيفة إلى جانبها بينما تمسك الأخرى بقدح تفوح منه رائحة لا يمكن أن يخطئها المرء أشبه برائحة شراب (الليكيور) الصرف الذي لم يمازجه شيء.

أجل، كانت ثمة زجاجة براندي ملقاة على الأرض بجانب

سريرها، زجاجة كادت تفرغ من محتوياتها فأسرعت بيم نحو خالتها وهي تمد ذراعيها لتسندها وتضمها وتحملها، إلا أن الخالة ميرا سارت جانباً، بخفة معزى عجوز واكتسى وجهها بتعبير كوميدي مضحك واجهت به بيم المرتاعة، وهي تغني بصوت مرتعش متهدج.

(يقول العندليب للوردة..)

وإذ اشتبكت قدمها بقطعة من قماش الموسلين المنسدل، تعثرت وسقطت فوق الزجاجة التي تدحرجت وانسكب ما فيها وفاحت الرائحة القوية. رأته يسيل وينتشر حول قدميها فتتشربه قطع الملابس المتناثرة. عندئذٍ توقفت الخالة ميرا في منتصف أغنيتها وأمسكت بحنجرتها مطلقة صرخة قصيرة ثم ألقت بنفسها على السرير وهي تشرق بالدموع.

كانت قطتها تجلس على حافة السرير وقد ضمت مخالبها بإحكام وبدت كما لو أنها تدس يديها في وقاء من الفراء وهي ترقب سيدتها بعينين واسعتين من كهرمان يخترقه شق طولي أسود ضيق، وقد اعتراها الذعر والاشمئزاز مما يحيط بها.

وانطلق من غرفة (بابا) المجاورة هدير ذي صريف خشن مخترقاً السكون وأخذ يتعالى أشبه بصوت قطار يعبر نفقاً ثم يظهر مرة أخرى لا يطلق صفيراً بل يند عنه صوت امرأة ذو أنين داخن.

(تحت عمود النور..)

ودبت الحياة في البركة الرائقة الضحلة التي أحاطت بقدمي الخالة وأحست بها ترتفع نحو كاحليها على نحو غادر، ثم تصعد إلى ركبتيها، حاولت التملص والفرار، ورفعت نفسها قبل أن تصعد نحو خصرها وتصل إلى ابطيها آه لو لم تكن مقمطة بهذه

الدثارات الطويلة واللفافات المشرشبة مثل طفل أو مومياء، هذه الشرائط الطويلة التي تلتف وتلتف حول جسدها تنحدر فوق عينيها عابرة فوق أنفها كاتمة أنفاسها حتى أرغمتها على اللهاث والتشبث والتمزيق.

دمدمت لنفسها: لا ترتاعي، لا يصيبنك الذعر إنها بركة مجرد بركة، ولن تصغي هيا اجمعي السائل، لن يتبدد ضعيه هنا في هذه الزجاجة الرقيقة الطويلة وأمسكت بها من عنقها وأحاطتها بأصابعها ـ لم تتمكن منها تماماً ـ ولكن كانت تمسك بها لا غير ـ تريد احتواءها فحسب، تصب منها في القدح، وترى كيف يتقطر الوشل فيه دونما لون، لكنها قادرة على الإحساس به، واشتمام رائحته: إنه لحقيقي ـ وهي لا تتخيله.

وعندما أدنت فمها من حافة القدح تصاعدت الرائحة وسفعت منخريها وأحرق السائل حنجرتها وتركها مجرحة دامية، تراجعت فزعة إلى الوراء ومقلتاها تدوران في محجريهما المحمرين..

وهكذا هي الحياة، ترقد بتمام هدوئها ساكنة دونما حراك، حتى لتمد اصبعك وتلمسها وتداعبها فإذا بها تهب وتهجم بغتة على وجهك فتجعلك تدور في دوامة، تدور لاهثاً مبهور الأنفاس وتتواثب الشعلات حولك تعلو شيئاً فشيئاً، متصاعدة في حلقات..

كانت في البدء مجرد ألسنة لهب صغيرة بالغة الروعة في الظلام مثل شموع عديدة متوهجة في احتفال أو مهرجان، كانت تسمع أصواتهم المدوية، صافية كأنها البلور أو اللهب، صوت راجا وصوت بيم يدويان هائلين، وحقيقيين (سوف أكون بطلاً) أحدهما يستنجد من الذروة الناصعة البياض للهب الشمعة ويردد الآخر الصدى كما لو كانا يؤديان أغنية (وسوف أكون بطلة).

وسرعان ما يتعالى إلى صوتيهما بصرخات مدوّية شبيهة بشعلات اللهب المتصاعدة، الحارقة المتفجرة.

جعلها الصوتان تغمض عينيها وتنكمش، وفوق الأرض ومحنية على ركبتيها تنشج الصغيرة تارا:

ماسي.. يقولان عني أنني سخيفة..

- ماسي يناديانني بالحمقاء.. تتشبث أصابع الصبية الصغيرة بها، أصابع شمعية شاحبة، وألسنة اللهب تفرقع فوقها، هائلة ضارية تزداد عنفاً وهولاً كل لحظة.

مدت يدها لتطفئها، غير أن ألسنة اللهب وخزتها كأنها الدبابيس التي تسحب كريات دمها، لم تستطع إلا أن ترخي يديها وتطلق صرخة تتراجع بعدها إلى وراء مبتعدة عن اللهب، فما كان من الشعلات إلا أن هبت وتصاعدت وتعالت ألسنتها أعلى فأعلى..

ألقت ألسنة اللهب ظلالاً مفزعة على الجدران من حولها، جدران بيضاء وأشباح وظلال حية متحركة، تتماوج وتتمايل متحركة من جهة لأخرى.

صرخت يائسة: بيم.. راجا.. أوقفا كل هذا أطفئا النيران..

لكن الأشباح لم تصغ إلى ندائها، بل امتدت نحوها وتعالت ألسنة اللهب لتلتقي باللهب وظلال اللهب، تقدم كل منهما باتجاه الآخر التقيا وامتزجا ببعضهما وهي مأسورة بينهما يائسة لا حول ولا قوة مثل شظية أو قصاصة ورق.

لم تقوَ على كبح جماح اللهب وظلال اللهب بالنسبة لها لأنها لم تكن كفؤاً لهما، كان اللهب والظلال هائلين، شديدي الحرارة

والضراوة والرعب، وليس ثمة من عون أو عزاء فلا أصغى إليها أحد ولا سمعها أحد والأصوات الصارخة توقر سمعها، كانت ترجو أن يخفت اللهب وتخمد النار التي آذتها وعذبتها.

وسحبت شعرها وغطت وجهها محتمية به، وأخذت قطعة قماش رقيقة لتحمي بها أذنيها وأنفها وتوارت وراءها مختفية من النار لكن النار ظلت تحوم لتلتهمها، تبحث عنها، تتوعدها..

وأخذت تعوّل وتنتحب في رعبها، إنها بحاجة إلى حماية، وهي تريد العون، حاولت الوصول إلى خارج الغرفة بحثاً عن اليد التي تمنحها الحماية.. هو ذا هنا، هذا الشيء البارد الطويل النحيف قرب يدها عند نهايات أصابعها، ما عليها إلا أن تطبق أصابعها عليه، على جسدها الزجاجي الاسطواني الشاحب وتسحبها وتدنيها منها قريباً من فمها. وبوسعها أن تدني فمها وتمص القليل منها، ترشف رشفات قصيرة وهي تصدر أصوات تلذذ صغيرة صغيرة، وسوف يكون الأمر لذيذاً ممتعاً، حلواً شديد الحلاوة مرة أخرى كما لو كانوا أطفالاً صغاراً تقوم بإطعامهم وهي نفسها طفل صغير يرضع هذا الوشل من العصير الذي ينساب مسرعاً ويندفق في فمها...

ومضت تمتص الشراب وتقهقه، تمتص الشراب وتنتحب.

توجب على الدكتور بيسواس القيام بمهمات كثيرة في بيتهم، كانوا يستدعونه كل يوم تقريباً، إن لم يكن من أجل الخالة ميرا لتهدئتها وتنويمها والحيلولة بينها وبين الوصول إلى زجاجة الشراب، فإنه يأتي من أجل راجا الذي استمرت درجة حرارته على ارتفاعها وتعذر عليه خفضها إذ استقرت في نقطة ثابتة، مما جعل الدم يتدفق إلى وجهه فيتوهج محياه بذلك اللون الذي لم يكن

طبيعياً. ويؤثر ارتفاع حرارته هذا على معنوياته فيرفعها أحياناً إلى مراقٍ خطيرة، ويهبط بها ثانية إلى كآبة سحيقة.

فإذا لم يحضر د. بيسواس فإن بيم تفرض هيمنتها وهي تسرع متنقلة ما بين غرفتي المريضين باذلة أقصى ما بوسعها لتكون في مستوى المسؤولية المناطة بها، ولتوقف الضجة الصاخبة التي تطلقها اسطوانات (بابا) في اغنية رخيصة إثر أخرى وهو يصغي إليها في متعة لا تفتر وسعادة لا يخمد أوارها..

سألها الدكتور بيسواس ذات مرة:

ـ كيف تطيقين سماعها؟

كانت تتكئ باسترخاء على عمود الشرفة وهي في انتظار خروجه من غرفة (ميرا ماسي) عندما زعقت أصوات الترومبونات والساكسفونات في غرفة (بابا) ففزعت الكلبة المسكينة (بيغوم) التي كانت مقعية عند قدمي بيم على الدرجة العلوية للسلم، ورفعت رأسها محدقة بوجه بيم كأنها طفل عليل يلتمس عوناً.

هزت بيم كتفيها غير مبالية، فقد كانت ضجرة ومرهقة إلى الحد الذي لا تستطيع معه أن تشرح للدكتور بيسواس مدى انشغال ذهنها بمشكلات أكثر تعقيداً من تلك، ولذا فهي لا تكاد تتأثر بهذه الأصوات التي أصبحت أساسية بالنسبة للايقاع الهادئ والدعة التي كان يتميز بهما وجود (بابا).

ـ أجدك معنية بالموسيقى أليس كذلك؟

أمعن د. بيسواس في إلحاحه هو الذي طالما كان متمنعاً ومتردداً بالرغم من أنه لم يجد أي تشجيع منها أو علامة تشير إلى اهتمامها به:

ـ أحقاً؟

تساءلت بيم، لم أكن أعلم فأنا نادراً ما أستمع إلى شيء من هذه الموسيقى. وحركت ذقنها بشيء من الاستخفاف.

ـ ولكن، يجب أن تهتمي بها يا آنسة داس، يجب أن تستمعي إلى الموسيقى.

توسل إليها باهتمام.

ـ الموسيقى واحدة من أعظم المتع المتاحة لنا على هذه الأرض، فإذا حصل المرء على هذه المتعة، صار بوسعه أن يتحمل أي شيء في الحياة.

ومنحته بيم آخر الأمر الاهتمام الذي اشتهاه.

ثم تساءلت مندهشة إلى حد ما: أتعني الموسيقى لك الشيء الكثير؟

بدت عيناه وهو يقف هناك داكنتين وقحتين وقد فاحت من حقيبة يده رائحة أشبه برائحة صيدلية.

قال مؤكداً: إنها في الغالب المتعة الوحيدة التي أملكها، ومن دونها تغدو الحياة كدرة قاتمة، محض أعمال سخرة يا آنسة داس.

ثم أضاف بسرعة وهو يتمسك بمقبض حقيبته.

ـ هل أطمع أن تصحبيني إلى حفلة موسيقية يوم الأحد، ستعزفها (جماعة دلهي الموسيقية) في قاعة (فريما سون)، سوف يعزفون (لبرامز) و (شوبيرت)، وهم يؤدون على نحو مذهل، إنهم هواة لم يحترفوا بعد، ولكنهم ليسوا سيئين على الإطلاق وبوسع المرء أن يستمع على مدى ساعتين إلى تلك الموسيقى البديعة. وواصل والعرق يتصبب منه:

ـ ومع الموسيقى ينسى المرء كل شيء، كل شيء.

تفحصته بيم وكأنه قطعة أثرية أو طرفة في متحف ولم تزد على أن قالت:

ـ الأحد؟.. كلا، إن ذلك أمر مستحيل تماماً يا دكتور، لا أستطيع مغادرة البيت. وأشارت بيدها في حركة واسعة شملت واحدة أو اثنتين وثلاثاً من حجرات البيت المطلة على الشرفة حيث كانا يقفان.

وفجأة انحرفت إلى الجانب الفكه من الموضوع الذي بدا مسلياً جداً: موضوع وقوفها ها هنا مع الطبيب وهي تحرس تلك الأبواب الثلاثة بمرضاها الثلاثة القابعين وراءها، والطبيب يدعوها إلى حفلة موسيقية يستمعان فيها إلى موسيقى أوروبية من القرن الثامن عشر، في قلب مدينة دلهي التي تمزقها الاضطرابات وأعمال التخريب والشغب.

شرعت تضحك وتضحك وهي تتخلى عن قوتها وتتهاوى أمام العمود وقد نكست رأسها وأخذت ترنحه مثل جرس يرن بالضحكات من دون أن تستطيع التحكم فيه، فما كان من الطبيب إلا أن يبتسم بشيء من عدم الارتياح ثم يتمتم بكلمة: وداعاً وينسل مسرعاً.

كانت ما تزال تضحك بمفردها عندما حضر باكول وتارا إلى البيت فابتسمت تارا لأختها تلك الابتسامة المشفقة التي كانت تعلو وجه الطبيب، ثم ارتقت درجات سلم الشرفة باتجاه الغرفة وهي تحس ببعض مشاعر الذنب.

توقف باكول قرب بيم على السلم وأشعل سيكارة وسألها:

ـ أنت تجدين الحياة مسلية، أليس كذلك يا بيم؟

اتكأت بمرفقيها على الدرابزين ـ وأمسكت بذقنها بين يديها ورمقته بنظرة من نظراتها الساخرة.

ـ إن كلمة مسلية ليست هي الكلمة المحددة، إنها (ممتعة) ممتعة تماماً.

امتص دخان سيكارته ورمقها بنظرة احترام وعيناه المفتوحتان تومضان وميض الإعجاب بها. وسحب السيكارة من بين شفتيه.

هتف: لماذا غدا شعرك رمادياً بسرعة يا بيم؟ أنت صغيرة جداً دون هذا الشيب؟

ـ الشيب أين؟ إن شعري لم يبيض.

ووقفت وبدأت تتلمس شعرها وتشد بعض الخصلات بعنف لتتأملها.

ـ أنت تمزح معي..

ـ كلا، إنني لا أمزح، أنظري هنا.

قال ذلك وأمسك بخصلة من شعرها عند قمة رأسها وسحبها برقة وأدناها تحت حاجبيها باتجاه أذنها.

أخذت الخصلة منه وقربتها من عينيها وقطبت جبينها.

قالت بصوت خافت ونبرة واضحة يخالطها شيء من الزهو:

ـ أجل إنه شعر رمادي، لم أكن أدري.

ـ لديك الكثير من الهموم.

ولم ترد بيم، كانت قد انجرفت على مدى بضع دقائق في هذه المحاورة ثم برمت بها وضجرت.

لطالما أضجرها باكول، إنها نعومة سلوكه، لا شيء، من خشونة تثير الانتباه إليه أو تجعله على قدر من الجاذبية، لكنه اليوم لم يسبب لها الضجر (قال لها بمباشرة لم تألفها منه):

ـ بيم ـ هل سيزيد زواج تارا من همومك وأعبائك أم أنه سيخفف بعضاً منها؟

قالت وقد استفزها الأمر:

ـ ماذا؟ . .

كانت لا تزال تنظر إلى خصلة الشعر الرمادية وتقلبها بين أصابعها، ثم تركتها تتدلى فوق أذنها أشبه بقطعة من شريط بهت لونه.

ـ أوه، أوه، هكذا إذن، أنت تعتزم الزواج من تارا؟ أجل كنت على يقين من إقدامك على هذا، وأظنها هي الأخرى ترغب في الزواج منك. .

ـ أجل، أبدت رغبتها في ذلك ولكنها طلبت إليّ أن أتحدث إليك أولاً.

ـ أوه، أقالت ذلك حقاً؟ أنا كبيرة العائلة حالياً، ألستُ كذلك؟ . .

ـ وضحكت ـ أتعتقد أنت؟ . . أترى أن عليّ القيام بدور ولية أمر العائلة؟

وهزت كتفيها استهجاناً، وبدا عليها التذمر مرة أخرى:

ـ لا أظنك بحاجة إلى التماس الأمر من أحد سوى تارا، أزمنة حديثة، هند معاصرة، هند مستقلة، وتحول باكول عنها، لا تروق له بيم عندما تتحدث بهذه اللهجة وهذا الأسلوب، ولا يحب

البتر المفاجئ ولا يريد أن يقاطعه شيء.

أبعد سيكاره عنه بزاوية طفيفة وأخذ يمعن النظر في الكلب الذي استلقى على إحدى الدرجات عند قدميه وهو يتابع برغوثاً يدب ما بين أنفه واصبع قدمه.

- بلا ريب، بوسعي التحدث إلى راجا إذا رأيت ذلك ملزماً.

قالت بشيء من الحدة: كلا.. لا تقلقه بهذا الأمر.

- لا أريدك أن تتحملي كل أعباء العائلة بمفردك.

- وها أنت تجيء لتخفف عني وتهوّن عليّ أعبائي، أليس كذلك؟

تخففها بأخذك تارا من بين يدي.

- أيمكنني ذلك؟.. أم تراها مصدر عون لك؟.. في تلك الحالة لن استعجلها على الزواج، ولن يكون ذلك قبل شفاء راجا واستقرار وضع (بابا) والخالة..

- سوف يشيب رأسك إذا ما انتظرت كل هذه المدة التي يستغرقها شفاء راجا واستقرار (بابا) وخالتي.

هكذا قاطعته بيم وقالت من دون مواربة: لا حاجة بك للانتظار تزوجا بسرعة، ولكن ماذا بشأن والديك؟

- إنهما يعرفان تارا ويحبانها، وبما أنني سأغادر إلى سيلان في أقرب فرصة فإنهما سيوافقان على أي مشروع زواج مبكر.

قالت بيم: الزواج المبكر، إنه بالتحديد ما أتمناه لتارا وسوف تكون مناسبة لك وأنت مناسب لها، لكما البركات، لكما البركات.

رفعت صوتها بشيء من المرح النزق، ثم طفقت تضحك مرة

أخرى عندما لمحت تارا نصف مختبئة وراء القاطع الخيزراني لدى باب غرفتها وهي تصغي وتنتظر.

كان باكول في أسعد حالاته، وإذ رأى بيم تضحك لوح بسيكاره في الهواء بحركة مرحة فبدا خليّ القلب وقد غمره الاستبشار.

وأغاظها حين قال لها: لسوف أشتري زجاجة من (البلاكو) من أجل شعرك يا بيم فأنا لا أريدك أن تحضري حفل زفافي بشعرك الرمادي، هل تظنين بأنني أرتضي بنسيبة مسنة؟.. كلا.. كلا، يجب عليك أن تخضبي شعرك من أجل حفل الزفاف يا بيم.

ثم أطلقا الضحكات معاً، وهي تشد على خصلة شعرها الرمادية، أما هو فقد أخذ يرسم بسيكاره تخطيطات أنيقة في الهواء.

وفجأة، انقض الكلب على البرغوث.

وبزواج تارا ورحيلها، تفاقمت حالة الخالة ميرا وازداد اعتكافها وعزلتها في حجرتها لكي تجد السبيل إلى زجاجة الشراب في خفية عن العيون وانعدمت أو كادت فترات صحوها من السكر وتحكمها في تصرفاتها.

أما (بابا) فكان يتفرج بفيض من السعادة على الاسطوانات التي تدور فوق حاكي (بنازير) الأخضر العتيق وألفى راجا وبيم نفسيهما في خضم صحبة رافهة لم يعرفاها في أي فترة من فترات حياتهما.

وكان راجا في هذه الفترة أكثر سكينة وهدوءاً إذ كانت ترده أنباء متواترة عن عائلة حيدر علي، وهجره إرهابيو الكلية الذين

كانوا قد انغمسوا في إشعال الحرائق وممارسة أعمال السلب والنهب والاغتيال في المدينة ولا متسع لديهم من الوقت للذهاب إلى الضواحي الهادئة من أجل كسب رفيق سابق لم يعد نافعاً بسبب مرضه وأفكاره الشاعرية عن البطولة والولاء.

كان يمضي جُلّ وقته وهو يقرأ على مسامع بيم بصوت مرتفع وهي جالسة إلى جوار سريره.

أما عندما يباغته الإحساس بالقوة والعافية فإنه ينهض ويشرع في تدبيج قصائد باللغة الأوردية فيسبب له انفعاله حالة من الكرب والحصر النفسي يهرب منها بتلاوة كل بيت شعر ينتهي من نظمه أمام بيم، ثم لا يلبث أن يصيبه الملل فيزهد في الشعر ويحس بالخذلان والنكوص، عندئذٍ يعمد إلى تجعيد أوراقه وإلقائها على الأرض، لتجمعها بيم وترميها بعيداً.

كانت تلك القصائد تشعرها بالنفور فتحس بشيء ما داخل روحها يتصاغر ويتزلزل إزاء هذا الضرب من التعبير العاطفي المفرط في عاطفيته الذي تجده غريباً عنها، وفي الوقت نفسه تجد راجا غريباً عنها ما لم يعبر عن خلجات نفسه وهواجسها باللغة الأوردية، وعندئذٍ يجتاحها الأسى إذ تلمس تأثير اللغة البالغ على مشاعره، في الوقت الذي يبلغ إعجابها به مبلغاً عظيماً، مما يتيح لها أن تسلم بالأمر وتخضع له صاغرة.

ولكنها بدلاً من التصريح بإقرارها تجاه الأمر تقترح عليه في صوت خفيض:

ـ لماذا لا تختار ـ يا راجا ـ موضوعات أكثر أصالة لقصائدك الجديدة؟.. أنت في سبيل الأصالة وحسب.

وكان ذلك كافياً لدفعه إلى شد شعره بيديه وهو يجأر يائساً محبطاً.

وبدأت بيم ترجو أن لا يناقش راجا قصائده الجديدة معها. فجأة عنّ لها هذا الخاطر:

ـ لماذا لا يقرأ قصائده للدكتور بيسواس؟

وقد أدهشتها الفكرة هي نفسها.

فمما لا شك فيه أن الدكتور بيسواس روحاً مرهفة الإحساس، وسوف يكون أكثر استجابة بروحه المرهفة من روحها التي تفتقر إلى الشاعرية.

قالت لراجا: أتدري؟ إنه يعزف على الكمان! هكذا قال لي.

قال راجا: أوه، بوسعي تخيل موسيقاه، إنها بلا شك من مستوى تلك الأصوات الضاجة التي تجعل الكلبة (بيغوم) ترفع وجهها إلى السماء وتطلق عواءها.

وأخذ يقهقه ويده تمتد إلى خطم (بيغوم) لمداعبتها وهي التي لا يروق لها سوى أن تقعي عند قدمي بيم أو على حافة سرير راجا عندما تكون معهما.

ـ ألا تستطيعين تصور موسيقاه؟

قال راجا ذلك وتظاهر بسحب قوس فوق أوتار كمان وهمي وأخذ يغني بصوت كأنه النواح:

(أوه.. خمر وورود.. أوه قمر ونجوم..)

فما كان من بيم إلا أن انفجرت ضاحكة.

ـ إنه يعزف لموزارت يا راجا ـ ويعزف لبرامز وإذن لن يكون عديم الجدوى.

ـ هل سمعته قط؟ . . ثم ما الذي يدفعك إلى الاعتقاد بإمكان أن يكون موسيقياً. إنه ببساطة يفتقر إلى عمق الجوهر.

ـ ولكنه يمتلك روحاً، روحاً يا راجا.

وردد راجا: روح؟ ومن منّا لا يمتلك روحاً، إننا بحاجة إلى الجوهر كالذي يمتلكه الشاعر إقبال، إذ قال في قصيدة له:

«ايها الرسام المبدع . .

إن رسمك لا يزال بعيداً عن مراقي الكمال

ينام في الكمين المهيأ لبني البشر

الجوال المتشرد والبطل والراهب،

لا يزال النظام العتيق مواصلاً ديمومته في عالمك» . .

رغم أن بيم اقترحت على د. بيسواس أن يحضر معه آلة الكمان ذات يوم ليعزف لهما، إلا أن طلبها أحرجه غاية الحرج وأصابه باضطراب لا حد له.

كان يضع حقيبته ويلقي بسماعته الطبية ويلتمس طريقه في الغرفة ويتمتم.

أوه، كلا . . ذلك أمر مستحيل، إن ما تطلبينه شيء مستحيل، أنا لا أستطيع، أنت لا تعنين ذلك حقاً، إنه، كلا، كلا . . كلا ليس بوسعي العزف يا آنسة داس، ولكني سأحظى بشرف كبير لو تفضلت بالمجيء، أيمكنك المجيء إلى الحفل الموسيقي؟ لسوف تستمتعين، سوف تأتين إنني أريد ذلك . .

سخطت أشد السخط على هيستريا العازب التي كان يتصرف بها، فكانت تنقضّ على سماعته الطبية التي كانت قد سقطت مرة أخرى ـ وتدفعها إليه وهي تقول بنبرة غضب: (حسناً، سوف

أحضر الحفلة) فما كان منه إلا أن أطبق فمه فجأة وقد عقدت الدهشة لسانه، فبدا أشبه بسمكة ابتلعت شصاً.

فيستلقي راجا ووجهه إلى الوسادة مستغرقاً في الضحك وهو يقول:

ـ هذا ما يضع حداً لأمثاله.

يضحك راجا بينما يسرع د. بيسواس وهو يسير وسط ممشى الحديقة.

ـ لقد قطعت عليه السبيل تماماً يا بيم، كان ذلك شيئاً عظيماً مثل مشاهدة رجل يُصرع في الجولة الأولى، كان عليك أن تكوني مصارعة يا بيم..

أنتِ مدهشة، رائعة، ولكن هذا المسكين بيسواس المسكين موزارت آخر وموزارت فوق ذلك!

كان يتحدث بصوت متهدج مرتعش ويضع يديه تحت ذقنه وتضحك بيم بوجه خجل.

«موزارت».. قال د. بيسواس بجدية تامة، ثم اتكأ بكلا مرفقيه على المائدة التي وضع عند كل طرف منها قدح بيرة:

عندما استمتعت إلى موزارت للمرة الأولى يا آنسة داس، أغمضت عيني، كما لو أن السنوات الماضية قد تلاشت كلها واختفت وابتعدت عني البلاد التي نشأت فيها، نأى عني أسلافي وعائلتي، وتلاشى كل شيء فوجدتني قد بلغت دنيا جديدة، عالماً مشعاً جديداً، هذا ما أحسست به عندما سمعت موزارت للمرة الأولى، لم يحدث لي مثل هذا عندما هبطت من الباخرة في (هامبورغ) ولا أحسست بمثله عندما شاهدت الوجوه ببشراتها

البيضاء العجيبة، أو عندما صافحت أذني اللغة الغربية، ولا حدث لي ما يشبهه عندما احتسيت أول قدح بيرة لي في حياتي.. أبداً لم يحدث ذلك، كانت تلك التجارب لا قيمة ولا معنى مقارنة بموسيقى (موزارت)، وبعد ذلك لم يتبق في حياتي شيء سواه، سوى (موزارت).

ردت بيم: أموزارت فقط؟

قالت ذلك وهي تدخن سيكارتها الأولى بأناقة مفرطة.

كانت الأمور قد اتخذت مساراً أشد تعقيداً مما حسبت بيم، وتطلب منها ذلك أن تواجهها بمزيد من الانتباه والحذر.

ثم إن الدكتور بيسواس قد بلبلها فما كانت لتؤمن بأن ما طرق سمعها كان صحيحاً.

- كانت تلك هي البداية. ثم تكشف لي عالم الموسيقى بأكمله، كان من حسن حظي أنني ذهبت إلى (ألمانيا) فكما تعلمين يا آنسة داس، إن ما جعل من الأمة الألمانية أمة عظيمة هو ذلك الحب.

كلا.. ليس الحب فحسب، وإنما إيمانهم الراسخ العميق بكون الموسيقى شيئاً جوهرياً وأساسياً وجزءاً من الحياة اليومية للفرد، شأنه شأن الخبز والماء، أو الخمر، وبوسعك أن تستمتعي بالموسيقى في كل قرية مهما صغر شأنها، موسيقى ذات مستوى رفيع، أما في برلين، فقد كان الأمر رائعاً ذا جلال خاص.

وومضت عيناه من وراء نظارتيه على نحو مثير جداً.

قالت بيم وهي تتفحص مذاق التبغ على لسانها فتجده مألوفاً لديها كمذاق شيء خبرته من قبل، متى؟ وما هو؟..

ـ إني اتساءل، من أين كنت تجد الوقت لدراسة الطب في الوقت الذي سحرتك الموسيقى إلى هذا الحد؟

ـ أو، لم أكن أنام أبداً في تلك السنوات، أبداً لم أنم، كان لدي الطب، وكانت الموسيقى، ثم هناك اللغة الألمانية التي ينبغي أن أتقنها فلم أكن أجد متسعاً من الوقت للنوم، وأظنني كنت مأخوذاً. أهيم على وجهي طوال تلك السنوات حتى ألفت التجوال في الشوارع الفسيحة، أتفرج على أزهار الكرز المزهرة وأشم عبير الليمون، واستمع إلى الموسيقى في كل مقهى من مقاهي الشوارع وكل متنزه. كنت أهيم على وجهي حقيقة وأطفو سابحاً في تلك الأيام، سابحاً في الهواء..

ضحك د. بيسواس وارتعشت يداه وهو يسكب لنفسه مزيداً من البيرة ويشربها.

فكرت بيم: ما أكثر ما احتسى من البيرة؟

وتململت على الأريكة المخملية الحائلة اللون وقد اعتراها شيء من السأم، كانت الستائر المخملية المسدلة إلى جانبها قد أثقلها الغبار فأحست برغبة في العطاس مثلما أحست أنهما كانا يجلسان هنا في هذه القاعة الخاوية بكل مخملها ووجوه الصور اللامعة الجوفاء منذ أمد بعيد جداً.

قال وهو يرمقها بنظرات فاترة:

ـ ألا تصدقينني؟ أنا نفسي لا أكاد أصدق ذلك، فعندما عدت وإلى الهند إلى أمي وأختي والى فترة التدريب هنا. تلاشت تلك الأمور بكاملها، ولم يتبق من شيء بين يدي.. ذهب كل شيء.

ـ ولكنك ما زلت تعزف على الكمان كما سبق وأخبرتني!

ـ أجل، أجل، إنني أعزف. نعم فهي محض محاولة للتشبث بشيء مما كان لي في (ألمانيا) خلال سنوات دراستي. كنت أمتلك الكثير هناك، في ذلك العهد كنت (ثرياً)، أما الآن فإنني أحس بعوزي الكبير، ولا جدواي.

أمسك بالكمان وأحاول ابتداع أصوات تذكرني بذلك الزمان، وأنا أتلقى دروساً في العزف من عازف الكمان الأول في (اوركسترا دلهي الموسيقية) وأعزف لنفسي، وأحور عزفي لتروق الموسيقى لوالدتي وهي سيدة بنغالية من الطراز العتيق لا تستهويها سوى أناشيد «طاغور» وهي تتعذب في صمت من أجلي لأنها تحبني، فأنا ابنها الوحيد.

ـ أتعيش والدتك معك؟

ـ بلى، لدينا بيت في (داريا غاني)، تزوجت أختي وذهبت لتقيم في (كلكتا) وها أنذا الآن ابن وحيد، وإنها لمسؤولية كبيرة أن يكون المرء ابناً وحيداً لأم محبة رؤوم، وتنهد فاكتسى بالكدر محياه.

قالت بيم: ما كنت لأعرف ذلك.

وألقت بسيجارتها في المنفضة المربعة البيضاء ثم استلت سيجارة أخرى على الفور من علبة د. بيسواس التي كان قد وضعها على المائدة.

أضافت: ما كنت لأعرف لأنني فقدت أمي.

حدجها د. بيسواس بنظرة مبهمة كما لو أنه لم يسمعها. فقد كانت أفكاره في قارة أخرى وقد ارتحلت به إلى مقام مختلف وتغير مزاجه.

وفي هذه الأثناء عادت الفرقة الموسيقية من غرفة الاستراحة واعتلت المسرح الصغير في آخر القاعة ولوحظ الإعياء على أفرادها الذين أمسكوا بآلاتهم وارتسمت على وجوههم ابتسامات المحترفين كما لو كانوا دمى تحركها خيوط اللاعب.

استهلوا العزف بمقاطع منوعة مأخوذة من فالسات (شتراوس) وأخذت الفالسات تدور ودوماً بسرعة بين الموائد متنقلة من مائدة إلى أخرى مثل خلية نحل مهتاج، فطأطأ بيسواس رأسه قانطاً.

- أجل - وتنهد - ثم استطرد يقول - أجل هذا ما نسمعه في مطعم (دافيكو)، تعزف الفرقة توليفة من مقاطع موسيقية مختلفة نسمعها ونحن نحتسي الشاي.

قالت بيم: لقد آن الأوان.

كانت قد بدأت تفقد اهتمامها بقصة د. بيسواس المملة التي لم تكن مشوقة كما ينبغي، شأنها شأن الجلسة التي لم تألفها في مطعم (دافيكو) الذي عللّها بالكثير من المتع عندما دخلته: المداخل والممرات المقوسة المعقودة، بستائر المخمل الحمراء وأكوام السجاد الثقيلة الملطخة ببقع (الآيس كريم) والعبقة برائحة رماد السيكائر، وما بين أيدي الندل الظرفاء تتأرجح أطباق حلوى (الميرنغ)[١] وأقداح (المثلجات) الفواحة بعطر الفانيليا، والنوافذ المستطيلة التي تشرف على الأشجار الوارفة الملتفة وسط (ساحة كونت) والحافلات الضاجة التي تثير زوابع من غبار وهي تستدير حول الساحة، وتطل على الغسق البنفسجي وهو يهبط من السماء

---

(١) المرانغو أو الميرنغ - حلوى من بياض البيض المخفوق مع السكر الناعم والفانيليا. (المترجمة)

المضببة القاتمة فوق الجموع العائدة إلى البيوت من المخازن والمكاتب في المناطق المجاورة وقد غمرها جميعها رحيق الموسيقى الحلو الكثيف، موسيقى تلك الفرقة التي تعزفها وترشها فوق الأشياء فتجمدها وتحول بينها وبين الحركة.

ألحت عليه بيم: يجب أن نغادر الآن، لم يسبق لي قط أن تركت راجا أو الخالة ميرا ماسي وحيدين مثل هذه الفترة الطويلة.

كانا قد حضرا (الكونسيرت) الحفل الموسيقي في قاعة (فريمانسيون) قبل مجيئهما إلى مطعم (دافيكو) فوقف د. بيسواس فجأة وقال معتذراً:

ـ ولكن، ما دعوتك للخروج إلا لهذا السبب، آه، نعم أخرجتك من البيت لكي تستمتعي بموسيقى هذه الفرقة الصغيرة عسى أن أمنحك الإحساس بالتغيير. لا ينبغي لك أن تمكثي في البيت طويلاً لرعاية أفراد هذه الأسرة المرضى فأنت نفسك معرضة الآن للمرض جراء التعب.

ضحكت بيم ضحكة فيها من الازدراء أكثر مما فيها من المرح، فما عاد لديها اصطبار إزاء هذا التلميح إلى مواطن ضعفها: كلا.. كلا.. وشردت بأفكارها، ثم قالت: كان بوسعي أن أكون ممرضة أو مقيمة في مستشفى الأمراض السارية، بإمكاني احتمال الأمر وتدبره، تنظر من خلال النافذة إلى الكرات البنفسجية لمصابيح الشارع التي كانت تلقي نورها الوهاج على العابرين من تحتها، تتطلع إلى المخازن التي أضيئت تواً وامتلأت بحشود من البشر الذين انصرفوا من مكاتبهم وأعمالهم وتنظر إلى أكشاك الرصيف بما تعرضه من مطبوعات وبطاقات وأدوات بلاستيكية وسلع مقلدّة وتتفرج على الشحاذين ووسائلهم المبالغ فيها لإثارة

الانتباه والحصول على قطع النقود الصغيرة.

أخذ بيسواس يحدثها مرة أخرى عن سني دراسته، عن أستاذه الذي كان يدعوه إلى بيته لاحتساء نبيذ الفواكه مع البسكويت، وروى لها قصة مالكة البيت التي أنجبت سبعة أبناء ثم أصيب زوجها بالشلل، كم كان تأثير تلك العائلة كبيراً فيه، فقد بثوا فيه روحاً جديدة هو مدين بها إليهم لأنهم صنعوا منه ما هو عليه الآن.

ـ اجل إنك لعلى حظ عظيم يا دكتور بيسواس. وتوقفت قليلاً وهو في مسار ذكرياته.

ـ أنا محظوظ، أتظنين ذلك حقاً؟

ـ لقد تعرفت على مثل تلك السعادة والمتع الجميلة.

قال آه، وشبك يديه فوق صدره ونظر إليها بشيء من الأسى: أجل.

ولم يواصل كلامه بل شرع يهز رأسه بنوع من الإصرار المكابر عندما طلبت إليه أن لا يتضايق من رؤيته لمنزلها..

تدحرجت الحافلة متمهلة خارج أسوار المدينة وهي تجتاز غابة أكواخ الحصير والتنك التي تراصت وازدحمت واتسعت في ما وراء الأسوار لإيواء الملايين من اللاجئين التي كانت تسعى جاهدة للعبور إلى ما وراء الحدود الجديدة.

لم تكن ها هنا أضواء خلا بعض التوهجات لنيران الطهو الهزيلة التي سرعان ما يكسفها الدخان والغبار وعتمة الغسق.

كانت تلك الملايين تدب وتزحف في نوع من حركة حياة تحت أرضية عليلة كسيحة، فخطر على بال بيم أن هذه المدينة لن

تنجو أو تتعافى من كارثة هذا الرعب، هذه المدينة التي شاءت أن تتغير تغيراً لا يمكن تجنبه أو الحيلولة دون وقوعه، هذ المدينة التي كانت قد انتقلت من حال إلى حال ولن يطول بها الوقت، هذه المدينة التي ولدت فيها، وعاندت ولم تتوقف عن تأمل هذا الزحام الغامض، الغارق في شقائه.

كانت شفتا د. بيسواس مزمومتين إلى بعضهما رغم أن لصمته سبباً آخر كما حدست بيم. صحبها ملتزماً الصمت طوال الطريق إلى محطة الباص الذاهب إلى بيتها ثم سار معها على امتداد (بيلارود) إلى بوابة بيتها التي توقف عندها وقد أحاط به طنين الحشرات المحوّمة في الضياء الأخضر المنهمر من مصباح الشارع فوق البوابة وشجيرة الجهنمية في الوقت الذي تعالى نباح الكلبة «بيغوم» المهتاج من الشرفة.

قال وهو يتشبث بمقبض البوابة:

ـ آنسة داس.. آنسة داس بودي أن أشكرك لأنك منحتني.. مثل.. مثل هذه المتعة، إنها بحق أروع أمسية عشتها منذ عودتي إلى الهند، أتمنى أن..

ضحكت بيم محرجة: ها أنت توحي لي بما يجب أن أقوله لك، أنا التي ينبغي لها أن تعلن شكرها..

صاح مغموماً: كلا..

وشدد قبضته على البوابة..

فما كان من (بيغوم) إلا أن قاطعته وأعولت على نحو مثير للشفقة.

ـ أرجوك عديني أن تأتي معي مرة أخرى.. عديني فحسب،

لا يمكنك قط معرفة ما يعنيه ذلك لي.

صاحت بيم.. أوه، لست أدري ودفعت البوابة فأفلت المقبض من يده لينقذ أصابعه ودخلت مسرعة وأغلقت البوابة بينهما.

ـ ليس من اللائق أن أمضي فترة طويلة في الخارج وراجا طريح الفراش، وخالتي.. أنت تعرف حالة خالتي..

ـ أعرف، أجل، ولكنك لن تصبحي عبدة للإثنين، أنا لا يمكن أن أكون عبداً لأمي، يجب أن نكون أنفسنا، يجب أن نخرج ونحظى ببعض الراحة لنجدد نشاطنا. ثم قال وهو يغص بكلماته: آنسة داس، هلا أتيت وقابلت والدتي؟ أرجوك!

كان هذا أسوأ وأخطر من أي شيء كانت تخشاه. غطت السماء عتمة ذات احمرار، قالت متعجلة: نعم، ولكن عليّ أن أسرع، يجب أن أرى راجا وخالتي، وأنت تعرف حالة خالتي، وهذه الكلبة التي تواصل النباح.. اخرسي ايتها الكلبة بيغوم..

انطلقت بسرعة في ممشى الحديقة باتجاه الشرفة وطمأنت (بيغوم) بتمسيد رأسها بسرعة وتسلقت الدرجات إلى حيث يجلس راجا منتظراً في الظلام.

فألقت بنفسها على كرسي الخيزران إلى جواره، واضعة وجهها بين يديها وقد شوه الاشمئزاز قسمات وجهها على نحو بشع لم تعرفه إلا عندما بدا راجا يقهقه.

قال راجا: أتراه عزف لك؟ على الكمان يا بيم؟

(ددلي دام.. ددلي دام..) ألم يعزف لك! وإذاً؟ هل أنشد لك بعض أغاني طاغور؟..

وعندما رفعت إليه وجهها وهزت رأسها وقد افتر ثغرها عن

ابتسامة، وضع راجا إحدى يديه على قلبه وصاح بصوت متهدج راعش:

(آه يا زهرة المانغو، هيا أسقطي في أحضاني

آه أيها القنديل، توهج وأخفق في الظلام).

فلم تتمالك نفسها من الضحك، ولكنها اعترضت قائلة: ـ أوه يا راجا، إنك لا تعرف شيئاً من اللغة البنغالية، ولم تقرأ طاغور قط..

ـ كلا، ولست بحاجة إلى معرفة اللغة البنغالية، كل ما عليك أن تفعليه هو نطق حرف السين (شيناً) وتدوير حروف العلة في فمك كما تفعلين مع حلوى (الروسوغلاس) أضاف باستخفاف مرح.

أواه يا زهرة المانغو.. هل طلب إليك أن تقابلي والدته؟.. وهل أرسلت إليك أمه حلوى (الروسوغلاس) التي تصنعها بيديها يا بيم؟

غير أن بيم توقفت الآن عن الضحك وبحركة نزقة نهضت لتغادر إلى غرفتها، وعندما ذهبت تتبعها الكلبة بيغوم سمعت راجا يتنهد على نحو مؤثر.

ـ باخ وموزارت أيضاً..

مرت فترة طويلة قبل أن ينجح د. بيسواس في إقناعها بالخروج معه مرة أخرى. كان تقدم راجا على طريق الشفاء مطمئناً.

أما وقد حل موسم البرد وكلل الندى مرج الحديقة في الصباحات المبكرة، وتألقت أحواض الزهور الملونة وهي تنفتح

تحت أشعة الشمس، صار بوسع راجا الجلوس في الحديقة وقد تلفع بشال لبيم، من طراز (باشمينا) يأكل البرتقال والجوز وتارة يقرأ رسائل آل حيدر علي وأخرى ينصرف إلى نظم الشعر باللغة الأوردية ليرسله إلى أسرة (حيدر علي).

وبدا راجا بديناً ومكتنزاً على نحو غير اعتيادي، وإذ يتخلص من الشال أو يخلع صداره الصوفي السميك، يكتشف هو وبيم أن تلك السمنة البادية عليه لم تكن بسبب الدثارات والملابس الثقيلة وإنما هي سمنة حقيقية تكسو جسده، عند ذاك يحدقان ببعضهما غير مصدقين وهما موقنين أن سبب السمنة هو تواصل راحته في السرير واعتماد غذائه على الحليب والزبد، ويؤمنان بهذا ويهزان رأسيهما في دهشة بالغة.

ظلت بيم منشغلة بالخالة ميرا، لكنها بذلت كل ما بوسعها لتفي بالعهد الذي قطعته على نفسها بمعاودة الدراسة في الكلية للانتهاء من منهج مادة التاريخ، والى جانب ذلك امتثلت لتلميح كان دكتور بيسواس قد ألقاه على مسمعها فتبرعت لتقديم المساعدة في عيادة خاصة للنساء في (مخيم كنكزوي) للاجئين. كان المخيم قريباً من مبنى الجامعة وبوسع بيم الذهاب إليه مباشرة بعد انتهاء المحاضرات لتساعد في توزيع قطرات الفيتامينات على الحوامل أو تمزج مسحوق الحليب للرضع، وكان هذا العمل الطوعي يتطلب منها أن تمضي طيلة فترة ما بعد الظهر في المخيم، ولا تعود إلى البيت إلا بعد حلول الظلام، مما أثار لديها إحساساً كبيراً بالذنب لعدم وجود من يرعى الخالة ميرا أثناء فترة غيابها خارج البيت.

وكانت حالتها قد تدهورت وازدادت سوءاً.

اعترف راجا وبيم لبعضهما أن الخالة ميرا كانت تذهب

للبحث عن زجاجات المشروبات التي تركها والدهما في الخوان. ولكن بمضي الوقت وندرة حالات صحو الخالة ميرا وهي تدب في غرفتها تحت وطأة مشاعر الانكسار والإحساس بالذنب والإحباط الكبير. لم تعد تخرج من الغرفة إلا لماماً فتسير مترنحة تتعثر في خطاها وتمسح وجهها بيديها من دون توقف لكأنها تحس بنسيج عنكبوت يتشابك فوقه ويتنقل لسانها من كلمة هاذية إلى أخرى لا معنى لها ومن كأس شراب إلى آخر.

وإذ كانوا في ما مضى قد سمحوا لها ببعض زجاجات الشراب فإنهم كفوا عن ذلك الآن، فحصلت الخالة على قدر من شراب الليكيور من مكان ما.

ولما كانت بيم قد أعفتها من مسؤولية حسابات البيت منذ أمد طويل، فلا يظن أن (جاناكي) الطباخة العجوز قادرة على تحمل أعباء أكثر من المعتاد، ولم يكن تغاضي بيم نفسها هو الذي أبقى الخالة ميرا طافية يغمرها الشراب، وإذن من هو المسؤول عن كل ذلك؟

- إنني أرتاب يا راجا بذلك العجوز (بهاكتا) الذي أتيت به من بيت (حيدر علي) إلينا..

وضربت بيم على رأسها جزعة إذ سمعت الخالة ميرا وهي تسقط القدح من يدها وتطلق صرخة إثر تحطمه.

- إنه يواجهني بتلك النظرة الوقحة وأنا أحملق فيه غاضبة بسبب جلوسه متبطلاً خارج المطبخ طوال النهار لا يفعل شيئاً سوى انتظار أن تقدم له (جاناكي) وجبات الطعام، كما لو أنه يمتلك سراً ما يجعله يحس بتفوقه عليّ، أنا واثقة أنه هو الذي فعلها.

أجاب راجا: كيف يمكنك الجزم بهذا في الوقت الذي لا تمتلكين فيه أي دليل على اتهامك؟

لم يكن راجا يطيق أي نقد يوجه لأي شيء أو أي شخص يخص عائلة (حيدر علي صاحب).

- لا أملك الدليل، إنها محض شكوك فقط، قالت بيم عبارتها ومضت لتجمع شظايا القدح الزجاجي من غرفة الخالة ميرا.

اكتشفت أنها جرحت يدها وهي تنتحب والدم متناثر فوق الفراش.

كانت تبكي وتتأسى من أجل تبدد الشراب وتحطم القدح أكثر مما كانت تتألم بسبب ألم الجرح ونزف الدم من أصابعها في شبكة أنسجة قرمزية، والتي لا تكاد تتبينها وهي تبكي، فلم تتمالك بيم نفسها من البكاء لمرأى أصابعها النازفة.

حضر الدكتور بيسواس وعالجها وهو يتصرف معها في غاية اللطف والحنو.

أبدت بيم دماثة وهي تنظر إليه من مكانها إلى جانب السرير وهو يلف الأربطة حول معصمي الخالة ميرا الطفوليين وسمعته يوجه إليها بعض الملاحظات والنصائح الرقيقة الفياضة بالمرح، مما جعل الخالة ميرا تتكئ على وسائدها ووجهها الواهن يشع بتعابير السعادة والامتنان مثل مصباح صغير تتقد فيه شعلة رقيقة خافتة.

أدركت بيم مع لوعتها وألمها أنها لم ترَ هذه السعادة الغامرة المرتسمة على وجه السيدة العجوز منذ فترة طويلة. وقبل أن

تتوالى عليهم كوارث الصيف المنصرم، وإذ كانت بيم تقف قرب قدمي الخالة ميرا الباردتين، بارزتي العظام، أدركت الآن مقدار العذاب الذي عانت منه خالتها عندما توفيت أمها ولحقها أبوها وعندما رقد راجا طريح الفراش، ولدى مغادرة تارا مع زوجها وحزنها الأبدي من أجل حالة أخيهم الصغير (بابا) لقد تركت كل تلك الأشياء آثارها القاسية فوق وجهها وحول فمها المرتعش وعينيها الدامعتين.

لم تكن بيم لتلاحظ ذلك من قبل ولكن ها هي الخالة ميرا الآن تتكئ بظهرها إلى الوسائد وهي تبتسم للطبيب الشاب ببراءة تامة وبصفاء لا نظير له مثل طفل أريح من ألمه.

وتمنت بيم وهي تمسك بكاحلي الخالة، ناتئي العظام، لو أنها تظل هكذا مثل طفل رضيع في مهده، بريئة يسهل قيادها والتحكم في تصرفاتها..

قالت وهي تنظر إلى د. بيسواس بصوت فيه رقة وتواضع:

أجل، إنها ستأتي لتشرب الشاي مع والدته في الأسبوع القادم.

كانت الخالة ميرا تحس بالبلل والرطوبة، ملابس رطبة باردة تدثرها، لقد كبلوها وكانت تظنهم يضمدون جراحها ليوقفوا نزف دمها، غير أنهم في الحقيقة كانوا يقيدونها وها هي ذي عاجزة عن الحراك. يداها مكبلتان ولا تطولان أي شيء، مقمطة، مدثرة وتكاد تختنق تحت كل هذه الأكوام من الأغطية..

آه، لو كان بوسعها أن تمزق كل هذا أو تمزق نفسها، فإنها ستبلغ مرادها، ستلمس الزجاجة وترتجف يدها وهي تختطفها، لكنهم يقفون فوق جسدها، ويدوسونها، ضاغطين عليها لتغوص

وسط هذه الأكوام من الأغطية القطنية الناعمة. نامي.. نامي أيتها الطفلة، نامي، هكذا كانوا يهدهدونها ويغنون لها، وكانت هي الأخرى تغني لهم وهم في مهودهم، وتهدهدهم برقة وتؤرجحهم، لكنهم ليسوا رحماء معها، نامي أيتها الصغيرة نامي، إنهم يزجرونها ويرفسون جوانب مهدها، يركلونها، يزداد زعيقهم وصراخهم ضراوة، إنهم أكبر منها، يلوحون لها ضخاماً بهيئات مبهمة غامضة تطل من فوقها. إنهم يرعبونها ويهددونها إذا ما رأوها تحرك اصبعاً واحداً من أصابعها خارج اللفائف القطنية، وتمده نحو الزجاجة المتألقة وسط الظلام، وها هي تحمل الزجاجة إليهم تقربها من شفاههم وتضحك إذ تراهم يشربون غير أنهم يتوعدونها ويدفعونها نحو زنزانة خانقة كئيبة ثم ينكرونها، شقية في زنزانتها، تبحر في حجرتها، حجرتها الكئيبة، هذا النسيج المحكم المحاك حولها، ها هنا حيث عاشت، ها هنا حيث زحفت وهي تجرجر جناحيها الثقيلين وراءها، زحفت من حجرة إلى أخرى تطعم اليرقات البيض التي تنمو في الخلايا، فتنتفخ بفعل الغذاء الذي تقدمه لها. كانت الخلايا تعج بهذه اليرقات بحيواتها الضئيلة البيضاء، المشدودة اللامعة، كدحت وعانت وهي تسحب وراءها جناحيها الطويلين، كان الجو ضاجاً بأزيز ملكة النحل، إنه يثقب أذنيها ويتعالى طناناً خلال الحزن والكآبة أشبه بشهاب متوهج أحمر يجعلها تغمض عينيها وتتسلل إلى زنزانتها، تندس في قماطها القطني وتختبئ، وعندما يتراجع الصوت وينحسر، تختلس النظر بعينين تطرفان.

ـ أين الزجاجة؟.. أين ضحكتها التي تشع وهجاً في الظلام وتغمزها وتغويها؟

لقد أخفوها عن ناظريها.

آه، لو كان بوسعها الوصول إليها، إذاً لاختطفتها وأدنتها من فمها. كانت تنشج وقد أحرقتها الرغبة.. جرعة واحدة فقط... كانت تئن وتقول إنه أوان الحصول على قطرة، أوان الرضاعة، يجب أن يحصل الأطفال على حليبهم ويدعوا لي بعضاً منه، أرجوكم قطرة واحدة وحسب.

ولكن ليس من حليب، فقد ماتت البقرة غرقاً في البئر، في تلك البئر الحجرية العميقة الراكدة، البئر التي يجب أن يغرق فيها الجميع ويموتوا.

هي التي كانت سّر العالم، مكتومة ومخبأة وسط أحراش العشب الكثيفة، والتي تزود منها الجميع والتي ينبغي أن يعودوا إليها زاحفين على ركبهم وأيديهم.

زحفت نحوها، ساحبة أجنحتها القطنية وعندما بلغت الحافة، حدقت فيها، ثم أدلت رأسها وهوت بسرعة إلى الأعماق وبعد هنيهة ارتطمت بالسطح المشع ثم اخترقته باتجاه الظلمة والشراب السري.

فتحت فمها لتعب منه، كم بكت وانتحبت من أجل هذا الشراب.

كانت حفلة الشاي من دون ريب غلطة كبيرة. قطبت بيم وجهها وأخذت تقرع نفسها وتلومها على تراخيها الذي أظهرته فتركت نفسها عرضة لما يمكن اعتباره إذلالاً وكارثة مفجعة لمن يتورط فيها.

أترى تزينت السيدة بيسواس من أجل هذه الحفلة؟ إن بيم لم

ترَ قط أحداً من قبل متأنقاً ومستحماً ومتزيناً بهذا القدر من المساحيق. . إن السيدة بيسواس تبدو وقد عفرت وجهها بالدقيق ولربما كانت سقطت في إحدى خوابي الدقيق كأنها فطيرة كبيرة.

كانت رائحتها تفوح بعطر زهور صناعية قوية، وهذا يستدعي أن تضع المساحيق رغم كل شيء. .

وأخذ ساريها الأبيض يقرقع بصوت القماش المنشى أشبه بقطعة بسكويت بينما التمع شعرها بزيت جوز الهند وتوهجت نقاط من الذهب في شحمتي أذنيها وعلى طوق الثنيات أسفل عنقها، فبدت بأجمعها أشبه بقطعة حلوى صناعية كما تراءت لبيم.

قدمت لها صحفة ملأى بكل أنواع الأطايب والحلويات التي رصت بشكل رائع أنيق: أنواع عديدة من البسكويت، بضع قطع من الحلوى (ميثاي) وكثير من الفطائر المقلية المحشوة بالفواكه. وقد توجت بمقدار ملعقة كبيرة من (التشاتني)[1] ثم أتت بصحفة أخرى مماثلة لسابقتها ومليئة بالقدر نفسه بقطع الحلوى والأطايب وقدمتها لابنها الدكتور بيسواس، ووضعت ثالثة الصحاف أمامها فأكلوا جميعاً.

كانت تواجههم خزانة تحف صينية تقف أمام الجدار على قوائم أربع وتضم تماثيل جصية من ألمانيا وأقداح بيرة مصغرة، وشخصيتي (هانسل وغريتل) وهما يتواثبان على مرج أخضر، وسنجاب يطوق عنقه عقد من زهور الأقحوان والى جانب ذلك دمى هندية أقل شهرة وانتشاراً، وأكثر رثاثة (اكليل من أوراق معدنية براقة مبهرجة) تتناثر على أردية ساري من قماش

---

(١) التشاتني chutne ـ (صلصة ثمار وتوابل).

(الأورغندي الأحمر) مع عمائم ذهبية، وثمة منحوتات من الصلصال في سلال خيزران، موز أصفر وفلفل أخضر، ببغاء، بقرة، طفل من اللدائن، كانت كل هذه الأشياء تحدق بوجه بيم التي انهمكت بتناول الحلويات.

نظر الدكتور بيسواس إلى حذائها البني المرتفع اللامع، ولم يأكل شيئاً.

تنهدت أمه (كل قليلاً يا شونا) وقوقأت بهديل استياء كأنه هديل الحمام.

لم يأكل شيئاً فتناولت طبقه منه وهي تطلق تنهداتها وعرجت نحو المائدة لتضعه عليها..

لم تكن تعرج أول الأمر إلا أن عزوفه عن الطعام جعلها تعلن عرجها الذي أخفته، وصوبت السيدة بيسواس نظرة ارتياب إلى بيم المستغرقة في تناول الحلوى والتهام المزيد والمزيد من الطعام وكأنها تلومها على سلوكها.

فكرت بيم وفمها ممتلئ بالعصير: ترى علام تلومني؟ لكن السيدة العجوز ما لبثت أن جلست وشرعت بالتنهد والشكوى. ولم تكن شكواها منصبة على افتقاد ابنها لشهيته وإنما أخذت تتحدث عن زوجها الراحل وعن التهاب مفاصلها الذي يسبب لها آلاماً مبرحة، وهو الالتهاب الذي لا شفاء منه ـ هو الذي قال إنه مرض مستعصٍ لا شفاء منه ـ ثم ختمت حديثها عن الخادم الصبي الذي هرب منذ الصباح الباكر عندما علم أن زائرة ستأتي لتناول الشاي عندهم، كسول.. تلك هي المشكلة، وسألتها ـ كسول جداً، وأنتِ؟

كانت عيناها الصغيرتان تبدوان مثل حبتي زبيب فوق كعكة

وجهها الكبيرة الناعمة.. وأنت كم خادماً لديك؟ وماذا يفعلون؟ وكم تدفعين لهم؟

شهق بيسواس ماما؟

وضغط بكل ثقله على أصابع قدميها فأصدر الحذاء الجديد صريراً..

حدقت فيه العينان الشبيهتان بحبتي الزبيب بنظرة سريعة قاسية ثم لوحت له اليد البيضاء المنتفخة كأنما لتبعده عنها وقالت:

ـ هو.. إنه الوحيد الذي يعرف ماذا يعني (العمل) وتابعت (عمل، عمل، لا شيء غير العمل، أهناك إنسان يعمل ويشقى بالقدر نفسه؟) إنه يقتل نفسه في العمل.

وعاودت الجلوس على الأريكة وخلف ظهرها وسادة منقوشة بزهور وردية ومضت تتحدث، كان حديثها في الغالب باللغة البنغالية، مما أتاح لبيم فرصة لتحدق بوجه الدكتور بيسواس بشيء من الفضول وحب الاستطلاع وهي تتساءل:

ـ كيف تغاضت عن كثير من المزايا، كالشهرة والمناصب الرفيعة.. لقد جعلته أمه يبدو وكأنه (ابولو) متنكراً وراء قناع.. تحدثت عن تفوقه في درجته العلمية الطبية، وتفرغه وانصرافه لمهنته، والحب الذي يكنه له مرضاه، كما تحدثت عن ولعه بالموسيقى.

وهنا شبكت الأم كفيها معاً واعتصرتهما في شيء من اليأس وانقطاع الرجاء.

ـ أعزف على كمانك..

بل قالت: اعزف للآنسة داس، أنا لا أفهم في هذه الموسيقى

الغربية التي يعزفها، لكنها قد تروق لك، فأنت فتاة جامعية، ما هي شهادتك؟

كان فم بيم ما يزال ممتلئاً بفتات الحلوى، وكان من الصعب ابتلاعها كما ابتلعت العصير وهي تحدثها، وعندما سعلت وغصت بما في فمها، واصلت الأم حديثها عن الكمان والموسيقى، فما الذي يمكن أن تفسره فتاة جامعية في كل هذا؟

ـ أنا لا أفهم، إنه يريد أحداً يفهمه.

قاطعها الدكتور بيسواس: ماما لعل الآنسة داس ترغب في سماع أغانيك، أمي تغني أناشيد (طاغور) وتمتلك صوتاً مدرباً، أيروق لك الاستماع؟

وفي هذه اللحظة أحست بيم بالغيظ، فليعزفا وليغنيا لبعضهما قدر ما يشاءان، فلماذا أرغم على سماعهما؟ لقد سمعت ما فيه الكفاية من الآخرين.

وضعت طبقها الذي تبقت عليه بضع قطع من الحلوى لم تمس بعد، ولقد كانت لسوء الحظ من الصنف الذي أنفقت السيدة بيسواس في إعداده معظم ساعات الصباح، ولكن، أنى لبيم أن تعرف ذلك؟

استمعت إلى الأم والابن وقد احتدم النقاش بينهما، كانت السيدة العجوز على وشك البكاء وهي مصممة على أن تضحي بنفسها من أجله، أما الابن فقد كان ماكراً وكما لو أنه يعتزم معاقبتها بهذا المشهد المحرج.

وعند هذا قررت بيم أن تضع حداً للموقف فنهضت واقفة وقالت بلهجة فظة:

ـ يجب ان أعود إلى البيت قبل حلول الظلام، ولكن لسوء حظها ما إن نهضت ونطقت عبارتها حتى لانت السيدة بيسواس ووافقت بالبنغالية على إحضار آلة (الهارمونيوم الأرغنية) لتؤدي أغنيتها. ما كانت بيم لتفهم شيئاً، وها هي تعلن الآن عن رغبتها في عدم البقاء وأنها تعتزم الذهاب، وقد كان الأمر مما يؤسف له، شيئاً فظاً وينم عن انعدام التهذيب.

زمت السيدة بيسواس شفتيها ثم قالت بعد برهة من الصمت بالتأكيد، عليك أن تذهبي فقد بدأ الظلام يهبط..

تماسك د. بيسواس في وقفته وكأن كارثة حلت به. وما عاد أمامه من خيار آخر، وقد غادرت، إلا أن يراها خارج البيت وهو يلقي بنظرة جانبية على أمه التي كانت تتنقل لائبة في الغرفة الضيقة الكئيبة لتجمع الأقداح المستعملة والصحاف وتتأمل كل تلك الحلوى التي لم يمسها أحد.

وأسرع الدكتور بيسواس هابطاً السلم فقالت بيم بصوت مرتفع سوف أعود إلى البيت بمفردي، إنني أريد ذلك حقاً أريد أن أكون وحيدة.

ـ أنت لا تدرين ما تتفوهين به ليس من أمان لإمرأة بمفردها هذه الأيام بخاصة بعد حلول الظلام.

قالت باستخفاف: بل إن الأمان موجود من دون ريب، أمان تام على أي حال، بالنسبة لامرأة مثلي. تهدل كتفاه وأطلق زفرة مكتومة، لكن لم يشأ التخلي عن مرافقتها فهبط الدرجات المتبقية من السلم بسرعة مثيراً نوعاً من الضجيج وهو يتبعها إلى الشارع.

تمتم: كان علي أن أشعر بالخجل من نفسي.

بلغا سياج المتنزه الذي يقع عبر الشارع حيث بيته ومجموعة البيوت المجاورة ـ ثم أضاف قائلاً:

ـ ما كنت لأغفر لنفسي ما حييت.

وواصل سيره مسرعاً ليجتاز شحاذاً كسيحاً يستند إلى سياج المتنزه ويرفع طاسة الاستجداء في صمت فبلغها وسار إلى جانبها.

هزت بيم كتفيها بحركة تنم عن نفاد الصبر، ثم سارت بسرعة كبيرة حتى اجتازت محل (الغسيل الجاف) والمقهى ودكان القرطاسية نحو الشارع الرئيس ومحطة الحافلات.

قالت لنفسها: إنه ابن حقيقي لأمه لقد ورث عنها موهبة تحميل الآخرين عبء التضحية بنفسه.

بدا شارع (داريا غاني) موحشاً وخاوياً على نحو غريب ومهدد بالأحرى بهبوط الظلام الشتائي المبكر.

مر العابرون القلائل بسرعة وقد أثقلوا أنفسهم بمشتريات كثيرة، وأغلق بعض أصحاب المحلات أبواب حوانيتهم رغم أن الوقت لا يزال مبكراً جداً للإغلاق.

ولم يكن ثمة غير مجموعة من الناس في أحد المقاهي، وكان ضجيج الأخبار المذاعة من الراديو قد طغى وتحول إلى هدير كلامي لا يفهم منه شيء قط.

ـ ما الذي يحدث، ماذا تظنين؟

سألها بيسواس وهي توشك أن تسقط أرضاً إذ تعثرت بإسكافي اختار الجلوس عند زاوية معتمة مع صندوق عدته وتناثرت حوله الصنادل الممزقة البالية.

قال الإسكافي كما لو أنه يحدث نفسه:

ـ مات غاندي، اغتيل، هكذا يقولون، ترى من يقتل رجلاً فاضلاً؟ من يقتل قديساً؟

وكان يهز رأسه ويرنحه يميناً ويساراً وهو يردد كلماته بنبرة رتيبة، وما أن أدركا عبارته وهما يمران أمامه حتى توقفا وقد روعهما صوته الناحب وتفرس أحدهما بوجه الآخر ثم نظرا إليه:

صاح الدكتور بيسواس بصوت مرتفع جداً وهو في حالة هيستريا شديدة: ماذا؟ ما الذي قلته يا رجل؟ توقف الإسكافي عن التمتمة الهاذية لنفسه ونظر إليهما ثم أشار بيده نحو جمهرة من الناس أمام المقهى وقد تجمعوا لسماع الإذاعة قال:

ـ اذهبا واسمعا بنفسيكما، (مات غاندي، قتل هكذا يقولون..)

وعاد يرنح رأسه في أسى شعائري عميق. اتخذ الدكتور بيسواس طريقه نحو المقهى ولحقت به بيم مسرعة وإذ لمحت الحافلة التي تمر ببيتها تدرج من بعيد غيرت بيم اتجاه سيرها مذعورة ووثبت نحوها بدل اللحاق بالدكتور بيسواس.

وإذ سمع الحافلة تطلق صريرها وتنعطف نحو المحطة إلى جوار الأفريز الحجري، توقف الدكتور بيسواس هو الآخر ونظر هلعاً إلى ما حوله وصاح:

ـ بيملا.. بيملا..

وأشار إليها أن تتوقف وانحنت بجسدها وسط الزحام على درجة الحافلة ولوحت له، فرأته مخذولاً تتطاير في الريح قصاصات الورق وترتطم بقدميه، وقد انهمر ضوء المصباح فوقه ثم انعكس عن البقعة الصلعاء وسط رأسه. وما لبثت أن اختفت في

الحافلة ناسية إياه تماماً.

وما كانت تفكر إلا أن تنطلق بالأخبار نحو راجا.

سمعته يسعل وهي تهرع نحو غرفته، كان ممداً في سريره تحت لحافه الشتائي السميك، وقد رقدت الكلبة بيغوم عند قدميه كأنها سجادة رخوة مترهلة.

تصلب كلاهما واستنفرا عندما سمعا اندفاعتها المسرعة في الغرفة

صاحت: لقد قتل المهاتما غاندي، اغتيل، مات يا راجا..

واندفع راجا بحركة عنيفة من فراشه فانزلق اللحاف الثقيل وسقط أرضاً متكوماً مثل جثة.

وقفً شعر راجا وانتفش شعر (بيغوم) أيضاً.. لا بد أنك جننت يا بيم.. هكذا صرخ بها:

- أنت حمقاء مجنونة.

- سأخبرك يا راجا، كل من في المدينة عرف الأنباء، كل فرد في الحافلة كان يتحدث، أين المذياع؟

افتحه ودعنا نستمع.

أسرع راجا نحو المذياع الموضوع على المكتبة وعبث بأزراره بنوع من اليأس والقنوط، ثم قال بصوت يكاد يكون نحيباً:

- بيم، سيكون هناك المزيد من أعمال الشغب والعنف والقتل، وسيذبح كل مسلم يجدونه في أي مكان.

تمتمت بيم مبتهلة: كلا يا إلهي، لن يحدث ذلك مرة أخرى، لن يتكرر الأمر.

وصَفَت جعجعة المذياع فكانت موسيقى تقليدية، موسيقى

احتفالية تنحب في ما يشبه الرثاء.

وأنشد صوت نسائي (الرام دهان) متفجعاً في نبرة نادبة.

تهيأ راجا وبيم وهما يفرقعان مفاصل أصابعهما لسماع نشرة الأخبار، وإذ بدأت استلقيا في استرخاء على سرير راجا لينصتا إليها.

كان الذي قتل (المهاتما غاندي) رجلاً هندوسياً مثله، مثل المهاتما..

قال راجا: (الحمد لله) ثم سحب اللحاف من فوق الأرض وتشبث به بقوة.

- الحمد والشكر لله، لقد فكرت بما سيصيب عائلة (حيدر علي).

رمقته بيم شزراً، إلا أن تعبير وجهه جعلها تبعد عينيها عنه في نوع من القلق. كان جلد وجهه يبدو مسحوباً لكأنه سلخ عنه وترك عارياً مقشراً. غمغمت بيم: ما الذي تظنه سيحدث الآن؟

واستدارت لتداعب (بيغوم) التي استعادت هدوءها لدى سماع صوت بيم الخفيض واقتربت لتضع خطمها في حجر بيم منتظرة أن تمدها بالمزيد من الطمأنينة.

- يخيل إلي أن أهل الهند سوف ينسون أمر (باكستان) قليلاً، ولربما انصرفوا إلى مشكلاتهم الخاصة في آخر الأمر.

لست أدري، ففي ظرف كهذا يكون كل شيء مشوشاً يا بيم، مشوشاً كالعماء..

أمضيا الأمسية يستمعان إلى الأخبار المذاعة، سمعا (نهرو) وهو يبكي، ثم لزما الصمت وقد اقشعر بدناهما لفرط التأثر، وما

لبثا أن استثيرا بفعل الترانيم الدينية الحزينة التي ظلت تذاع من دون انقطاع..

جلسا معاً في حالة تجمع بين الاضطراب والأسى وتناوب بينهما، كانا مصدومين مشتتي الأفكار.

وأخيراً قال راجا: وماذا عن حفلة الشاي التي دعيت إليها يا بيم؟.. كيف كانت وهل وافقت السيدة بيسواس على أن تكوني «كنة» لها؟..

أثارت هذه العبارة بيم فوثبت واقفة وفتحت زر المصباح وأخذت تلوب في الغرفة مهتاجة حتى لكأنها صعقت بتيار كهربي.

ـ كنتها؟.. أم الدكتور بيسواس؟.. آه، إنها لم تتحدث معي إلا عن نفسها، عنهم، أتمنى أن لا أرى الدكتور بيسواس مرة أخرى. لقد سبب لي الاشمئزاز والذعر، إنه ليس إلا..

أواه يا بيم، لا تكوني بهذه القسوة معه، عازف الكمان البائس، الموسيقي المسكين، وكذلك موزارت، آه، موزارت أيضاً..

كان راجا يترنم بكلماته وقد شبك يديه تحت ذقنه، ثم اصطنع له ملامح مهرج حزين ليضحك بيم، فضحكت بيم.

طوال ذلك اليوم الذي اغتيل فيه (المهاتما غاندي) ظلت بيم تكرر أنها لا تريد أن ترى الدكتور بيسواس وستكون تلك هي المرة الأخيرة، ولم يكن ذلك حقيقياً فقد كانت هناك مرة أخرى، تلك المرة التي لم تعترف بها أبداً، وما حاولت قط أن تذكرها.

حدث ذلك أواخر الربيع. لم تكن لراجا حاجة إلى الطبيب خلال الشتاء بعد أن تحسنت صحته على نحو مطرّد، وانخفضت

درجة حرارته إلى المستوى الطبيعي، واستعاد قواه، واكتسى جسده بطبقة كثيفة من الشحم حيث كان يمضي النهار جالساً في الشمس يأكل الجوز ويرمي بالقشور إلى السناجب التي كانت تنسل من الأشجار وتأتي إليه زاحفة عبر المرج، فتلتقط القشور من بين يديه ثم تعدو بها بين أوراق الشجر.

إنما، ازداد الجو دفئاً، بدا كأن الهواء مشحون بالحرارة من جديد وعم الجفاف الحديقة فامتلأت بالهشيم المتطاير وهبت الرمال من الكثبان المحيطة بالنهر وأخذت الرياح تذروها باتجاه البيت والحديقة طوال النهار فغطت كل منضدة وكتاب وورقة بطبقة رملية خشنة، مما زاد من قلق راجا وتشوشه، واضطرابه، فهجر قصائده ودواوين شعره التي أغنته عن كل شيء طوال فصل الشتاء. وأخذ يتمشى في الشرفة متذمراً من الحرارة والغبار، أو يعلن شكواه من عدم كنس الممر من الأتربة.

أنظري إلى الأوراق المتطايرة في كل مكان، ألا يمكنك فعل شيء لبيت الموتى هذا الذي نعيش فيه؟

هل نحن موتى جميعنا؟ ألن تهتمي بعد اليوم بهذا البيت؟ ألن تعتني بأي شيء بعد الآن؟..

ثم يمضي محملقاً هنا وهناك.

كانت بيم ترفض الإذعان لهذه الشكاوى التافهة، فقد أدركت أن ما يثير راجا لم يكن الغبار أو افتقاد النظافة أو عدم ترتيب المكان..

بدأت أفكار راجا تذهب أبعد من ذلك، أبعد من مرضه، وبدأ يفكر بجسده، بالعالم الخارجي، وكان مشحوناً بالقلق لأنه سيعود إلى ذلك العالم ويظهر فيه..

وذات يوم في أواخر الربيع صاح طائر الوقواق الهندي بين الأشجار واستمر جرسه الرنان خلال ذلك النهار الذي تطايرت فيه الأوراق والرمال، وتوهجت حرارة الصيف وأخذ كل شيء يطن ويتذبذب مثل ملفات كهربائية تئز من حول الجميع.

جلست بيم تستعد للامتحان، أمام كتبها وقد ثبتت مرفقيها على المنضدة الصلبة محاولة تجاهل راجا الذي كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويقاطعها ويزعجها ويهزأ بها على نحو أخرق، ساخراً من طموحاتها وهو يضع خططاً مضحكة لمستقبله بدءاً من تلك اللحظة، فلم تأخذ مشاريعه مأخذاً جاداً ولم تقدم على تشجيعه، عارفة أنه يتميز غضباً وقد فرغ صبره في توقه للانطلاق خارج البيت والوصول إلى الحياة والأصدقاء والانغماس في الحركة.

أدركت أن ذلك هو سر شكواه وتذمره وسبب تهجماته الجائرة عليها وإثارته لها، شأنه شأن نار متقدة تشتعل تحت وعاء، إنه أمر لا يمكن احتماله.

تنهدت وقد فاضت بالمرارة:

- أواه يا راجا، عد إلى سريرك، ألا تريد العودة إلى فراشك.

وأهاجت هذه الكلمات غضبه واشتعل وجهه بالانفعال كأنه غاز ملتهب وتوقف عن الاستناد إلى ظهر الكرسي بثقله وضغطه فأطلق الخشب صريراً يابساً، قال راجا بصوت كالفحيح والرذاذ يتطاير من فمه:

- لن أعود إلى سريري، سوف أذهب، سوف أذهب إلى مدينة (حيدر آباد) فقد طلب مني (حيدر علي) أن أذهب إليه فلديه أعمال كثيرة، سوف أعمل لديه، سأرحل هذا اليوم، اليوم سوف

ألحق بالقطار، لا أريد البقاء هنا، لا أريد البقاء معك يوماً آخر، حسبي هذا حسبي هذا.

ونهض من كرسيه ماداً ذراعيه مثل من يعتزم إزاحة كل ما يعترض سبيله.

حاولت بيم أن تتمالك نفسها فلم تزد على أن نقرت بقلمها على أسنانها ورأت أن من الأفضل لها أن لا تنظر إلى وجهه لأنها لم تكن تتوقع أن ينطوي راجا على هذا القدر الهائل من الشر أبداً، نظرت بشيء من الامتعاض إلى الغبار الذي تكدس فوق المنضدة وكتبها وكان يتطاير ويحط مثل قشور غبراء خشنة على السطوح البيضاء.

غادر راجا الغرفة ولما يهدأ بعد.

كان بالإمكان سماعه وهو يذرع الغرفة بخطواته المتهورة، ساحباً العلب والصناديق، ملقياً الأشياء في داخلها بكل ما أوتي من قوة حتى سمع اهتزاز ورجيف الخطر.. الخطر فتأججت ثورة بيم وهرعت نحو باب غرفته محاولة تهدئته وإعادته إلى حالته السوية، سمعتهما الخالة ميرا التي أصابها الخبل، فزحفت خارج غرفتها ورأت راجا يحزم أمتعته وفي عينيه يرتسم الرعب.

دست أصابعها المرتعشة بين شفتيها، حاولت بيم إقناعها بالعودة إلى غرفتها فأجهشت بالبكاء. وكف راجا عن حزم حقائب وقد ازداد سخطاً فألقى بنفسه فوق سريره.

وكان والحق يُقال منهكاً مستنفد القوى وقد شعر بارتفاع في درجة حرارته في حين كان الجو ثقيلاً ثقل الرصاص ولكن الحرارة ارتفعت على نحو يتعذر ايقافه مثل ارتفاع زئبق في محرار. طوقت الحرارة المنزل وأحاطت بهم جميعاً، بصفرة لونها الكبريتي

المشوب الشبيه بصفار بيض يغشاه لون الدم، أوصدت الخالة ميرا باب غرفتها عليها ونام راجا ولعله كان يكظم غيظه، بينما ظلت بيم تتفرج وتراقب الأمور.

عندما بلغت الحرارة أقصى ذروة لها في الساعة الثالثة بعد الظهر ونشرت لوناً أحمر قرميدياً فوق سطح البيت مهددة إياه بلهبها. سُمع صوت باب يفتح بسرعة ونزق يوحيان بخطر ما، واندفع منه كالسهم الطائش شبح أبيضُ عار يطلقُ صيحات الرعب والتوجع وينطلق من الغرفة باتجاه الشرفة، ثم يمرق مسرعاً ويترنح فوق درجات السلم التي تسوطها أشعة الشمس الحارقة.

كانت بيم، التي أمضت فترة العصر ممددة فوق الأريكة في القاعة الفاصلة بين حجرتي راجا وخالتها، غير واثقة مما يحتمل أن يقوم به أي منهما، فأجفلت وفزعت عندما رأت ما تصورته (شبح الظهيرة) ينسل عبر الغرفة وينبثق بغتة أمام ناظريها وينقض عليها. كانت الخالة ميرا عارية، وهي تتحرك مترنحة هنا وهناك في ممشى الحديقة، صارخة مولولة، وهي تدور وتدور حول نفسها إلى أن تهاوت فوق الممر المغطى بالحصاة وهي تتلوى متوجعة من ألم مبرح وتصرخ: يا إلهي، الفئران، الفئران، سحالي، أفاع، إنها تلتهمني، تأكلني وأخذت يداها المجنونتان تنتزعان هذه المخلوقات من عنقها وتسحبها من شعرها ولا تلبث أن تتراجع وهي تتلوى وتعول من فرط الألم، عندما ألقت بيم بنفسها عليها وأمسكت بها من ذراعها صرخت طالبة النجدة من راجا وبابا وجاناكي ولم يسمعها سوى العجوز (بهاكتا) فأتى يعدو مسرعاً إليها بركبتيه المقوستين..

هاجت الخالة ميرا وأخذت تعض أيديهما وترفس بساقيها وتصرخ:

(إنها تلتهمني، إنها تأكل يدي) وكانت تحاول تخليص أصابعها، وأتى أحدهم ببطانية وألقى بها على رأسها فلملمت بيم أعضاءها ودرجتها فيها مخفية مزق اللحم وفقاعات الجلد الرمادية الرقيقة التي بثرت الجسد الناحل.

كانت فقاعات صغيرة مجوفة من الجلد واللحم لها رائحة عفن منتنة بفعل الشيخوخة وقد علقت بها ذرات الرمل والحصى الصغار فجعلتها تتمزق أوصالاً وقطعاً. دثرت كل ذلك بالبطانية وحملتها كأنها جثة.

ثم وصل الدكتور بيسواس وكان استدعاؤه هو أقصى ما يمكن لراجا أن يفعله وهو طريح الفراش، فقد طلبه بالهاتف.

وزرقها بحقنة واحدة فتهاوت الخالة وغابت في نوم عميق يبعث على الأسى والرثاء.

ولم تضحُ من نومها أو يتعكر صفوها عندما أدارتها وألبستها ثيابها، وساعدها الطبيب في عملها، فنجحا في إخفاء مشهد عريها الشنيع، الكيسين الخاويين الذابلين لثدييها البائدين وآثار الخدوش والعضات التي خلفتها على جسدها..

جلس الإثنان على جانبي سريرها يمسك كل منهما بأحد رسغيها الشبيهين بطائرين عظيمين، أمسكها الطبيب ليقيس نبضها وأمسكتها بيم التماساً للصفح عن سلوكها المهين وتعاملها الفظ معها ولتعود إلى سابق عهدها في مواساتها ورعايتها.

نطق الطبيب أخيراً وقال:

ـ سوف أعطيك يا بيملا قنينة من البراندي وعندما تفيق أعطها بهذا القدر..

ثم نهض وأحضر القنينة من حقيبته وسكب بعضاً من الشراب في قدح، وشهقت بيم وهي ترى كمية المشروب وأبدت اعتراضاً على الأمر، لكنه قال لها: يجب أن تأخذ هذه الكمية وإلا فإنها ستنحدر نحو هاوية الجنون.. قدمي لها هذا المقدار كل ثلاث ساعات وبعد مضي فترة من الوقت يمكنك إضافة الماء إليه، ثم واصلي مزجه بالماء، المزيد من الماء في كل مرة، وليكن شراباً مائياً ولا بأس إذا استمرت على ارتشافه لفترة طويلة، ويمكنها أن تشرب منه كل ساعة، يجب أن تقومي بذلك بنفسك، وأبقي زجاجة الشراب معك، وإلا فليس أمامنا إلا أن نضعها في المستشفى لتخضع لدورة علاجية قاسية تودي بحياتها.

رفعت بيم رأسها ولم تشأ أن تتفوه بشيء.

نهض الطبيب هو الآخر وهيأ حقيبته ليغادر وهو يقول: سوف أذهب لأرى راجا هنيهة..

وتوقف لدى الباب ونظر إلى الوراء، نحو بيم وقال بأسى عميق وهو يطلق زفرة:

ـ الآن فهمت كل شيء؟

سألت بيم من دون أن يبدو عليها الاهتمام بالأمر:

ـ ماذا؟

كانت تحس بضربات قلب خالتها مثل خفقات عصفور تحت اصبعها، بل أشد وهناً من خفق قلب عصفور، كان نبضها نبض جنين تحت قشرة بيضة رقيقة، هو خفق واهن وحسب، حتى أنها كانت تبذل جهداً لكي تحس به وتلتقطه واضحاً ما بين إبهامها وسبابتها.

ـ أدرك الآن وأفهم جيداً لماذا ترفضين الزواج، لقد كرست حياتك ووهبتها للآخرين، لشقيقك المريض وخالتك المّسنة، ولأخيك الأصغر بابا الذي سيظل معتمداً عليك طوال حياته، إنك تضحين بحياتك من أجلهم.

فغرت بيم فاهها دهشة أمام هذا الكلام المفزع، الجاد إلى درجة موجعة.

لقد نطق الرجل بكلام ثقيل الوطأة كما لو أنه كان يحفر على الفولاذ ليترك ذكراه ماثلة لأجيال قادمة، ثم غادرها لكي يمنحها بعض الراحة والسلوى.

ولبثت وحيدة مع خالتها، وعيناها مطرقتان إلى الأرض، ثم اكتشفت أنها تخلت عن رسغ الخالة وسحبت يدها عنه بشيء من الذعر والهلع، وها هي الآن تعتصر يديها ببعضهما كأنها تعتزم تحطيمها أو أنها تريد تدمير شيء ما.. وأطلقت أصوات فحيح وهي في احتدام غيظها وتعاظم إحساسها بالخيبة إذ أساءت فهم الأمر كله.

ثم غصت بضحكة جراء فقدانها الإدراك والفهم على هذا النحو المروع.

وتقبضت ملامح وجهها أثر اضطرابها، وأخذ جسدها بالارتعاش كأنما لتنفض عنها أفكار الدكتور بيسواس، لكنها لم تعترف بعدئذٍ بما فعله ذلك المشهد القاسي وما تركه من آثار عليها.

كانت تلك الحادثة إيذاناً ببداية موت الخالة ميرا، البداية الحقيقية، فما كان متوقعاً لها أن تشفى، وبدأت رحلة بطيئة جادة نحو الموت.

أما بيم فقد انصرفت للقراءة، ولا شيء غير القراءة، كانت تقرأ في كتاب (ثودول بادول) الذي أدهشها العثور عليه بين كتب الخالة ميرا القليلة.

وقرأت قصيدة (د. هـ. لورنس) المسماة (سفينة الموت) وأخذت تنقل شفتيها بين الكلمات الساكنة وهي تتمنى أن تمتلك من الجرأة ما يمكنها لتنطقها بصوت مسموع:

أدفع السفينة الصغيرة، الآن، والجسد يموت،

والحياة ترتحل، انطلقي أيتها الروح الرقيقة

في سفينة الشجاعة الواهنة،

سفينة الايمان، بمخزن مؤونتها، وآنية

الطهو الصغيرة والثياب..

فوق آماد البحر السوداء،

فوق مياه الأبدية،

على بحر الموت حيث لا نزال مبحرين

فلا نحن قادرون على قيادتها بعد

وليس لنا من مرسى..

ثم تمنت أن يكون بميسورها الإبحار في ذلك النفق المظلم والانسلال بعيداً في ما وراء الممر الذي سبقتها إليه ومهدته لها تلك العجوز، المرأة المحتضرة.

«هل بنيت لنفسك سفينة موتك؟ أفعلت؟ آه، ابنِ سفينة موتك لأنك ستكون بحاجة إليها».

كانت بيم تغمغم بصوت يكاد يكون مسموعاً إلا أن الخالة

ميرا لم تكن تسمع شيئاً، وترقد الآن ساكنة بهدوء تام تنكمش وتذوي حتى تكاد تتوقف عن كينونتها البشرية، فتستحيل طائراً، طائراً عجوزاً منزوع الريش وقد نتأت عظامه من تحت جلده المزرق، طائراً أثرياً بائداً، محطماً إلى حد يحول بينه وبين أي حركة.

خبأت بيم زجاجة البراندي في الخزانة ثم قاست القدر المقرر من الشراب لها. غدت المرأة العجوز طفلة رضيعة تئن وتصرخ طالبة زجاجة رضاعتها التي تفتقدها، وشفتاها تصدران صوت رضاعة على نحو ما يفعله الجائع الملهوف.

وفي أحيان أخرى كانت رعشتها تجتاح كل جسدها فتعجز عندئذٍ عن الارتشاف من قدحها فينسكب السائل بأكمله عليها وتقوم بيم بإعطائها إياه مستخدمة الملعقة التي تقوم الخالة بمصها كما تمص حلمة الثدي، وإذاك تومض عيناها الغائرتان لفرط سعادتها واستمتاعها.

وبعد حين بدأت تلوث فراشها، فاتفقت بيم مع زوجة البستاني لتساعدها في تنظيف المفارش وغسلها. كانت إمرأة قوية نشطة الحركة تعمل وتغسل بجد ومثابرة ولكنها تهوى الثرثرة، وقد أرادت أن ترغم الخالة ميرا على تناول شيء من الرز و(الدال) الذي ترسله جاناكي إليها، وبدا أنها سببت لها الأذى بإلحاحها المزعج على إطعامها وإكراهها على نحو مثير للرثاء، فما كان من بيم إلا أن طردتها من دون رحمة وأمرتها أن تحمل الأطباق وتذهب، فاكتفت بيم بتقديم الشراب لها.

وأفاقت الخالة ذات ليلة من غيبوبتها التي ظنتها بيم أبدية، وشرعت تمزق ثيابها كما لو كانت شبكة تحيط بجسدها وتقطع

أشياء غير مرئية كانت تتوهم أنها ملفوفة حول عنقها وأصابعها وشعرها وأخذت تصرخ:

دعوني أذهب، دعوني أقفز إلى البئر، دعوني..

ولبثت تنوح وتعول وتردد هذه الكلمات على نحو متقطع على امتداد الليل أشبه ببوم أو كأنها طائر من طيور السُبد يطلق صرخاته في الصمت والظلام، فأيقظت بيم.

وبدا أن فكرة القفز إلى البئر قد استبدت بها، تلك البركة الخفية التي يعلوها الزبد، البئر التي غرقت فيها بقرتهم الشبيهة بعروس والتي يلوح للخالة الآن أنها ستغرق فيها، أمسكت بيم بمعصمي خالتها طوال الليل، واستغربت لماذا تريد خالتها هذه البئر من دون كل أشياء البيت والحديقة وتريد أن تغرق في ذلك الزبد الأخضر الذي لم تظهر عليه أي تموجات أو يسمع له رقرقة أو خرير منذ غرق البقرة في البئر.

وحين كانوا صغاراً لم يقتربوا من تلك البئر أبداً حتى عندما يتحدى بعضهم بعضاً برمي الحصى فيها، ولم يكن غير راجا الذي يقبل التحدي، أما بيم فكانت تكذب وتتظاهر بالقبول ولكنها لم تكن لتجرؤ على الاقتراب من البئر أبداً.

وبدا الآن أن الظلام المطبق الذي يمسك بخناق الخالة ميرا قد تجاوز كل شيء كأنه طوفان من الظلمة فبدت الخالة التي لا حول لها ولا قوة عاجزة عن مقاومته وقد خلب لبها فاستسلمت له.

جربت بيم أن تحول انتباه الخالة عن فكرة البئر، أن تشغلها بشيء آخر لتهدئتها، فأحضرت لها قدحاً طافحاً بالشراب، وأخذت تساعدها لكي تشرب منه، وبينما هي ترتشف جرعات منه مال

رأسها جانباً فأنزلق القدح من فمها نحو ذقنها وانسكب الشراب على عنقها وفوق قميصها لقد قضي الأمر.. وماتت ميتة هادئة في فراشها، لا ميتة غرق مريعة، ارتحلت مهزومة على نحو ناعم رقيق في أبخرة الكحول التي حلقت فيها.

وليلة أثر ليلة، وكأن الخالة قد غرقت حقاً، أخذت الأحلام تراود بيم وتطاردها فترى جسد الخالة المنتفخ الأبيض يطفو عارياً على سطح مياه البئر، وصارت تراها في فنجان شاي الصباح، فما أن تنظر إلى الشاي حتى يلوح لها وجه الخالة الغارقة فيه وشعرها الفضي المجدول بنعومة يطفو حولها كأنها (أوفيليا) تطفو فوق شاي الصباح، فيشحب وجه بيم وتدع الشاي يبرد في قدحه الأبيض (لم تغرق الخالة ميرا).

كانت بيم تردد لنفسها مرة بعد أخرى، لم تغرق لقد ماتت وحسب..

غسلت بيم جثة الخالة وساعدتها جاناكي وزوجة البستاني وأخرجت ساري الخالة الحريري الأبيض الوحيد من صندوقها، ذلك الساري الحريري الأبيض الذي زينت حافاته باللونين القرمزي والذهبي ولم يسبق للخالة ميرا أن وضعته على جسدها عندما كانت على قيد الحياة.

ألبسوها الساري مثل دمية في حفل زفاف، أو كأنها صنم مذبح معبد، وأشعلت جاناكي بضعة أعواد من البخور فقد كانت رائحة الغرفة النتنة مجلبة للخزي في أوساط العائلة، ثم حضر الجيران وحملوا السرير الخفيف الذي أرقدت فيه إلى خارج البيت وكانت خفيفة مثل ورقة الشجر أو صفحة من ورق.

غادر راجا سريره ورافق بيم إلى مكان حرق الجثة، وأشعل

كومة الحطب بالمشعل بينما وقف الآخرون ينظرون وهم يمسحون العرق المتفصد من وجوههم بمناديلهم. كانت الحرارة تصعد رهجاً في ضوء ما بعد ظهر الصيف الساطع وتهتز مثلما الأجنحة أو أشباح المتصوفة الناحلة، حتى تحولت إلى كومة من رماد أبيض فوق الرمال الفضية قرب النهر.

ظل الإناء الخزفي الذي يضم الرماد محتفظاً بالدفء قدموه إلى بيم فسارت مع راجا حتى بلغا ضفة النهر لتنزله إلى الماء، ورأته يهتز ويتدحرج على مدى برهة وقد طوقه اكليل من زهور حمر، حتى جرفه التيار الرمادي نحو دوامات الماء ولم يلبث طويلاً حتى غطس إلى الأعماق.

اعتدل غسال الثياب الذي كان غاطساً حتى ركبتيه في مياه النهر وأخذ يتفرج مثل الآخرين، ثم نهق حمار وزعق طائر الزقزاق وانساب النهر بعيداً فعادوا إلى البيت.

والآن، وبعد مضي وقت طويل على موت الخالة لا زالت بيم تراها على نحو متواصل، وهي موقنة من رؤيتها لها، ترى الجسد الصغير الضامر العاري يجرجر وراءه مزقاً من قميص نومها وخصلات من شعرها، وتراها وهي تنسل خلسة عبر السياج الشجري، رأسها خفيض كما لو أنها تتمنى أن لا يلحظها أحد، تمضي مسرعة نحو البئر، فتحبس بيم أنفاسها وتغمض عينيها قبل أن تفتحهما ثانية وهي تتفرس بلهفة شديدة بالسياج الشجري فلا ترى عندئذٍ سوى شرّابات أشجار (المالافيسكوس) تتدلى عليه أشبه بألسنة حمراء ساخرة ولا شيء سواها..

فكانت تفكر بما كانت قرأته من قبل في كتاب راجا الذي يضم قصيدة الأرض الخراب لاليوت:

«من هو الثالث الذي يمشي دائماً بجانبك.

حين أعدُّ ما من أحد هناك إلا أنا وأنت معاً.

لكن حين أنظر إلى أمام على الطريق البيضاء.

هناك دائماً آخر يسير بجانبك.

يتهادى متسربلاً بقباء قاتم حتى قمة رأسه.

لا أعرف إن كان رجلاً أو إمرأة،

لكن من الذي إلى الجانب الآخر منك؟»

وعندما أنهت قراءة هذا المقطع من قصيدة أليوت وجدت ملاحظة تشير إلى أن هذه الأبيات مستوحاة من وصف لبعثة اكتشاف القطب الجنوبي، فقد كان لدى الرواد المكتشفين وَهْمٌ ثابت مفاده وجود عضو في البعثة زائد عن تعدادهم الفعلي.

ضغطت بيم بأسنانها على شفتيها وأدركت إذ قرأت أبيات (أليوت) وبالرغم من عدم وجود علاقة ما بين مكتشفي القارة القطبية الجنوبية وخالتها البائسة الغارقة، أنها على يقين هذه الساعة أن الخالة هي الشخص الإضافي، ذلك الخيال الذي يلقيه الشبح الواهن الذي يتعذر إدراكه والذي يقيم في زاوية عينيها، وتساءلت بيم عما إذا كانت تنحدر إلى الجنون، ولكنها بعد حين كفت عن مشاهدة تلك الرؤيا التي تراجعت تدريجياً ثم اختفت كلياً وتلاشت.

ولعل ذلك، وحسبما تقول العقائد التيبتيه يفسر الأمر، إذ يعتقد أهل التيبت أن الروح تظل هائمة فوق الأرض لفترة من الوقت حتى تبلغ آخر الأمر الطريق المفضي إلى رحلتها الطويلة:

سفينة الموت أواه يا سفينة الموت، ترنمت بيم بسفينة الموت

لتحتفظ بهدوء نفسها. . الهدوء.

وظلت رابطة الجأش محافظة على هدوئها بينما كان راجا يحزم حقائبه ويجمع كل حاجياته ثم أراد أن يخبرها أنه يعتزم الذهاب إلى (حيدر أباد).

نظر إليها وهي ترقبه بصمت، وصاح بصوت عالٍ:

ـ إنني راحل، يجب أن أرحل، الآن بوسعي الرحيل وينبغي لي أن أبدأ حياتي في وقت ما، ألا يحق لي؟ أنت لا تريدينني أن أمضي حياتي كلها في هذا الجحر، أليس كذلك؟.. ولا تحسبينني أستطيع مواصلة العيش من أجل أن يبقى شملنا ملتئماً أنا وأخي وأختي أليس كذلك؟

قالت بيم ببرود قاسٍ: أنا لم أتفوه بكلمة واحدة قط.

ـ ولن يكون عليك أن تفعليها، لأن كل شيء مكتوب فوق وجهك، إذهبي، هيا أغربي بوجهك عني، ابتعدي لا تجلسي ها هنا وأنت تحملقين بي، لا تحولي بيني وبين ما اعتزمته، لا تمنعيني.

ـ لا أريد أن أمنعك.

ـ إنني راحل.

قالت بيم: اذهب.

وصلت عربة التونغا لأخذ أمتعة راجا إلى المحطة وقد وسق بهاكتا الحقائب عليها، وكلما وضع حقيبة كانت العربة تميل وتنخفض بفعل ثقل الحقائب، والحصان يوسع ما بين قوائمه في محاولة لتثبيت نفسه.

تحدث راجا إلى بيم مرة أخرى:

ـ بيم سوف أعود، لقد تركت جميع كتبي وأوراقي لديك، فاهتمي بها حتى أعود.

سألته بيم بقسوة: ولماذا تعود؟

ـ لا تكوني متحجرة القلب يا بيم، تعلمين جيداً أنني يجب أن أعود لأتفقدك أنت و(بابا) لا أستطيع أن أدعك وحيدة.

وهمت أن تقول شيئاً، غير أنها هزت كتفيها باستخفاف وانحنت لتحمل الكلبة (بيغوم) وما أن جلس راجا على عربة (التونغا) وهو يحاول موازنة جسمه عليها حتى قفز (بهاكتا) نحوه، وتشبث بالعربة ضارعاً متوسلاً أن يأخذه معه إلى (حيدر أباد) ليعيده إلى أسرة (حيدر علي صاحب) ثم انحنى على قدمي راجا فاصطحبه معه.

عوت بيغوم وارتجفت عندما رفع الحوذي سوطه فوق رأسه يستحث الجواد الهرم البارز الأضلاع على الانطلاق وهو يترنح يميناً ويساراً، وقفت بيم وداعبت الكلبة لتهدئتها عندما قرقعت العربة خارجة من البوابة.

اضطربت بيم وهي ترى (بابا) يخرج من غرفته وقد كفّ الحاكي عن إطلاق الترنيم البديع المرح لـ «نيلسون إيدي» وهو يغني (سيرانادا الحمار) (The Donkey Seranada) ورأت (بابا) يجلس بهدوء تام ليلعب بالحصى على بلاطات الشرفة.

جلست بيم قربه على درجات سلم الشرفة مسترخية بطريقة تنبي عن التعب والارتياح في آن واحد وذراعاها متدليان بارتخاء فوق ركبتيها وقد خفضت رأسها مثل كسيرة قانطة.

كانت ترى حصى (بابا) تتناثر ثم تسقط وتمتد أصابعه الطويلة

لتجمعها من جديد ثم أخذت تتكلم موجهة الكلام إلى نفسها بالمقام الأول وليس إلى (بابا):

قالت بصوت خفيض: وهكذا، تركونا يا (بابا) تركونا وحيدين، أنا وأنت فقط، ترى هل تجد البيت خاوياً يا (بابا)؟ ذهبوا جميعاً ما عدانا أنا وأنت، ذهبوا بلا عودة، وسوف نبقى كلانا وحيدين منذ الساعة، ولكن يجب أن لا نقلق على أي أحد منهم بعد اليوم، لن نقلق بشأن تارا أو راجا أو الخالة ميرا ماسي، لسنا بحاجة إلى القلق لأنهم رحلوا عنا وغادرونا، نحن الآن بمفردنا وحسب، وليس لنا أن نأسى لشيء، أنت لست بخائف، أليس كذلك؟ كلا، ليس ثمة سبب للخوف، ها قد عدنا كما كنا أطفالاً صغاراً من جديد، نجلس في الشرفة ننتظر عودة والدينا عندما يحل الظلام ويحين موعد النوم، حقاً سيكون الأمر مثلما كان عليه ونحن صبية صغار.

تثاءبت بيم تثاؤبة مديدة فجحظت عيناها ونتأت عظام فكيها من خلال جلدها المشدود.

- ثم إن الأمر لم يكن شيئاً.

غمغمت وحركت رأسها وقد قهرها النعاس، أليس كذلك؟.. كلا، فعندما كنا صغاراً..

ولكنها لم تضف كلمة أخرى، وخفضت رأسها نحو حجرها وبدا أنها قاربت النوم.

الفصل الثالث

واظبت الأم على تطبيق أوامر الطبيب فكانت تتنزه كل صباح والندى لا يزال يلتمع على العشب البليل، وتسير صاعدة هابطة على امتداد (ممشى الورد) عند النهاية القصوى للحديقة، وكان الممشى يبدو لعيني تارا أشبه بنفق طويل معشب ممتد بين أحواض الورد التي يُفترض أن والدها قد زرعها. أمر البستاني برعايتها ولكن لم يكن والدها أو البستاني على معرفة أو خبرة بتربية ورود الجوري فكانا يقومان بغرس (أقلام) من أغصان الورد ويترقبان نموها. فلا تظهر سوى ورود حمراء هزيلة أو وردية مشعثة الأوراق ولا شيء عداها.

كانت تارا تتنهد وهي تفكر بالمشهد الذي يصافح ناظريها عندما تسترق النظر عبر البوابة الحديدية المزخرفة نحو بيت جارهم (حيدر علي صاحب) وترى الأحواض المستديرة والمربعة والمستطيلة والمثلثة والتي لها أشكال النجوم مزدهرة بشتى الورود والأزاهير، ومنها أزهار تشبه مخاريط ملأى بمثلجات الفانيليا الوردية، ومنها ما يشبه تنورات الدمى الإنكليزية ذات الأهداب، وتلك الورود ذات الإصفرار الحريري تفوح برائحة الشاي الذي

تحتسيه أمها، وتلك القرمزية الداكنة التي يسميها الآخرون (الورود السود) فتطيل تارا تأملها وهي تضيق عينيها وتفتحهما متسائلة مستغربة لماذا لا تستطيع رؤية اللون الأسود فيها؟ ولا ترى سوى اللون القرمزي المخملي الصارخ في التويجات الشمعية.. لماذا لا يسعهم امتلاك مثل هذه الزهور؟ ولكن في هذا الوقت الباكر من الصباح، بوسع هذه الزهور القرمزية والوردية الباهتة أيضاً أن تعبق بشذى حلو ندي.

ولا بد أن تلك الأزاهير كانت تمنح المسرة لأمها، لكن تارا كانت تواصل صياحها:

- أنظري.. أنظري يا ماما.

كان يبدو أن الأم لم تلحظ شيئاً، فهي مستغرقة في عوالم أخرى، لعلها لم تكن مرئية بالنسبة لتارا، شأنها شأن اللون الأسود في الورود القرمزية.

ولم تكن الأم تمارس التمارين الرياضية، بل كانت تجلس كعادتها إلى منضدة لعب الورق لتلعب أو ترقد ساكنة في سريرها تماماً بوجهها المعذب المتجه إلى الأعلى في هيئة تنذر بشيء ما، ولم تكن تارا لتجرؤ قط على الوصول إليها فقد كانت تحافظ على مسافة معينة بينهما حتى خلال سيرها في نزهاتها إذ تسير الأم الهوينا في شيء من الاستسلام وهي تطوي ذراعيها على صدرها وذقنها غائر في عنقها كأنها تتأمل يداً تلعب الورق، وتارا تتقافز وتتراقص في رداء نومها وقدماها الحافيتان تتركان آثارهما على العشب الندي.

وتوقفت فجأة وصاحت: كانت قد اكتشفت شيئاً ما تحت شجيرات الورد، التماع بياض لؤلؤي، لعلها جوهرة أو خاتم ما،

وتارا تتوقع العثور على كنز ويروق لها أن تكشف طالعها لتجد نفسها أميرة.

توقفت وانحنت لتزيح الأوراق التي اختفت تحتها الالتماعة ورأت الدوران الحلزوني الشاحب للبزاقة البليدة، ولبثت برهة وهي راكعة على ركبتيها مصدومة بخيبتها، ثم لفت البزاقة في ورقة فأحست بالبهجة الغامرة وهي تتأمل المخلوق الصغير يبرز من قوقعته حتى لكأنها اكتشفت منجماً للمعادن النادرة.

وخرج الحلزون من القوقعة، وحرك لوامِسَهُ وانزلق متقدماً على سيل من مادة لزجة.

ـ أنظري، ماما لقد عثرت على هذا!

كانت تزعق وتندفع ركضاً فتنزلق البزاقة عن ورقة الشجر، وعندما التفتت الأم نحوها لتستطلع جلية الأمر، ألفت تارا تتفرس بالورقة الدبقة ثم تبحث عن المخلوق المفقود في الوحل.

سارت الأم وقد أثار المشهد اشمئزازها، مهمومة ضجرة، لم تكن هي التي اختارت التنزه هنا إنما كانت تمتثل لأوامر طبيبها الذي قال لها:

ـ إن التنزه والمشي فائدة جمّه لمثلكِ، فالمرأة إذا واتاها الحمل في سن متقدمة ـ نعم إنها مسنة والخصلات الرمادية تتزايد منتشرة في شعرها وفوق سالفيها ـ إذا كانت المرأة الحامل متقدمة في العمر وقد اشتد عليها داء السكري فينبغي لها أن تكون حذرة وتعتني بصحتها ويجب عليها أن تمارس رياضة المشي.

ها هي تسير متجهمة الوجه وقد داهمتها ضجة طيور (المينا) فوق أشجار التوت وأفزعها صراخ تارا المفاجىء لفرط فرحها

واكتشافها الذي أردفته بعويل شكايتها وقد أحبطت وخابت آمالها في الشيء الذي عثرت عليه.

وتارا التي كانت طفلة العائلة المدللة الصغيرة لم تكن تدري أن أيام هنائها معدودة وأنها سوف تفقد كل امتيازاتها وتَّنحى جانباً، ويجري تجاهلها حالما يعلن الصغير الآخر عن قدومه إلى حياتهم، هكذا الحياة:

عثور على بزاقة، وفقدان لؤلؤة، وهكذا هي الحياة دوماً.

كان المولود الجديد أكثر جمالاً من إخوته بشهادة الجميع الذين حضروا لمشاهدته وهو في مهده، بلونه الوردي الرقيق وهدوئه السماوي الملائكي، أما تارا! فقد طلبوا إليها أن تظل في منأىً عنه، ولكنها أخذت تقترب من مهده ثم تعلقت بحافته فاتسعت عيناها وتسارعت أنفاسها وهي أمام معجزة هذا الشيء الصغير، الحي، المكتمل، المفعم بالحياة.

وجدته مناسباً لأن يكون دمية على شكل طفل، يُحمل بين الذراعين أو يوضع على الركبتين، مدثراً بقماطهِ مستغرقاً في هدوئه حتى لكأنه يرغب في الظهور أكثر مما تفعل البزاقة إذ تطل من قوقعتها.

لم يلحظ أحد كم كان هذا الطفل بطيئاً في تعلم مهارات الأطفال في مثل عمره كالتقلب والجلوس والابتسام تعبيراً عن الاستجابة لما حوله أو النطق أو الوقوف والمشي.

وكان واضحاً أن تلك الأفعال تتطلب منه زمناً طويلاً ليتعلمها ويتقنها.

واكتشفوا أن الطفل لم يكن يرغب في التحرك والوصول إلى

شيء أو الإمساك بشيء.

وتبين أن سبب حالته مردّه إلى والديه المسنّين الذين أنجباه فجاء طفلاً يفتقر إلى الحيوية، أو لربما استنفد الأطفال الذين سبقوه كل الحيوية التي تورث ولم يتبق منها شيء لهذا المولود الجديد الذي ولد أخيراً.

كان يرقد على ظهره محملقاً في الضياء المتماوج على السقف أو يجلس في حضن أحدهم مستنداً إليه وهو يتفرس بالنمل الزاحف بالقرب منه، من دون أن يمد إليه اصبعاً من أصابعه.

ولم يطل الوقت بالأم حتى بدأت تحس بالتعب والإعياء وتعاني من حمله وتقديم الأطعمة الممزوجة بالحليب إليه بالملعقة الفضية.

وضجرت من تحميمه ونثر المساحيق على جسده الرقيق.

وطفح بها الكيل وأخذت تتشكى وهي تتحدث عن مربية، كانت لديهم مربية تارا، هذه المربية التي عملت في السابق ممرضة فهي تعمل على مدى اثنتي عشرة ساعة يومياً، وقد تصل إلى ست عشرة أو ثماني عشرة ساعة ولا أكثر من ذلك، فليس بمقدورها أن تبقى يقظة طوال أربع وعشرين ساعة. حاولت الأم أن تدربها على ذلك، لكن الأمر كان مستحيلاً، وكانت المربية (إمرأة غبية) لا تريد أن تتعلم فهي تستسلم للنوم والطفل بين ذراعيها، ولم تكن الأم تعلم كم من المرات تدحرج الطفل من حجرها إلى الأرض لأنه ما كان يصرخ أو يتشكى إلا بصوت ضعيف واهن، لا يسبب أي قلق أو إزعاج لأمه التي تلعب الورق مع صاحباتها في غرفة الاستقبال، ولولا أن المربية تحدثت إليها وأنبأتها أن هذا أوان تعلم الطفل للجلوس والوقوف والنطق، وأنها ما عادت قادرة على

تحمل الأعباء كاملة بمفردها، فالطفل قد كبر وغدا جسمه ضخماً ثقيلاً.. وعند ذاك أرسلوا في طلب الخالة ميرا، ولم تكن الخالة ميرا خالة حقيقية، بل ابنة خالة للأم، معدمة، ترملت في الخامسة عشرة، ولبثت تعيش مع أسرة زوجها منذ ترملها وهي تمارس دور الخادمة التي تقع على عاتقها كل أعباء البيت، وبمرور السنوات كانت الخالة ميرا تزداد هزالاً وقبحاً وشيخوخة، مع وجود عدد من «الكنات» أفتى منها وأقوى وأكثر قدرة، ولم يطل بها الوقت حتى زهدوا فيها، وعندما كتبت الأم إليها طالبة منها الحضور والبقاء معهم سمحوا لها بمغادرة البيت والتوجه إلى هنا.

وكانوا يقولون: الحمد لله، لقد تخلصنا منها، فالخالة ميرا امرأة عليلة، وقد شاخت وغدت خرفة، وجفَّ عودها وما عادت ذات نفع لنا، أما في البيت الآخر فإنهم سيجدونها مفيدة إلى حد ما، وهكذا ألقوا بها مثل متاع رث خلقٍ ليتلقفها آخرون فيستغلونها.

قالت الأم: لقد وصلت الخالة لترعى شؤونكم أيها الأولاد، أصبحت متطلباتكم تثقل كاهلي، وأنتم أشقياء مشاكسون، وسوف تعنى بتهذيبكم وتعتني بأخيكم الصغير، لا أدري ماذا أصابه، كان عليه الآن أن يتعلم المشي ويقوم بكل ما يحتاجه، سوف ينام معها في غرفتها لتهتم بأمره وعليكم أن تتعلموا كيف تحافظون على الهدوء والانضباط.

أفضى قولها إلى توقع بعض وسائل التهذيب القاسية، نوع من الإعداد الأنثوي الشائع حيث تستخدم أدوات العقاب للتأديب.

اختبأوا وراء أعمدة الشرفة مختلسين النظرات إليها عند وصولها.

وإذ ظهرت أحسوا بالخلاص والخيبة في الوقت نفسه، كانت قريبتهم الفقيرة، أدركوا ذلك من الطريقة التي سلمت بها أمهم عليها والطريقة التي ردت بها تحية الوالدة: متهيبة مرتعشة وهي تبالغ بإظهار امتنانها ولم تزد أمتعتها عن بضع أشياء ضئيلة، لفة فراش وصندوق من الصفيح شأنها شأن أي خادمة.

أما الآن، وعندما أخذوها لترى غرفتها: (يا أولاد دعوا الخالة ميرا ماسي تشاهد غرفتها)

فتحت الخالة صندوق الصفيح ذا الطلاء الأخضر فاكتشفوا أنه محشو بالهدايا التي جلبتها لهم، وإذ ذاك أحاطوا بها يمصون أصابعهم أو يهرشون أعناقهم. أخرجت الأشياء التي صنعتها لأجلهم منذ وصول دعوة أمهم لها. كانت أمامهم قبعات ورقية مزينة بريش ببغاء، لصقت عليها بطاقات زفاف وأعياد ميلاد قدمتها لبيم، أسود وزرافات من الأعواد والقش لراجا، وشرعت تخرج المزيد من الأشياء من ذلك الصندوق البالي، فاقتربوا منها وركعوا إلى جانبها وجلسوا القرفصاء جوار الصندوق وسرعان ما ألفوا هيئتها الشبيهة بفزاعة الحقل، هذه الهيئة التي أثارت فيهم الاشمئزاز والشعور بالأمان في الوقت نفسه عندما رأوها لأول وهلة، وازدادوا تقبلاً وألفة مع تلك الأسنان البارزة وعظام ترقوتها الناتئة من تحت ملابسها على نحو كريه غير مألوف، وجديلة الشعر الهزيلة المسحوبة فوق جلدة الرأس الشاحبة كأنها لطخات قذرة، كما ألفوا العينين حسيرتي البصر، اللتين يبدو أنهما لا تكفان عن الرمش والانتفاض على نحو عصبي، وكانوا قد افتتنوا بها، فلم يسبق أن صنع لهم أحد مثل هذه الأشياء فلا يملك أحد الوقت لمثل تلك الأمور.

ـ أنا ذاهبة الآن إلى النادي.

هذا ما كانت تقوله الأم بحدة وانفعال إذ يحاول أبناؤها الاقتراب منها. وكانت المربية ترفع يديها من حوض الغسيل وهما تقطران ماءً مهددة اياهم وهي تصرخ بصوت عالٍ:

ـ إذا أزعجتموني فسوف أجلدكم بالسوط.

ومنذ ذلك الحين لم يفكر أحد بالاقتراب من أحد والوصول إليه وكأنهم مثل أبيهم لا يمكن الوصول إليهم.

أما الآن وقد صارت لديهم خالة، سلمت إليهم مثل أداة منزلية مستعملة نبذها الآخرون وما عليهم سوى البحث عن فائدة لها وجدوى لوجودها.

تبادلوا نظرات فهم عميقة في ما بينهم، فقد أدركوا مدى سطوتهم على الخالة، إنَهم (اشتروها) أو (شحذوها) من أجل أن تحمل أعباءهم وترعاهم وما كانوا، حتى بلوغهم هذا العمر، يشعرون بشيء من التفوق الاجتماعي أو يهمهم إسباغ الفضل من موقع القوة الرفيع، ولربما وعت الخالة ميرا كل ذلك، غير أن الأمر على ما يبدو لم يكن ليعني لها شيئاً.

قالت: رأيت ثمار (مانغو) خضرٍ على تلك الأشجار في الخارج، هل بإمكانكم إعداد (شربت) المانغو؟

هزوا رؤوسهم صامتين، وتساءلوا عما إذا كانت الخالة قد أمرت بتعليمهم الطهو..

ولكنها قالت بصوت جذلان وهي تغص بريقها المتحلب:

ـ سوف أعد لكم (الشربت) إذا أحضرتم لي سلة ملأى بالثمار من حديقتكم.

واندفعوا هادرين ضاجين كما لو أنهم يقيمون احتفالاً بدائياً عاصفاً بمناسبة حلول هذا الموسم الجديد في حياتهم، موسم الهدايا والمانغو الأخضر والرفقة.

اتجهت صوب المطبخ وتبعها الجميع راقصين من حولها ليتفرجوا عليها وهي تقطع الثمار إلى شرائح ثم إلى قطع صغيرة لتعصرها وتدعهم يتذوقون رشفاتٍ صغيرة بالملعقة.

راقبت الطباخة الوضع ببرود على مدى برهة، ثم ألقت بالمغرفة جانباً بشيء من الاستياء وبدأت بمساعدة الخالة ميرا.

وعندما غادروا المطبخ أمسكت تارا بركبتي الخالة ميرا من دون أن تهتم بالروائح التي قد تسبب لها الغثيان، روائح البصل والشحوم التي تفوح من ساريها الرث.

ـ هل حضرت لتعتني بنا جميعاً، أم لتكوني مربية لأخي (بابا) وحسب؟

اعترفت لها الخالة ميرا: جئت لأرعى الصغير (بابا) ولكن أردت أيضاً أن اشارككم اللعب.

لم يكن في عبارة الخالة أي ظل من النفاق أو المداهنة. فقد خيل لتارا أن عينيها سريعتي الحركة، الرامشتين أبداً، وأصابعها المرتعشة، تبحث كلها عن أصدقاء، وأنها تحس بالسعادة إذ تكون موجودة بينهم. وانبثق الأمل والثقة داخل نفسها تواً أشبه بالعشب الندي.

واحتضنت تارا الركبتين الواهنتين وقالت:

ـ سوف ألعب معك.

لم يكن أحد ليتقدم ويلعب مع بابا أو يحاول مداعبته فقد

اعتبره الجميع متخلفاً لا أمل يُرجى منه، ولكن الخالة ميرا كانت تلاعبه وتُعنى به من دون الجميع.

ومن أجل أن تبدأ خطتها للعناية به، كفت عن تقديم تلك الأحسية الحليبية التي كانت تقدم له بملعقة من فضة، وأخذت تقطع له قطعاً صغيرة من الخبز ليلتقطها بيديه وليقوم بوضعها في فمه بدلاً من تلك الأغذية السائلة.

وقف كل من تارا وبيم وراجا يراقبونه، هم الذين لم يسبق لهم أن رأوه يقدم عرضاً لهذه المهارة، وقفوا مذهولين يملأهم الحبور وهم يشجعونه على التقاط قطع الخبز.

ثم علمته الخالة ميرا كيف يدخل أزرار ثيابه في فتحاتها المناسبة، فاعترتهم الدهشة البالغة وهم يرون ذلك، وبعد محاولات عدة نجح (بابا) في إدخال الزر في الثقب فهب واقفاً على قدميه لينعم بسيل التهاني أشبه ببطة تحت وابل من المطر.

أما الزوار فبالكاد صدقوا أعينهم وهم يرونه جالساً في الشرفة يلعب بالكريات الزجاجية مع الخالة ميرا وكيف تمسك أصابعه بالكريات وتحيط بها ويتلاعب بها ببراعة ثم يدحرجها لإعادتها إلى الخالة ميرا. إنها حقاً لمعجزة فبابا يدير رأسه بشيء من التردد والفزع، في وجهه إشراقة واهنة، ثم يلقي بالكريات بزهو خجول.

كانت الخالة ميرا تجلسه خلال الأمسيات الشتائية على فراشها، وتطوي حوله لحافها ذا الألوان الصارخة، وتلاعبه لعبة (الباغاتيل) الشبيهة بلعبة البليارد على منضدة راجا القديمة بصفوف كرياتها الرصاصية الثقيلة والعصا الصغيرة التي تدفع بها الكريات لتتدحرج على امتداد المنحدر ثم تتفرق لتدور حول المنضدة ما بين الحاجز ذي المسامير والفجوات، أو تسقط كما كان يحدث غالباً مع الخالة ميرا،

فتعود الكرات إلى قاع المنضدة، من دون أن تسجل تفوقاً أو علامة واحدة.

وعندما يبلغ الأمر هذا الحد يقومان بجمع الكرات وإعادة دحرجتها في المنحدر بادئين جولة أخرى من اللعب، أما تارا وبيم فتنشغلان بتسجيل علامات الفوز، ثم يمسكن بركبهن فرحاً عند فوز (بابا).

باءت كل جهودهم في دفعه للنطق بالفشل، فلم يشأ أن يتلفظ سوى بكلمة واحدة كل مرة إذا أرغموه على ذلك، ولكنه كان يبدو أسعد حالاً إذا لم يُرغم على النطق وإعادة العبارة كلها. وعندما تعلم أفراد العائلة التسابق لتلبية رغباته القليلة المحدودة والاستجابة لها، كفوا بالتدريج عن ملاحظة صمته فقد بدت طريقته الخاصة بالتواصل والتفاهم وافية ومشبعة بالنسبة لهم فلم يكن بحاجة إلى التحدث أكثر مما تفعل قطة الخالة ميرا.

لم يكن (بابا) هو الوحيد الذي يعدو في إثر الخالة ميرا إنما كانت الحيوانات أيضاً تلاحقها وهي تسرع منهمكة بأعباء المنزل.

فذات يوم بدأت قطيطة صغيرة تموء مواءً متواصلاً يائساً أسفل الشرفة، وسرعان ما أعدت لها طبقاً طافحاً بالحليب، وخلسة، بدأت الخالة ترقب باب غرفة الأبوين مخافة أن يظهرا بغتة فيقبضان عليهما هي والقطيطة، على أن القطيطة لم تكن تحفل بمثل تلك المخافة فكانت تنسل صاعدة السلم حتى طاب لها ذلك وتدور في أرجاء الشرفة وهي تحرك ذنبها أو تجري وراء نحلة.

وسرعان ما تعلمت التدثر بلحاف الخالة ميرا عندما كبرت وأخذت ترمقهمْ بشيء من السطوة بعينيها الصفراوين اللتين تنمان عن غموض يفوق ما لدى الخالة ميرا.

استجمعت الخالة ميرا شجاعتها ذات يوم للتحدث في أمر طالما كان مصدر قلق وإزعاج لها، فتسللت إلى غرفة الأم وبينت لها أنها كثيراً ما لاحظت بائع الحليب يضيف الماء إلى صفيحة الحليب من صنبور الحديقة قبل أن يتوجه بها إلى المطبخ ليغرف لهم الحليب المغشوش بالماء في الوعاء الذي تحمله طباختهم (إنه حليب يميل إلى الزرقة أكثر من كونه حليباً أبيض) كان صوت الخالة ميرا يتقطع مثل شيء ممزق بفعل استيائها من بائع الحليب: (ثم أن الحليب خالٍ من أي دسم وكأن الأطفال يشربون الماء، إنهم لا يحصلون على حاجتهم من التغذية، وليس بوسعي السكوت على الأمر أكثر).

(وإذاً، ماذا تقترحين؟)

سألتها الأم بشيء من الغضب كما لو أنها تعتزم وضع حد لهذه الحكاية الكريهة ونهضت من فراشها محدثة خشخشة بأقراطها.

قالت الخالة ميرا بانفعال:

- سيكون من الأفضل الحصول على بقرة؟

قفز الأطفال الواقفون لدى الباب في دهشة وفرح مبهورين أمام جرأة خيالها وشطحاته التي لم يتوقعوها.

«وسوف يقوم البستاني برعايتها، ويأتي بها كل صباح إلى الباب وأراقب حلبها بنفسي، فنحصل على حليب خالص للصغار».

تفرست بها الأم كما لو كانت مصابة بمسٍ من الجنون.

- بقرة؟.. بقرة، للحصول على الحليب؟

كانت تهز رأسها في استغراب ودهشة، إلا أن المربية كانت

قد وصلت هذه اللحظة لتقدم تأييدها للخالة ميرا بصوت مرتفع ثم لحقت بها الطباخة، وأثبت الجميع أن بائع الحليب كان محتالاً وقد غشهم كلهم ولم يقرر الجميع اتخاذ أي موقف تجاهه، وأذعنت الأم مستسلمة أمام ثورة بهذا الحجم وجيء بالبقرة يقودها البستاني بحبل لكي تجري معاينتها، فنالت الإعجاب والرضا مثل عروس جديدة، وإن كانت تصطحب معها عجلها الصغير.

كان بها ثمة شبه كبير بالعروس في بياض وجهها وعينيها الهادئتين الصافيتين وبعض من تعبير يفصح عن امتعاض في وجهها.

داعب الصغار أذنيها الورديتين الكامدتين اللتين يتخللهما الضوء فتشعان بلون محارة وردية في الشمس.

وضعت تارا وجهها على طيات رقبتها الدافئة حليبية البياض، فاستروحت فيها حلاوة شذى القش اليابس وأنفاس الاجترار.

خصصوا لها مكاناً في المخزن وجرى إكرامها والاحتفاء بها على مدى أسبوع، شأنها شأن عروس جديدة فكانت تطعم الأعشاب الغضة الطازجة والعساليج والبراعم الطرية، وأثار حليبها الإعجاب والدهشة، يا للرغوة الزبدية التي تعلوه وهو في الوعاء، وأي قشدة كثيفة ترتفع على سطحه..

كانت البقرة تقف في الحديقة تحت شجرة (الجكرندا) وقد انهمر عليها وابل من أزهار الليلك لكأنها في حفل زفافها.

إنه الربيع، وقد عم الدفء لياليه، فترك البستاني البقرة خارج المخزن بدلاً من إيوائها في الحظيرة، كما كان يفعل في الليالي الماضية، وفي حلكة الليل ـ والجميع نيام ـ قطعت البقرة الحبل الذي عُلقت به وأخذت تتجول هائمة على وجهها في أرجاء

الحديقة كأنها شبح أبيض إذ لم يكن يُسمع أي هسيس لوقع أظلافها فوق العشب. ومضت متلمسة طريقها خلال سياج نباتات «الكرفندا» وراء البيت فإذا بها تهوي إلى البئر متخبطة وسط تلاطم مياهه في ضجة لم يتسن لأحد سماعها.

فاتسعت البئر منذئذٍ لاحتواء الموت كما اتسعت طويلاً للماء والضفادع والطفاوات التي لم تكن تسبب ضرراً أو تلوثاً لمائها.

وظلت شناعة ورعب الموت غرقاً في المساحة الواقعة وراء البيت بجانب سياج الكرفندا أشبه بقصة للجنون، أو أقرب ما تكون لفضيحة عائلية أو مرض وراثي يتحين ليعاود الظهور من جديد، كان وصمة، وصمة عار سوداء مشينة. واحتدم غضب الوالدين إزاء هذه الخسارة الفاجعة، وأحس البستاني بالذنب فما عاد يُرى إلا عابساً متجهم الوجه، أما الأولاد فقد صدموا بالواقعة التي روعتهم وأرهبتهم أضعاف ما فعلت بالآخرين، وازداد العجل هزالاً ووهناً وما لبث أن فارق الحياة.

وحرمت الحادثة الخالة ميرا من النوم، فكانت ترى البقرة البيضاء تموت كل ليلة في البئر السوداء.

كانت الخالة ميرا أصغر عمراً من أمهم لكنها برغم ذلك تبدو أسن منها، فقد تزوجت في سن الثانية عشرة وترملت وهي لا تزال فتاة عذراء.

عندما غادر زوجها الطالب الشاب للدراسة إلى إنكلترا بعد الزفاف مباشرة، تعرض ذات ليلة شتوية إلى الإصابة بالبرد أثر تعرضه للمطر فمات.

وأرغمت ميرا على العيش ضمن عائلة زوجها الذين ما انفكوا يلومونها ويعاملونها بمشاعر الحقد والضغينة والغِل معلنين أن موت

الفتى كان بسبب النحس وسوء طالع العروس الذي جلبته له بزواجها منه.

وترتبّ عليها أن تسدد ثمن خطيئتها التي رموها بها فكان عليها أن تقوم بكل الأعمال الشاقة من غسل وتنظيف وطهو لأفراد العائلة الكبيرة، مدفوعة بشعور طاغٍ بالذنب إزاءهم، ففي الليل تقوم بتدليك ساقي والدة زوجها وترعى الصغار الأرِقين وتخيط وتدرز جهاز كل عروس من أخوات زوجها، فكان لا بد أن تشيخ قبل أوانها ولم يبيض شعرها وحسب بل غدت أقرب إلى الصلع، وإذ نجت بفعل ذبولها واقترابها من الشيخوخة المبكرة من استغلال أخوة زوجها الذين كانوا سيرغمون أرملة أخيهم على الانصياع لرغباتهم ـ الأمر الذي كانت ترفضه ـ ولأنها لم تكن تصلح لهذا فقد اعتبروها شخصاً نكداً كئيباً، وأخذوا يسخرون منها ويطلقون التعابير الهازئة على مسمع منها، ولبثت فترة طويلة محط ضحكهم وهزئهم حتى سئموا منها. ولما طالت إقامتها بينهم وأضجرتهم اعتبرت عالة على الأسرة، عندئذٍ آن أوان مغادرتها لهم إلى بيت سوف يجد فيها بعض فائدة لأهله شأنها شأن إناء محطم، أو سجادةٍ رثة، أو عظم معروق جُردّ من لحمه.

تساءل الأطفال في هذا البيت عن سبب ارتدائها الدائم للثياب البيض فأوضحت لهم أمهم إن اللون الأبيض هو لون ثياب حداد الأرامل.

قال راجا: هي ما عادت أرملة لأنها تعيش الآن بيننا، وتساءلت البنتان عما إذا كانت الخالة لا تمتلك أياً من ثياب العرس والحلي الجميلة من بقايا جهازها؟

فقالت جاهدة بأن لا تظهر استياءها: إنها كانت تمتلك بعضاً

من أشياء جهازها ولكنها قدمته لشقيقات زوجها عندما تزوجن، وأضافت بأسف:

ـ لكي يرفعوا من قيمة مهورهن.

وكانت الخالة ميرا ترجو أن تحتفظ ببعض طُرف جهازها لابنتي قريبتها، لتارا وبيم.

شعرت الفتاتان بالحسرة أثر تصريحها وأخذتا تفتشان في الصندوق الصفيحي الأخضر مرة أخرى لعلهما تحظيان ببعض ما تبقى من جهاز عرسها أو من حياتها الزوجية التي لم تتحقق قط.

ثم لم يطل بهما الوقت حتى عثرتا على شيء من تلك البقايا، سارياً من حرير (بنارس) الأبيض مزين بخطوط قرمزية وحواف مذهبة، بدا أمر ارتدائها له شيئاً مستحيلاً، فقد كان محرّماً عليها، وسمحوا لها بأخذه كونه أبيض إذ عدّوه حدادِها. شابت بياضه الصفرة وتلون بلون العاج القديم فبدا بخطوطه القرمزية وحوافه المذهبة غير مناسب لها. كان الساري ملفوفاً في المنديل بطريقة أنيقة وموضوعاً في الصندوق مثل أثر مقدس نفيس. وجربت البنتان إقناعها بارتدائهِ عندما كانت تصطحبها صديقات لها من المتصوفات إلى اجتماع ديني، أو حفل شاي، أو لزيارة صديقة لهن، لكنها كانت تهز رأسها بحركة عصبية رافضة وقد اعتراها فزع شنيع.

دفنت الصبيتان وجهيهما في حريره وهما تتشممان فيه عبيره المسكي العتيق الذي آثرتاه على العطور الفرنسية التي تستعملها والدتهما، فقد بدا العطر العتيق إنسانياً إلى حد بعيد فهو بعد كل شيء يحتوي ماضي الخالة ميرا، المستقبل المحتمل نوعاً من مستقبل غائم، مراوغ، غامض، كأنه المسك ذاته.

لكن الخالة ميرا لم تشأ أن تمد يدها لتلمسه، وعندما ازدادت

الفتاتان إلحاحاً عليها قالت وهي تضحك:

- حسن، عندما أموت سيتوجب عليكما أن تلبساني هذا الساري من أجل الجنازة والقداس في المحرقة، ثم ما لبثت أن اعتراها شعور بالأسى وندمت أشد الندم وهي ترى أثر حديثها الصادم عن الموت يكتسح محيا البنتين.

لم تكن الخالة ميرا (منبوذة) بالرغم من ترملها، فقد كان يسعى إليها أولئك الذين يستهويهم البؤس والشقاء بقدر ما يبدو منفراً ومقززاً لسواهم. وإذ كانت الخالة ميرا بمثابة (عبدة) نافعة، فقد رأت أن تنضم إلى جماعة تقوم بتحضير الأرواح لعلها تكون نافعة أيضاً.

وشغلتهم الفكرة وأخذت تحفر في أعماق هذه العائلة المريبة، أشبه بنقار خشب مثابر. لقد اكتشفوا هذه النزعة لديها فاقتادوها إلى محفل للصوفيين المولعين بتحضير الأرواح لحضور الجلسات والمحاضرات وحفلات الشاي.

وصدمت الخالة ميرا وتزعزعت إزاء تلك القدرات المدهشة وتلك الأجواء الهائجة التي شهدتها هناك مع الزوابع والانهيارات والرؤى والأشباح التي كانت تجتاح المكان، وإذ شرعت بالارتجاف وأصابها الهياج العصبي والرعشة، رفضت أسرة الرجل الميت الأمر واستنكرته وأبعدته عنهم فعادت إليها الرعشة من جديد، أحقاً؟

أبوسعها الآن؟..

واستحثها راجا وبيم على المتابعة واثاراها وهما يقهقهان وكما لو أن خزانة ملأى بالأشباح والأرواح قد فتحت فاعترتهما القشعريرة وهما في حالة من التوقع المرح، استغرقوا في توقع

وصول الأرواح عبر الهواء، وانتظار أن ترتفع المناضد ثلاثية القوائم، وتحلق حتى السقف وسوف تبلغهم الأرواح برسائل غريبة. إنما كانت الخالة ميرا قد وهنت، تماماً، وتعبت، وسوف تتخلف عن حضور الجلسات، كانت في خوف شديد منهم، وما لبثت أن عثرت على أعذار ومبررات لعدم ذهابها، فكان أن أرسلوا لها كتباً ولم يكن لديها إلا متسع قليل من الوقت للقراءة.

وعلى الرغم من ذلك يبدو أنها قد استوعبت بعضاً مما حوته تلك الصفحات التي لم تُفضّ والأغلفة التي لم تفتح فصارت أشد غموضاً وانذهالاً.

قال راجا: ايكتوبلازميك (حالة هيولية)[١] لم تجد تارا شيئاً من ذلك في الخالة ميرا، فهي صلبة متماسكة مثل السرير، تفوح منها رائحة الطهو وكأنها مصنوعة من نسيج يدوي، كان بوسع تارا أن تدثر نفسها بها مثلما تتدثر بشال ناعم عتيق، وهذا ما هي بحاجة إليه بعد أن فقدت الكثير بولادة (بابا) والانعطاف الذي حصل داخل الأسرة والتحول فيها نحو المولود الجديد.

كانت تارا تلتف في ثنيات وطيات ساري الخالة ميرا القطني الأبيض أو في شالها الرمادي المنسول أو في التموجات المنتفخة في لحافها ذي الألوان البراقة في الشتاء.

ها هي تعود الآن طفلة صغيرة تتنفس رائحة الخالة وتجد فيها راحة عميقة وعفنة، أما في ليالي الصيف فإن تارا ترقد على فرشة

---

(١) ايكتوبلازميك (Ectoplasmic) مادة يعتقد البعض إنها تحيط بالأجساد الحية والميتة فتصبح هالة من ضياء يمكن التقاطها بالآت التصوير مادة الهيولي اللازمة للحصول على تجسيد للأرواح. (المترجمة)

عتيقة ملاصقة لسرير الخالة المصنوع من الحبال والأسلاك، فوق حشائش المرج في العراء وتحت النجوم. وفي تلك الأوقات كان يحلو للخالة ميرا أن تروي لهم الحكايا.

(كان يا مكان في سالف العصور والأوان، كان هناك ملك وملكة، قالت الملكة لببغائها الأليف اذهب إلى الملك وأبلغه بأنني أريد الياقوتة الحمراء التي يحتفظ بها الملك الكوبرا تحت جفنيه) فتتلوى تارا لفرط استمتاعها، هي التي تؤمن بالمجوهرات وتتحمس لها.

وتواصل الخالة ميرا غمغمتها وهي تتابع فصول الحكاية، فتشكل القصة وتصوغها ببراعة ومهارة، شأنها شأن الماء الذي يتدفق فياضاً في مجراه المحتوم حتى تضيء مصابيح السيارة الأمامية دعائم البوابة الخارجية بفيض أخضر ذي وميض فوسفوري، ثم لا تلبث السيارة أن تدخل منسابة على طريقها داخل الحديقة حاملة الأبوين من النادي إلى البيت وسرعان ما ينام الجميع ويتمددون متيبسين أشبه بصف من الجثث، متظاهرين باستغراقهم في نوم عميق. وإذ يدخل الوالدان لتغيير ملابسهما ثم ليناما في شرفتهما الخصوصية، تهمس تارا بصوت ملحاح:

ـ وبعد، ماذا حدث يا ميرا ماسي؟.. وبعد؟ ويواصل الصوت رواية القصة بطبقة خفيضة النبرات:

«وقالت الكوبرا سوف أهبك ياقوتتي إذا أرسلت الملكة ابنتها الأميرة مرتدية ساري زفافها الذهبي وحاملة ببغاء الملكة على اصبعها».

وتسطع النجوم بوهج مضبب يعشى الأبصار وينفض الياسمين رشوشاً وأهداباً من شذاه الليلي حتى يقبل النوم من وراء الأسيجة

المظلمة ويستولي عليهم.

اتسمت صباحات الشتاء المشمسة بالروعة الكاملة نفسها، فنشرت الملاحف والأفرشة على أسّرة الحبال لتعريضها للهواء، فكانت تارا وبابا يتدحرجان فوقها حتى يتورد وجهاهما بفعل حرارة حشايا القطن ووهج الشمس، بينما كانت الخالة ميرا تجلس على كرسي الخيزران وأبر النسيج تتحرك بين يديها لتحيك لهم البلوزات المدرسية وتنهض بين آونة وأخرى لتدير الجرار الفخارية المصبوغة باللونين البني والأبيض والمليئة بالمخللات لكي تعرض جميع جوانبها للشمس وهي في أماكنها في الشرفة المشمسة.

وإذ تغفل النظر إلى جرار المخللات، يرفع الصغار أغطيتها ويتناولون قطعاً من المخلل بأصابعهم ثم يلتهمونها إلا أن مذاقها يدفعهم إلى العطاس وتسيل الدموع من عيونهم فتكتشف الخالة ميرا فعلتهم وتوبخهم بصوت خفيض خشية أن يبلغ مسامع والدتهم التي تكون حينئذٍ جالسة تلعب الورق مع صديقاتها في الشرفة بين أصص الإقحوان المزدحمة بزهورها الوردية والصفر والتي لها لون البرونز المذهب، تلك الزهور المشعثة مغضنة البتلات التي تفوح بشذى تابلي قوي.. بينما تتربص القطة بالفراشات التي ترفرف أزواجاً فوق أحواض الزهور المنظمة الملونة كأنها علب الصباغ وتسرع الخالة ميرا لتحول بينها وبين اصطياد الفراشات.

ظلت الخالة ميرا حتى ذلك الوقت، بسرعتها وعصبيتها وتوثبها، بالنسبة للأطفال راسخة كأنها سارية علم، أو شجرة من ذلك النوع الذي يتعذر اقتلاع جذوره أو تغيير موقعه في الليل، هي الشجرة التي نمت في مركز حياتهم فعاشوا تحت أفيائها الوارفة، ومن الغريب أن لا تكون هي والدتهم، وأن لا يكون لها

دور في إدارة المنزل، فقد أيقن الأطفال أنفسهم أنها لا تمتلك في واقع الأمر تلك الخصائص التي يتطلبها دور الأم والزوجة، وإذ ينظرون إليها، لا يسعهم إلقاء اللوم على ذلك الزوج الذي رحل إلى إنكلترا ومات هناك.

لم تكن الخالة ميرا راغبة في القيام بدور الزوجة، ولكن ما الذي يشكل أو يحدد وضع الزوجة؟..

لماذا؟.. لقد شعروا أن الزوجة هي تشبه والدتهم التي ترفع عينيها عندما ينهض والدهم من مائدة الطعام وتخفضهما عندما يجلس، وتمضي الساعات الطوال أمام منضدة الزينة مقابل المرآة وهي جالسة وسط القوارير والزجاجات التي تفوح بروائح عطرة، وتلك التي تغمر فيها أصابعها الباحثة ثم ترسم مقومات الزوجة وخصائصها:

رائحة عذبة سرعان ما تغدو رائحة زنخة، الزوجة التي تصدر الأوامر للخدم وتؤدب الصغار وتعاقبهم فتطاع مثل ملكة، أما الخالة ميرا فهي لا تمتلك أياً من هذه الخصائص والصفات.

تلف ساريها حول جسمها فتبدو شبيهة بعصا وتملأ عقدة شعرها الهزيل الباقي بملاقط الشعر المعدنية، وتتزين على عجل لتكون مستعدة للانطلاق بسرعة، وهي لا تصدر أوامر ولا تلقي مواعظ التهذيب ولا ريب في أنها لم تكن لتطاع قط. ما كانت الخالة ميرا معطرة أو حساسة، بل كانت امرأة هزيلة بارزة العظام مغضنة الجلد جافة أشبه بغصن أو شجرة عتيقة عليهم أن يقدموا الولاء لها.

كبر الأولاد بين أحضانها ونشأوا بُدناء قصاراً وأقوياء، يصل طول أحدهم إلى خصرها بينما يبلغ الآخرون منكبيها. تحس

بأذرعهم سمراء مفتولة بعضلاتها، دافئة مفعمة بقوة الحياة، كانوا يضجون حولها مشكلين حلقة، سياجاً حامياً يحيط بها، فالآن ليس بوسع أحد أن يبلغها أو يلمسها، وليس من خطرٍ يتهددها، أنهم يحكمون أذرعهم حولها، يصونونها من أجل أنفسهم، وقد امتلكوها، نعم، وهي تتوق إلى أن تكون مملوكة، فهي بدورها تمتلكهم جميعاً، وهم بحاجة إلى أن يمتلكهم أحد، فتبدو احتياجاتهم المتقابلة المتعارضة ممتزجة ببعضها ومتواشجة الجذور في أعماق التربة التي نموا فوقها.

تلمسهم، تلمس ثيابهم، ترفعهم، تجذبهم نحوها وتحس أن ينابيع حيواتهم قد تلاقت وفاضت على بعضها، ثم، ينتزعونهم منها فتتخلى عنهم برضا وطيب خاطر، فهي لا تستولي على ما لا يمنح لها. فهل كان الأمر مثبطاً لعزيمتها؟.. أم أنها كانت ستبدي قوة أكثر إذا ما تخلت عنهم ووقفت وحيدة مع نفسها؟.. كلا.. لم تكن هذا بأي حال أسلوبها أكثر مما كان أسلوب الطبيعة نفسها..

لقد أطعمتهم قُوتَها الخاص، وأنشأتهم بين جوانحها، وكانت سندهم الذي يلوذون به وهم يواصلون نموهم وتقدمهم.

وفجأة، طالت قاماتهم، وامتلأت أجسادهم بالقوة، فالتفوا حولها وطوقوها وغمروها بالأوراق والزهور. وضحكت لهذا الإسراف، ضحكت لجمال هذا البستان الصغير الذي كان بالنسبة لها غابة مكتملة ممنوحة لها، وعالماً بأكمله، فإذا ما سببوا لها الاختناق وإذا ما أمتصوا نسغها حتى يجف رحيق وجودها، فلسوف تذعن، وتستسلم، من دون أن تضحي برغباتها، ويبدو أن في تصرفها حفاظاً على العلاقة الطيبة بالطبيعة. ففي النهاية سوف

يتكدسون فوقها، يبلغونها، يصعدون فوقها مكونين برجاً شاهقاً نحو السماء، وسوف لا تكون غير حطبة عتيقة، كتلة من جذور جافة نموا فوقها، كانت في ما مضى شجرة، كانت تربة، كانت أرضاً.

إنها تلمسهم، وتراقبهم، وقد رأتهم أشبه بأوراق شجر، رأتهم زهوراً وثماراً للأرض، رأتهم أشياء خارقة الجمال، كانت تغمغم، وهي تتلمسهم، وتراقبهم. إنهم خارقو الجمال أقوياء، مفعمون بالحياة.

أصيب راجا وبيم بالتايفوئيد في أول صيف لها عندهم، وكانوا محظوظين إذ صادف وجودها لديهم فقد تكلفت بأمر العناية بهما وحدها، وهما في أشد حالات المرض، غائبين عن الوعي، يتجولان دونما قيود في عالم الحمى المتوهجة، ثم يعودان إلى حدود الصحو، سادرين في نوع من ذهول، غير معنيين قط بمن كانت ترفع رأسيهما وتضع الماء بالملعقة في فميهما بشق النفس أو تمرر أسفنجات باردة على جبينيهما فيتقطر الماء في عيونهما وينحدر نحو وجناتهما ثم يسيل على الوسائد.

كان الطبيب يعودهما من دون أن يمتلك وسيلة لعلاجهما، العناية والتمريض هما كل شيء في العلاج، هكذا كان يقول لهما، والتمريض هو ما تعهدت الخالة ميرا القيام به بكل ما في وسعها.

ظلت تارا تحوم لدى الباب وقد منعت من دخول الغرفة أو اللعب بهدوء في الشرفة، وبين آونة وأخرى تزيح الحاجز الخيزراني المسدل على باب غرفة المرضى وتسترق النظر إلى هناك، فتنتزع الخالة ميرا نفسها من حالة الإرهاق الشديد والقلق المهيمنين عليها وتخرج إليها لتلعب معها لعبة (مهد القطة) أو

تعطيها قصيدة لتحفظها عن ظهر قلب. أو تضفر لها حبلاً من أوراق الشجر لتربطه حول خصرها مثل راقصة، أما إذا تعذرت عليها مغادرة الغرفة التي يرقد فيها المريضان وهما سادران في بحران الحمى وهذياناتها، فكانت تلوح بحركة مرحة لتارا عند باب الغرفة وتشير نحو سنجاب فوق شجرة حتى صارت هذه الأفعال أسساً للعلاقة الخاصة القائمة بينهما، العلاقة الودية الحنون، المعبرة عن العواطف دونما حذر أو تحفظ، تطمئن كلاً منهما على الحب الذي تكنه لها الأخرى، بينما نمت العلاقة الأخرى بين الخالة ميرا والصبيين الكبيرين، صامته طبيعية، وقلما جرى البوح بها، وغالباً ما اتسمت بالسخرية لكنها حافظت على تماسكها كأنها جزء من عروقهم أو بعضاً من دمائهم.

وقد ظهرت الفوارق جلية بينهم عندما كانوا يلعبون لعبة الأسئلة الأثيرة لديهم.

ما الذي تريد أن تكون عندما تكبر؟

وكان راجا يعلن على الفور وبطريقة حاسمة مزهوة:

ـ سأكون بطلاً.

فتقول تارا: ليس بوسعك أن تصير بطلاً قد تصبح جندياً بطلاً، مكتشفاً شجاعاً، بطلاً في شيء ما، لكنه كان يصر على أنه ببساطة، سوف يكون بطلاً.

ثم تعلن بيم وعيناها تتلألآن أنها تود أن تكون بطلة، وإن كانت في سرها تفضل لو كانت غجرية أو لاعبة بهلوانية في سيرك.

وتجيل تارا بصرها بنوع من عدم الفهم بينهما، وتقول: أما أنا

فسأكون أماً وأحيك الثياب لأطفالي.

فلا يتمالك شقيقاها نفسيهما من الضحك مستخفين بها فتنفجر تارا بالبكاء وتهرع وتدس رأسها في حضن خالتها تشكو لها أنهما قد جعلاها إضحوكة لهما.

كانت الخالة ميرا تبتسم ابتسامة لا تكاد تبين، وهي تتعرف إلى طموحات بيم وراجا، وتظهر نحوهما تعاطفاً تاماً، لكنها رغم ذلك كانت تربت على رأس تارا مواسية وهي تقول لها:

ـ حسناً، لا تبالي، سترين أنك ستكبرين، وتحققين ما تريدينه لنفسك، ولكنني أشك كثيراً بأن تارا وراجا سيحققان ما يقولانه عن نفسيهما.

واسى هذا القول تارا مواساة كاملة، وتحولت لتكون أيضاً ما تريده.

كانت لديهم ألعاب أخرى يمارسونها في ظهيرات الصيف، يتمددون على حصران الخيزران فوق الأرض تحت مروحة كهربائية تدور ببطء شديد، ويرقبون السحالي والأبراص وهي تزحف على السقف مطاردة الذباب، ويجففون عرقهم المتفصد على وجوههم، يشعرون بأنهم متورمون محمومون بفعل اشتداد الحرارة.

ـ ما هو أشد الأشياء حرارة في اعتقادكم.

ـ نصهر الرصاص فوق الموقد ونأخذه خارجاً ثم نسكبه فوق حفرة في الطين.

قالت بيم ذلك لأنهم أجروا هذه التجربة في الصباح لذا كانت موقنة من إصابتها بضربة شمس.

قال راجا: خذي عدسة مكبرة وضعيها فوق ورقة في الشمس

وسترين أنها تحدث ثقباً محروقاً فيها.

قالت تارا على غير توقع: ريش دجاجة بيضاء ملقى فوق كومة رماد أمام بابا المطبخ.

ثم تمتمت بسرعة.. كلا.. لم أقصد ذلك.

إنها لم تفكر إلا بما كانت تحسه، وهي تهبط من سرير الخالة ميرا ثم تزحف تحته لتتفرج على القطيطات المولودات حديثاً وتتمدد قريباً من أجسادها اللاهثة التي تشبه ديدان العلق، الغبار تحت السرير، فراء القطة، ملبدٌ ورمادي وهلامي وقد جمدته الحرارة فليس سوى أنفاسها اللاهثة وألسنتها الوردية المدببة تتدلى من أفواهها المفتوحة، ذلك أكثر الأشياء التي عرفتها دفئاً.

- وما هو أبرد شيء يمكن الحصول عليه في الصيف؟

وتواصل اللعبة: رشفة طويلة من ماء جرة فخارية موضوعة في الشرفة.

- رش الحصيرة المدلاة على الباب بخرطوم الماء والتفرج على الماء وهو يتقطر منها واستنشاق رائحة الخوص الرطب.

- بطيخ محزز أحمر مفعم بالعصير.

ولأجل العثور على علاج ناجع لهذه الحرارة المريعة فقد كانوا يتسللون خارج البيت بالرغم من أنهم يلقون العقاب بضربة شمس على رؤوسهم.

كانوا يسمعون الحشائش تتهشم تحت ضوء الشمس، ويجيش الغبار متصاعداً في الهواء. ولا شيء سوى ذلك.. فقد أصاب الخرس كل شيء: أصاب الحمائم وطيور نقار الخشب.

كانوا يتسابقون فوق الأرض الحارقة راكضين باتجاه حنفية

الماء عند نهاية ممشى الورد وهي تقطر الماء بطريقة رتيبة فوق الطين المطحلب المحيط بها.

وشرعوا يرشون بعضهم بالماء، غير أن الماء كان فاتراً عديم الحياة.

كانت عائلة البستاني ترقد على سرير سلكي تحت أشجار التوت وأصغر أطفالها لا يكف لحظة عن الصراخ بسبب تهيج جلده واحساسه بالألم لانتشار الحصف عليه.

تجولوا في الحديقة بين صف طويل من غرف الخدم وراء أشجار الغوافة.

وهناك كانت مربية تارا جالسة أشبه بحقيبة أو أسمال رثة، تمضغ أوراق جوز (الفوفل) وتوقد النار في أعواد حطب يتصاعد منها الدخان لأجل إعداد الشاي.

دفعت الريح الدخان اللاذع نحو أعينهم فسالت دموعهم مما أثار ضحكات المربية التي قالت لهما:

ـ إذا لاحقكم الدخان كما حصل الآن فهذا يعني أنكم ستحظون بأزواج مخلصين. فأحدثوا صوتاً هازئاً معبرين عن إزدرائهم لما تقوله.

واقتحموا غرفتها التي عمّتها رائحة نار روث البقر وزيت الخردل وانكبوا يفتشون في حقائبها وسلالها المزحومة بمهملات ونفايات التقطتها من بيتهم خلال السنوات الماضية: شوكات طعام معوجة، مزق من الدانتيلا، صور فوتوغرافية صفراء مغضنة، علب صفيح فارغة، وقد غطيت الجدران التي علاها السناج الأسود بصور ملونة اقتطعت من الصحف المصورة. ولكن لم تغرهم

الغرفة بظلمتها ودخانها على البقاء، فاندفعوا مسرعين إلى الخارج وأخذوا يصفرون لببغاء ملطخ بالوحل، كانت المربية قد وضعته في قفص. أطعموه حبة أو حبتين من الفلفل وهو يحملق فيهم بعينين صغيرتين تطفحان بنظرات الرغبة والجشع.. ورفض أن يلمسه أحدهم فعادوا إلى البيت وألقوا بأنفسهم على حصران الخيزران المفروشة فوق الأرض من أجلهم وتشابكوا عليها كأنهم أوراق جفت. وتلاشت أجزاء نسيج أسمر يضمها إلى بعضها هيكل عظمي أبيض.

- ما هو أرعب شيء يمكن أن يخطر على البال؟

- العثور على حشرة أم أربعة وأربعين في حذائك وأنت تضع قدمك فيه.

- البئر التي غرقت فيها البقرة.

- إبرة لقاح الكوليرا.

قالت تارا أخيراً وأطلقت شهقة صغيرة أفضت بها إلى التفكير بشيء أكثر إثارة للرعب، من ذلك، شيء تتهيب النطق به.

واكتسحت وجهها امارات الخيبة والإحباط، وبدت مثل من يكتم سراً وهي تصارع تلك الذكرى التي جاشت في مخيلتها مثلما شبح ينبثق من فوق سطح مياه مظلمة، يبدو رمادياً لا يتميز لونه ثم لا يلبث أن يتضح وتتحدد معالمه ويقترب شيئاً فشيئاً حتى يغدو بالغ الضخامة كلما أمعنت في احساسها بالخوف منه.

ذات مرة تبعت والدها إلى غرفة أمها يوم كانت الأم لا تغادر سريرها أبداً، سارت بهدوء تام كأنها لا تعتزم إزعاجها، ولكي لا يلحظها والدها.

غير أن ما شاهدته جعلها تمتلئ رعباً وتتراجع نحو الستارة القرمزية المغبرة المسدلة فوق الباب لتختبئ بين طياتها وتتفرج على أمر لم تكن تتوق إليه أو تتمنى أن تراه.

رأت والدها وقد زمَّ شفتيه بإصرار شديد، وعيناه تسددان نظرات محددة من وراء عدستي نظارتيه وهو ينحني فوق السرير الذي رقدت عليه أمها ويغرز إبرة الحقنة في الذراع البدين المترهل الممدود هناك.

وحالما غاصت الإبرة منه ارتفع رأس الأم ثم سقط إلى الوراء وسكن على الوسادة ليعلو ذقنها المرتعش وتنطلق آهة صغيرة من بين شفتيها اليابستين كما لو أن الإبرة اخترقت كيساً هوائياً، وأن حياتها ذاتها قد تخلت عنها وسلبت منها.

وعند ذاك أدركت تارا أنها شهدت جريمة قتل، وأن والدها قد قام بقتل أمها، فخرجت مضطربة الخطى من الغرفة وسقطت مغشياً عليها فوق سجادة غرفة الاستقبال.

ما الخطب يا تارا؟

وزحفت تارا نحو فراش الخالة ميرا في الحديقة ورقدت متكورة ملتصقة بقدمي الخالة التي كانت تجلس القرفصاء وهي تروي لهم تلك القصة التي تبدأ بـ (كان يا مكان هناك ملك لديه ثلاثة أولاد..)

ـ متى سيعودان إلى البيت؟

تساءلت تارا هامسة وقد عذبتها حيرتها وقلقها.

ففي هذا المساء جاؤوا بالسيارة حتى درجات سلم الشرفة وخرجت والدتها من البيت واستقلت السيارة مع والدها الذي

أخذها إلى النادي كعادته وهي ترتدي ثوباً من الحرير الأخضر وعقداً من اللؤلؤ، وكانت واضحة الحيوية ولم يكونا قد عادا بعد، وأقلق مستطيل الضوء المتسلل من غرفة الطعام تارا وأبقاها يقظة كأنه طاغية يتحكم بسجين لديه، قالت خالتها تطمئنها: سيعودان حالاً.

وقالت بيم: يا للمسكينة (آبو) ستظل يقظه في انتظار أن تهيئ لهما العشاء. الوقت متأخر جداً، فلماذا لا يعودان لتناول العشاء؟

ـ عندما يلعب الناس الورق لا يلحظون مرور الوقت أبداً.

ـ ولماذا يلعبون الورق؟

بدا أنه ليس ثمة غير جواب واحد صريح يُقال، ولكن الخالة ميرا في هذه الليلة، ألمحت بشكل خفي إلى جواب مختلف، لأنها عرفت ما يعذب تارا ويحرمها من النوم ويشقيها في أرقها، فأوحت لها بما معناه:

ـ إن لعبة الورق تساعد أمك على نسيان آلامها، وجمدت تارا بغتة وفزع كل من راجا وبيم.

ـ أي آلام لديها؟

ـ صخبا وألحا بالسؤال لمعرفة حقيقة آلام أمهما.

ثم سمعت تارا الكلمة: داء السكر.

إذاً، هذا هو سر حضور الطبيب إلى البيت كثيراً ليقوم بزرقها بالأبر.

قالت الخالة: إنها الإبرة اليومية التي تضمن لها أن تبقى على قيد الحياة.

تساءلت تارا: على قيد الحياة؟

وتتابع المشهد المؤسي في ذهنها أشبه بشريط سينمائي يعرض الجهاز مشهداً واحداً منه يلفه بوحشية ويعيده على نحو مسعور. .

وناقش راجا وبيم الموضوع بشيء من النقد القاسي.

ـ إذا كانت مريضة إلى هذا الحد فينبغي لها أن تلزم فراشها، وعندئذٍ سوف تسترد عافيتها وليس لها أن تذهب إلى النادي.

وأوضحت الخالة ميرا: إنها تحاول أن تمارس حياتها الطبيعية من أجل والدكم.

إلا أن مثل تلك التعابير الجاهزة التي يتداولها الكبار لا يمكن أن تقنع طفلاً أبداً.

ولم يهدءا أو يقتنعا بل وأصلا طرح تساؤلاتهما:

ـ الأنسولين؟

إنهما يودان معرفة المزيد عن الأنسولين، والخالة لم تشف غليلهما أكثر من الإشارة إلى حاجة الأم اليومية إلى إبرة الأنسولين التي يحقنها بها الوالد.

صاحت تارا: أوه، أهذا هو سبب وجود العلامات الزرقاء في ذراعها؟

ثم أراحت رأسها على كتف الخالة ميرا وهي تحس براحة وامتنان، إذ أعطيت تفسيراً غطى المشهد الموجع النابض في ذاكرتها مثلما تغطي القشرة الجرح. ولا ريب أن راجا الذي كبر كان قد تجاوز التأثير الذي تحدثه أجوبة الخالة ميرا على استفساراته مثلما كبر على قصصها التي كانت تنسجها فتلتمع في لياليهم أشبه بخيوط عنكبوت فضية.

كان راجا يبدي ملاحظات ساخرة ملمحاً إلى عدم منطقية

حكاياتها الخرافية، ثم يدع شقيقتيه لها ويخرج نافد الصبر إلى أجنحة الخدم أو ينادي بائع الصودا، ذلك الشاب السيخي المرح الذي يقبل وهو يقود عربته الملأى بقوالب الثلج وصناديق زجاجات الصودا التي تتدحرج فوق قطع الخيش المبلولة العابقة برائحة قش رطب.

شرب راجا زجاجة بيرة زنجبيل فلذعه مذاقها التابلي الحارق بينما كانت الطباخة تستبدل زجاجات الصودا الفارغة بأخرى مليئة وتأخذ قالب ثلج لتضعه في صندوق ثلجها. وبعد أن فرغ من احتساء بيرته قفز راجا إلى العربة ولوح بالسوط فوق رأس الحصان الهرم، وانطلق على الطريق الخاص المفضي إلى الخارج والعربة تقعقع من تحته، فما كان من بائع الصودا إلا أن اندفع نحوه وهو يصب اللعنات عليه.

بينما أخذت البنتان تتقافزان فرحتين وهما تهللان لشقيقهما.

أراد أن يقود العربة إلى البوابة فأحدث كل تلك الجلبة والضجيج، وما إن بلغها حتى هبط منها وسلّم السوط بخضوع للسائق الغاضب وابتسم لشقيقتيه المعجبتين به.. لو لم يفعل ذلك لذهب يدعو (حامداً) ابن السائق الذي يعمل أجيراً في دار للسينما في منطقة (بوابة كشمير).

وقد اعتاد حامد أن يأخذ راجا معه على دراجته الهوائية عندما كان صغيراً، ثم علمه كيف يقودها، وأعطاه دروساً في المصارعة، إذ احتفرا حفرة غير منطقية وراء المرآب ودكا الأرض وفتتا التراب حتى أضحت ناعمة مستوية ثم بدآ يمارسان المصارعة وهما يزمجران ويصران على أسنانهما ويدفع أحدهما الآخر في صراع مفتعل كان يتحول آخر الأمر إلى صراع جاد فيتلقى راجا ضربات

موجعة فيظهر وقد جحظت عيناه وعلاه الغبار وتسارعت أنفاسه وهو مزهو باشتراكه في هذه الرياضة الرجولية.

وواظب زمناً على تلقي حصة مساج زيتي واستمر على تناول اللوز المطحون مخلوطاً مع حليب الصباح فقد كان جاداً في نزوعه إلى التفوق.

إنما لم يمضِ زمن طويلٍ حتى أصابته عدوى هواية حامد، فكانا يتوقفان عن المضي في مباراة مصارعة تنقصها الحماسة ويهرعان على دراجتيهما نحو دار السينما لدى (بوابة كشمير) فيقوم حامد بتهريب راجا إلى قاعة السينما من دون تذكرة دخول ليتمتعا بمشاهدة آخر أفلام (شارلي شابلن) أو (دوغلاس فيربانكس) أو أي فيلم من انتاج (بومباي) يغني فيه (سيهغال) أغانيه.

لم يكن راجا يمتلك أذناً موسيقية مرهفة إلا أن الشعر الأوردي المغنى كان يفتنه بقوة، فأخذ يتغنى به بعاطفية مؤثرة وهما يقودان دراجتيهما متمهلين في طريق عودتهما إلى البيت ليلاً، عابرين من الأضواء إلى الظلال كل لحظة على امتداد الشارع المغروس بأشجار التين الهندي، وراجا على يقين تام من عدم عودة والديه من النادي ومتأكد من نوم أختيه.

ولكن بيم ذات النوم القلق الخفيف سوف ترفع رأسها إذ تسمعه يتسلل خلسة عبر المرج الغارق في الظلمة، فتغمغم بصوت كتيم بعبارات التأنيب القاسية التي يضطر معها إلى الرد عليها.

وإذ ازدادت ساقا راجا طولاً وجسده هزالاً، أصبح من المتعذر اللحاق به، فكانت تارا تشعر بالحيف والخسران إذا ما تنافست معه لإثارة الانتباه نظراً لكونها الأصغر والأضعف والتي ولدت لتكون تابعة تحبو وراء الآخرين، في الوقت الذي كان فيه

بيم وراجا في عمرين متقاربين ومتماثلين في كثير من الجوانب الشخصية الأخرى، فأدركت تارا أنها لا بد لها أن تكون رفيقة متعاونة مع بيم وهما تطاردان راجا الذي كان يحسن التملص من كليهما.

أما في أمسيات الصيف وعندما تبلغ فترات العصر الطويلة المملة غايتها ويكون بوسع أرواحهم المسائية أن تنطلق من عقالها وتستعيد نشاطها، فإن راجا يتسلم القيادة ويعد حتى العشرة ويركض ليختبئ بعيداً بينما يتوجب على البنتين أن تهرعا وتبحثا عنه في هياج تسابق فتتمزق ثيابهما وتصاب ركبهما بالكدمات فلا تلتفتان للطخات والسحجات وقطرات الدم النافرة منهما، في الوقت الذي تتألق عيونهما ببريق النصر ويتوهج محياهما أمام فرح العثور على راجا، ثم القبض عليه وإطلاق اسم (الأسير) عليه.

وحينذاك تحل اللحظة المجيدة عندما تحاصرانه أمام سياج أشجار (الكارفندا) الذي يصعب اختراقه، فتقفزان نحوه من الجانبين وبكل ما تملكانه من أظفار وأسنان وصرخات غيلان ولكنه يرتد بانحناءة بارعة من تحت أذرعهما ثم يدفع رأسه بسرعة مجنونة عبر سياج الأشجار المتماسك الكثيف الذي يقوم خلفه ويشق له طريقاً خلال السياج باندفاعة مقتحمة يائسة من جسده، فيبتلعهما النفق الذي أحدثه راجا ببطولة في جدار الشوك والغصون والأوراق، فتقع الإثنتان فيه ثم تتسللان وراءه في هجمة خارقة نحو تلك المنطقة الخلفية المحرّمة من حديقة البيت التي لم تطأها قدم إنسان من قبل حيث كدس البستاني الأشواك وأصص الزهور المحطمة، وكوّم فيها الأتربة والأسمدة المتحللة العفنة، هناك حيث تقع البئر التي غرقت فيها البقرة، البئر الحجرية التي لا قرار لها

حيث يطفو على مائها الزبد الأخضر والطحالب الشنيعة.

هنا، توقفت الصبيتان، ولبثتا في ذعرهما الجنوني الذي انبثق حال إدراكهما الحزين أن راجا أفلت منهما مرة أخرى وغاب خلال تلك الأسيجة ولعله وجد ملاذاً وملتجأً له في أجنحة الخدم حيث يقدم له (حامد) العون ليخفيه عنهما.

تفرسّتا مبهورتي الأنفاس، مثارتين، غاضبتين بتلك الأشواك التي وقفتا بينها والتي جرحت جلدهما وتركت خطوطاً طويلة من الخدوش الدامية في سيقانهما القاتمة ثم استقامتا لتضربا أسراب الحشرات التي هبت وهي تطنُ من فوق كوم السماد وأخذت تحوم حول رأسيهما شبكات سوداً.

صرخت تارا «إننا نقف أمام البئر مباشرة يا بيم».

وبحركة غريزية اقتربت البنتان من بعضهما لتواجها معاً مصدر خطر ماثل أمامهما وبالتحديد هذا المكان المحظور عليهما، هذه البئر.

ولكن بيم التي بقيت خالية الوفاض إثر فشلها بعد هرب راجا منها. دفعت تارا قليلاً بصورة مفاجئة وهي تقول لها: دعينا ننظر.

وعندما تراجعت تارا جذبتها بثبات من مرفقها وجعلتها تركع إلى جوارها ثم انحنتا لتحدقا خلال الأعشاب المائية والطحالب إلى أغوار البئر. كان الماء في عمق البئر أسود قاتماً له التماعة زيتية خضراء يبدو ساكناً تماماً حتى قفز ضفدع صغير من صدع بين الصخور فأجفلت الصبيتان وقفزتا بسرعة وخفة. ضيقتا أعينهما وأخذتا تبحثان، ولكن لم ترتفع أي عظمة بيضاء أو حليبية اللون على سطح الماء، ولم يسبق للبقرة أن طفت وارتفعت على سطح الماء قط، وعلى الرغم من إحضار الرجال لعدد من البكرات

والحبال لمساعدة البستاني إلا أن المحاولة أثبتت فشلها واستحالتها فكان أن تركت البقرة لتتفسخ في البئر وهذا ما ضاعف الخوف منها وجعله خوفاً لا مثيل له.

نظرت البنتان وهما تجاهدان لتلتقطا أنفاسهما حتى كادت أعينهما أن تقفزا من رأسيهما، ولم تظهر سفينة العظام الشبحية فوق المياه الساكنة، ولا بد أنها غطست إلى القاع، وانغرست في وحله مثل شجرة، لم يكن ثمة شيء يُرى، لا ظلف ولا قرن، وما رأى أحد عيناً تلتمع ببريق بارد، كان الماء راكداً مسوّداً وقد أطبق على العظام مثل جلدٍ نما فوقها حديثاً، غير أن مثل ذلك الجلد الجديد كان معادياً كتوماً لا يفصح عن شيء أبداً.

وعادت الشقيقتان خاليتي الوفاض وهما تزحفان على ركبهما إلى أن بلغتا النقطة التي يصبح الوقوف لديها آمناً ثم استدارتا وأسرعتا بين الأشواك الرمادية وأكوام القمامة وشقتا طريقهما عبر السياج عائدتين إلى الحديقة، إلى ذلك الجزء الأليف المباح، المكان الحقيقي من الحديقة حيث وجدتا راجا يجلس رابط الجأش على مقعد الخيزران بجانب الخالة ميرا وهو يأكل شرائح من ثمار الغوافة التي كانت تقطعها وتقشرها وتقدمها له.

فاندفعتا اندفاعة متهورة في رغبة انتقام مستعادة وهما تصرخان وتسخران وتواجهانه بغضبهما عليه. فما كان منه إلا أن أخرج لهما لسانه، لأنه لم يكن يعلم أن صراخهما الغاضب لا علاقة له بهربه وإفلاته من قبضاتهما المتشبثة وأظفارهما الناشبة فيه، وإنما كان بسبب ذلك الرعب الكامن وراء السياج، تلك البئر البعيدة الغور، النتنة المظلمة التي تنتظرهم في أقصى الحديقة.

وعندما أدركت بيم - رغم عدم تصديقها للأمر - أن راجا

تراجع لأن رجولته وسني عمره منحتاه القوة على الانسحاب من الشرنقة التي نسجتها خالته وشقيقتاه بعيداً عن أنوثتهن، أو عوزهن إلى سنوات أو امتلاك المزيد منها كما هو الأمر مع خالته. إذ وعت بيم كل ذلك ازداد غيظها واستياؤها. ثم ظلت جالسة وهي تصغي إلى أقاصيص وحكايا خالتها الخرافية إنما في حالة من التبرم والضجر. فقد كان الاستياء والملل والركود قد بقيا هناك، على مقربة من راجا، وكان استياؤها يفضي بها أحياناً إلى ممارسة القسوة إزاء تارا.

هي تعلم كم تتوق تارا إلى تمويج شعرها الذي كان مثل شعر بيم أسود سبطاً ينسدل ليناً على كتفيها، فكانت تتحرق رغبة لأن تضفي عليه بعض التموجات، بعض التجعيدات الناعمة، لأن تمني خصلات شعر ذهبية مثل بطلات الحكايات الخرافية كان أكبر مما يجب بالنسبة لها.

هذا ما كانت تعرفه تارا، إنما كان بوسعها أن تتمنى لشعرها قليلاً من التموج وقليلاً من التجعيدات.

وسمعتها بيم تفضي برغبتها إلى خالتها:

ـ ماسي.. أتمنى أن يهبني الله تجعيدات، فهل سيحقق أمنيتي إذا صليت له؟

وإذ سمعت بيم ذلك ذهبت من فورها إلى صندوق الخياطة وأتت بمقص وأشهرته بوجه تارا:

ـ هيا، تعالي.. سأقص شعرك وسوف يتجعد من تلقاء نفسه بعد قصي له.

فالشعر الطويل لا يمكن أن يتجعد أبداً، لذلك يجب أن

يُقص ويصبح قصيراً جداً.

وسحرت تارا بما أغرتها به بيم من وعد بشأن شعرها، فانسلت من فراش الخالة ميرا وتبعت أختها، ولكنها توجست خيفة عندما رأت بيم تقودها إلى خارج البيت وترتقي بها السلم الخارجي نحو السطح العلوي، عندئذٍ توقفت، وهي تمسك بخصلات شعرها بين يديها لتحميها مما يتهددها.

ـ هيا، تعالي، هيا.

استعجلتها بيم بنبرة قاسية وهي تحرك مقص الخياطة الثقيل في الهواء كأنها تقطعه، فجعلت تارا تجلس بانحناء ذليل وراء خزان الماء الحديدي وأخذت تقص شعرها في مستوى أذنيها محدثة جلبة بشفرتي المقص الفولاذيتين فتهاوت جزازات الشعر الأسود حول أقدامهما وأنثالت نتف الشعر على عنق تارا ولم يلبث نسيم المساء أن حملها نحو حافة الشرفة، ثم رفعها وطيرّها فوق الدرابزين والحديقة. وبدأت تارا تدمدم وهي تتحسس لمسات الهواء الباردة التي لم تألفها تلسع عنقها الأجرد العاري عندئذٍ رفعت يديها وتلمست الشعر المقصوص عند الأذنين فوجدته خشناً قاسياً كأنه جذاذات زرع محصود، فما كان منها إلا أن بدأت تولول بصوت عالٍ من هول مصيبتها.

وعندما سارت بيم مع مقصها بدت شديدة الزهو والاعتداد بنفسها، بينما اعتصمت تارا هناك ورفضت الهبوط إلى الدار.

وبعد برهة تطايرت خصلات الشعر من فوق الشرفة العليا إلى الأرض حيث أتيح لمن كان في الحديقة والشرفة أن يراها. فوقفوا على الممشى الرئيس وهم يظلللون عيونهم من وهج الشمس ليتحققوا من مصدر هذه الخصلات السود. فتفرست بهم السماء

الشاحبة رداً على تحديقهم، ودوّمت طائرة ورقية مطلقة صفيراً رقيقاً، بينما أخذت تارا تنشج وتبكي وصار بوسعهم سماع نحيبها.

أمروا بيم أن تذهب لتأتي بها، إلا أنها امتنعت وقالت إنها ستحضر دروسها مضفية نوعاً من الأهمية على موقفها.

فذهب راجا وحامد لإحضارها وشرعا يضجان ويضحكان أمام المشهد الذي واجههما، وقالا: إن تارا تبدو فرخ حمام مزرق الجلد مكسو بالزغب قد سقط من عشه، وهي جاثمة وراء خزان الماء تندب شعرها المفقود.

وإذ دوّت قهقهات الصبيين ازداد بكاؤها حدة ووحشية.

عندئذٍ أسرعت بيم بخطى ثابتة قوية وأمسكت بها من ذراعها وقالت لها بحدة:

- كفي عن العويل والنباح أيتها الجروة الصغيرة، أردت شعراً مجعداً، وها أنت الآن بشعرٍ مجعدٍ، قلتِ لي إن بإمكاني أن أقص شعرك ففعلت، أنىّ لي أن أعلم إنك لم تكوني جادة في رغبتك؟

ثم سحبت أختها المنتحبة وهبطت بها السلم. كانت تارا موقنة من عدم غفرانها قسوة بيم، وأحست أن كِبرَ اخوّتِها سوف يظل مرتبطاً بتحجر قلبها وسخريتها منها بقص شعرها الطويل.

نما شعرها من جديد كما طمأنتها الخالة ميرا ولكنه ظل سبطاً منسدلاً كما كان من قبل.

كانت تلك هي الأحداث الدرامية التي بدت أقل شأناً من أن تسبب صدوعاً في تلك الروابط ذات الطبيعة المتلبدة، والتي تمضي قدماً في دروب هذا العالم.

عمرٌ من ركود شامل لا يحتمل وخواء وفتور يشدد عليهم

ويؤكد وجوده فكأنه يقرعهم بمطرقة فيطلقون الرنين، ويتعالى ويتزايد وتتضاعف أصداؤه.

وعندما بلغوا المراهقة، تراءى الأمر لهم وكأنهم يختنقون داخل كتلة رمادية هائلة فيحاولون اختراقها مثلما اخترق راجا السياج الشائك واندفع نحو فضاء مختلف، ولكن ما مدى ذلك الاختلاف؟

خُيلّ إليهم أن ذلك الفضاء المنتظر سيكون مشعاً بالألوان ومفعماً بالأحداث الهامة ومليئاً بالصحاب، ثرياً ونابضاً بالممكنات إنما لم يستطيعوا ذلك، بسبب من تكاثف العتمة إلى حد حال دون نجاحهم وأبطل محاولاتهم للمقاومة. وراجا كان الوحيد الذي يفعل ذلك في أحيان قليلة، إذ يقود دراجته قاصداً دار السينما في (كشمير غيت)، أو يتجه نحو حلبة المصارعة ليتدرب مع «حامد»، أو ينطلق مسرعاً وسط الشارع في عربة (بائع الصودا) ويلوح بالسوط فوق رأس الحصان الهرم المذعور، أو يعمد إلى تطيير الطائرات الورقية فوق السطح في الأمسيات.

وبدا أنه امتلك حيوية وتألقاً وإن لم يكن ذلك بدرجة كبيرة، لأنه سرعان ما تنتابه حالة عميقة من الاكتئاب السوداوي والهياج. وكان راجا إلى جانب ذلك يمتلك استعداداً طبيعياً للتوقد وانبعاث الحيوية إزاء الأفكار والأخيلة التي يستقيها من الكتب التي يقرؤها. وكانت قصص مغامرات الصبا المألوفة مثل (روبن هود) و(بوغيست) تدفعه إلى حالة من الإثارة تتفجر معها حماسته وهو يعرض لحامد كيف ابتدع السيوف من نصال الخيزران ثم يقارعه بها، أو يتصور نفسه في الصحراء عضواً في (الفرقة الأجنبية) يؤدي دوراً بطولياً خارقاً في معركة مدهشة.

كان يقود دراجته نحو (ساحة كونوت) ويشتري كتباً مصورة رخيصة، كانت تطبع خصيصاً للجيش الأمريكي وتباع في الأكشاك، فيأخذها إلى البيت لتشاركه شقيقتاه في متعة قراءتها.

وبينما هم مضجعون على أسرّتهم تحت المراوح الدوارة، منغمرين في القراءة، تناديهم الخالة ميرا:

ـ ديدان الكتب، ديدان الكتب.

تقولها بنبرة هي بين الزهو والمسايرة والتسامح وتواصل الشقيقتان القراءة في حالة من الغياب والذهول لا التوقد وهما تستغرقان وتغوصان إلى أغوار لا قرار لها تحت الوطأة الرهيبة لروايتي (ذهب مع الريح) و (لورنا دون) فتأتلق عيونهما كأنهما تقرآن خلال ضباب غامض، ولا تعود الحكايا والشخصيات تظهر في الضوء الساطع النهار وإنما تبدو لذهنيهما المخدرين الغائبين أشبه بانطباعات مبهمة غامضة بدل أن يمنحها النهار حيوية ووضوحاً في الملامح.

لم تكن البنتان بالحيوية التي يمتلكها راجا، ومن هنا عدم انفعالهما وتعايشهما مع ما تقرآنه، كانتا عبارة عن متلقيتين سلبيتين، تمتلئان بكل ما تقرآنه وتغرقان تحت وطأته مثل أطواف مائية وُسّقت بالأحمال.

وبينما كان على تارا أن تنجذب بلا حول ولا قوة إلى عالم سفلي شبه واعٍ عن طريق القصص التي تقرأها، غالباً ما كانت بيم تستثار وتود أنْ تلقي بها جانباً في شيء من الرفض والاستياء.

بدأت تدرك أن تلك القصص ليست بغيتها، ولكن ما الذي تريده؟..

آه، إنها تطوح ذراعيها بانفعالٍ، إنها تريد شيئاً مختلفاً، حقائق، تاريخ، تسلسل أحداث، ذلك هو ما تؤثره وتفضله.

كانت الكتب تضجرها، الكتب التي يأتي بها راجا، ولكنها تحاول أن لا تخذله بإظهار سأمها. غير أن راجا كان في الحقيقة يدرك ذلك ويتألم.

ثم بدأت بيم تقرأ وقد جلست بجدية ورصانة إلى المنضدة وأسندت كلا مرفقيها إلى دفتي الكتاب، كتاب (انحدار غيبون وسقوطه) الذي وجدته على أحد رفوف مكتبة غرفة الاستقبال. وكان راجا يعجب في سره بها لأنها تمتلك المثابرة على القراءة بينما لا يقوى هو على مواصلة الدراسة والقراءة بهذا التواصل، غير أنه لم يشأ إعلان الأمر لها، كان يقول: إنها لا تدري ما الذي يعوزها، فهي لا تمتلك المخيلة، وهذا يعني بالنسبة لراجا: الخطيئة المميتة، ويجرح بيم عميقاً ويدعها في حيرة من أمرها.

ما الداعي إلى امتلاك مخيلة إذا كان بوسع المرء أن يمتلك المعرفة بدلاً من المخيلة؟ وأوجد هذا الاختلاف ثغرة بين الاثنين، غوراً أو قناةً واسعة لم تستطع الكتب التي يتبادلانها أن توجد معبراً للتواصل بينهما.

أما الآن وقد اجتمعا معاً، فإن لديهما تلك السعادة البسيطة الصافية التي تنطلق وتبدو صريحة واضحة فوق الهموم والوحشة المهيمنة. فلا تزال لديهما تلك الأماسي الصيفية الوضاءة على ضفاف نهر «جُمنا» حيث كانا يذهبان معاً ويسيران على الرمال بأقدام حافية، ففي هذا الموسم من العام لا يتبقى في النهر غير وشلٍ بطيء فيخوضان فيه ويعبران النهر قاصدين مزارع البطيخ في الضفة الأخرى ليجنيا بطيخة مستديرة مكتملة النضج ويشقانها بمدية

راجا ويلتهمان قطعها المفعمة بالعصير، بينما تنحدر الشمس نحو المغيب الزعفراني ويدوي صوت المدفع في المدينة معلناً انتهاء يوم الصيام في شهر (رمضان) ومؤذناً ببدء الصلوات في المسجد الكبير.

وفي هذه الساعة يتحول لون قبة السماء المعدني الأبيض إلى لون بنفسجي رقيق موشح بخطوط وردية. وعندها يقوم غسالو الثياب بطيّ الغسيل الجاف المنشور على الرمال ويحملونه على ظهور حميرهم ويغادرون النهر. ويتعالى الدخان من النيران المتفرقة الصغيرة والحظائر المجاورة للنهر ويتصاعد من خلال سقوف الأكواخ التي يسكنها زارعوا البطيخ فيتحول جو المساء إلى شيء اسطوري بديع، وينطلق طائر الزقزاق صائحاً من قلب الظلام بينما تومض نجمة نابضة بالحياة ومتزامنة ـ كما يبدو ـ معه. وترسل تارا لتأتي بهم إلى البيت، وتأتي حاملة أخيها بابا بين ذراعيها، وبين آونة وأخرى تنحني نحو الأرض لتلتقط محارة نهرية تافهة وتدسها باطمئنان كبير في يده، وتبصر براجا وبيم يخوضان متمهلين في طريق عودتهما عبر النهر، وقد لطخهما الوحل وبدا عليهما الإجهاد، عندئذٍ تلوح لهما فيناديانها، ويترنح فريقا الأطفال سائرين باتجاه بعضهما فوق فضة الرمل الجافة ـ وعندما يتلاقيان، يبدون بهيئات غير واضحة في العتمة الهابطة، وهم يجرجرون الخطى نحو البيت.

وإذ ينعطفون ليتخذوا سبيلهم إلى البيت، تبدأ نوع من ضربات طبل خفيضة تنقر في بطونهم وتتردد في ما بينهم وتضطرهم إلى التوقف ليتشبث أحدهم بيد الآخر.

ويصرخ رجل بملابس خاكية وعمامة قرمزية:

ـ «هاتو» . . «هاتو» : ابتعدوا، ابتعدوا . . افسحوا الطريق، ثم يجتازهم محدثاً جلبة وقرقعة بكعبي قدميه ليفسح الطريق للجواد الأبيض الذي يبرز بغتة من وراء الكثبان ويمرق محدثاً هديراً لطمس وقع حوافره فوق الرمال وخلفه يعدو كلب رشيق ذهبي اللون يعبر عن سعادته بحركات ذيله في جو المساء الأرجواني، وتنحني الأعشاب السهوبية وتتباعد مفسحة الطريق لهذا الموكب، ثم تعود لتندفع برقة ونعومة إلى الأعلى مستعيدة أوضاعها السابقة، وعندها تلاشت الهيئات الثلاث في غيابة منحنيات الكثبان، ثم عادت فظهرت في غبار الطريق الأبيض نهاية المدى مباشرة، همس راجا في شيء من الرهبة:

ـ «إنه حيدر علي صاحب» يمتطي جواده، إنه يبدو شبيهاً بقائد أو ملك . .

قالت بيم بطريقة لاذعة وهي تسحب (بابا) ممسكة بيده: لعله يود حقاً أن يتصور نفسه قائداً أو ملكاً.

وانقذف بعض من الغبار فوق عيونهم وآذاها فأخذوا يدعكون أجفانهم.

وقفزت تارا متطاولة وهي تقف على رؤوس أصابعها لترقبهم بشيء من الهدوء، فصاحت: كلبه، انظروا إلى كلبه الرائع الذي يعدو خلف جواده.

وبينما هم يجرجرون الخطى على الطريق والرمال تملأ الفجوات ما بين أصابع أقدامهم، قال راجا متشهياً أمراً بعيد المنال:

ـ آه، أتمنى لو كان حيدر علي صاحب صديقاً لوالدي. إذاً، لسمح لي بامتطاء جواده أحياناً.

قالت بيم: أنت لا تحسن ركوب الخيل.

وعلى مرأى منهم استدار الموكب المسحور نحو بوابة حيدر علي صاحب الحديدية المزخرفة فاندفع النور فوق الرواق. وبعد برهة كان (الآخر) في بيته مختبئاً وراء جذوع الشجر.

بعد ذلك اتخذت مشاعر الكمد واليأس التي كانت مهيمنة على بيتهم صيغة انتظار متعاظم وهم الآن يحيون على الدوام ذلك الانتظار السطحي المظهري لعودة والديهم من النادي إلى البيت، أو انتظار أن تُرقد الخالة ميرا أخاهم الصغير (بابا) في سريره لتأتي وتحكي لهم حكاية ما.

أما إذا ما عاد الأبوان إلى البيت وفرغت الخالة ميرا من عملها فإنهم يظلون معلقين، في انتظار شيء ما، ولعلهم كانوا ينتظرون ظهور الجواد الأبيض ثانية فوق الكثبان يتبعه الكلب الذهبي أو لعلهم كانوا يتوقعون حدثاً أكبر، أو لربما ينتظرون تغيرات حادة عنيفة، انقلاباً شاملاً في حياتهم الراهنة، وبداية لحياة أخرى لطور مدهش آخر.

كانوا يريدون التجوال في أرجاء الحديقة ويتفرسون ملياً في النفق، فوسفوري الأخضرار لورقة الموز الملفوفة أو يقومون بفتح برعم زهرة الكنا (الموز الزهري) ليتفرجوا على أجزائها الداخلية وبذورها اللؤلؤية المستكنة، أو يتابعون مسرى بزاقة صامتة وهم يبحثون عن منفذ لا بد أن يقودهم إلى مكان ما يجهلونه وليست لديهم أي فكرة عنه.

شعرت بيم أن لديها الجواب على ذلك، في الأقل على مدى بضع ساعات يومياً في ستة أيام من الأسبوع، تلك الساعات التي تمضيها في المدرسة.

غدت بيم شخصية مختلفة في المدرسة نشطة منغمسة في أعمال شتى، فتاة ذات عزم، وكأي شخصية قيادية بفطرتها أصبحت رئيسة الفريق الكشفي المسمى (بلوبيردز) الطيور الزرق ـ وهي لا تزال صبية تعقد شعرها بهيئة ذيل حصان، وفي ما بعد انضمت لفريق المرشدات ثم صارت رئيسة لفريق الكرة الطائرة، ومراقبة للصف، فتاة وثابة ذكية تمضي وقتاً يسيراً في دراستها، ولكنها تحقق قدر ما تحققه بنات أولئك الآباء المحبطين العاجزين الذين يدفعون بأبنائهم بطريقة مسعورة تتسم بالمرارة إلى أن يتفوقوا على كل من عداهم في الامتحانات، ولينفقوا كل ساعات يقظتهم منكبين من دون تبصر أو تمييز على كتبهم المدرسية.

تمتلك بيم سلوكاً عفوياً مغيظاً إزاء المدرسات اللآتي كن يحببنها لأجل هذا، وإن كن في أحيان أخرى يؤنبنها بسببه لكنهن كن يكلمن تارا بنبرة مؤنبة على الدوام.

ـ أنظري إلى أختك (بيملا) يجب أن تبذلي ما في وسعك لتجاريها، إنها تؤدي الألعاب وتقوم بأدوار في جميع الفعاليات، وهي مراقبة مسؤولة في المدرسة، فتاة قيادية، أما أنت..

وتواصل تارا خفض رأسها وتجرجر خطاها ماضية في إغاظتهن.

كانت تارا بطبيعتها أصغر حجماً وأضعف بنية من بيم ولا تمتلك ذلك النشاط والمثابرة التي تتوفر عليهما بيم، وكان الضجيج والزحام البشري والتدافع بالمناكب في ساحة المدرسة يرغمها على أن تظل تلك المخلوقة الصغيرة الباهتة التي تعجز عن استنهاض روحها وانتشالها من الجمود الكئيب الذي كان يُحيل الدروس إلى شيء لا علاقة لها به ولا معنى له مثل طنين الذباب وراء النافذة.

كانت تقيم علاقات صداقة مع الشابات النشطات الصخبات والسوقيات في صفها والمستغرقات في الأسرار البغيضة والإشاعات واللاتي سرعان ما يغدرن ويتكشف زيفهن.

وإذ تبرز المدرسة طاقات بيم الطبيعية وحيويتها التي طالما ظلت خامدة في البيت بسبب أجوائه الخاصة، فإن المدرسة بالنسبة لتارا كانت نوعاً من الرعب، كارثة، تجمعاً لقوى ماكرة ضاجة هائلة، تهددها وتسخر من ضعفها.

وعندما كانت تحتجزُ داخل الأسوار الحجرية العالية للمدرسة تتذكر تارا بشوق يستدر دموعها ولا تكاد تطيق بُعدَها عن الخالة ميرا وأخيها بابا ومربيتها العجوز التي اعتادت عليها واطمأنت إليها، ولا تطيق حرمانها من ممشى الورد وهديل الحمام عند طنف الشرفة الذي يبعث على النعاس، وكل ما من شأنه أن يبدو لها عابقاً بأشذاء الفردوس فور ابتعادها عنه.

شكلت المدرسة والمعلمات والدروس بالنسبة لبيم تحديّاً لذكائها الفطري وفضولها العقلي فمنحها ذلك التحدي سعادة وغبطة للمواجهة.

أما تارا فكانت تتهاوى وتنهار إذا ما تصدت لأي نوع من التحديات وتنكمش مستسلمة لوطأة ذهول رهيب وينتهي بها الأمر إلى أن تتفرس ببلاهة في وجوه المدرسات عندما يوجهن لها سؤالاً ما، فتدفعهن إلى الاستفسار عما إذا كانت مصابة بقدر من التخلف العقلي.

كن يتحدثن عنها في غرفة المدرسات، وهن يحتسين الشاي: (يقال إن لديها أخاً. . لقد سمعت. . إنه) ثم يشرن إلى رؤوسهن بطريقة لها دلالتها.

ولتارا قدرة على التظاهر طوال فترة الدرس بكونها منومة تنويماً مغناطيسياً وهي تتابع ذبابه أمام زجاج النافذة، وسواء كانت جالسة إلى منضدتها أو أنها تعبث برأس قلم حبرها المكسور أو تقوم بغرزه في قصاصة من ورق النشاف، وتتفرج على الحبر ينز منتشراً على الورقة وهي تقوم بهذا من دون أن تلفت انتباه أحد مما يجعل استغراقها وذهولها أمراً لا غبار عليه.

ولم تكن مدرساتها يعلمن أنها تدخل الصف فحسب لأن الغشاء المخاطي في أنفها متورم ومحتقن إلى درجة يتعذر معها التنفس فكانت مهذبة إذ لا تتنشق إنما تحبس أنفاسها لتمنح وجهها مظهراً جاداً يوحي لهن بالعناد والوقاحة أحياناً، فتبعدهن جميعاً مدرسات وطالبات، فشلت تارا في كسب الصديقات، وعندما تجدهن مجتمعات مستمتعات بسرٍ ما كأن يمررن قطعة حلوى من فم إلى فم من دون اعتبار للمحاذير الصحية تبتعد عنهن، فإذا قمن باختيار فريق للعب فإنهن يتركنها حتى النهاية، فتقف منسية منبوذة، ثم توافق رئيسة الفريق على مضض وتضم تارا إلى الفريق.

لم تبرع قط في أي لعبة من الألعاب بينما امتلكت بيم نزوعاً فطرياً نحو كرة المضرب، وكانت تقف على قدم المساواة في التدريب الرياضي مع راجا وحامد الذي اعتاد أن يجعلها لاعبة (كريكت) مسؤولة عن إعادة الكرة إلى الملعب خلال ممارستهم لهذه اللعبة.

فإذا عرفنا أن تارا أبدت بعض الموهبة في حقل الفنون كما كانت دروس الأشغال اليدوية تسمى من قبل المدرسات، فقد ترتب عليها أن تقدم لهن المبرر الكافي ليتجاوزن على كسلها

وخمولها وصلافتها. إنما كانت أصابعها متصلبة لا مرونة فيها فلم تبرع في الرسم ولا أعمال التريكو أو حياكة سلال الورق في درس الأشغال اليدوية، وكانت تعمد إلى تصغير الأشياء إلى أقصى حد ممكن في دفتر الرسم على أمل أن تتلاشى الأشياء وتندغم في بعضها. فالأبريق البرونزي الكبير والهاون ومدقته الضخمة وكل الأدوات التي رتبت على منضدة في غرفة الفنون، تظهر على ورقة تارا مثل عُقدٍ أو أزرار صغيرة، تمحوها وتمحوها بواسطة ممحاتها فلا يتبقى منها سوى لطخات من ظلال باهتة، وتستحيل قطعة النسيج أو التريكو بين يديها إلى عقدة محكمة ينبغي أن تقص وترفع من النول أو إبر الحياكة في حين يكون عليها أن تعمل غرزات رخوة سلسة ولا تشدها بهذا القدر.

وقد وجدت سيدات الإرسالية المشرفات على شؤون المدرسة التبشيرية صارمة الأجواء، وجدن في افتقارها إلى المهارة وقوة الإرادة حالة باعثة على الرثاء. وكانت هاتيك النساء بلا استثناء عوانس كبيرات، كرسن أنفسهن للعزوبية، وبالرغم من أنها عزوبية تختلف عن عزوبية الراهبات، لكنها كانت تثير مشاعر الرهبة والمهابة والبشر وتوحي بسعة الحيلة والدهاء. هجرت هاتيك النساء المروج الخضر وأسيجة الشجر وبيوت الكهانة واخضرار القرى المحيطة ببيوتهن، وودعن كل شيء خلفهن، الطمأنينة وأوهام الشباب، وكن قد خضن تجارب وصعاباً ينحني، بل وينسحق تحت وطأتها غيرهن، فقد ولدن وتشبثن بأسباب البقاء وتغلبن على الحروب والغزوات وصنوف التمرد والعصيان والمجاعات والجفاف والفيضانات والحرائق والتقاليد المحلية، مثل زوارق تمتطي صهوات الأمواج العاتية، لكنهن حين تقاعدن لم

يرجعن للأديرة واخضرار القرى، بل واصلن العمل في مدرسة تبشيرية صارمة النظام رصينة، بكل ما يملكن من هدوء وطمأنينة، بكل بشرهن وإيمانهن الذي لا يشك أحد في سلامته.

لم تكن تارا قادرة على إخفاء وكتمان نظرتها الخبيثة وهي ترصد حركتهن الضاجة المفتعلة وهن يتجولن في الصفوف، وهن يقلبن السجلات بجلبة كبيرة، أو يقمن بحل مسائل الجبر على السبورات، أو ينفخن في الصافرات ويندفعن نحو ساحة الكرة الطائرة، ينظمن فعاليات الموسم الرياضي والحفلات المدرسية السنوية ويقمن بقيادة فريق الفتيات لإنشاد التراتيل أو يتهاوين راكعات على ركبهن وقد غطين وجوههن بأيديهن المتعبة العارية ويصلين مستغرقات في سورة صلاة عظيمة، وكانت تارا تتساءل عما إذا كانت هي إحدى تلك الأرواح الضالة التي يصلين من أجلها.

ومع ذلك، كانت تؤثرهن على بقية عضوات الهيئة التعليمية اللائي اعتنقن الدين المسيحي، فكانت تستفظع ذوقهن في طراز الملابس وتفضل على نحو قاطع أردية سيدات الإرسالية الرمادية عديمة الأكمام على ثياب الساري ذات الألوان الوردية والأرجوانية المطبوعة والمطرزة والتي تفضلها المتنصرات اللواتي تخطئ في تلفظ أسمائهن، أسماء مثل (روز، ليلي، أو بانسيه)(*).

كانت أكثرهن عوانس فاتتهن فرص الزواج ولكن المتزوجات من بينهن واللاتي كانت تقابلهن خارج المدرسة مع أزواجهن فوق الدراجات الهوائية، أو أولئك اللائي يصطحبن أطفالهن إلى

(*) أسماء زهور الورد والزنبق وورد الصورة. (المترجمة)

المدرسة، اولاء كن يتمتعن بنظافة مدهشة ومسحة من السماحة الواضحة على وجوههن المستكينة وثيابهن الرثة.

وتحدس تارا ركام خيباتهن، وهو يقيناً ما يجعلهن حقودات إلى هذا الحد المفزع، ممرورات مصابات بالغل وسوء الخلق، ذوات ألسنة ساخرة لاذعة ويبدو عليهن أنهن يستهدفن تارا على الدوام، كما لو أنهن يهجسن لديها استنكاراً لألسنتهن اللاذعة السليطة.

وبدل أن تنحاز الفتيات الأخريات إلى جانبها لمجابهة العدو تجدهن يكتمن قهقهاتهن ويصطنعن ابتسامات زائفة وهن يغبطن أنفسهن، إذ يجدن تارا هدفاً للتأنيب والزجر وقد قذفن بدفتر واجباتها البيتية نحوها بحركة غاضبة.

كن يعتبرنها مزهوة بنفسها، متظاهرة بما ليس فيها، أما هي فكانت تتجول حول ساحة الملعب وحيدة خلال فترة الغداء، مغتمة مستوحشة ترقب الطائرات الورقية التي تحوّم في السماء الساطعة منتظرة أن تنقض على صندوق طعامها المفتوح في هجمة من براثن ومناقير، أو تتسلى بجمع جوز (النيم) المتساقط تحت الأشجار المتباعدة المصفرة، دونما احساس بالحرج، وهي تمارس ما يروق لها وتدع الأخريات يستنتجن أنها أشد اعجاباً وزهواً بنفسها من أن تشاركهن أغانيهن وثرثرتهن وصخبهن.

أما بيم فقد كانت ترمقها بطرف عينها عن بعد، وهي تمارس لعبة كرة السلة بطريقة مرتجلة مهووسة مع أكبر الفتيات سناً، وتتجنب أن تبدي أي رد فعل إزاء حالة شقاء أختها بسبب نفورها من المجتمع، لقد كانت تارا أشبه بمرضٍ معدٍ.

بلغت الكآبة من قسوة المدرسة مرحلة لا تُطاق بالنسبة لتارا،

عندما قاموا بإرسال الفتيات زوجاً زوجاً خلال يوم الخميس إلى مستشفى الإرسالية في الجانب الآخر للسور الحجري الحصين ليقمن بتوزيع الفواكه والبطانيات مجاناً للمعوزين من المرضى. كانت البطانيات مصنوعة من مربعات الصوف الأحمر نسجتها الطالبات أثناء دروس الأشغال اليدوية بإبر حياكة خشبية سميكة خشنة وقد تلبد غبار الطباشير وتكاثف في الصوف الخشن.

وكابدت تارا عذاباً جسدياً حقيقياً ومبرحاً عندما نسجت الصوف الخشن بأصابعها الناضحة عرقاً لتحصل على نسيج محبوك العقد حبكاً محكماً على الإبر السميكة إلى درجة يصعب معها تحريكه، فكانت تستنجد طالبة العون فتقرعها معلمة الأشغال اليدوية الحانقة، الآنسة (جاكوب) ذات الثؤلول على جانب أنفها والتي ترى فيها تارا ساحرة من ساحرات القرون الوسطى.

وعندما يتجمع لدى البنات ما يكفي من مربعات الصوف المنسوجة يقمن بتوصيلها إلى بعضها لتحمل تلك البطانيات الحارة الخشنة بزهو واعتزاز إلى ردهات المستشفى مع سلال الموز المسودّ الأطراف الذي نزت بعض عصارته والبرتقال الأخضر الحامض.

ويتخذ سرب الفتيات هيئة تمساح زاحف عبر ردهات المستشفى ويتوقفن عند الأسرة الحديدية ليوزعن الهبات على نساء ولدن تواً وأرغمن على تقميط مواليدهن الجدد بالغي الرقة في هذه البطانيات الخشنة التي تسبب الحكاك. ويتوقفن عند آخرين يسيرون هنا وهناك وهم يئنون متوجعين، أو أولئك الذين وضعت اللصقات الخضر على عيونهم، أو سواهم من المرضى الراقدين، الذين يتصاعد أنينهم وهم يناشدون الله أن يمنّ عليهم بالخلاص بأخذ

أرواحهم، هيئات شبحية تفوح منها رائحة ثقيلة أشبه برائحة الكلوفورم المخدر تجمع بين العوز والرحمة والمرض والعافية.

وربما تلتقي الطالبات عرضاً بفريق مطبخ المستشفى الذي يقوم أعضاؤه بتوزيع الوجبات على المرضى، وإذ تشاهد تارا الرز والحساء يُغرفان من الدلاء الضخمة ويُسكبان في صحاف الألمنيوم الكبيرة ويندلق الطعام في أكوام سائلة تفرّ نفسها خارجاً نحو الأسيجة وقد اعتراها الغثيان.

وبعد هذه الوجبة أصبح للرحمة والمحبة الإنسانية بالنسبة لتارا رائحة القيء، وفي يوم الخميس التالي تتظاهر بالمرض، وفي الأسابيع اللاحقة تبدي اعذاراً شتى لا حدَّ لسخفها وتناقضها في محاولة منها للتملص من واجبات خميس الرحمة، غير أن بيم أدركت ما يجري فأبلغت الخالة ميرا فحيّر الأمر الخالة وأقلقها، وساء ذلك بيم، فقالت الخالة لتارا على انفراد:

ـ كيف لا تستطيعين القيام بهذا الواجب البسيط من دون شكوى أو تذمر؟..

ليس عسيراً على المرء أن يطلب من الآخرين التخلي عن فاكهة أفطارهم وتقديمها لمن هو بحاجة إليها.

صرخت تارا متألمة ناحبة وقد توهج محياها عندما عرفت أن لعبتها قد افتضحت:

ـ بوسعهم أن يأخذوا كل ما أملك من طعام، كل لقمة، ولكن ليتركوني وشأني، فأنا لا أطيق الذهاب إلى هناك لأقدمها بنفسي للمرضى..

ـ لماذا؟.. هل من المعيب أن تسير سيدة في ردهات

المستشفى؟ هل أثارت الروائح الغثيان لديك؟.. إيه أيتها المسكينة البائسة، الصغيرة، اقشعر بدنك، أليس كذلك يا صغيرة خالتك؟.. على أي حال إذا كنت عاجزة عن القيام بهذا المجهود الصغير من أجل الفقراء فلأي شيء تصلحين؟.. وما الذي يمكنك أن تفعليه عندما تكبرين؟..

كانت بيم مفتونة بشخصية (فلورنس نايتنكيل) التي تضعها في مصاف (جان دارك) في محراب قديسيها ومعبوديها المفضلين. لم تقل تارا إنها تتمنى تحقيق شيء ما من أجل هذا العالم أبداً، كل ما كانت ترجوه هو أن تختبئ تحت لحاف الخالة ميرا أو وراء الشجيرات في الحديقة، كل ما تريده أن لا يطلب منها الآخرون المجيء أو القيام بشيء.

فقد اتضح لها أنها لا تصلح لشيء أو أن تكون شيئاً، وعندما تتحداها بيم طالبة منها أن تذكر اسم بطلتها المفضلة، تحدق تارا ببلاهة وقد أشكل عليها الأمر فتحاول التملص قائلة: إنها سوف تفكر بذلك، وإذ ترى عيني بيم تومضان باستقامة بالغة وفمها مطبق في حركة استهجان لقولها، لا تجرؤ على جواب حتى وإن كانت قد فكرت باسم ما.

وأرغمت على العودة إلى المدرسة وتقبلت الأمر بتنازل بسيط عن الأمل بأن تلك الأيام البغيضة الكئيبة لا بد أن تنقضي إلى الأبد، هذه الأيام التي اكتسحت حياتها بيرقاتها الزاحفة.

وعندما عادت إلى البيت بعد الظهر، عانقت خالتها بشوق غامر، وأبدت نوايا طيبة في إسداء العون والتجمل بالصبر ومشاعر الأخوة تجاه شقيقها الصغير (بابا) ودهشت أسرتها إزاء تصميمها، وقيل لها:

ـ ما أنت إلا طالبة نهارية، لن ترسلي بعد اليوم إلى المدرسة الداخلية . .

فهوت تماماً إلى أعماق هاوية يأسها.

لسوف تجلس على المقعد المستدير في الشرفة وتنصرف إلى لف كرات الصوف لخالتها، أو تقرأ أناشيد أطفال لأخيها (بابا) وتحاول أن تعلمه كيف يردد عبارة (با ـ با ـ خروف أسود) حتى يستحيل الصوف إلى كرات مرصوصة ملأى بالعقد ويعجز بابا عن إبداء أي استجابة لما تريده منه سوى رسم ابتسامة باهتة على وجهه يمنحها للقطة فحسب. ثم تذهب للتنزه بين شجيرات الورد أو تصعد إلى شرفة السطح وتراقب بيم وراجا وهما يلعبان بطائرتي الورق.

واعترضت جو المدرسة العابق بالغبار الطباشيري الرمادي حادثتان صبغتا الجو بخطوط لونيه صارمة.

في الحادثة الأولى طغى لون الدم نفسه، وإن لم يكن مرئياً إنما كان محسوساً بكل فظاعته المشينة. جرى الأمر عندما كانت تارا في القسم الابتدائي من المدرسة وكانت غرفة الصف تقع في نهاية المبنى وبقربها تماماً عبر ساحة اللعب الترابية ينتصب صف من دورات المياه ذوات الحيطان والأسقف الصفيحية. وكان ثمة جو ينذر بالشر يحيط هذه المرافق يصد تارا عن دخولها وهي في حاجة شديدة لدخولها فكانت تعود إلى البيت وقد فقدت صوابها لشدة حاجتها إلى التبول، أو تعود وقد ابتل سروالها الداخلي واصفر لونه، وهي تفضل هذا على الذهاب إلى المرافق في وقت المدرسة.

وذات يوم وهي تحدق من وراء لوح كتابتها الاردوازي رأت

حركة غير مألوفة خارج الأبواب الصفيحية ومديرة المدرسة تقوم بحركات تنم عن الانفعال بطريقة بدت غريبة على رصانة تلك المرأة ومعها رجل ببدلة غريبة من سروال خاكي قصير وقميص، مع قبعة هندية من الفلين تستقر فوق أذنيه البارزتين وهو يتنكب بندقية من أيام (كبلنغ).. أطلقت تارا شهقة تحذير نبهت البنات الأخريات فشرعن ينظرن إلى المشهد ثم تعالى صياحهن، ولم تكن تارا الوحيدة في اكتشافها للمشهد المروّع، كانت المعلمة حائرة بين واجبها في حفظ النظام وبين فضولها لمعرفة ما يجري هناك.

ما حدث أن كلباً مسعوراً تسلل إلى مبنى المدرسة وزحف إلى أحد تلك المراحيض الصفيحية، ولم يعلم أحد كيف استدعي الموظف البلدي المكلف بمطاردة الكلاب. ورغم ذلك، كان الرجل حاضراً يحمل بندقيته من أجل قتل الكلب.

وعندما سمعت مسؤولة المدرسة الإنذار يتردد في مبنى المدرسة الابتدائية، تركت عملها البغيض وهرعت لتحبس الطالبات في الصفوف وأوصدت دونهن الأبواب والنوافذ لتحول بينهن وبين الرؤية.

لم تشهد البنات شيئاً مما حدث، إنما بالكاد سمعن صوت إطلاق النار متبوعاً بعويل الكلب الذي كان يثب ثم يهوي مثل الدم المنبجس من جسده، ليسكت تماماً بعد الطلقة الثانية. ضجت بعض الطالبات وأحدثن صخباً وهياجاً وهرعن ليتفرجن على الكلب وهو يسحب من قوائمه عبر ساحة اللعب من قبل قناص الكلاب المضحك بملابسه الخاكية.

وتعالى صراخهن: آه، أنظرن.. الدم.. الدم في كل مكان..

لم تشاهد تارا شيئاً بل كانت تضغط بأصابعها على عينيها حتى انبثقت منهما نجوم حمر وزرق بسبب إغماضهما. لكنها كانت تحس بالدم المراق وكأنه قد أريق عليها وغمر قدميها، ساخناً كثيفاً، حياً ولم تزعج والديها بالحديث عن الكلب على النقيض من بيم وراجا، فهي تعرف ما يقصده والدها عندما يتحدث بصورة مبهمة عن أخطار داء الكلب.

أما الحادثة اللونية الأخرى فقد كانت الأكثر فتنة وسحراً بين أحداث سن المراهقة التي قامت بها الطالبات تجاه معلمة لهن.

كانت المعلمة امرأة شابة فياضة بالحياة على نحو استثنائي، فاتنة محبوبة لها عينا قطة رماديتان غريبتان تحتلان وجهها النحيل، يثيرها الآخرون بسرعة. وحتى تارا تستثيرها، لكنها بالرغم من ذلك لم توظف جمالها للتأثير في الفتيات الصغيرات اللواتي كن تواقات لإضفاء لون بهيج على حياة أحادية اللون باهتة.

وإذ كانت المعلمة مختلفة، وغير مهتمة باللياقات تماماً، أخذ الناس يثرثرون ويتحدثون عنها، ومنذ وصولها وبينما كانت تارا تقوم بتجربة تمهيدية للحركات التي سوف تؤديها أمامها وهي تقدم لها باقة من زهور البزاليا العطرية وتتطوع لتحمل عنها كتبها، حدثت همهمة وتهامس عن فضيحة ما في جو المدرسة، فقد استدعيت المعلمة من قبل المديرة واتهمتها بسوء السلوك ومخالفة التعليمات، ولم يعرف أحد بالتحديد طبيعة التهمة الموجهة إليها، غير أن الطالبات كن يتهامسن بشأن شاب أشقر غريب يميزه وجه ناسك متعبد وهو يرتدي مسوح الرهبان المصبوغة بالزعفران قد شوهد وهو يتسكع لدى بوابات المدرسة.

وشوهدت المعلمة الآنسة سينغ وهي تمضي مسرعة بعد

الخروج من المدرسة وكانت تحضر إلى الصف صباح كل يوم وعيناها الشاحبتان تومضان ببريق ساطع وتعترف وهي تضحك أنها لم تكن تمتلك الوقت لتصحيح الكراسات، أو لتحضير درس جديد لهن، فهل بوسعهن أن يقرأن بعض الشعر بدل الدرس الجديد؟

وافتتنت تارا بالأمر، وقالت البنات إن للمعلمة «صديقاً» ومن أجله نادتها المديرة..

فهل ستحاول المعلمة الهرب مع عشيقها؟ الفرار مع الراهب البوذي الأشقر؟..

وتفاقمت الأقاويل واتسع نطاقها وخرجت الآنسة (سينغ) من غرفة المديرة وقد احتقنت عيناها بالدموع، وفي الصف تهاوت تماماً على مرأى من طالباتها الفزعات اللاتي لم يعرفن ما يجب عليهن فعله، هل يتقدمن منها بكل تعاطفهن ومناديلهن، أو يطأطأن رؤوسهن ويتظاهرن بكل تهذيب أنهن لم يلحظن عليها شيئاً؟

وتغيبت الآنسة (سينغ) أياماً عن المدرسة، وحلت المديرة محلها في دروسها فوجدت الطالبات منفلتات متمردات هائجات، وفي حالة عصيان غريبة، فاعطتهن خمسمائة سطر ليكتبنه قصاصاً على سوء سلوكهن.

لم تكن الآنسة «سينغ» قد غادرت، فقد اكتشفن ذلك عندما وقفن في حوض الزهور تحت نافذتها وسحقن الأزاهير وهن يرفعن بعضهن ليسترقن النظر إلى داخل غرفتها، فوجدنها نائمة بكامل ثيابها على سريرها وقد حجبت عينيها بخرقة مبلولة، ورسغها النحيل يتدلى ذابلاً خارج السرير بلا حول ولا قوة، مما أثار إشفاقهن. هن اللواتي سبق لهن أن قرأن قصة (لورنا دون) وقصة

كاميل وانسحبن على رؤوس أصابعهن وهن يشعرن بالرهبة إزاءها وأخذن يصوبن نظرات الاتهام إلى المديرة عندما دخلت الصف وهي تهز نظارتيها المعلقتين بشريط أسود حول عنقها.

جمعت تارا باقة من زهور (البانسيه) (ورد الصورة) بألوانها البنية والأرجوانية من الحديقة لتأخذها صباح الغد إلى المدرسة، ولكن الآنسة سينغ كانت قد رحلت في ذلك الصباح وغادرت وهي تحمل حقائبها من دون كلمة ودون أن تودع أحداً من طالباتها حتى تارا التي كانت تقف لدى باب غرفتها المفتوح حاملة باقة زهور البانسيه التي تبدو كأنها وجوه أطفال بعيونهم الواسعة.

ساء ذلك تارا وآذاها، كانت قد فكرت بخطة لمساعدة الآنسة (سينغ) أن تتطوع لنقل رسائلها وإيصال كلماتها إلى الراهب البوذي الأشقر، أو إلى أي أحد سواه ممن قد يكون سبباً لمشكلة الآنسة (سينغ) فقد تسللت إحدى الفتيات قريباً منها وخطفن من يدها باقة زهور البانسيه ثم جرت وهي تضحك منها.

وفي البيت استنكرت بيم اكتئابها واستغراقها في التفكير بموضوع الآنسة (سينغ) فما كان من تارا إلا أن انفجرت بالبكاء وهرعت نحو الخالة ميرا تشكو إليها بيم، وعنفت الخالة بيم لوقاحتها غير أنها مدت لسانها هازئة ولم تتراجع عن موقفها.

جثمت سحابة هائلة من التهم فوق رأس مديرة المدرسة، ورفضت الطالبات تقبل دورها في هذه القضية الموجعة، وقد بلغ الاستياء حداً أقرب إلى إعلان العصيان.

ونسجت أكثر الفتيات تمرداً بعض الأحابيل الماكرة للسيدة العجوز حتى أنهن أعددن خطة لفتح أقفاص الطيور التي صُفت على امتداد شرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً وإطلاق ببغاواتها الأليفة

كلها، إلا أن بيم ظهرت على مسرح المؤامرة أشبه بعاصفة رعدية وعيناها تومضان ببريق الغضب، وحالت بينهن وبين تنفيذها (وكانت تارا من بين أفراد العصبة المتآمرة).

ـ ألا تعلمن؟ أن المديرة الآنسة ستيفن تحتضر الآن وأنها ستموت بالسرطان؟..

تراجعت الآثمات وانكمشن عند السياج فزعاتٍ غير مصدقات وغمغمت أكثرهن جرأة:

ـ ما الذي تعنينه يا بيم؟ إنك تختلقين القصص لنا.. من أين لك أن تعرفي بذلك؟

همست بيم: أنا اعرف، أنا اعرف لأنها ذهبت إلى المستشفى لمقابلة (د. شيريان) وأخبر (د. شيريان) خالتي ميرا عندما تقابلا في حفل الشاي أن الآنسة ستيفن مريضة بالسرطان، وأنها ستموت وهي في حالة يرثى لها من فظاعة الألم الذي تعانيه. لكنها تمتلك من الشجاعة ما يؤهلها لمواصلة عملها وتسيير شؤون المدرسة.

ثم فوجئت الآنسة ستيفن صباح اليوم التالي بمجموعة طائعة مستكينة من الطالبات لم تعهدها من قبل، فلم تكن هناك متفجرات بروائح نتنة، ولا بالونات ماء وليس ثمة أصوات منكرة فظة، إنما كانت الفتيات على النقيض من ذلك خافضات رؤوسهن بخشوع فوق كتاب التراتيل وهن يرتلن:

«قرّبني اللهم إليك»

بأصوات مفعمة بالخشوع، وقد ترقرقت الدموع في أعين بعضهن بينما أخذت الأخريات ينشجن بصوت مسموع.

لم تكن تارا بينهن، بل كانت تقف في حداد حجري صامت

ليس من أجل الموت البطيء الذي يخيم حول الآنسة ستيفن، بل من أجل الموت المباغت لقصة الحب التي روتها أختها بيم بأسلوب مؤثر. وانكبت في الصف على أشغال الإبرة، واستغرقت في التفكير بالآنسة (سينغ) وهي مستلقية على سريرها وتذكرت رسغها النحيل المتدلي، والبوذي الأشقر الذي كان يتسكع قرب الأبواب، إنها أول قصة حب حقيقية حية تشهدها. وواصلت تغذية حقدها على الآنسة ستيفن وأختها بيم حتى تلاشتا من ذاكرتها بمرور الوقت وكساهما الفطر والعفن الرمادي ذاته مثل بقية الأشياء الأخرى داخل الأسوار الحجرية لمدرسة الإرسالية التبشيرية.

وامتدت أيام الدراسة بكل مرونتها الفائقة، امتدت على السنوات.

وأصاب البنتين شيء من عدوى استياءات راجا وعدم رضاه، فقد جعلت بيم أشد طموحاً في المدرسة، وأخذت تعمل جاهدة لتنال المرتبة الأولى في الامتحان وتحصل على درجة الشرف، ولم تكن تعرف بالتحديد إلى أين سيفضي بها تفوقها، إلا أنها كانت مدركة أن الطريق ستأخذها بعيداً.

ولكن بعيداً عن أي شيء؟..

ولبثوا غير قادرين على الجواب، وعاجزين عن فهم جو الاستياء الذي يسود بيتهم، ولم يتوصلوا إلى معرفة كنه ذلك الاستياء الذي كان في الحقيقة ناشئاً عن الغياب الدائم لوالديهم أو لامبالتها الكلية ـ كما يبدو ـ بأبنائهما وانشغال كل منهما بالآخر.

إنه عذاب أمهما المخفي اليائس، هو أصل كل تلك الأحزان القاهرة وذلك القنوط الصامت الذي يعم البيت. ثم هناك خُيبتهم بالطفل (بابا)، هذه الخيبة الحقيقية الماثلة أمامهم، ومستقبل هذا

الطفل، الذي لا رجاء فيه، وقلقهم بشأنه.

كان الأولاد يتحسسون كل تلك الأمور لكنهم لا يتحملون نصيبهم من المأساة إلا كُرهاً واضطراراً، فقد كان (بابا) بالنسبة لهم طفلاً أبدياً لا يكبر قط، وكانوا يحسون أن سحره يكمن في هذه النقطة بالذات من دون أن يفكروا بعمره الحقيقي.

عندما أصبحت بيم المراقبة الأولى في مدرستها حضرت المديرة إلى البيت لتقديم التهاني لوالديها على نيلها هذا الشرف، ولم يكونا موجودين في البيت فتناولت الشاي مع الخالة ميرًا، ولشدة ارتباك الخالة ميرا وفرحها واغتباطها بالزيارة سكبت الحليب في وعاء السكر وقدمت مصفاة الشاي بدل أن تقدم البسكويت، وكان ألمها وألم البنتين كبيراً بسبب هذا الارتباك، ثم حصل راجا على جائزة الشعر التي تقدمها مجلة المدرسة، كانت قصيدته التي تتحدث عن معركة (بانيبات) قصيدة جيدة، رنانة بوفرة وتنوع قوافيها وايقاعاتها وليس فيها ما يُعاب عليها، ورددها أصدقاؤه وأنشدت في مباريات كرة القدم وسباقات الدراجات، وعندما أشار إليه المدرس بقوله:

(إن (لورد بايرون) الشاب يعيش بين ظهرانينا) لاح أن مصير راجا قد تقرر واتضح مستقبله، وعندئذٍ حصل صدع صغير في القوقعة الحجرية التي انغلقت عليهم في البيت، فأصبحوا عرضة لضوء مغوٍ مثير يومض وينطفئ على نحو موصول: المستقبل...

وذات صيف وكانتا مستلقيتين على حصيرة الخيزران بدت اللعبة التي كانتا تلعبانها عديمة المعنى:

ـ ما الذي تحبين أن تأكليه أكثر من سواه؟

ـ البطيخ الأحمر.

ـ قطعة من الثلج.

ـ ما الذي تفضلين شربه دون سواه؟

ـ بيرة الزنجبيل..

ـ فيمتو..كلا.. آه ها..

انقلبتا على بطنيهما في حركة تمرد على التفاهة والسطحية التي أحاطت باللعبة كلها، ولم تلبثا طويلاً حتى لفتا الحصيرة وانسلتا حافيتين إلى غرفة راجا الذي لم يكن قد عاد من المدرسة بعد ونام كل من في البيت.

بوسعهما الآن أن تفعلا ما يروق لهما، فما الذي ستقومان به مما يشكل تحدياً كبيراً؟

ما هو الشيء الأكثر تطرفاً وخروجاً على القانون، يمكن القيام به في فرصة مواتية مثل هذه؟

بحثتا وتشممتا وجاستا في المكان للحصول على شيء.

كانت هناك نسخة راجا من ديوان الشاعر (إقبال) مبقعة، وقد بليت صفحاتها لفرط التقليب وامتلأت هوامشها بالتعليقات والعلامات وأوراق راجا المتناثرة وقد امتلأت بخط يدوي بديع لم تتمكنا من قراءته فأضفت عليه عيونهما المسحورة صفة خاصة وقيمة مميزة. لكنهما اليوم تفضلان العثور على صورة فوتوغرافية لا تتوقعان وجودها، أو منديلاً لشخص غريب، ترى ما الذي حدا بالأختين لمثل هذا التوقعات الصادمة.

كانتا تشعران أن مثل هذه الأسرار لا بد أن تنكشف اليوم ولا تبقى مصانة محفوظة.

جلستا القرفصاء وشرعتا تنقبان في رفوف مكتبته حيث تستقر

دواوين الشعر الأوردي جنباً إلى جنب مع الكتب الأمريكية بطبعاتها الشعبية كبيرة الحجم الخاصة بالجيش الأمريكي والتي كان قد اشتراها مستعملة من سرداق (سيرك كونوت).

كتاب (ليلة في بومباي) (لويس برومفيلد) (الكوميديا الإنسانية) لـ (وليم سارويان) (هكلبري فن)، (موبي ديك)، (ساعي البريد يطرق مرتين) إلى جانب مجلدات خضراء ضخمة تضم (كيتس) و (شيلي) و (بليك) و (دون) وأشعار (ذوق) و (غالب) و (داغ) و (حالي) في طبعات رخيصة صفراء.. هذا الخليط العجيب من القراءات والذي جَبَلَ شخصية شقيقهما الرومانسية المدهشة والذي يمثل لهما حالة مستحيلة لا تصدق..

كانت تجلسان القرفصاء بجانب المكتبة الطويلة الواطئة في أوقات العصر وعلى مدى أيام لا تحصى وهما تقرآن وراجا مستلقٍ على سريره، نائم أو نصف يقظٍ، يدندن بأغنيات يبدو أنها كانت تحتدم تئز في أعماقه أشبه بسلك خفي متوتر يتوهج، أما اليوم فإنهما تتطلعان إلى مزيد من الأشياء من راجا، ولراجا.

وأخيراً فتحتا الخزانة التي تضم ثيابه وشرعتا تبحثان وتنبشان قمصانه وتقلبانها وتدسان جواربه ومناديله في الزاوايا وهما تواصلان التنقيب في الخزانة، قالت بيم وهي تحمل سروال راجا إلى مستوى خصرها:

- أنظري يا تارا، أكاد أبلغ طول قامة راجا.

قهقت تارا متسافهة.

- كلا.. إنك لن تبلغي طوله، راجا طويل بالغ الطول، فأسرعت بيم وأدخلت ساقيها في السروال ورفعته إلى مستوى صدرها ودست فيه أطراف ثوبها ثم أنزلته إلى مستوى وركيها

وعادت تبحث في الخزانة فعثرت على حزام لتثبيت السروال حول جسدها.

ارتفعت قهقهات تارا وهي تضحك ساخرة منها، ودست يدها في فمها وقد اغرورقت عيناها بدموع الضحك أمام مرأى بيم وهيئتها الغريبة في السروال الخاكي العتيق المحزوم فوق فستانها المنقوش بالزهور وشعرها الأسود ينسدل حول وجهها المستثار الدافئ.

ثم وجدت بيم سروالاً آخر أبيض، كان يرتديه راجا أثناء ممارسته لعبة التنس فقدمته إلى تارا:

عندئذٍ واجهت تارا كثيراً من الحرج والارتباك وهي ترتديه فوق فستانها وتربطه حول جسمها النحيل الدقيق. ثم نجحت في ترتيبه على أفضل وجه لتظهر للعيان بهيئة أولئك الشبان المتأنقين الناعمين الذين يؤدون أدوار البنات على خشبة المسرح.

وجمعت شعرها وضغطته قرب رأسها ليبدو وجهها أكثر صبيانية، تبخترت البنتان في أنحاء الغرفة وهما ترتديان السراويل وقد ساورهما إحساس بتغير غريب مضحك إذ وجدتا نفسيهما في السراويل، إحساس تعدى المظهر إلى الحركات والقدرات، فانفتحت أمامهما بغتة إمكانات لا متوقعة، إذ حجبت سيقانهما على نحو عملي محسوس، فهما ليستا بعد بحاجة إلى الاهتمام بما يظهر من تحت فستانيهما الواسعتين، ولن تفكرا بما ينقصهما وما ينبغي لهما أن تحجباه أو تخفيانه.

لماذا يتوجب على البنات أن يرتدين الفساتين؟.. فجأة اكتشفتا سبب اختلافهما الكلي عن شقيقهما، وعرفتا لماذا كانتا في درجة أدنى، وغير جديرتين بالاهتمام مقارنة به، كان ذلك كله

بسبب من عدم ارتدائهما للسراويل.

وضعتا أيديهما في جيوب السراويل، فأحستا بالمزيد من التفوق، أي إحساس بالامتلاك والثقة يتملك المرء إذا وجد جيوباً يدس فيها قبضتي يديه، لكأنه إذ امتلك تلك الجيوب فقد حظي بالثروة والاستقلال.

استخف بهما الطرب، وهما تريان بهاءهما في ارتداء السراويل، فما كان من بيم إلا أن اندفعت نحو المنضدة وسحبت الدرج العلوي الذي كان راجا يخفي فيه سكائره، فعثرت على علبة مفتوحة انفرطت منها بضع سكائر من نوع رخيص رخوة التعبئة، تفوح منها رائحة كريهة، فوضعتها في جيبها مع علبة الثقاب وأخذت تختال مزهوة في أنحاء الغرفة وهي تتحسس السكائر والثقاب في جيبها مدركة على الفور سبب اختيال راجا ولا مبالاته الرائعة. آه لو كانت تمتلك جيوباً لو كانت تمتلك سكائر، إذاً، لكان من الطبيعي لها أن تميس وتتبختر وتحس بالثراء والتفوق والقوة.

رمقت تارا بنظرة وهي تختلج بالنشوة لترى ما إذا كانت تارا تقاسمها بهجتها وانتشاءها، وتمتمت:

ـ فلنذهب للتمشي خارج الغرفة يا تارا وصاءت تارا:

أوه يا بيم، كلا..

وحشرت نفسها في الزاوية جوار المنضدة وقد أفزعها ذلك الاقتراح:

كلا.. كلا يا بيم.

ـ هيا يا تارا لن يرانا أحد، فالكل نيام..

صاحت تارا محذرة بينما كانت بيم تفتح الباب باحتراس وتدلف إلى الشرفة لتتطلع خارجاً:

ـ قد يكون البستاني في الحديقة.

ـ أوه، إنه شبه أعمى سوف يظننا أصدقاء راجا.

ونثرت رأسها محركة شعر جُمتّها لتظهر مدى اعتدادها بنفسها، ثم انسلت إلى الشرفة بخفة ولم يثنها السطوع الباهر لضوء العصر.

ـ هيا، هيا..

همست بنبرة قاسية لتارا التي لم تلبث أن خرجت مسرعة وهي تغمغم وراءها وهبطتا السلم نحو الحديقة معاً، فجعلهما الضوء الأبيض الساطع والحرارة النحاسية تطرفان بأجفانهما وتتعثران في خطاهما.

ـ هيا..

همست بيم ثانية، واندفعت نحو شجيرة جهنمية هائلة متفتحة الأزهار بجانب السلم..

ها هما الآن تواصلان زحفهما، محدثتين خشخشة في الأوراق إذ جلستا على الجذور الناتئة وأكوام الأوراق الجافة تقهقهان ساخرتين من ارتياعهما. ولكي تعوض بيم عن هذه الانتكاسة في الثقة والاعتداد بالنفس، طرأت لها فكرة خاطفة: أن تذهبا إلى المرآب ثم تأخذان دراجتيهما وتقودانها وهما في سراويلهما.

سحبت بيم السيكارة وعلبة الثقاب من جيبها وتمتمت: فلنجرب..

وانحنت بسبب غصن شائك اشتبك بشعرها وضرب رأسها:

ـ كلا.. يا بيم.. كلا..

صاحت تارا مرتاعة فزعة، وكانت أختها تمسك بقيادها وترغمها على مواجهة الرعب مرة أخرى.

وعبثاً حاولت المقاومة، لأنها لم تكن تثق بأختها بيم، بيم لا تعرف متى تتوقف، وإذ أسقطت من حسابها بعضاً من الخيال المجرد صممت على أن تحول كل ألعابها إلى واقع ملموس، وفاجع كالعادة، وفي لحظة تثير الفزع والاشمئزاز تخطت بيم حدودها وبدأت بالانحدار نحو هاوية الفاجعة محاولة أن تسحب أختها معها.

أبدت تارا معارضة ضعيفة: أوه، كلا.. قالت بيم متذمرة وقد نفد صبرها:

ـ ولكن لماذا ترفضين فكرة التدخين؟.. إن راجا يدخن وأبي وأمي يعرفان الأمر، وينبغي لنا أن نجرب ذلك مرة واحدة في الأقل.

ووضعت بين شفتيها سيكارة وأشعلت عود ثقاب وأرّثت السيكارة وسط سحابة من دخان لاذع أصفر، وأخذت تمج الدخان بقوة حتى جحظت عيناها وامتلأتا بالدموع، ثم ناولتها لتارا وأشعلت لنفسها أخرى، إلا أن تارا سرعان ما ألقت بالسيكارة بعد أن تجرعت نفساً واحداً منها وهي تدمدم بكلمات الاشمئزاز..

صرخت بيم وهي ترى السيكارة تسقط على كومة من الأوراق والهشيم، وقفزت لتسحقها قبل أن تتحول إلى شعلة، واشتبك شعرها بشجيرة الجهنمية، وبغتة أحست أن السروال قد أعاق حركة

ساقيها، هذا السروال الذي لا يناسب قوامها، وسمعت تارا تجاهد للخلاص من الشجرة وتعالى صوت غير محدد من مكان ما، وفتح باب المرآب على مصراعيه ولم يتبق أمامها سوى أن تلقي بالسيكارة بعيداً نحو الممشى، وتهرع وراء تارا مرتقية الدرجات نحو غرفة راجا، وصل أحدهم إلى الشرفة.. إنه.. إنه من يا ترى؟

إنه راجا..!.. راجا الذي عاد مبكراً جداً من المدرسة، لماذا؟..

وصرخت إحداهما لتحث الأخرى على الإسراع في هربها. وركضتا نحو حمام راجا لتتخلصا من السراويل بينما كان راجا قد وصل غرفته فسمعتا صوتاً لحزمة من الكتب توضع على المنضدة وتتناثر عليها، أتراه سمع؟ أم أنه رآهما؟

صاح وهو واقف عند باب الحمام:

- من في الداخل؟.. افتح..

لكنهما أزلجتا الباب، وخُلِعت السراويل وتطايرت نحو الزاوية أحست سيقانهما بالعري والافتضاح. فتحتا الباب الخارجي ومرقتا مسرعتين وراجا يقرقع الباب الداخلي للحمام ويصرخ: أعرف أنكما أنتما أيتها الوقحتان، أخرجا حالاً وإلا.. أيتها الإرهابيتان.

لم يكن غِلاً ما دعا تارا لهجران بيم ولا كان سوء طوية، ولا نوعاً من الانتقام، إنما كان الخوف من العنكبوت القابع لتارا وسط عالم من نسيج، أما الآن فإنها قد تخلت عن بيم تخلياً حقيقياً.

وذات يوم في أوائل الربيع اصطحبت عائلة ميسرا الفتاتين معهما في نزهة إلى (حدائق لودي) وكان أوان تفتح زهور

(البغنونيا)[1] التي غطت عناقيدها جدران مقابر لودي القاتمة بأرْدِيةٍ مسدلة من اللون البرتقالي المتوهج.

استلقى المتنزهون على العشب تحت الشمس العسلية المذهبة وأخذوا يتسلون بتناول الفستق الموضوع في مخاريط ورقية ويقشرون البرتقال ويشجع أحدهم الآخر على الغناء..

كانوا قد دعوا معهم إلى النزهة شابين باعتبارهما خطيبين محتملين للشقيقتين (جايا) و (سارلا) وقد رتبت النزهة لتهيئ جواً عفوياً للقاء الأول بعيداً عن الرسمية والتزمت، ومع ذلك كانت عيون الآخرين تحدقان بمن عداها بنظرات حادة جارحة، أكثر حدة من الشفرات القاطعة، باترة، باترة، باترة، مما حدا ببيم وتارا إلى الإحساس بأي شيء خلا الشعور بالعفوية، فقد ازداد قلقهما وتوجسهما، أما ابنتا آل ميسرا فقد غدتا أكثر تصنعاً وغرابة في حديثهما وسلوكهما فلا تكاد تارا وبيم تفقهان شيئاً منهما، بينما كان الشابان المدعوان متجهمين وصامتين طوال الوقت تقريباً وقد غاص رأساهما داكنا الشعر بين أكتافهما وهما يهشمان أعواد العشب بغمٍّ بالغ ويتفاديان النظر أحدهما إلى الآخر.

وحدهم أبناء آل ميسرا تركوا أنفسهم على سجيتها في المزاح والتهريج والفظاظة على جري عادتهم وهم يروون فكاهات نابية ويقومون بما ينبي عن سلوك سوقي مبتذل وإن كان الأمر قاصراً على التلميح دون التصريح..

عندئذٍ بدت أعراض عدوى السلوك الحي المصطنع لبنات

---

(١) البغنونيا: نبات متسلق تظهر زهوره بشكل عناقيد من أبواق طويلة برتقالية ساطعة اللون مليئة برحيق حلو. (المترجمة)

ميسرا والمظهر المتكرر المهموم للشابين العاشقين تظهر على بيم وتارا، فلم تعرفا أسلوباً للتعامل مع ابنتي ميسرا أو مع الشابين أو مع أبناء عائلة ميسرا واحتارتا كيف تذودان عن نفسيهما مزاح الشباب الماجنين، أو كيف تكونان أكثر مهارة وسرعة خاطر كما كانت سارلا وجايا.

وإذ كان الآخرون منهمكين بفتح سلال طعام النزهة، ابتعدت بيم وتارا وتجولتا بعيداً بعد أن أعلنتا أنهما ستتفرجان على القبور..

ارتقتا تلة صغيرة وقد لفهما الصمت وبلغتا أحد الأضرحة الصغيرة ووقفتا في تردد وهما تتفرسان بحواف جدرانه المسوّدة، عندئذٍ عنَّ لهما أن تفترشا العشب وحيدتين، إلا أن صبياً يرتدي منامة مخططة ويعتمر قبعة لاعبي (الكريكت) كان يتسكع في الرواق ثم يتكئ على عمود، فلمحهما وهو يعبث بحصاة وينقلها من يد لأخرى، وبعد لحظة من التردد اختارت البنتان أن تجلسا في ركن منفرٍ داخل مبنى الضريح فأحاطت بهما رائحة الخفافيش النتنة الباعثة على الغثيان والدوار..

فاضطر الفتى لأن يقذف الحصاة نحوهما.

سمعتا ضربة مبهمة إثر ارتطامها بشيء رقيق وأعقبت ذلك هسهسة مريعة بدأت تتصاعد من زاوية في عتمة القرص الثماني الأضلاع للخلية. وبدأ يدوّم حولهما طنين ضاج ينذر بالخطر في الوقت نفسه أخذ يتهاوى نحوهما حتى أدركتا ما يعنيه كل ذلك، وما بين صراخهما وعجالتهما ارتطمت إحداهما بالأخرى وركضتا معاً، وانحدرت تارا على جانب التلة المعشوشبة مطأطأة الرأس ويداها تغطيان أذنيها وهي تصرخ مثل صافرة. وإذ بلغت أسفل

التلة تلفتت تبحث عن بيم فاكتشفت أنها لا تزال عند قمة المرتفع ولم يتسن لها الإفلات. فقد نال منها سرب النحل وأحكم الطوق حول رأسها وكتفيها وهو يحيط بها بهيئة خوذة حلقية، تلتمع ببريق معدني أزرق والنحل يرتعش ويدب على جلدها ويلتصق به..

كانت بيم مطأطأة الرأس وذراعاها معقودان أمام وجهها مثل أختها تماماً، سوى إنها لم تكن تصرخ، وقد انعقدت حولها حلقة النحل كأنها الملكة المنتخبة التي غدت سجينة، وحجبت السماء بزرقتها الكوبالتية الساطعة ومنع عنها الهواء العسلي والمنحدر المعشوشب والمتسلقات المزهرة بعباءة من نحل أحاطت بها مثل سحابة مرعدة.

كان مهرجاناً حافلاً للنحل وبيم هي الأضحية المرصودة، أضحيته القربانية التي يسدل عليها الوشاح الشعائري وسحب قريباً من عنقها وهي واقفة في ارتعاشها وانحطاط قواها تحت وطأة الأجنحة الشفافة والطنين الأزرق والأسود..

ترى ما الذي ستفعله تارا؟ لقد عادت تركض يائسة نحو قمة التل غير أن النحل هبّ على الفور وأخذ يطن محذراً إياها ومنطلقاً باتجاهها.

صرخت وهي ترى السرب يكاد يلامسها وفعلت بيم الشيء نفسه وهي تراها من بين أجفانها المتورمة وكررت الصراخ بصوت أجش محتقن.

ـ اذهبي بعيداً، أركضي، أركضي..

وركضت تارا، هرعت نحو أسفل التلة عائدة نحو آل ميسرا مستغيثة طالبة النجدة.

وسمعوا استغاثتها أخيراً أو بالأحرى بلغتهم الصرخة المهتاجة التي تزامنت مع ركض تارا وهي بتلك الهيئة المجنونة، وإذ وصلتهم تهاوت عند أقدامهم.

تركوا مخاريط الورق المليئة بالفستق، تركوا الراديو والأغاني وراءهم وهرعوا ليتبينوا جلية الأمر، وأدركت تارا وهي ترتجف ما بين جالسة وجاثمة. أن (سارلا) و (جايا) قد اسرعتا نحو أعلى التلة ونشرتا خمار جايا الوردي فوق رأس بيم بينما كسر الرجال أغصان الشجر وأخذوا يسوطون بها الهواء وأحرق أحدهم صحيفة مبرومة وشرع ينشر دخانها ويلف به خلال الهواء كأنه سوط. وألقي الصبي الذي قذف بالحصاة على الخلية فوق العشب وأوجعوه ضرباً، ثم لفهّم ضجيج مغادرتهم نحو السيارات المنتظرة، وبدأت سارلا تمسح لسعات النحل بعصير الليمون الذي سكبته من الزجاجة بينما جلست بيم ووضعت رأسها في حجر سارلا وهي تغمغم: لا تلمسيني، بالله لا تلمسيني..

تورمت إلى حد كبير واصطبغت بلون أزرق بنفسجي غريب لا يمكن تحديده.

انزوت تارا في ركن من السيارة المكتظة ضئيلة ساكنة وأخذت تنشج بهدوء وقد أصابتها لسعة واحدة على سلامية اصبعها تحتاج إلى علاج.

ورغم أن إبرة النحلة لا تزال مغروسة في مفصل اصبعها، إلا أنها لم تجرؤ على طلب الاهتمام والعطف لأنها تعرف أن بيم تستحق الاهتمام أو العطف أكثر منها.

وبما أن المشهد كان حادثاً بحاجة إلى تفحص وعلاج حاسم، فقد شرعوا بسحب أبر النحل، وإذ تعالت الضجة

استطاعوا أن يستخرجوا الأبر كلها.

ولم تجد تارا الفرصة المواتية ولا الشجاعة الكافية لتذهب وتقول لبيم: إنني آسفة إذ هربت، أنا لست شجاعة، فلم أتقدم لمساعدتك، إنني أحس بالخزي، ولن أغفر لنفسي قط.. فسامحيني.

كما أن بيم لم تهتم بتفسير ما كانت تعنيه عندما صاحت بها: لن يكون ذلك نافعاً، فإذا ما بقيت ها هنا ستنالين اللسعات مثلي، يجب أن تهربي..

لكن راجا قال وهو يحتدم غيظاً منها:

ـ إنك لحمقاء يا تارا لماذا لم تبقي مع بيم لتساعديها في طرد النحل؟

قالت الخالة ميرا:

ـ ليست تارا سوى طفلة، ما الذي يمكنها أن تفعله؟

سكبت الخالة ميرا الخل من زجاجة مليئة بالخل المركّز فوق قطعة قماش صغيرة، فسالت دموعهم بفعل الرائحة النشادرية الحادة المتصاعدة من الخل، وشرعت تمسح بها جسد بيم.

هزت المربية العجوز رأسها رافضة هذا العلاج الذي لا جدوى منه، وأحضرت علبتها التي تحفظ فيها جوز نخيل الفوفل، ومدت أصابعها في القارورة التي تحوي عجينة الكلس وأخذت تلطخ اللسعات المتورمة في جسم بيم بالكلس، حتى غدا كانما نثر بهباءات من القطن فالتصقت به، أو لكأن زرعاً غريباً من الريش قد نما عليها.

وظل جسد تارا يقشعر وتكتسحه الرعشة كلما تذوقت عجينة

الكلس في أوراق (جوز الفوفل) أو شمت رائحة الخل، وإذاك تستعيد مشهد النحل المهاجم متقدماً في خط متعرج وهو يخرج من ذلك الضريح النتن المظلم ليحاصر بيم ويتركها منتفخة زرقاء اشبه بثمرة (برقوق).

بأيديهن استخرجن ابر النحل اللاسعة من جسد بيم، بيدي المربية العجوز والخالة ميرا إلا أن تارا احتفظت بإبرتها المغروسة في مكانها...

بدأت تارا تتجنب كلاً من بيم وراجا ولم تبدِ لها الخالة ميرا قدراً كافياً من الحماية. فهي برقتها ونحولها ما لا تقدر على إخفاء تارا عنهما إلا بقدر ما تستطيع قصبة هزيلة أن تقوم به. فأخذت تارا توصد باب غرفتها وتغلقها بالمفتاح أو تنسل بهدوء إلى بيت آل ميسرا المجاور.

كان آل ميسرا جيرانهم مذ وعت ذاكرتهم ما حولها، (وكلمة جيرانهم لم تكن تعني تلك الجيرة التي ينتقل فيها الناس، فقد ولدوا وتزوجوا ومات بعضهم أيضاً في البيت نفسه ولم يفترق أحدهم عن الآخر) غير أن الصداقة بين الأسرتين تحولت إلى محض صداقة اسمية لها ذلك الطابع الرسمي للصداقة السطحية، وكان راجا وبيم ـ بخاصة ـ محتقرين من قبل أبناء آل ميسرا الذين لا تجرؤ تارا على الاعتراف صراحة أنها لا تحمل لهم التقدير والاحترام.

وما عاد راجا ولا بيم بقادرين على كبحها أو منعها من الذهاب لأنهما كانا قد انشغلا في الاستعداد للامتحانات، وما عادا يلحظان تارا أو يلاحقانها باستمرار أو يتهددانها. فألفت نفسها حرة في الاقتراب من الدفء الذي كانت تشعر به وهو يفيض من أسرة

ميسرا، من الأسرة الكبيرة التي تتمتع بكل الخصال الفريدة المفعمة بالحيوية ومعالم الحياة المتحركة.

وعلى الرغم من كون ابنتي ميسرا، اللتين تدرسان في المدرسة ذاتها مع بيم وتارا، تكبرانها ببضع سنوات، إلا انهما كانتا تستجيبان لها بشيء من التردد المؤثر، الذي تحول إلى نوع من رعاية أبوية عطوفة، وسرعان ما تطور الأمر إلى ما هو بالتأكيد أقرب شيء للصداقة في تجربة تارا الخائبة. ما أحبته تارا في بيت آل ميسرا هو اختلافه عن بيتها، ورغم الاختلافات المظهرية الواضحة جداً في بيت آل ميسرا، فلم تجرِ محاولات للحفاظ على المظاهر كما هو الأمر في بيت تارا.

كان آل ميسرا واثقين من طبقتهم البورجوازية المتوسطة وصلابة وضعها ورسوخها، فلم يخطر لهم على بال أن يبرهنوا عليها، أو يثبتوا وجودها عن طريق الستائر المعلقة على النوافذ وإكساء الأرض بالسجاد وترتيب قطع الأثاث الثقيلة بوضعيات متناظرة وأن تزدحم الصحون على المائدة ويرتدي خدم البيت الصداري البيض وسواها من المكملات التي كان يعدها والد تارا أموراً أساسية لا يمكن تجاوزها أو الاستغناء عنها.

بينما كانت الأسرّة الحديدية المشبكة تُحمل إلى غرفة استقبال آل ميسرا وتنصب هناك لينام عليها الزوار من أقاربهم، وقد تفرش الحصران على أرضية الشرفة عندما تضيق الغرف بالزائرين.

أما وجبات الطعام فكانت تقدم كيفما اتفق، وإذ تقتحم أنوفهم رائحة طعام أُجيد طبخهُ وإعداده فإنهم يغمسون أصابعهم نافدي الصبر في أواني الطعام فور نضوجه بدلاً من مراقبة الساعة المنضدية لتعلن أوان تناول الطعام، وقد يتولى السائق رعاية الطفل

المدلل فيأخذه في السيارة جيئة وذهاباً باتجاه البوابة ليسليه وهو يؤرجحه بين ذراعيه أو يدعه يدير مقود السيارة، وتستدعى الطباخة لتقوم بتدليك قدمي الجدة العجوز. وقد تجري ترتيبات معقدة لإقامة اجتماع صلاة فوق المروج لإرضاء قريب مسّن، وبغتة يُلغى كل شيء، وعندئذٍ يكون بوسع (القبيلة) الذهاب إلى السينما بكاملها لمشاهدة آخر فيلم يعرض في دار السينما.

كانت عائلة ميسرا عائلة كبيرة تضم أجيالاً عدة تتوزع في أرجاء المدينة، إضافة إلى عدد ثابت من الأصدقاء والأقارب القادمين والمغادرين ممن ينظر إليهم بشيء من الازدراء.

تشكت ابنتا ميسرا على مسمع من تارا للصعوبة التي تواجهانها في مذاكرة دروسهما استعداداً للامتحان في مثل تلك الظروف، فكانت تعمدان في أحيان كثيرة إلى أخذ كتبهما إلى بيت تارا للمذاكرة في غرفتها، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً لأن رغبتهما في قراءة المواد المدرسية تكون في أدنى مستوياتها ومتذبذبة في أفضل الأحوال. وغالباً ما تهجران المذاكرة، وتبدآن جولة لشراء الثياب والأساور، أو لحضور احتفالات عائلية كالأعراس أو مراسيم إطلاق الأسماء، فتهملان الواجبات المدرسية ولا تقومان بإنجازها وتتركان تارا مهجورة حاسدة.

لكنهما تلحظان تارا وهي تقف على السياج ناظرة بعينين تستجديان العطف وعندئذٍ تصحبانها معهما، بالرغم من حيائها المفرط وحرجها، إذ تجد نفسها في مجتمع تدرك جيداً أنها غريبة عنه، فتستمتع بهذا الخرق للرتابة وتغيير الأجواء لتعود إلى البيت متوهجة، مستثارة حتى ليتعذر عليها معه النوم، وإن لم تزد نزهتها في الحقيقة عن زيارة للخياطة أو لمحل جواهري في المدينة.

وذات يوم شتوي قارص، تجولت معهما وهي لا ترتدي سوى سترة صوفية عتيقة ارتدتها فوق زيها المدرسي الذي لم تشأ تغييره لفرط كسلها. فوجدت العائلة بأكملها جالسة في الحديقة متخذة وضعية التصوير أمام مصور محترف كان يرمقهم بنظرة غاضبة من وراء قماشته السوداء وآلة تصويره الضخمة ساعياً إلى ترتيبهم في صفوف مستقيمة، بعضهم فوق المقاعد وآخرون وقوفاً على الأقدام، ثم عمد إلى وضع الصغار في المقدمة والكبار في الخلفية. تراجعت تارا إلى الوراء آملة أن لا يروها من وراء السياج، إلا أن ابنتي ميسرا لمحتاها فاخترقتا الصف مندفعتين نحوها وسحبتاها من يدها لتقف إلى جوارهما وتظهر في الصورة، وقد عبرتا عن كرمهما وعفويتهما وضيافتهما النزقة، وكانت النتيجة ظهوراً ناشزاً غير لائق لتارا وهي تتدثر بمعطفها الصوفي الرمادي أشبه بجرذٍ قرصه البرد، وقفت مع المصطفين من عائلة ميسرا وهم في بهرجة حريرهم وثيابهم المطرزة بخيوط القصب وقد اتخذوا وضعيات ساكنة من أجل هذه الصورة التذكارية للعائلة.

عندما رأتها تارا بإطارها الفضي وقد علقت فوق خزانة الطرف والتحفيات، أشاحت عنها في حرج لا مزيد عليه، ولو كانت أصغر قليلاً، إذاً لأقدمت على سرقتها ومزقتها أرباً، لكنها الآن أكبر مما ينبغي للقيام بمثل هذه المغامرة، إنها كبيرة إلى الحد الذي لا يسمح لها القيام بمغامرة من هذا القبيل.

أدركت ابنتا ميسرا الأمر بطريقتهما الواقعية المسلّم بها، فأخذتا تدعوانها لمشاهدة الأفلام السينمائية معهما أو تصحبانها إلى نادي (روشونارا) حيث تفترش العشب وهي ترشف عصير الليمون وتصغي إلى الفرقة الموسيقية في جلسة متصلبة أشبه بدمية، وهي

تعي أنها سوف تكون محط أنظار الشبان العائدين من ساحات التنس أو ملاعب الكريكت أو أولئك الذين يتحلقون حول البار.

كانت تجربة روائية بالنسبة لتارا التي كان والداها يلعبان البريدج في (أكواريوم) أخضر مضاء غارق في الصمت في صالة لعب الورق، غافلين أو غير مباليين بحضور ابنتهما إلى النادي وخروجها من البيت.

هذه الابنة التي ما خطر على بالهما أنها لم تعد طفلة بل شابة صغيرة وقد يروق لها أن يصحباها في خروجهما من البيت.

أما ابنتا ميسرا فقد وجدتا نادي (روشونارا) مضجراً مملاً فهما لا تمارسان لعبة التنس ولا ترقصان، وتعرفان كل العوائل المعروفة في (دلهي القديمة) وقد توزع أفرادها في الشرفات وفوق المروج في مجموعات تقتعد كراسي الخيزران، وكانتا مطلعتين على تفاصيل حيوات تلك الأسر كلها وتعرفان أن ليس بوسع أي منها أن يمنحهما شيئاً جديداً، أو مثيراً لخيالهما.

والى جانب كونهما مخطوبتين وتستعدان للزواج. فقد كانت نزهة (حدائق لودي) شؤماً كبيراً بالنسبة لبيم وتارا، ولكنها أتت أُكُلها بالنسبة لجايا وسارلا، فالحياة لم تعد تحتمل الوعود الوهمية والتوقعات كما كان الأمر بالنسبة لتارا.

وكانتا تستمتعان برؤية تارا جاثمة على كرسيها وهي ترتجف وتلقي بنظرات سريعة على المشهد بكامله من حولها ثم تطرق بعينيها شبه خائفة مما ترى..

قدموا لها شراب (فيمتو) وأعارتاها بعض الحلي لتتزين بها، وقدمتاها إلى العائلات التي تعرفان كل شيء عن حياتها، لكنهما

أسدلتا ستاراً على ظروف تارا وأسرتها، وكانتا تتأثران تأثراً عميقاً وهما تجدان تارا تطرف بعينيها مذعورة وتنظر حولها، فتجعلهما تحسان بالوقار والتفوق، وهما الخيرتان الحكيمتان، وتتنازلان للتعطف عليها.

ارتدت تارا أول ساري من الحرير لها في حفلة خطبة ابنتي ميسرا، كان ساريها بلون وردي صدفي. وقد زينت حوافه بزينة فضية، ارتأت الخالة ميرا أنه يناسب ابنة قريبتها الشابة. وقد أقيمت حفلتان في اليوم نفسه، كانت الأولى حفلة العصر التي تحضرها جميع سيدات العائلة وصديقات العروستين، ثم أعقبتها السهرة الرسمية، وقد دعيت بيم وتارا إلى الحفلة الأولى، بينما دعي والداهما إلى الحفلة الثانية. وأرغمت بيم على مرافقة تارا فجلست متجهمة القسمات على السجادة في أقصى القاعة وقد بدا عليها الضجر والانفعال إزاء كل ما يدور في الحفلة، بدءاً بالموسيقيين الذين جلسوا في مجموعات مبهرجة على مفرش أبيض مُدّ فوق السجادة ووضعوا آلاتهم الموسيقية أمامهم، كانت ضجرة من الأغاني التي أدتها السيدات والصبايا، الأغاني الحزينة الأسيانة نفسها التي تتحدث عن القلوب الكسيرة والحنين الرومانسي، ولم يطل بها الوقت حتى انسلت خارجة إلى الحديقة حيث يعمل البستانيون والكهربائيون في مد الأسلاك لإضاءة المصابيح. وهناك رأت تلالاً من الخضار المطهوة والأطعمة المعدّة لحفل المساء، ومجموعة من العمال تنقل مائدة ضخمة وأصوات الرجال تزعق طالبة من الحضور إفساح الطريق لحاملي المائدة، وإذ انعطفوا ارتطموا بخادم مسرع يحمل مفارش الطعام الناصعة ومزهريات فضية مزحومة بزهور الزينيا الورقية وزهور الغومفرينيا.

قالت بيم: فلنصعد إلى السطح سيكون الجو أكثر هدوءاً هناك.

وأرغمت تارا على صعود السلالم وراءها للوصول إلى الشرفة، شعرت تارا أنه من الخير لهما لو لبثتا في البيت إذا كان الصعود إلى السطح هو كل ما جاءتا من أجله إلى الحفلة.

استندت بيم إلى حاجر الشرفة العلوية ونظرت عبر السياج الشجري إلى بيتهم الصامت الذي اكتسحه الظلام لحظتئذٍ، وبدا عليها الرضا وكأنها فعلت كل ما كانت تتوق إليه.

رأت العمال يهرعون عابرين المرج، راتهم وهم ينزلون السلم الخشبي وهم يقيمون شجرة ذات فروع من المصابيح الكهربائية فوق الرواق ويدلون الأسلاك المتشابكة بأضوائها الخرافية فوق الأشجار المقببة، على امتداد الممر الخاص في الحديقة، ويمارسون أقصى ما بوسعهم من خلافات وشجار وإنكار وخلط في الأقوال المتناقضة، فيما كان أبناء آل ميسرا يقفون هناك ويصدرون الأوامر ويتعسفون في فرض هيمنتهم بأسلوب متخلف لا أثر للتهذيب فيه، فرمقتهم شزراً قالت: لست أدري كيف ستواصل هاتان الفتاتان دراستهما وتجتازان الامتحانات النهائية وسط ما يجري حولهما، قالت تارا وهي تعبث بأشنات رقيقة مسوّدة الحواف فوق الحاجز وقد غلب العبوس على محياها:

ـ لا أظن أن الدراسة تعنيهما بأي قدر، إنهما ستتزوجان على أي حال.

وزعق ابن ميسرا الواقف تحت أنظارهما:

ـ حمار، أحمق، أنظر لقد حطمت مصباحاً آخر، أتظن أنها ملك أبيك فتمضي في تحطيمها كما تشاء؟ ونخرت بيم بشيء من الازدراء.

ـ لست أدري علام تتعجل هاتان الفتاتان الزواج؟ ولماذا لا تواصلان الدراسة في الكلية؟

ـ تريد والدتهما تزويجهما بسرعة، لأنها نفسها، كما تقول، تزوجت في سن الثانية عشرة بينما بلغت «جايا» السادسة عشرة و«سارى» السابعة عشرة.

قالت بيم محتدة:

ـ لكنهما لم تتما تعليمهما، ولم تحصلا على أي شهادة، كان عليهما أن تذهبا إلى الكلية.

صاحت تارا: لماذا؟..

وتمردت تارا على نحو مفاجئ إذ نفد صبرها فأسرعت تهبط السلم هاربة من بيم لتنضم إلى النسوة اللائي بدأن يتدفقن إلى الحديقة مرحات متضاحكات ينادين بعضهن ويسرعن نحو الموائد الطويلة التي رُصت عليها أطباق مليئة بالحلوى بألوانها الوردية والصفر، وتناثرت بينها المزهريات الفضية التي غصت بأزهار الزينيا والغومفرينيا.

وكان خادم يرتدي سترة بيضاء تزينها تطريزات حمراء حول الجيوب يفتح زجاجات (الليمونادة) بحركات منفعلة ويضع فيها قصبات الرشف ويحملها بطريقة آلية. كانوا قد استأجروا فرقة موسيقية وصلت تواً في سيارة حمل مكشوفة فتقافز أفرادها من السيارة حاملين آلاتهم الموسيقية النحاسية اللامعة الضخمة المعلقة

بأذرعهم، واندفع أبناء ميسرا زاعقين مقرعين الموسيقيين لوصولهم متأخرين عن الموعد المحدد.

هرع الموسيقيون نحو سرداق مخطط بألوان صارخة، منصوب عند أقصى الحديقة، وأخذ كلب عائلة (حيدر علي صاحب) ينبح وكأنه يتوجع ألماً بسبب الضوضاء والهرج السائدين.

ظلت بيم تردد مستاءة بنبرة غضبى يكتنفها الغموض:

ـ لماذا؟.. لماذا؟ لا يحق لهما أبداً أن تنهيا حياتهما لأجل أن تتزوجا.

ردت عليها تارا:

ـ وماذا تمتلكان غير ذلك؟.. أعني بالنسبة لهما؟

تساءلت بيم: ألا يمكنك أن تفهمي؟.. وماذا غير ذلك؟ بوسعي أن أفكر بمئات الأشياء بدلاً من الزواج، أنا لا أريد أن أتزوج، وكررت بنبرة جازمة:

ـ لا أريد أن أتزوج.

رمقتها تارا بنظرة جانبية مصحوبة بابتسامة باهتة مرتابة.

ورددت بيم من جديد: لا أريد.. وأضافت: لن أترك أخي الصغير (بابا) ولن اترك (راجا) والخالة ميرا ماسي فأشاحت تارا بوجهها عنها قبل ان تنجح في تضليلها عن الاعتراف بمدى تأثرها لموقفها من البيت والعائلة، وأنها ستهجرهما حال سنوح الفرصة المناسبة.

لم تلحظها بيم، كانت تنظر عبر الحديقة الضاجة المغمورة بالأضواء إلى بيتهم المظلم الذي تومض فيه بعض أنوار خافتة من وراء الأشجار.

ثم مدت يديها إلى شعرها ورفعته ثم تركته ينسدل بحركة رشيقة ناعمة.

قالت: سوف أعمل، وسوف أحقق أشياء، وأكسب عيشي، وأرعى الخالة ميرا والصغير (بابا) وسأكون مستقلة، فثمة الكثير من الأشياء يمكن القيام بها عندما نكبر وعندما ينتهي كل هذا، وحركت ذراعها مشيرة إلى الحفل المقام في الحديقة بحركة رافضة مستهجنة.

عندما نكبر أخيراً، ثم، ثم.. ولكنها لم تستطع اتمام عبارتها لفرط انفعالها وقد توهجت عيناها في عتمة الغسق.

تفتحت في الحديقة تحتهما مصابيح زرقاء صغيرة فوق الأشجار مستجيبة لأصوات السقسقات والضحكات المستثارة التي أطلقها الضيوف.

الفصل الرابع

كانت بيم تصحح الأوراق في غرفة الطعام، فلم تكن منضدتها متناسبة مع حجم الأوراق وعددها، وقد أوصدت الأبواب كلها بوجه العاصفة الشديدة التي كانت تزمجر في الخارج، فلم يتسنَ لهم سماع شيء سوى ارتطام هبّات الغبار وشظايا الحصى بالجدران وزجاج النوافذ من دون أن يروا شيئاً منه، ورغم ذلك، كان الغبار يتسرب من خلال كل صدع أو شق أو ثغرة، فاكتسى كل سطح من الخشب أو الحجر أو الورق بطبقة رملية صفراء.

أحالت عاصفة الغبار ضوء النهار إلى نور بالغ الشحوب، فاضطروا إلى إنارة المصباح الكهربائي الذي استحال ضوؤه إلى لون برتقالي غائم لا يوحي ببهجة الضوء قدر ما ينذر بالشؤم.

وبينما كانت تارا تحاول أن تسطر رسالة لابنتيها، هي آخر رسالة مستعجلة ترسلها إليهما قبل قدومهما إلى الهند، أحست أنها سوف تشوى تحت المصباح البرتقالي المتوهج مثل دجاجة محمرّة، وتمنت لو تستطيع إطفاء المصباح وتترك هي وبيم أوراقهما فتجلسان في العتمة المؤنسة، لكن بيم كانت مستغرقة في عملها إلى حد كبير.

سُمعت فرقعة منذرة في الجو فانكمشت تارا داخل ردائها المنزلي، وشدّت شعرها وهي تحاول المضي في كتابة الرسالة من دون جدوى.

وضعت القلم جانباً، وبغتة قررت شيئاً، فقالت لبيم: يجب أن تأتي يا بيم وتحضري (بابا) معك سيكون من الخير لك أن تأتي..

تساءلت بيم: ما الذي تعنيه يا تارا؟

وأحكمت وضع نظارتيها على أنفها فعكستا ضوء المصباح البرتقالي الذي كان ينوس ويتأرجح بفعل نسمة تسللت بطريقة ما إلى الغرفة الموصدة كأنها انعكاس شبحي للعاصفة المدوّمة في الخارج، وظلت النظارتان تعكسان الضوء البرتقالي الذي كان يتماوج ويتأرجح بطريقة نزقة، منذراً بخطر مؤكد.

قالت تارا وهي تشيح بنظراتها عنها:

ـ أعني.. أعني أنك بحاجة إلى التغيير.

ـ ما الذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟

سألتها بيم مستغربة.

ارتسم على وجه تارا تعبير موجع يشبه إلى حد ما ذلك التعبير الذي يجتاح وجه إنسان يقتلع ضرسه ببطء شديد، فلم تجد بيم أمامها بدأً من رفع نظارتيها، فحملتها بين يديها ليكون بوسعهما مواجهة بعضهما من دون حواجز:

ـ أعني، لقد لاحظت ذلك يا بيم، ألم تلاحظي أنك بدأت تحدثين نفسك، سمعتك تغمغمين خلال سيرك ظانة أنك بمفردك.

قاطعتها بيم وهي تحتدم غضباً.

ـ لم أكن أعلم أنني مُراقبة.

ـ أنا.. أنا ما قصدت التجسس عليك، ثم إن يديك صرت تومئين بهما، أنت تعرفين، أعني يخيل إليّ أنك لا تعرفين ذلك يا بيم.

ـ لست أعرف، ولن أعرف أن من المفروض بقاء يدي ساكنتين عندما أتحدث، ذات مرة أطلقت البنات في الكلية ملاحظة ساخرة عني فقد قلدتني واحدة منهن وأخذت تلوّح بيديها تتحدث، آه، إنه لأمر مضحك حقاً.

ـ كلا يا بيم، أنت تحركين يديك حتى من دون أن تتكلمي، أعني لا بد أنك تحدثين نفسك.

تساءلت بيم وقد ارتفع صوتها وحاجباها معاً:

ـ ألسنا جميعاً نفعل ذلك؟

وكانت هذه العبارة كفيلة بإرغام تارا على التخاذل مثل طفلة صغيرة تخونها شجاعتها، لكنها أصرت على رأيها.

ـ ليس بصوتٍ عالٍ يا بيم..

قالت بيم بنبرة نزقة لا مبالية:

ـ وبعد، لا بد أنني قد شخت كثيراً، بالطبع لقد غدوت عجوزاً.

ـ كلا.. لم تكبري يا بيم، إنما أنت مثقلة بالهموم.

صرخت بيم: ـ مثقلة بالهموم؟ لم تعد لدي الكثير من الهموم.

ثم وضعت نظارتيها وضربت المنضدة بإحدى يديها:

ـ لا هموم على الإطلاق.

روفعت يدها ولمست خصلة الشعر الرمادية فوق أذنها.

ـ أعني في ما يخص راجا..

قالت تارا بنبرة ملحة، حاسمة، محددة، لتعلنها من دون تردد.

غمغمت بيم ساخرة:

ـ آه، أنت تريدين التحدث عن راجا ثانية؟..

ثم التقطت نظارتها وتظاهرت أنها تضعها على أنفها وأكبّت على كومة الأوراق فوق المنضدة في جو من الاهتمام مبالغٍ فيه، وما لبثت أن تخلت عن ذلك ووضعت النظارة فوق الأوراق وقالت بهدوء:

ـ مللت من أمر راجا، مللت تماماً، لقد بلغ به الثراء حداً لا يمكنه معه أن يهتم بشيء، فهو بدين جداً، ناجح جداً، إن الأشخاص البدينين الناجحين مضجرون، وأنا لا يروق لي ذلك يا تارا.

انحنت تارا إلى أمام معتمدة على ذراعيها، وتدلت خصلات شعرها المموج فوق أذنيها، فقد وفقت آخر الأمر في الحصول على شعر مموج أنيق.. تلك الرغبة التي طالما صلّت من أجلها وهي بعد صبية صغيرة، وها هو شعرها الآن أشبه بالمتسلقات الكثيفة الملتفة الغصون، فمرحى لمصففي الشعر البارعين في العواصم العالمية الكبرى.

تدلت خصلات شعرها حول أذنيها وفوق وجنتيها اللتين اكتستا بظلال أرجوانية وفي ما بينهما كان فمها وعيناها يعبران عن ألم ممض وكرب لا حد له.

ـ لماذا تتخيلين مثل تلك الأشياء عن راجا؟

إنك لم تريه منذ سنوات يا بيم، أنتما تعيشان في البلد نفسه ولكنكما لا تتزاوران، أما أنا فإنني آتي من خارج البلاد مرة كل ثلاثة أعوام لأراكِ وأرى بابا وراجا، أنا أعرف عن بيت راجا وعائلته أكثر مما تعرفين يا بيم، أنت لا تمتلكين أي تصور عن حياته وعائلته وعمله.

ردت بيم بصوت مرتفع:

ـ بلى، إنني أعرف، إنه يُدعى إلى حفلات الزفاف ومناسبات الخطوبة، واحتفالات الذكرى السنوية ويُفرش السجاد على شرفه، وتنشر الوسائد والطنافس ليتكئ عليها مثل (باشا) ثمّ يبدأ بإلقاء القصائد.

واصطنعت ملامح وجه مهرج يسخر من كل تلك الأبهة والنزعة الاستعراضية والخيلاء الفارغة.

ـ بوسعي تخيل المشهد... كل تلك القصائد العطرة التي تدور حول الشراب والكأس الخاوية واللظى والرماد..

وأطلقت قهقهة ساخرة..

ـ أنت لم تقرأي أياً من قصائده منذ سنوات، فأنى لك أن تعرفي؟

أعرف راجا وأعرف شعره.

ـ ألا يكون قد تغير، وتطور نحو الأفضل؟

ـ كيف يتطور وهو يحيا بذلك الأسلوب، يعيش في بيت والد زوجته ويجني ثروة من أملاك حميّهِ ويرزق بطفل بعد آخر.

ـ خمسة أطفال، ولقد كبرت البنات على أي حال.

ـ والولد الصغير الذي أفسده الدلال؟ إنه لأمر غير معقول. .

ـ لم يسبق لك أن رأيتهِ قط يا بيم.

ـ لا أطيق كل ذلك وليس بوسعي تصوره، فبعد أربع بنات وحسرات لا مزيد عليها يطل الأمير الصغير، تصوري أي قطعة عجين تافهة سيكون، أي كرةٍ من الرز وهو يُعلف كل ذلك العلف الذي يقدم في ذلك البيت، بنازير تطهو وتتذوق وتلتهم الطعام طوال النهار وما بين الوجبات، وثمة تلك الوجبات السريعة الخفيفة التي تعينهم على الاستمرار في العيش.

أتصور ما الذي سيشبه ذلك الصبي وراجا! أتصور أنه يلتهم الكثير من الطعام.

صاحت تارا بأسى:

لماذا تتخيلينهم يلتهمون الطعام طوال النهار.

ـ لأنني أعرف ذلك فقد قاموا بزيارتي ذات مرة، أتراك نسيتِ؟. . بعد زواجه وولادة بنت لهما، جاؤوا لزيارتنا وكانت «بنازير» بدينة ممتلئة تماماً وراجا. . راجا الذي بدا شبيهاً بالباشا كان بديناً أيضاً، وحضروا لزيارتي مثلما يفعل الباشوات محملين بأنواع من الهدايا التي أرادوا أن يبهرونا بها، قدم لي راجا عقداً من اللؤلؤ، فتخيلي. . . عقدٌ من اللؤلؤ، وقال إن مدينة (حيدر أباد) تعرف بأمر هذا العقد اللؤلؤي.

ولم أقل له أكثر من جملة واحدة: ولكن، أنت تعلم يا راجا أنني لا أتزين بالمجوهرات.

كما أحضر جهاز حاكي (هاي ـ فاي) من أجل بابا وقال: إنه آخر طراز في السوق. وواصلت بيم قهقهاتها ولم يفعل بابا سوى

الابتسام، ولم يلمس الجهاز بيده قط، إنه يحب ذلك الحاكي القديم من طراز (صوت سيدهِ) ويسعده أن يديره ويجلس ليتفرج على الاسطوانة وهي تدور. وكان خائفاً طوال مكوثهم عندنا أن تسترده بنازير لأنه كان مُلكاً لها كما تعلمين..

وازداد راجا تجهماً وعبوساً وقال:

- سوف تتزين تارا بهذه اللآلئ، وسيقدر باكول قيمة جهاز (الهاي - فاي) هذا، أنتما الإثنان لا تعرفان شيئاً.

وضحكت بيم ثانية ورددت العبارة مقلدة إياه.

- كلا نحن لا نعرف شيئاً، نحن الإثنان.. لا شيء.

جلستا وقد أطبق عليهما الصمت وهما تصغيان إلى العاصفة التي تدوّم حول نفسها، وشيئاً شيئاً تضاءل هدير حركة الأشجار التي اجتاحتها الرياح وسكنت المتسلقات التي كانت ترتطم مرتمية على الجدران، وهدأ الحصى المتطاير، حتى بدا أن العاصفة قد أخذت بالانحسار لتتركهم في ما يشبه كهفاً رمادياً، لا تكف الأصداء عن التردد ما بين جنباته مع مدّ وجزر التيار..

قالت بيم وهي في شبه ذهول:

- والآن ستتزوج تلك الصبية، وأخذت تقرع بأصابعها على سطح المائدة أمامها، (مونا) أتراها بدينة شأنها شأن بنازير التي ما عرفتها إلا بدينةً؟.. لا بد أن بنازير قد غدت ضخمة الجسم، فهي لا تحب النهوض والحركة طالما هنالك أحد يناولها الأشياء أو يحملها إليها، كانت تطعم تلك الطفلة (بودنغ الحليب) في طبق صغير من الفضة طوال النهار، وأحضرت معهم إمرأة لتطهو لهم طعامهم، إنها لا تثق بطاهيتنا جاناكي أو بي.. كانت تطعمها

بالملعقة لتسمنها، وراجا؟.. كيف تغير إلى هذا الحد وصار يستطعم مذاق أطعمة بنازير؟

قالت تارا بنبرة جادة:

ـ إن طهوها جيد، إنه حقاً كذلك..

أجل، أعرف ذلك، ولكن هذا الطعام تعافه النفس إذا طاب لهم طويلاً، وتناولوا المزيد منه، شأنه شأن كل الأطعمة الدسمة... ولا بد أن يكون الأمر سيئاً بالنسبة له، لم أقل له ذلك، فلم يكن يصغي إلي.

هزت رأسها بشيء من الأسى، ثم جلست مستقيمة وقالت: لا يأكل على هذا النحو إلا التعساء من البشر، وشددت على نبرتها: قرأت ذلك في مكان ما، إنهم يعوضون أنفسهم عن الأشياء التي افتقدوها في حياتهم بالطعام الذي يتناولونه.

ـ ما الذي يفتقده راجا؟.. لديه زوجة وأبناء ويمتلك بيتاً وأعمالاً وهوايات...

انفجرت بيم مسفهة قولها: هذا ما أعنيه تماماً، فكل ذلك هراء وترهات... ليس هذا ما أراده راجا من الحياة، إنه ليس بحاجة إلى هواية فهو يحتاج إلى قدرة على العمل لأنه يعرف أنه تخلى عن موهبته، تخلى فحسب عما اعتاد أن يعتبره (مهنة) واستحال الأمر إلى هواية سخيفة، تافهة مضحكة، ولهذا السبب بالذات تجدينه بحاجة إلى العزاء والمواساة بالتهام المزيد من الطعام، ألا ترين ذلك؟

كان فم تارا مفتوحاً وقد احتدمت بمشاعر الاحتجاج على آراء بيم، وأحست أن من الخطل السماح لبيم بالمضي في هذا المنزلق

من سوء الفهم، غير أنها لم تفعل شيئاً سوى أن تضرب كفاً بكف وهي تتساءل كيف ستقنع شخصاً عنيداً مثل بيم، مزمنة العناد، بخطلِ آرائها؟

قالت آخر الأمر: يجب أن تذهبي وتزوريهم يا بيم لتري الأمر بنفسك، فهناك حفل زفاف وهم يريدونك أن تحضري. وها هي الرسالة، دعيني أقرأها لك..

قالت بيم وهي تبعدها عنها عندما بدأت تارا تخرجها من غلافها:

ـ كلا.. إنها لك..

إلا أن تارا تظاهرت أنها لم تلحظها، ففتحت الأوراق الزرق وشرعت تقرأ..

(آن الأوان لتلتقي ابن أخيك الذي غدا شاباً، لقد اشترينا له مهراً سميناً أبيض، قالت البنات إنه يشبه اللؤلؤ، وأطلقت عليه اسم (موتي)، وحاكت له بنازير بدلة من المخمل، وإذ يمتطي صهوته يبدو أشبه بأمير في منمنمة شرقية)... ضربت بيم بقبضتها على سطح المائدة محدثة صوتاً عالياً وقالت بلهجة المنتصرة:

ـ أرأيتِ؟.. ما الذي قلته لك؟.. كان له أن يكون رجلاً كيسّاً ناضجاً، مواطناً محترماً، أباً لأسرة، وكل هذه الأشياء، ولكن ما الذي يحاول أن يفعله، أو أن يكونه؟

يتذكر جواد (حيدر علي صاحب) الأبيض الذي طالما رأيناه ممتطياً صهوته وهو يمرق من جوارنا ونحن نلعب بالرمل على شاطئ نهر (جُمنا)؟.

حركت تارا رأسها بانفعال، فقالت بيم:

ـ بالتأكيد، ذلك هو ما كان يفكر به راجا عندما اشترى المهر الأبيض، فكم كان معجباً بحيدر علي صاحب، ولربما كان يغبطه وهو ينطلق مسرعاً بتلك الهيئة البديعة فوق جواده الأبيض والخادم يعدو أمامه ليفسح له الطريق ويبعد عنه الرعاع من أمثالنا، والكلب معه يكبح جماح الجواد، وأحسب أنه أمر مثير للإعجاب.

ألم يكن راجا مولعاً بذلك؟.. هذا ما افتقده في حياته، إنه لا يكف عن محاولته في أن يكون (حيدر علي صاحب) وضحكت: (حيدر علي صاحب) كان مثلهُ الأعلى في الحياة، وهو المثل الأعلى الذي لن يكف عن نشدانه في الحياة. مسكين راجا فهو من أجل أن يشبع رغبة صباه يرغم ابنه على امتطاء المهر، ذلك أمر شنيع لا يُحتمل، أن يوجه الآباء أبناءهم ليحققوا ما لم يتحقق لهم من رغبات وأمنيات.

والتمع محياها بحماسة الدفاع وبدا كأنه دهن بالزيت...

وانسحبت تارا مهانة:

ـ لا أظن أن (رياضاً) الصغير على علم برغبات والده التي لم تتحقق.

قالت متظاهرة بالاهتمام الجاد:

ـ كلا.. ولكنه سيعرف عندما يلقي به ذلك المهر أرضاً ويبدأ بالعويل والصراخ وعندئذٍ.. قاطعتها تارا معارضة وقد أفزعها حديث بيم وأرعبها وكأنما طعنت غريزة أمومتها بحد سكين:

ـ لا أدري علام تتنبأين بحدوث مثل هذه الأشياء الفظيعة، لن يلقي المهر برياض الصغير، آه إنه لأمر مفزع لا يمكن تخيله يا بيم.

كانت بيم قد أمسكت برأسها بين يديها وهي تهزه ببطء من جانب إلى آخر:

ـ تلك هي مشكلتي يا تارا، إنني أتوقع كل تلك الأمور المروعة وأراها جميعها..

قالت ذلك وأطبقت جفونها كأنما أصابها الإعياء أو أمضّها ألم شديد.

وارتعبت تارا لذلك التعبير على محيا بيم، فقالت بنبرة رقيقة: حسنٌ، عندما يصبح المرء كبيراً، يقال إنه يصاب بجميع أنواع المخاوف، ويغدو متخوفاً متوجساً.

ثم ألقت نظرة على الرسالة بين يديها وأخذت تقرأ عن تفاصيل وترتيبات حفل زفاف (مونيا) التي تجري في بيت راجا، تلك الترتيبات المعقدة باهظة التكاليف، فهي الأولى التي ستتزوج من بين بنات راجا، ولا بد أن يكون الحفل رائعاً، وستضاء المصابيح على امتداد الممشى الرئيسي في الحديقة وسيحضر لاعب (شهناي) من مدينة (بنارس) ويقدم ألعابه في حفل الزفاف، وسوف يقطع الثلج على شكل مكعبات ليزين الموائد..

ولم يظهر على بيم أنها استجابت رغم أنها فتحت عينيها وأخذت تتأمل الكتب والأوراق والرسائل المكدسة على المنضدة المغبرة، ولم يبد عليها أنها ترى شيئاً، وإذا كانت مصغية لشيء، فإنما كانت تصغي إلى أصوات عودة الأشياء إلى حالتها المألوفة في الخارج، أصوات صباح صيفي اعتيادي، أصوات زعيق طيور المينا وشجارها فوق المرج، والحمائم وهي تبدأ بالهديل وتناغي إحداها الأخرى في الشرفة، بينما أخذت قصاصات الأوراق وأوراق الشجر تدوّم في الممشى وتطير نحو الأسيجة والزوايا.

تركت تارا مستمرة في قراءة الرسالة، وقفت وحملت طبقاً مليئاً بقشور البرتقال كان قد تبقى على المائدة من وجبة الإفطار.

قاطعت الصوت الخفيض الرتيب بشيء من خشونة وحدة وهي تقول:

علام تقشرين البرتقال ولا تأكلينه يا تارا؟.. إنه التبذير بعينه.

وأجفلت تارا وألقت بالرسالة جانباً، ولكنها لم تقل لها أن باكول هو الذي ترك البرتقال في الطبق.

- إنها تكاد تكون تالفة يا بيم، أنا لم أترك سوى الأجزاء التالفة من البرتقالة.

- ليست تالفة، بل جيدة بكاملها، كم أكره التبذير.

وخرجت من الغرفة بخطى مضطربة على نحو غير مألوف.

كانت تارا محرجة مما جرى، وسيكون حرجها أكبر لو أنها رأت كيف ترتعش شفة بيم، وتهتز يدها فتنزلق بقايا البرتقال من الطبق متناثرة في الطريق إلى المطبخ.

شيء ما في رسالة راجا جعل زهرة الغضب تتفتح في أعماقها، زهرة حمراء، برية، زهرة استوائية متفتحة، ذلك الشيء الذي علقت عليه تارا، جو الترف وعالم البذخ الذي أحاط به راجا وتارا نفسيهما، وارتضاه كلاهما واستثنياها منه، وأبعداها لأن قيمتها ومعاييرها لا تتناسب معه بسبب جفوتها وخشونتها.. لقد أثار لديها ذلك الأمر نوعاً من موجدة يخالطها الرعب، وجعلها تهذي بصوت شبه مسموع:

- أقصد... أعني.. أنها تصغرني بخمس سنوات فقط، وتعتبرني عجوزاً، وتتجسس عليّ لقد كانت تتجسس عليّ، يا

لقسوتها، تارا المتحجرة الفؤاد، وراجا؟.. ذلك الأناني، إنه لفرط أنانيته لا يهتم بشيء، والرسالة التي كتبها لي؟.. آه، أجل، إنه يكتب رسائل بديعة إلى تارا بشأن الزفاف والذهب، ولكن أي رسالة كتب لي؟ رسالتي؟ أترى نسيتها تارا فوق منضدتي؟.. وأنا..

وتشاغلت في المطبخ على مدى برهة من الزمن. لربما خرجت (جاناكي) لتلف لنفسها ورقة من أوراق (الفوفل) وتمضغها بهدوء قرب جناح الخدم. وأخذت بيم تغسل الطبق وتضعه جانباً، وترى إن تبقى شيء من البرتقال رغم أساليب اختها وزوجها في التبذير، ثم خرجت إلى الشرفة لتجد أن العاصفة الترابية قد تركت الحديقة بكاملها مكفنة بالغبار الرمادي، كل ورقةٍ وكل شجيرة تئن تحت وطأة الغبار، حتى الشمس نفسها بدت محجوبة بنسيج عنكبوت رمادي، وبدا كل شيء رثاً عتيقاً متهدلاً، كل شيء بدا وكأن كسوفاً قد اجتاحه، سيحتاج البيت إلى عملية تنظيف شاملة.

وقفت على درجات سلم الشرفة وصاحت بغضبٍ ويأس:

- جاناكي... جاناكي..

وبدأت تارا تلزم الحذر من بيم وهي تتحرك في أرجاء البيت، راصدة إياها قلقة بشأنها، وعجبت كيف أنها لم تلحظ بيم من قبل وهي تعدو في البيت مثل ممسوسة تماماً، أو لعل علامات هذا الجنون لم تظهر إلا عندما انشغلت بمراقبتها؟..

ولم تستطع الامتناع عن مراقبة بخل بيم المفرط وطريقتها في جمع بقايا الطعام المتخلفة على الأطباق والاحتفاظ بها للوجبة التالية، وحدث أن بعض الوجبات التي يُؤتى بها إلى المائدة لم تكن غير سلسلة طويلة من الأطباق الصغيرة تلطخت عليها شرائح

الطعام كأنها وجبة عائلة من القطط. وكانت تارا تحس بالخجل إزاء هذا المشهد وهي تعرف أن ذائقة باكول التي يصعب إرضاؤها سوف تشمئز أمام هذه الوجبة الشحيحة.

ثم لاحظت أنه كان يحاول الارتباط بمواعيد في المدينة ما وسعه ذلك ومتى وجد إليه سبيلاً، فيتصل هاتفياً ببعض زملاء الكلية القدامى أو الأصدقاء الخُلَّص ويبحث عن أي موضوع ليناقشه معهم حول مائدة الطعام في النادي، وكل يوم تقريباً.

كانت فرحة وقد زال بعض توترها خلال جلوسها إلى مائدة ضيقة بصحبة بيم وبابا فقط، ولكنها كانت قلقة في الوقت نفسه بشأن عدم تناولهما الكفاية من الطعام. ثم تنبهت إلى وجود رطل من أفضل أنواع الشاي وأغلاها قد استحال إلى تراب فوق رف المطبخ، كانت بيم قد اشترته منذ عهد بعيد في نوبة من نوبات السخاء. وكان واضحاً أنها عانت من عضة ندم قاتلة ولم تقو على إرغام نفسها على استعماله.. ومع ذلك فإن رزماً من الكتب ظلت ترد باستمرار إلى البيت، مجلدات في التاريخ والفن باهظة الأثمان، وعندما ألمحت إلى غلاء أسعارها قالت بيم: إنها غالية بالتأكيد ولكنها تحتاجها في عملها، وغامرت تارا وسألتها: ألم تكن هذه الكتب متيسرة في مكتبة المدرسة؟

فرمقتها بيم بنظرة فاترة.

وبينما كانت تطوف في الحديقة في الصباح الباكر، والحديقة لا تزال نضرة بالرغم من حرارة النهار الآخذة بالارتفاع في الضفاف الوامضة أشبه بغيوم ركامية، عند ذاك عثرت على كوم هائل من السماد ملقى وراء المرآب وعندما سألت البستاني الذي جلس القرفصاء لدى باب المرآب يصلح بعض الأدوات عرفت أن بيم هي

التي طلبت إحضار عربة نقل ملأى بالسماد ثم ادعت أنها لا تمتلك ما يكفي من النقود لشراء البذور، وشرع البستاني يتذمر ويشكو لتارا بنبرة رثاء للنفس:

ـ ماذا أفعل؟.. الزمان رديء، ويجب أن أزرع خضاراً، أن استنبت طعاماً، ولكن كيف أفعل وليس لدي أسمدة ولا بذور، وكلما فتحت صنبور الماء، تأتي الآنسة بيم وتقول لي: لا تبدد المياه.

أحست تارا بالحرج فجمعت أطراف ردائها المنزلي حول جسدها ومضت وهي تواري إحساسها بالخجل.

لطالما تخيلت تارا أختها بيم على قدر من الكفاءة والقابلية، وقد ظن الآخرون مثل ظنها، الخالة ميرا، المدرسات في المدرسة، وحتى راجا نفسه، غير أن بيم كما يبدو، كانت تدور في أرجاء البيت مذعورة مثل عاصفة هوجاء تختلق الفوضى والخراب أكثر مما تفرض النظام.

ستحس تارا بالخزي من أجل ما يجري في البيت، وسيرتعب باكول لو أنها أحست بذلك.

ولكن كيف اكتسبت بيم سمعتها الطيبة تلك؟

أم ترى بدأت إمكاناتها السابقة وكفاءتها القديمة تتضاءل وتشيخ؟..

ووعت تارا ضآلة إدراكها سواء عندما كانت لا تزال طفلة أو عندما كبرت وصارت إمرأة ناضجة. إنها ترى بيم من خلال منظارها الشخصي، مثلما تريد أن تراها، أما الآن وعندما بذلت محاولة لتبدو على قدر من الموضوعية وهي في هذه السن وهذا

النضج، أو بعيدة بما فيه الكفاية لتجرب موضوعيتها، اكتشفت أنها عاجزة، لأن رؤيتها كانت محجوبة وغامضة وقد أسدل عليها الكثير من متعلقات الماضي.

- ما الذي رأيناه حقيقة؟

تساءلت بصوت مرتفع مساء ذلك اليوم عندما هبطت الظلمة مثل دثار يحمي ويواسي في الوقت نفسه فلا يستطيع أحد تمييز شيء في العتمة والغبار. كانوا يجلسون متبطلين وهم ينسّمون بمراوح من خوص سعف النخيل درءً للحرارة المتعاظمة والحشرات التي تتطاير من المرج أسراباً أو تتساقط من الأشجار فتطوقهم، نوع من تعذيب معروف لديهم تماماً:

هو الصيف.

أوه أظن أنه أمر يثير الدهشة، أن يدرك أمرؤ صغير ويرى كل ما يدور في بيته وبين أفراد عائلته..

أحست تارا أنها ملزمة بإعلان هذا التفسير عندما ازداد الصمت توتراً.

سألها باكول بنبرة مضحكة فاترة:

- ترى ما الذي اكتشفته الآن وكنت على جهل به من قبل؟

كان يدخن سيكاراً مما جعل صوته انضج من أي وقت مضى، ولا بد أن النسغ سرى خلال نبرته الجشاء أحمر ارجونياً!

- أنا لم ألحظ أي شيء من قبل أبداً.

قالت تارا وقد استفزتها نبرته المتوازنة.. كانت تؤثر أن يظنها تهذي.

قضى باكول نهاره بأكمله خارج البيت، أكل وشرب جيداً،

فبدا في مزاج سمحٍ هذا المساء:

ـ أتعتقدين أن ابنتينا لاحظتا بعض ما يدور بيننا هنا؟ إنهما لم تلحظا شيئاً من دون ريب، لأنهما منشغلتان بنفسيهما، قد يرى الأطفال، ولكنهم لا يدركون..

قالت بيم وهي تحافظ على هدوئها ودقة ألفاظها:

ـ لا أحد يدرك ويفهم أفضل من الأطفال، ولا أحد سواهم يتحسس الجو أو يستوعب ما لا يُسمع أو يُرى، مثلهم وليس غيرهم من يفهم التلميحات في سيماء الوجوه ويلاحظ التفاصيل التي تخفى على الكبار بسبب من ضمور حواسهم أو ثباتها.

قهقه باكول بطريقة توحي بعدم الارتياح.

ـ أكيد، إذا توقف تفكيرهم، ولا يتوقف تفكير الأطفال لأنهم منشغلون باللعب والثرثرة و...

قالت تارا وهي مأخوذة شبه حالمة: أو هم يحلمون. رفضت بيم هذا الرأي: كلا، لم نكن منشغلين ونادراً ما استهوتنا الثرثرة، كنا في غالب الأحيان نجلس على درجات سلم الشرفة نتطلع إلى البوابة، أليس كذلك يا تارا؟

هزت تارا رأسها موافقة من دون أن تفوه بشيء وأحست أن بيم تتقدمها للمرة الثانية، فإن تلك السطوة القوية المؤكدة والجافية تظل تسحبها إلى أسفل، إلى قاع بئر الاضطهاد، بئر البلادة والضجر، أحست أن مياه طفولتها تغمرها وتعلو فوق هامتها من جديد: سوداء مطحلبة كتلك المياه في البئر الخلفية.

وواصلت الحديث (أو كنا نستلقي على ظهورنا في الليل ونتطلع إلى النجوم).

ومضت تتحدث الآن بمزيد من السلاسة:

ـ نفكر، أو نتساءل، آه، كنا نفكر ونشعر أننا على صواب، أجل يا باكول، ففي الأقل وضمن أجواء عائلتنا، كان لدينا المزيد من وقت الفراغ، وكنا ندرك كل شيء يدور حولنا، تفاهة الخالة ميرا ماسي وحاجتها إلى الاعتذار عن هذه التفاهة، علة أمي وأنشغال أبي الذي ما كنا نملك شيئاً إزاءه، أي شيء على الإطلاق.

زفرت تارا وهي تطلق آهة مفاجئة واهنة ودفنت وجهها بين يديها فانهمرت خصلات شعرها المموجة حول رأسها وتأوهت من بين أصابعها:

ـ أواه يا بيم.. أنا لم آتي لمساعدتك في طرد النحل المهاجم..

سأل باكول مندهشاً: ترى، عمَّ تتحدثان؟

غمغمت تارا: بيم تعرف ما أتحدث عنه.

حركت بيم مروحة خوص النخيل بسرعة أثارت جلبة، كما لو أنها تريد أن توحي لتارا باتخاذ جانب الحذر ومذكرة إياها بضرورة أن تعي ما تقوله، قال باكول عندما لاح ضوء خافت:

ـ لديك على الدوام شيء ما عن النحل يا تارا.

ردت بصوت منتحب: لو كنت رأيت ذلك السرب من النحل الذي هاجم بيم، أي سرب أسود مروّع، قالت بيم وهي ترى أخيراً ما رأته تارا:

ـ أوه، وأطلقت ضحكة، وحركت مروحتها حركة مرحة ناعمة.

ـ أوه، تقصدين ما حدث في (متنزهات لودي) في تلك النزهة الشنيعة عندما كانت ابنتا ميسرا تتفحصان ذينك الشابين، فشعرنا بحرج كبير وانطلقنا نحو ذلك المدفن وعندما قذف الصبي كما أظن حصاة أو حجراً أهاج النحل فهاجمنا.

تمتمت تارا وهي تهز رأسها:

ـ كل ما فعلته أنني أدرت وجهي وهربت.

سألتها بيم: وما الذي كان بوسعك أن تفعليه؟ قالت ذلك وقد بوغتت تماماً لأن تارا وجدت مادة للنقاش.

قال باكول مؤمناً على رأي بيم:

ـ كان النحل سيهاجمك أنت أيضاً لو بقيت معها.

قالت بيم بنبرة ممرضة فياضة المشاعر وهي تضع الدواء على الجرح: لقد هرعت لطلب العون، أرسلتك لتأتيني بالنجدة.

رفعت تارا وجهها ورمقتها بنظرة سريعة لتكتشف ما إذا كانت بيم واعية أنها تروي إكذوبة، أو أنها قالت ما قالته عامدة لتطيّب خاطرها..

كانت تلك الليلة التي غاب عنها القمر حالكة الظلام إلى حد لا يتاح معه أن ترى تعابير الوجوه.

هدأت ثائرة تارا عندما سلمت أن بيم كانت فعلاً قد نسيت تفاصيل الحادث، ولم تعمد إلى التمويه أو التحريف إكراماً لها، فأحست بارتياح حقيقي لأن الزمن أسدل ستاراً على أحداث ذلك اليوم فغابت عن أذهان الناس.

سألتها بيم: ألا زلت تتذكرين الحادث؟ أنا نسيت الأمر تماماً.

فتحت تارا فمها لتقول المزيد، لقد استعادته الآن لتقوله في العراء، وإن لم يحجبها غير ستار الظلام وحده، تريد متابعة الموضوع حتى نهايته.

لكن بيم ما أرادت ذلك، ولا أراده باكول، فقد واصلا الحديث عن عائلة ميسرا.

قال باكول: إنه لأمر غريب، أن يلقاهم المرء على فترات متقطعة كل بضع سنين، و (أدنى سيكارة من فمه) ويخال المرء أنهم يمضون أيامهم في الترحال والعمل وخوض كل ضروب التجارب وعندما يعود إليهم يجدهم كما هم، مثلما تركهم، في الحال ذاتها..

قالت بيم وهي تضحك: بل أكثر قليلاً من ذلك.. ورمقها باكول بنظرة استحسان وقال: أجل، أكثر قليلاً، هذا عين الصواب.

كان باكول معجباً ببيم على الدوام رغم أنها كثيراً ما كانت تغيظه، وقد تحسست تارا هذا الإعجاب في الظلمة المحيطة بهم. تحسسته بوخزة ضئيلة من غيرة، وخزة دقيقة من استياء ذكرتها كم هي قريبة إلى باكول، والى أي مدى تعتمد عليه في تحقيق هنائها وسعادتها.

أحست أنها سريعة التأثر والعطب في هذه الأمسية ولعل مَردّ ذلك إلى الحصف المنتشر على جسدها مثل خارطة قرمزية.

كان يقول: لم يكن أبناء ميسرا أولاداً مهذبين قط. والآن، وقد غدوا رجالاً فإنهم ازدادوا سوءً وبدانة وتبطلاً، وعلى ذكر هؤلاء، أين زوجاتهم يا ترى؟.. أذكر أنني رأيت زوجة أو إثنتين في آخر زيارة لي إلى دلهي؟

قالت بيم: تأتي الزوجتان أحياناً، ولكنهما سرعان ما تعودان إلى أهلهما وقد أصابهما الاشمئزاز من زوجيهما، النساء يعشقن التغيير وأنت تعلم ذلك، الزوجتان تنشدان حياة متجددة ويتُقْنَ إلى أن تكونا زوجتين عصريتين، ويخيل إلي أنهما طالبتا بالعيش في بيتين مستقلين في (دلهي الجديدة) ورغبتا أن تقصا شعريهما بهيئة قصيرة، وأن تقيما حفلات لعب ورق، أو أن تفتحا (بوتيكات) للثياب الجاهزة، أو أن تتعلما فن تصميم وعرض الأزياء، فلم تطيقا صبراً على طراز حياتنا في (دلهي القديمة). . نمط الحياة التي يعيشها آل ميسرا هنا في أحضان الأسرة.

ومن هنا تجد الزوجتين في غياب دائم إذ تقضيان أطول فترة ممكنة بعيداً عن زوجيهما.

قالت تارا متعاطفة وهي توشك على ذرف الدموع.

ـ وجايا وسارلا؟..

وكانت تشعر إزاءهما كما تشعر إزاء حاجات نفسها وإزاء النساء جميعهن، إنهن (مخلوقات مسكينة) لا حول لهن ولا قوة، مهجورات مخذولات بائسات.

ـ أجل لقد هجرهما زوجاهما، يا للعجب تزوجتا معاً وهُجرتا معاً.

ـ مهجورتان؟.. أهما مطلقتان فعلاً؟

ـ اعتقد ذلك، إلا أن الكلمة لا تُنطق في عائلة ميسرا كما تعلمين، وفي موضوع جايا وسارلا كان الزوجان عصريين في منتهى اللياقة والأناقة، فهما يمارسان لعبة (الغولف) ويرقصان ويقيمان حفلات الكوكتيل، ولك أن تتصوري هاتين المسكينتين

جايا وسارلا اللتين لا تلذ لهما سوى حياكة الصدارات الصوفية للزوجين وإعداد المخللات. وسرعان ما عادتا إلى البيت إلى الوالد والوالدة. فقد أعيدتا إلى أهلهما ولبثتا تتحدثان على مدى سنوات عن عودتهما إلى زوجيهما وتبتدعان الأسباب والمبررات لعدم مشاركتهما في العيش حيث يقيمان، فقد كانا في الجيش، وفي القوة البحرية، ويخيل إلي أن ذلك هو الأنسب لهما، أما الآن فقد لاحظت أنهما كفتا عن التحدث في الأمر وأصبح كلّ ما يشغلهما هو موضوع المدرسة. مدرستهما.

- حصلتا على شيء في الأقل.

- في الأقل هي الكلمة الصواب. في الأقل، قالت بيم بشيء من الاحتداد:

- يخيل إلي أنهما تكرهان هذه المدرسة في حقيقة الأمر، لأنهما لا تطيقان الصغار، وتمقتان التعليم.

- أحقاً؟.. سألت تارا فزعة، فكلمة (الكراهية) هي الكلمة التي تصدمها على الدوام، إذ تبرز أمامها على الفور صورة الكلب الميت وهو ينزف بعد إصابته.

- إذاً، فليس لهما أن تقوما بالتدريس.

إنهما لا تعترفان بذلك، ولعلهما لا تعرفان أنهما لا تجيدان التدريس.

ولكن بوسعك أن تلمسي ذلك من الطريقة التي تتعاملان بها، فهما شرستان ومكرهتان على العمل.

وإذ قالت ذلك، عادت إلى الصمت التام على نحو مفاجئ ولم تُضفِ بعد ذلك شيئاً، استغربت تارا، وتساءلت ما إذا كانت

بيم قد قارنت بين حياتها وبين حياة ابنتي ميسرا.

كان ثمة ذلك الطبيب فقد تذكرت ذلك، وعادت الذكرى تطن أشبه ببعوضة في الظلام تتدلى ساقاها الطويلتان وهي تحوّم بعيداً عن متناول اليد.

لم تتذكر تارا اسمه ـ يا لغبائها ـ فقد كان يدخل ويخرج من بيتهم على مدى العام الذي رقد فيه راجا مريضاً مع الخالة ميرا.

واستحضرت تارا سيماء وجهه النحيل المجدب، وطريقته الحذرة في حمل حقيبته قريباً منه وكأنه اجتاز الممشى بطوله وهو يتوقع أن تنبح بيم بوجهه أو تنهشه.

وانشرحت بالرغم، منها، فقد كانت تعترض سبيل سفاهات باكول المملة فقالت:

ـ آه يا بيم ـ ألم تري قط الدكتور. . الدكتور ترى ما هو اسمه؟.

كانت بيم ساكنة متصلبة أشبه بشبح متسربل باللون الرمادي يتكوم في الكرسي المصنوع من نسيج القنب، استدارت بوجهها نحو تارا وقالت بشيء من الاستخفاف أشبه بطائر عجوز يقوسّ منقاره:

ـ من تعنين؟

وكان صوتها صوت طائر أجش متكسر، قالت تارا وهي تضرب جبينها بيدها.

ـ آه، الطبيب. . الذي كان يعالج راجا.

ثم أوجست منْ استنكار بيم، أم أنها خشيت من حزنها؟. . وودت الآن لو تتراجع، لقد نسيت، أوه دعك من الأمر. .

قالت بيم بصوت خافت: (دكتور بيسواس) ثم أضافت:

- كلا لم أره منذ وفاة الخالة ميرا ماسي.

ولبث الثلاثة صامتين مغتاظين، باكول بسبب من كونه لم يصغ لما قيل، وتارا بسبب بلادتها، وبيم لأنها أصغت لتارا وباكول ولم يدعاها وشأنها.

لملمت قدميها تحت أطراف ساريها وصوبت نظراتها أمامها نحو السياج الشجري لتكون في منأىً عنهما تماماً.

أما تارا التي خطر لها هذه الليلة أنها تحررت من سنوات الإحساس البغيض بالإثم، فقد شعرت الآن أنها قد غرقت في أشد الأعماق هولاً، وأكثرها ضبابية وقتامة من دون أن تعي ذلك، وقد اكتست بزبَدِ خطيئة لا حدَّ لفظاعتها.

نظرت يائسة نحو باكول طالبة العون منه، لكن باكول كان يتميز غيظاً ويؤرجح قدمه في حركة استنكار وسخط أمام هذه المواقف المرفوضة.

جلس ثلاثتهم مجتمعين وكأنهم في قعر بئر، وهم يتشبثون بجدرانها الحجرية فيقعون في شراك مياهها الهلامية، حتى بادرت بيم وضربت ذراعها بمروحة الخوص وصاحت: البعوض إنه لا يطاق.. نظر الكلب (بادشاه) إذ صحا من إغفاءته إثر الضربة التي تردد صداها أشبه بإطلاقة في الليل، وتحفزّ للانطلاق وهو يحدق في ما حوله بوحشية جعلت بيم تضحك وقالت لتهدّئه:

- نم..نم ودفعته بقدمها الحافية فاستلقى على الأرض من جديد وهو يطلق زفرة ويقترب من بيم.

كان البعوض يشبه أفكار ذلك النهار، أفكاراً تتجسد بصورة

متوحشة لا تُرى في الظلام ولكنها حاضرة في كل مكان ومعظمها يطن داخل الآذان وحولها ذلك الطنين الثاقب. .

كانت بيم تستمع إلى صوت تارا وهي تردد تلك العبارات القاسية التي تقولها برقة متناهية.

- هل رأيت الدكتور. . . الدكتور ترى ما اسمه؟

أو تردد على مسامعها (عندما يتقدم الإنسان في العمر تنتابه جميع أنواع المخاوف ويتوجس من شر متوقع)، ثم إنها قرأت رسالة راجا بصوتٍ عالٍ، الرسالة التي كتبها راجا لها وليس لبيم، ولم يشر ولو بصورة عابرة إلى اسمها في رسالته، ولم يعد يكتب إليها أو يتصل بها، ألم تنطوي نبرة تارا على ذلك الزهو الأصيل عندما قرأت الرسالة الموجهة إليها؟ ثم إن أخاهما المفضل كان يخص تارا بالاهتمام كله وهو الذي طالما تجاهلها، أما الآن فإنه يدير ظهره لبيم، رأت بيم جميع ظهورهم تستدير نحوها، رأت صفاً من الظهور المدبرة تواجهها فعقدت ذراعيها حول وجهها. إنها لم تشأ أن ترى ذلك المشهد البشع، بل أرادت منهم أن يرحلوا ويدعوها لشأنها.

كانوا قد أقبلوا نحوها مثل الحشرات: تارا وباكول ومن ورائهما آل ميسرا، وفي مكان ما في المدى كان هناك، راجا وبنازير، أتوا جميعاً ليذيقوها العذاب، أشباه الحشرات الذين يمتصون دمها، كلهم اقتاتوا على دمها، ولا بد أن دمها كان دماً طيباً، حلواً، معذباً، أما الآن وقد اتخموا فإنهم هبوا مثل أسراب نحل تطن بعيداً عنها وتدير لها ظهورها.

وطوال تلك السنوات كانت تحس أنها ستكون المركز الثابت، وكانت ترقبهم وهم يدورون في الهواء حولها، ثم يعودون

ويحطون أشبه بطيور، وهم يخفقون ويرفرفون بأجنحتهم ويهبطون بسيقانهم إلى أسفل حتى يلامسوا أرضاً صلبة.

هكذا كان بيتهم أرضاً صلبة.

- المرج وممشى الورد وأشجار الغوافه والشرفة مملكة بيم الخاصة.

صوت حاكي أخيها (بابا) وهديل الحمائم. نهارات الصيف وليالي الشتاء، أحواض الزهور والجوز والفستق والملاحف القطنية، الخالة ميرا والكلب، الزهور والقطة. وهي بيم، بيم التي ظلت مقيمة هنا حتى غدت جزءاً يتعذر انتزاعه، جزءاً متماسكاً من كيانه، كانوا يحتاجونها حاجتهم إلى هديل الحمام في الشرفة. حاجتهم إلى طقوس اجتماع العائلة فوق المرج في الأمسيات، غير أن ذلك الكيان النموذج غدا اليوم طاعناً في السن، كما وصفته تارا وتلاشى كل شيء، ألوان الطفولة: الأحمر الدموي وأزرق الفواخت، تلاشى كل ذلك واكتسحه لون الرماد الطيني وأطياف اللون البني لنهر (جُمنا) ذاته.

وبيم كذلك غدت رمادية الشعر، عكرة المحيا، وثمة نقطة واحدة سمراء اللون في الكيان الذي قحُل لونه فإذا ما ضربتها فسوف يتطاير منها الغبار، وإذا شممتها فسوف تدفعك إلى العطاس.. إنها تلك اللوحة العتيقة التي لم تكن جميلة أو ذات قيمة خاصة، ولكنها قيّمة بقدر ما لها من عمر، قيّمة بالنسبة لمن؟..

استدارت جانباً، كان خدها قد التصق بواسطة العرق بالثنية العميقة لمرفقها، حدقت بأخيها الصغير (بابا) وهو مستلقٍ قبالتها في سلام وطمأنينة وإذعان لا حد له فوق سرير خفيف في الشرفة

المظلمة. . أتراها كانت ذات قيمة بالنسبة له؟

إنما لم يكن يشعر بوجودها مثلما لا يدرك الفارق بين اليقظة والمنام، لأنه لم يكن يرفع بصره عن القرص الدوار لجهاز الحاكي، ولا يلحظ إن كانت فرحة أو أسيانة، عجوزاً بشعر أبيض أو فتيّة، لا يدري إذا ما اختفت وغابت أو إذا ما أمسكتها دوامة مائية من دوامات نهر (جُمنا) من خصرها ودارت بها بعيداً كأنها جرة فخارية أو وعاء مما يحمل به رماد الموتى، ثم إن بابا لن يعرف ولن يرى شيئاً، وسوف يواصل إغفاءته بهذه الطريقة الفاتنة.

قالت بيم لنفسها: في ذلك الخير، كل الخير للجميع، وذلك ما يجب أن يكون.

دنت الحشرات منها وأخذت تحوم حول رأسها وتنفذ مثاقبها في أذنيها وتأخذ بالطنين فكانت تضربها بغضب.

عندما وصلت الرسالة من مكتب شركة والدها في غلاف طويل بني اللون مألوف لديها، اتجهت مباشرة نحو غرفة أخيها الصغير (بابا) وهي تحملها وقالت له من دون مقدمات:

ـ (بابا)، هذه رسالة أخرى من السيد (شارما) يطلب من أحدنا أن يتوجه إلى المكتب لحضور الاجتماع ولكنه لم يذكر شيئاً عن سبب الاجتماع ويقول إن من الضروري أن يحضر أحدنا، أستذهب؟.

كان بابا الذي أجفل عندما دخلت بيم عليه بشعرها السائب، انكمش متراجعاً نحو وسادته وتشنج وقفقف كأنه تعرض للفحة حرارة هائلة، بينما كان الحاكي يواصل عويله، كزّ الفتى على شفتيه البيضاوين وأمال رأسه باتجاه الاسطوانة بكل ما يملك من قدرة على التركيز وكأن الاسطوانة ستلهمه الجواب.

مضت بيم تزرع الغرفة بسرعة محدثة انعطافات مفاجئة:

- أم أنك تريدين أن أذهب بنفسي؟

أم.. أم.. نعم.. أعتقد أنني سوف أذهب، ولكن شارما يكره ذلك لأنني أغيظه، إنه لا يطيق التحدث إلي ولذا فهو لا يريدني، هل أرسل باكول؟.. أأطلب من باكول أن يذهب؟..

وحدقت بأخيها بنظرات رهيبة ضارية فأخذ يحرك رأسه وكأن بيم كانت تعذبه بالمطرقة.

- نعم، أتظن ذلك؟ سوف أطلب منه، لكنني لا أريد.

ثم أضافت بنبرة مقيتة:

- لسوف يذهب بطريقه وسيراعي موقفنا، وسوف يعود محملاً بالأنباء.. سوف أحزم أمري وأقرر عنك وعني.

قالت ذلك بطريقة جارحة إلى حد ما ثم رأته يرنح رأسه بلا حول ولا قوة فأمسكت برأسها وانطلقت خارج الغرفة وهي تقول: آه لو يهتم راجا بهذه الأمور.

حرك (بابا) رأسه موافقاً، وعندما غادرت الغرفة واصل تحريكه كأنه لا يعتزم التوقف عن ذلك أبداً.

توقفت الاسطوانة عن الدوران فمد يده ليديرها من جديد، وإذ كان يحركها غدا أكثر تصميماً على تدويرها فأعادت إليه المحاولة هدوءه واستقر رأسه من تلقاء نفسه ونسي بيم وانتشرت الموسيقى وظلت تدور حوله أشبه.. أشبه بلفيفه طويلة كان يحملها بيديه.

وهجمت على تارا في غرفتها وهي تقول: أنت تدركين الأمر، بينما كان باكول يغادر البيت متألقاً بعبق منه عطور رغوة

الحلاقة والغسول وماء الكولونيا، ويستقل سيارة عمه التي يقودها سائق خاص، فوجدت تارا تطوي الثياب وتحزمها في الحقائب المفتوحة فوق سريرها وقد استغرقها جو من المرح وهي تتصور ما ستكون عليه أيام الانشغال الآتية مع ابنتيها وفي حفل الزفاف في بيت راجا، فأفزعها دخول بيم المفاجئ فاسقطت حقيبة الأحذية فوق قدميها.

صاحت بيم وهي تلوح بالرسالة أمام وجهها:

- هذا ما أعنيه، إن من حق راجا أن يكتب رسائل تفيض بالعاطفة، ويتحدث عن اهتمامه أو عدمه أو أنه لا يعلم بشيء قط، ولكن من الذي سيتباحث مع السيد (شارما).. إنه يرسل الرسالة تلو الأخرى ليدعونا إلى حضور الاجتماع الهام، وإنه يريد تبادل الآراء معنا. ولكن من سيذهب إلى (شاندني تشاوك) ويقوم بالمهمة، ثم أين هو راجا؟.. إن راجا غير موجود قط ولن يكون موجوداً قط.

قالت تارا مع دهشتها: ولكنه لم يكن هنا منذ سنوات طويلة يا بيم، لقد كان في (حيدر أباد) مذ غدا رجلاً، و(شارما) يعرف ذلك، وعليه أن يألف التعامل والتشاور معك أنتِ.

- قد يتوجب عليه ذلك، أما أنا فلا، لأنني لا أفقه شيئاً من أمور وقضايا التأمين. فوالدي لم يكلف نفسه مشقة تعليمي، وفي ما يتعلق بأبي، فإنه أنشأني جاهلة بكل شيء، ثم إنني خططت من أجل عيشي وإلا لكنت أُكتِسحت، فقمت بدراسة التاريخ وعلمت نفسي طرق التدريس، لكن أبي لم يدرك ذلك قط، وما فهم راجا، ولأن ذلك لا يؤهلني لتسيير شؤون التأمين، أفكر أحياناً أن من الخير لنا أن نبيع حصصنا في الشركة، نبيعها إلى

(شارما). فما هو رأيك يا ترى؟

جلست تارا على حافة السرير وقطبت جبينها لتظهر لبيم أنها معنية بالأمر رغم أنها عاجزة عن ذلك بسبب فزعها لدخول بيم العاصف وحديثها المتهور.

ـ لماذا لم تتحدثي إلى باكول أولاً؟..

قالت آخر الأمر وهي تحس بارتياح كبير إزاء هذا الإلهام الذي هبط عليها. دعيني أناقش الأمر مع باكول فقد يكون قادراً على إسداء النصح لك.. ورغم أن هذه الفكرة كانت فكرة بيم المبدئية، إلا أنها تجهمت ومضت تتحدث وكأن اقتراح تارا لا قيمة له.

(لأن أحداً من والدينا لم يأخذ المستقبل بنظر الاعتبار، وهما لم يحتاطا أو يعدا العدة له، فمثل هذه الأمور تجعلني اقترب من الجنون، إنها تسبب الجنون) ومضت في إطلاق زوابعها، فلماذا ينبغي لي أن استنجد بباكول أو راجا لمساعدتي، ومع ذلك، فإنني سأفعلها، يجب عليّ أن أتنازل وأركع أمامهما.

ـ أواه يا بيم، إنه ليس أكثر من طلب بعض النصح، قالت تارا وفي نبرتها شيء من الخوف.

ـ كم ستهزأ بي طالباتي! كنت أحاول على الدوام أن أعلمهن، وأدربهن ليكُن مختلفات عنا عندما كنا في سنهن، أن يصبحن جنساً جديداً من النساء مختلفاً عني وعنك فإذا ما عرفن أنني لا أزال كسيحة إلى درجة فظيعة وأنني لا أمتلك أي قدرة على تدبر أموري. .آه، سوف يضحكن مني أليس كذلك؟.. ولسوف يحتقرنني.

قالت تارا بكل ما تمتلكه من طاقة على منح العزاء:

ـ أنا لا أرى ذلك يا بيم.

كانت مرتعبة أمام انفجار ثورة بيم ومخاوفها التي أفقدتها كل شجاعتها وجردتها من قدرتها على اللباقة.

لا تنظري إلى الأمر على أساس أنه من شؤون الرجال أو شؤون النساء، فذلك أمر سخيف في عصرنا، أنظري إليه فقط باعتباره... باعتباره شأناً عائلياً، أجل باعتباره شأناً عائلياً.

رددت ذلك فرحة وقد عثرت بمحض المصادفة على مثل هذا التعبير المناسب:

(يجب أن تجتمع العائلة بكاملها، راجا وباكول وكل فرد منا قبل أن تقدمي على اتخاذ أي قرار، أجل يجب أن نعقد اجتماعاً عائلياً)..

قالت ذلك بانفعال كبير وقد تدبرت آخر الأمر طريقة مناسبة تبرر عقد الاجتماع العائلي الذي تاقت إليه.

ـ وهل سيحضر راجا؟

قالت بيم بنبرة تشوبها المرارة وهي تجلس على عتبة النافذة واتكأت على الحاجز السلكي المشبك الذي يغطيها، فارتخى السلك الشبكي تحت وطأة ثقلها وقد احتوى ظهرها مثل أرجوحة الشبك.

ـ إذا طلبتِ منه ذلك، ويخيل إلي أنه سوف يهتز طرباً لهذا.

هكذا طمأنتها تارا.

ـ آه، سوف يهتز طرباً. نعم..

واصطنعت بيم وجهاً متجهماً وأضافت (من تراه سيهتز طرباً

ويتأثر لعودته إلى هذا البيت الميت العتيق).

كانت تضرب الحاجز السلكي المشبك بقبضة يدها فأثارت الغبار الذي يكمن فيه.

- إن أي إنسان سيصاب بالرعب إن عاد إليه، ألم تفزعك رؤيته خامداً ومهملاً وفاقداً لطلاوته ورونقه، كما عهدته على الدوام؟

- كلا لم يكن الأمر كما يخيل إليك.

أكدت تارا وهي تطمئنها بجدية بالغة:

- من حيث مظهره وحسب، أجل يا بيم فعندما وصلنا لاحظت أن البيت لم يُجَدد صبغه، وأن الحديقة مهملة، أجل، ضمن هذه الحدود فقط. ولكن خيل إلي أن (الجو) قد تغير منذ أن توليت شؤونه بنفسك، ذلك النوع من (الجو) الذي ساد البيت عندما كان والدنا على قيد الحياة، مريضين أو منصرفين إلى لعب الورق في النادي، وكانا بعيدين دائماً، كانا يتركاننا بعيداً عنهما وراء ظهريهما طوال الوقت، حتى أتت ميرا ماسي، بكل أطوارها الغريبة، وراجا في اشتداد مرضه، وبدا أن البيت كله كان معلولاً، سقيماً، وأن المرض كان ينتقل من جيل إلى جيل وكل فرد فيه معرض لأن يصاب بالسقم ويرقد مريضاً، وأن الشيء الوحيد الممكن هو الابتعاد عن هذا البيت، والفرار منه..

كانت تتأتى بشيء من التردد والحيرة ووجهها قد علاه الشحوب بفعل نوبة الانفعال التي اجتاحت كلماتها، فذعرت لإحساسها بها.

التمعت عينا بيم وهي جالسة تصغي إلى فوران أختها

العاطفي:

- أتحسين بالشيء نفسه يا ترى؟

سألتها بفضول بارد، (لست أدري تماماً، كنت منشغلة جداً مع راجا والخالة ميرا ماسي، فلم ألحظ الأثر الذي أحدثه فيك، ترى لماذا لم ألاحظ ذلك؟).. تساءلت وهي في شبه ذهول وساقاها تتحركان من دون وعي منها.

- أذلك ما دفعك للزواج من باكول بدل أن تلتحقي بالكلية؟

- أواه يا بيم، ما كنت لأستطيع الصمود في الكلية ليس (كلية أندرا براشتا) وإنما مجرد أن أكون في الطريق وليس أبعد من ذلك، حيث الأسوار العالية والبوابة والأسيجة النباتية كل ذلك كان لا يختلف في شيء عن المدرسة وكأنني عدت إليها من جديد، لم أكن لأطيق ذلك، فكان أن هربت.

- ولكن أهذا هو السبب الذي دعاك للزواج من باكول؟ لاحقتها بيم بالسؤال غير قادرة على محضها الثقة إلا بشق النفس، وهي بهذا المكر والحذر.

ولم تنكر تارا حتى هذه اللحظة أي شيء، ولم تتنصل من الموضوع إنما قالت بجدية بالغة.

- أنا لم أفكر بالموضوع على هذا النحو ففي ذلك الوقت لم أكن أكثر من..

أكثر من فتاة تجرجر قدميها فحسب، وأطلقت ضحكة، (كان باكول ذا خبرة واسعة جداً، ومثيراً للإعجاب والاحترام، ألم يكن كذلك؟..) ثم إنه انتشلني ومنحني الاهتمام فوجدت الأمر رائعاً ومدهشاً تماماً، وكنت مسحورة مأخوذة به.

جلستا معاً في الغرفة المغبرة المظلمة تمرران أصابعهما في شعريهما بإشارات متوائمة توحي بالاستغراق والذهول وهما تصغيان إلى اسطوانة (بابا) (سيراناادا الحمار) تدور دورات أبدية لا نهاية لها على الحاكي وتستمعان إلى زعيق الببغاوات وهي تتنازع ثمار الغوافة اليانعة الناضجة في الحديقة.

وواصلت تارا حديثها: الآن استطيع أن أعرف، إني لا بد قد استخدمته باعتباره وسيلة للهرب، وسيلة للفرار النهائي الذي قمت به إلى خارج البلاد مباشرة.

وأطلقت ضحكة مبتسرة زائفة.

رمقتها بيم بنظرة متفحصة، كانت ترى تارا بمزاجها الطفولي المناكد سريعة الغضب والتأثر، انفعالية رقيقة حنوناً، لها صوت طفلة صغيرة بنبرته الحادة وقد لزمت عادة مثيرة في التشبث بالخالة ميرا حتى بعد أن تجاوزت عهد المناغاة والعناق ورغبة النوم في الفراش وهي تتشبث بالوسادة وتمص إبهامها، فهزت رأسها غير مصدقة ما تراه، لم تصدق إن تلك المشاعر التي تنشدها تارا البالغة، سبق أن انبثقت في أعماقها وهي بعد طفلة صغيرة.

- هل تعتقدين إن ذلك كله قد انتهى؟ هل خالجك الظن في ذلك؟

وأضافت بيم على الفور: كلا يا تارا، أحسست بذلك فحسب، أما الأفكار والكلمات فقد انبثقت في وقت متأخر، أتت الآن فقط.

كانت تتحدث تحت تأثير دهشة وعجب لا حد لهما، حركت بيم رأسها وأقرت بصحة ما اعترفت به تارا، ثم بدأت تثير ذاكرتها:

ـ اعتدتِ أن تكوني أسعد من في البيت، ولم تكن لديك حتى الرغبة في الذهاب إلى المدرسة أبداً.

ـ وكنت أنت المتمردة العاصية وقد دأبت على أن تنشدي العالم خارج حدود البيت.

ووافقت تارا: أتذكرين كيف اعتاد أحدُنا أن يسأل الآخر هذا السؤال:

ـ (ما الذي ستكونه عندما تكبر؟)

فكنت أقول ببساطة إنني أريد أن أكون أماً، أما أنت وراجا فكنتما تتطلعان إلى أن تصبحا بطلة وبطلاً.

وشرعت تضحك فبعد كل تلك السنوات اكتشفت أنها تستطيع الضحك من تلك الأمنيات.

لكن بيم لم تفعل، فقد حنت رأسها واستقر ذقنها عند أسفل عنقها واجتاح وجهها ظل قاتم، فبرقت عيناها بوميض الغضب.

قالت تارا في خشية: أواه يا بيم..

رفعت بيم وجهها ونظرت إليها وهي تبتسم ابتسامة مضللة، ابتسامة مريعة كما تراءت لتارا وقالت: وكيف انتهى بنا الأمر؟

تساءلت بسخرية (البطل والبطلة أين هما؟) هناك في الحضيض، في أعماق البئر، ذهبا وتواريا في الحضيض.

تساءلت تارا فزعة وقد جفت شفتاها:

ـ أي بئر هذه؟

ـ البئر الواقعة وراء البيت، البئر التي غرقت فيها البقرة، وأشارت بيدها نحو الظلام خارج النافذة، لطالما كنت أحس بذلك، أرى أنني سأغرق وأنتهي في تلك البئر..

ـ أواه يا بيم، ما هذا؟

ضحكت بيم وسارت متجهة نحو الباب تاركة تارا في ذهولها وحيرتها وهي تتساءل عن مدى الجديّة في أقوال بيم، أتراها كانت تمثل مشهداً ميلودرامياً لتؤثر في تارا؟.. كلا الأمرين كانا واردين.

قالت تارا بصوت خفيض: أحس بالخوف عليها.

وضمت رداءها المنزلي إلى جسدها وشدته قرب عنقها، وهي جالسة على الأرض قرب سريرها الذي نصب هذه الليلة في طرف الشرفة التي غمرها نور القمر.. لا أدري ماذا حلّ بها، عندما قدمنا بدت لي اعتيادية جداً، وكل يوم يمر كنت أحس أن بيم قد نالت كل ما تنشده في الحياة.

وبدا الأمر غير قابل للتصديق، فهي لم تسعَ للذهاب إلى أي مكان لتجد ما تتوق إليه، ولأنها ظلت مقيمة هنا في هذا البيت العتيق، تقوم بالتدريس في كلية عتيقة، بل إن تلك الكلية قد منحتها كل ما كانت تتوق إليه، ألا يبدو ذلك غريباً يا باكول؟

كان باكول يذرع الشرفة بمنامته البيضاء، ويدخن السيكار الأخيرة قبل النوم، وكان قد راجع وتفحص كل الترتيبات التي أعدها لرحلته عبر الهند، فبعد أسبوع سيتفرق شمل العائلة بعد اجتماعهم في مدينة (حيدر أباد) وها هو يراجع (ذهنياً) كل الحجوزات والموافقات التي استحصلها والبطاقات التي ابتاعها، أحس بضيق، بضيق هائل لأنه لم يكن يثق كثيراً بنظام السكك الحديدية الهندية وبوكالات السفر الهندية، وتساءل عما إذا كان من الأفضل له أن يمضي الإجازة كلها في بيت عمه في (دلهي الجديدة).

قاطعت تارا تدفق أفكاره وهي تتمشى بثرثرتها التي تماثل

سقسقة طائر سنونو وحيد لا يكف عن الزقزقة طوال الليل.

وأعادت تارا السؤال ذاته.

أجابها بكثير من الحكمة، إنها لم تجد ما تنشده، بل صنعته بنفسها، ونفض نصف بوصة من رماد السيكار فوق أصيص زهور نبات العنكبوت فامتزج شذاه الانثوي الباذخ برائحة تبغ السيكار لينشأ عن ذلك عبير مسكر خانق.

(فعلت ما أرادت)

أمنّت تارا على قوله وهي مستثارة جداً:

ـ أجل، وبدت قانعة راضية بما هي فيه أليس كذلك؟

تساءل باكول: راضية؟.. أجل إنها راضية تماماً ـ أجاب نفسه ـ لا أكثر ولا أقل من أي منا.

وعند هذا الحد لم توافقه تارا لأنها رمت من وراء سؤالها وضع حلٍ لمشكلة بيم والعزم على إيجاد منفذٍ لها هذه الليلة.

كان ضياء القمر الذي اكتمل بدراً في تمام بهائه وسطوعه قادراً من دون ريب على كشف وإضاءة كل شيء.

انهمر الضوء فوق البيت والشرفة والحديقة كأنه الثلج أو الكلس الناصع كاسياً كل شيء بدفقه الأبيض، إلا حيث تحط الظلال، أو حيث تتعالى قمم الأشجار سوداء كأنها الفحم.

كانت لمسته البيضاء باردة مرمرية كأنها الثلج فاعترت تارا رعشة وقالت:

ـ أما الآن، فإن بيم فقدت كل سيطرة لها على نفسها، تبدو لي شديدة التعاسة سريعة الغضب محتدمة بالقلق.

اعترف لها باكول: لم ألحظ ذلك.. (لربما كانت هناك وكالة

سفريات أخرى، لا تلك الوكالة الجديدة الصغيرة التي بدأت أعمالها للتو ويديرها أخوة مقابل (كونوت سيركس) سوف يحس بمزيد من الطمأنينة والثقة إذا تعامل مع وكالة (توماس كوك) سيأخذ معه زوجته وابنتيه إلى كشمير، فينعمون بعطلة مشتركة في عوامة نهرية.. ولكن تارا تصر على اصطحاب بيم وبابا معها فهي لم تقو بعد على تحرير نفسها منهما، أو من هذا البيت البائس الرث الذي يبدو أشبه بقبر تحت ضياء القمر، قبر طُلي بالكلس الأبيض فبرز وسط ظلال الأشجار الحالكة، والأسيجة مغموراً بالصمت والجميع نيام أو مسحورون بضوء القمر.

صاحت تارا بذلك الصوت الشبيه بسقسقة سنونو متوجع:

- ألم تلاحظ؟ ألم تر يا باكول مقدار غضبها طوال الوقت؟ وتلك الحدة والخشونة والقسوة في حديثها حتى مع (بابا) ألم تلاحظ كيف تتجول في أرجاء البيت طوال النهار من دون أن تفعل شيئاً؟

- ما الذي أصابها؟

سأل باكول وهو يدرك تماماً أن تارا ستتكلم، أما هو فإن لديه شكوكه الخاصة بشأن بيم غير إنه وجد من الأفضل أن يبوح لتارا بها.

- أهو موضوعها مع السيد (شارما) تلك القضية التي أخبرتني عنها؟

ليست هي بالتأكيد، فقد تعاملت بيم معه على مدى سنوات طويلة.

وافقته تارا: حتماً ليست تلك هي المشكلة، يبدو لي أن الأمر

يتعلق براجا ثانية، كما يخيل إليّ..

سأل باكول بصوت سئم؟.. أتراهما تشاجرا الآن؟.. حقاً إن لهذا البيت جواً جليدياً أشبه بمقبرة.

ـ لا أستطيع أن أتذكر سبب نزاعهما فقد مضى زمن طويل جداً.

ـ في الحقيقة، لم يكن ثمة شجار، إنها رسالة، بيم لا تستطيع نسيان وتجاوز حسدها وحنقها القديم، لقد جعلها الحسد والتذمر مخلوقة في غاية البؤس والشقاء، أتمنى أن أوفق في القضاء على دوافع حسدها وتذمرها من أجل راحتها، وأصغى إليها باكول بشيء من الاهتمام فبوسعه على الدوام أن يجد الحل لأي مشكلة ويلذ له أن يفكر، بل إنه بالأحرى يستمتع بالمشكلات ويتلذذ بايجاد الحلول لسريعي التأثر مثل تارا ليترك وقعاً طيباً في نفوسهم، باليسر الذي تفعله تارا، آه كم سيكون رائعاً لو أن تارا تنشغل به وتعنى بوجوده وتتأثر به بدلاً من تلك الاهتمامات، إنها حقاً ليلة سحر وجمال شرقي وسوف يجلسان في ضوء القمر يتأملان معاً البدر المعلق فوق الحديقة كأنه لؤلؤة ثمينة لا تقدر بمال، تشوبها سلسلة من تلال رمادية شبحية شأنها شأن أي جمال خارق معرض للمخاطر، فلماذا إذن يهتمان بشؤون بيم وراجا؟ بدل أن يستمتعا بليلتهما؟

جاء ووقف قرب تارا، فبدا فخذاه الهائلان الصلدان في سروال منامته البيضاء أشبه بعمودين حجريين وسيكاره يتوهج بين أصابعه.

قال لها: عليكِ أن تعدي الترتيبات اللازمة ليلتقيا ويتحدثا وكان صوته عميقاً بادي التأثر.

لم تظهر استجابة لاقترابه منها وبدت كأنها تحلق وحيدة في حالة من الإنكار والانفعال، إنها ذلك الطائر الذي لا يقر له قرار أبداً.

ـ ولكن، هذا هو ما سعيت إليه طوال فترة وجودنا هنا.

قالت بصوت باكٍ ولم تعط انطباعاً بالرضا أو الامتنان قط.

غمغم وهو يبتعد نحو سريره، آه أحقاً؟

ـ لم اكن أدري فرأسي مزدحم بكثير من الأشياء، يجب أن نتأكد من موعد وصول البنتين بالطائرة يوم غدٍ، عليك أن تذكريّني يا تارا.

وتثاءب وألقى بعقب السيكار بعيداً على الممشى، ثم ألقى بنفسه في فراشه وغمغم متذمراً: ليلة أخرى في هذا السرير المتعب اللعين الذي تراخت لوالبه؟ إنه بحاجة إلى إصلاح وربط.

وصرف بأسنانه متنهداً وهو يتقلب والسرير يحدث ضجة وصريراً حتى اهتدى آخر الأمر إلى الوضع المريح فرقد على السرير كأنه حشية من الحشايا.

لبثت تارا واقفة شبه متيبسة أمام السرير وهي تحدق بطريقة تبعث على الرثاء بالحديقة الساطعة التي تومئ وتلامع فيها الظلال والألوان.

غمر القمر كل شيء بسحره الفريد وأخرسه، حتى جداجد الليل الصرّارة صمتت إذ انسكب عليها ضوؤه الساطع فهجعت مذعورة ساكنة في الظلال.

وحده الكلب (بادشاه) لم يكن مرتعباً إنما هو مستثار أمام ذلك الوجه القناعي المسطح الهائل المعلق فوق الأشجار، ينظر

إليه ساخراً وهو مقعٍ تكتسحه ارتعاشة خفية فوق درجات السلم الغارقة في البياض. ولم يلبث أن وثب وأسرع قافزاً وسط الممشى ليجلس عند البوابة وتحتها مباشرة وكأن ثمة متطفلاً سيقتحم المكان عنوة وعليه أن يقوم بحراسة ممتلكاته ضد ذلك الغريب محذراً البيت وأهله بحضوره الخارق وتعالى نباحهُ في هدأة الليل أشبه بموسيقى تعزف على بوق.

توقف باكول أمام باب غرفة بيم وهو في طريقه إلى مكتب الخطوط الجوية صباح اليوم التالي فرآها تجلس أمام منضدتها وأوراقها.. فقالَ لها:

ـ أخبرتني تارا عن رسالة السيد (شارما) التي وصلت إليك، هل تودين أن أمر به لأقف على جلية الأمر؟

أجابت بطريقة فظة وعلى الفور: كلا.. لا يشغلنك الأمر، قررت أن أبيع الأسهم.

ـ قررتِ؟

تساءل باكول مذعوراً وقد تندى وجهه بحبات العرق اللامعة وكان الضوء نحاسياً وقاسياً بسبب من اشتداد الحرارة.

ـ إهدأي الآن يا بيم، لماذا لا نجلس كلنا، معاً وحول مائدة واحدة لنناقش الموضوع بطريقة أشمل قبل اتخاذ القرار بشأنه؟

ضحكت بيم بطريقتها الفظة التي كانت تغيظه بها على الدوام.

ـ تناقشه؟ مع من تناقشه؟ مع (بابا)؟

أنا و (بابا) الصغير الشخصان الوحيدان اللذان يعنيهما الأمر أكثر من أي إنسان آخر، وأنا من سيقرر بدلاً عنه.

ارتبك باكول ومسح وجهه الناضح عرقاً بمنديل كتاني أنيق أعطته إياه تارا ذلك الصباح، وقال وهو يستعيد في ذهنه جميع ما أخبرته به تارا عن بيم:

ـ ولكن، لماذا لا نستشير راجا أولاً؟ إنه يمتلك قدراً جيداً من الخبرات في شؤون العمل وأمور العقارات، ويعرف كيف يحصل على أفضل صفقة من شارما وستكون نصيحته جديرة بالاهتمام يا بيم. نصيحة قيمة..

هزت بيم رأسها بحركة قاطعة: لن يكون لراجا شأن بنا، إنه غير معني بشيء.

وحركت يدها بتلويحة صغيرة لتصرفه عنها، أما تارا فقد كانت مستعدة لتوجيه الاتهام إلى أي واحد منهم، فعندما انتهت زيارة (جايا ميسرا) القصيرة ذات صباح، أصرت أن ترافقها حتى البوابة الخارجية رغم سطوع الشمس المحرقة، فكان عليهما أن تحجب كلٌ رأسها بطرف الساري وأن تخفضا عيونهما تفادياً لوهج الشمس.

كانت الحرارة تحرق كل شيء في ذلك المشهد من الأسود والأبيض، من الفحم والرماد، فأحست تارا بالدوار تحت وهج الحرارة الساطع، قالت جايا: كم هي غريبة أفكار بيم!

فأمنت تارا على قولها: (أجل..) وهي تحس بالسعادة إذ أتيحت لها هذه المناسبة للاستئناس برأي (جايا) ونصيحتها.

لكن جايا لم تكن تلمح في حديثها لغير محادثتها مع بيم وهما تشربان أقداح الليمونادة إذ كانتا تجلسان تحت أزيز المروحة الكهربائية وصريرها الشاكي، في غرفة الاستقبال.

كانت جايا قد حضرت هي الأخرى تطلب النصح، فالمدرسة مغلقة الآن في العطلة الصيفية: لذا فإنني وسارلا قررنا أن نجدد أثاث المدرسة، أن نطلي الأثاث، فأي لون تقترحين لطلاء مناضد ومقاعد الطلاب؟

وبينما كانت تارا تفكر بالسؤال على نحو جاد أجابت بيم بغته: باللون الأحمر..

أوه، كلا، لا..لا للون الأحمر، لماذا لا نطليها باللون الوردي الفاتح أو الأزرق؟

احتجت بيم مخالفة إياها: ولماذا؟

ولم تكن لدى (جايا) القدرة على قول شيء سوى هذه العبارة: يجب أن يكون الطلاء وردياً أو أزرق وأصرت على رأيها.

وها هي الآن تحتكم إلى تارا: شاكيةً.

- «سيكون الأحمر فظيعاً، لا بد أن يكون اللون رقيقاً ناعماً، أزرق أو وردياً مثلاً»، سألتها تارا غير مقدرة أن جايا ما أتت لزيارتهم إلا لهذا الأمر:

ماذا يا جايا؟

قالت جايا وقد أهينت بسبب افتقارها إلى ذوق رفيع: أثاث المدرسة، المناضد والمقاعد.

قالت تارا: أوه، إن لبيم مزاجاً غريباً هذه الأيام، وأخذت تشرح لجايا محاولة إثارة اهتمامها بإبداء قلقها على بيم..

- إنني قلقة بشأنها يا جايا..

بشأن بيم؟

كانت جايا قد أهينت، ولا يزال السخط يتأجج في أعماقها،

وكم كانت بشرتها محروقة مسوّدة، هذا ما لاحظته تارا وهي تنظر إلى قدمي جايا في خفيهما، وقد كانتا تسيران وسط الممشى المترب الذي كسته طبقة كثيفة من تراب. كانت قدما جايا أشبه ببراثن غراب عجوز، ملتوية متفتحة، أما صوتها فقد بدا أشبه بتحطم غصن محروق هش، ويابس.

- لا تقلقي بشأن بيم، فقد ألفت أن تهتم بنفسها، وبوسعها أن تُعنى بأمورها.

- إلى أي مدى؟

كانت تارا قلقة وهي تحمل ساريها القطني الأبيض مثل خمار أمام وجهها تتفادى به سطوع الضوء الذي يُعشي البصر.

- بيم لم تعد شابة، وبابا لم يعد صغيراً أيضاً، وها هما وحيدين في البيت بينما غادرناهما جميعاً، قالت جايا بصوت يستتر فيه الغضب:

- هنا، إثنان، إحدهما للآخر، أحدهما معني بالآخر، فلدى بيم هذا الأخ الأصغر (بابا) لتعنى به وتهتم بأمره، إنها تحب دائماً أن تتحكم بالآخرين وهو يحتاجها، بيم بخير يا تارا..

وأسقط في يد تارا، فقد بدا لها أن ليست ثمة وسيلة لإبلاغ جايا بمقدار قلقها، فتوقفت لدى البوابة هنا حيث تلقي شجرة التوت بظلالها الوارفة عليهما، وقفتا لتكيفا عيونهما للظل الذي بدا حالك السواد مقارنة بالحرارة البيضاء المتوهجة خارج دائرة شجرة التوت المغبشة التي تساقطت ثمارها الناضجة المسوّدة في التراب.

كانت بعض حبات التوت قد سحقت تحت الأقدام فتشبعت الأرض بعصيرها الذي كان شبيهاً بالدم. أما مشابهة الثمار للدود

فقد جعلت تارا تصاب بالاشمئزاز والغثيان فحاولت إبعاد قدميها عن الثمار المهروسة، من دون جدوى، لأنها انتشرت وملأت المكان كله تحت الشجرة.

قالت تارا:

- سوف نغادر لحضور الزفاف حال وصول البنتين يا جايا.

- أستذهب بيم معكم؟

-... لا..

هزت تارا رأسها متأسية!.. لا.. وتلك هي المشكلة.

إنها لا تريد أن تأتي، وترفض حضور العرس.

- نخرت جايا أشبه بحصان وقالت:

- لبيم رأيها الخاص، وهي تفعل ذلك دائماً، لقد كنتما مختلفتين طوال الوقت أنتما الأختان بيم وتارا.

ورمقت تارا بنظرة تكاد تكون أمومية منطوية على قدر من الاعتزاز والإطراء معاً.

غير أن تارا لم تتقبل ذلك:

- في الحقيقة لم نكن مختلفتين، قد نبدو كذلك، ولكن كل شيء بيننا مشترك، مما يجعلنا كامرأة واحدة، ولا أحد يعرف مقدار المشاركة والتقارب الذي بيننا.

قالت جايا دونما اهتمام:

- بالتأكيد، ذلك أمر طبيعي، ولكن بيم كثيرة العناد والمكابرة، هي ليست مثلك، ما كنتِ يوماً في مثل عنادها، أرجو أن تستمتعي بحفلْ الزفاف وتبلغي محبتنا إلى راجا وبنازير، كما تبلغينهما شكرنا لدعوتهم إيانا وتلقينا مثل هذه الدعوة الجليلة.

وخرجت إلى لظى الشمس ثانية، وظلت تارا واقفة تحت ظل الشجرة ما بين ثمار التوت المتساقطة المسحوقة وعصيرها الذي يلطخ الأرض تحت ظلال الشجرة وهي ترقبها حتى أحست بالوخز في عينيها والدوار في رأسها وكان عليها أن تعود إلى البيت بسرعة قبل أن يغمى عليها من فرط الحرارة.

وتراجف هَمّ تارا من حولها مثلما يتراجف أنف الكلب الرطب الذي لم يكن ليستقر أو يرقد في أي مكان فيرغم بيم على أن تضربه بقدمها أو تركله خارجاً بكل فظاظة وقسوة كما كانت تفعل به أيام طفولتهما.

تساءلت بيم وقد استشاطت غضباً عندما دخلت تارا محجبة الوجه من الباب الخارجي:

ـ أكان عليك وضع تلك الأجراس المصلصة حول خصرك يا تارا؟ وكل هذه الأساور الذهبية حول معصميك؟ ثم هذه الأجراس الفضية التي تحيط بوسطك، لا يمكنني أن أتخيل أنك من جنس النساء اللائي يحملن رزمة من المفاتيح حول خصورهن..

أوضحت تارا معتذرة وهي فزعة لإحساسها بالذنب أمام بيم:

ـ إنها مفاتيح حقائبنا، أعطاني باكول المفاتيح لأحتفظ بها.

ـ نعم، ولكن كيف تحتملين صلصلتها وهي تضج بهذه الطريقة؟

سألتها بيم متضجرة وهي تضغط بيديها على رأسها، تعالى ضجيج المروحة الكهربائية وأنينها الشاكي فوق رأسيهما معلنة حاجتها للتزييت.

وأطلق (بُرص) على الجدار سلسلة من أصوات التحذير

المقرقرة بينما كان ذيله يضرب ضربات متسارعة حقودة، اجتازته تارا واجتازت بيم الجالسة إلى المائدة وهي تحتفظ بمسافة السلامة بينها وبين الاثنين ويدها تضغط على سلسلة المفاتيح لتخرسها.

غير أن بيم لم تهدأ، كان غضبها محتدماً دامياً مثل طفح حصف جلدي، اضطرت إلى حكه وخدشه فتفاقمت حالته.

كان على مائدة الغداء صنف من صلصة الكاري الحارة التي لا تطيق تارا تذوقها، فدفعت بالطبق بحركة مهذبة لا تلفت الانتباه، لكن بيم هاجمتها:

ـ ماذا جرى؟.. ألا تحبين الكاري الذي تطبخه (جاناكي)؟ حتى وإن كان طهو جاناكي رديئاً فعلى المرء أن لا يعترض ويبدي احتجاجه، هيا تذوقي بعضاً منه يا تارا..

وإذ هزت تارا رأسها مبدية رفضها، ألحت بيم بشدة، حتى أوشكت تارا أن تنفجر بالبكاء، ثم اضطرت أخيراً إلى تناول ملعقة منه فانسكب المرق الأحمر على الطبق وفوق مفرش المائدة، مما أثار بيم وجعل وجهها يمتقع غضباً.

وعندما كانت بيم تتمشى في الشرفة في هدأة عصر ذلك اليوم المشؤوم، كادت قدمها أن تطأ بيضة حمام متصدعة مهشمة فتهرس جثة فرخ الحمام الذي لقي حتفه لحظة ولادته وهو يسقط من العش الهزيل الذي لم يكن قادراً على حمايته وتجنيبه الكارثة.

أرغمت كسور القشرة الصغيرة واللطخة العديمة الشكل للريش المصفر الحواف والجسد الأحمر الضارب إلى الزرقة والمنقار الكبير قياساً إلى ضآلة الجسم. أرغمت بيم على التراجع واندفعت مع شهقة غاضبة وكأن الحمامة أذنبت إذ أقامت عشها بطريقة سقيمة تعوزها البراعة وضمان الأمان، فكان أن فقدت

بيضها وأثارت حفيظة بيم وسببت لها إزعاجاً لا حد له لأنها مرغمة على إزالة البقايا وتنظيف مكانها، ما هي إلا قطعة من قمامة، قذارة.

وكادت أن تجهش بالبكاء لا حزناً أو تعاطفاً وإنما لفرط اشمئزازها من قذارة هذه البقايا.

وتأجج غضبها طوال عصر ذلك اليوم واتسع متخذاً حجماً شيطانياً مرعباً، هذا الغضب الذي كان يماثل الصيف ذاته، ويبلغ الآن ذروته، أو كأنه مثل الزئبق في المحرار المعلق على جدار الشرفة ينتشر وينتفخ ويلتمع في أنبوبة.

في تلك الآونة كان الأخ الأصغر (بابا) معزولاً، محتجزاً في غرفته يستمع إلى أغنية (لا تحبسني)، وهذا ما كان يعوز بيم لتنفجر غيظاً فاندفعت إلى غرفته وقد خنقها الغضب وهي تمسك بعنقها وتسرع لانتزاع أبرة (الحاكي) من فوق (الاسطوانة) وأدارت الذراع بعيداً وفي الصمت الذي أنفغر كأنه جرح دامٍ تخلف بعد قلع ضرس قالت بصوت فيه بعض رقة وليونة:

- أريد أن أتحدث إليك يا (بابا) عليك أن تترك هذا وتصغي إلي.

ثم جلست على كرسي من الكانفاس إلى جوار سريره وهي تصب ثرثرتها فوقه مباشرة، مستهدفة إياه دون سواه، وهو جالس قبالتها جزعاً، مستفزاً أشبه بقطار يجري على السكة وقد أمسك بزمامه سائق معتوه. ما كانت تطيق النظر إلى عيني أخيها (بابا) الواسعتين اللتين يفوق البياض فيهما البؤبؤ الأسود، وهي تواصل ثرثرتها ولكن، لكونه الهدف الذي اختارته لتصوب نحوه سهامها، وتصوّب وتصوب، مضت تخبره عن رأيها ببيع حصصهم في

الشركة إلى السيد (شارما) مستخدمة هذا الموضوع وسيلة للمضي بالحديث.

(.. وإذا ما بعت أسهمنا فهذا يعني أننا فقدنا هذا الجانب من دخلنا وهو دخل ضئيل إلى حد لا نعطيه اعتباراً على أي حال ولكنه يغطي بعض النفقات، وسوف يكون بوسعي تسديد الإيجار والاحتفاظ بالبيت من مرتبي وسوف أتدبر أمري، ولكن سوف يتوجب عليّ أن أرسلك للعيش مع (راجا) في (حيدر أباد) وها أنذا أتيت لأسألك رأيك في الأمر..).

وها هي بيم الآن وقد وفقت في إصابة الهدف فصوبت وصوبت إليه.

- أفلا تريد الذهاب والعيش مع راجا في (حيدر أباد) لم تكن تعرف أنها ستقول هذا حتى نطقت به، دخلت لكي تتحدث إلى (بابا) وقد جردته من كل دفاع وحماية وهي تطالبه بالاستجابة لها بنوع من التكيف لحياتها الخاصة وأساليبها ومواقفها، تريد الاستجابة كنوع من مباركة لها من قبل (بابا) ولم تكن تدري أن هذا الأمر سيفضي إلى مثل هذا التهديد والابتزاز لـ (بابا). ولبثت تثرثر غير مدركة لما تفوهت به لولا أن شيئاً ما خيل إليها أنه يضرب داخل رأسها، يضربها ضرباً مبرحاً وهي تنظر إلى (بابا).

لم يقل (بابا) شيئاً قط، كل ما فعله أنه جلس على حافة سريره مثلما اعتاد أن يفعل دائماً وقد تدلت ذراعاه الطويلتان بارتخاء فوق ركبتيه، لكنه بدا وكأنه يرتد متراجعاً ليبتعد عنها قدر استطاعته وقد التوى فمه وتدلى منحرفاً وكأنه تعرض للطمة قاسية.

صاحت به وهي تنحني بعيداً عن كرسيها باتجاهه:

- أعني.. إنها مجرد فكرة، خاطرة، إنني أسألك، أردت أن

أعرف رأيك فقط يا (بابا) فماذا ترى، وبم تفكر؟

غير أن (بابا) لم يخبرها بما يفكر فيه، ولم يكن أحد يعرف ما إذا كان قد فكر بالأمر..

ـ (بابا) أنا لم أقصد ذلك.

قالت بصوت أجش وكررت: أنا لم أقصد ذلك..

وانزاحت غمة غضبها أخيراً فقد بلغ الغضب ذروته ومنتهاه مثل موجة متوهجة كانت تحوّم فوق الجميع، ثم تهاوت منقضة على الرمال وتسربت متلاشية من دون أن تترك وراءها غير ظل ندي في هيئة صمتٍ يلف (بابا) ولم تشهد بيم طوال ذلك الصيف مثل عصر ذلك اليوم الذي أمضته، كان عصراً تام الهدوء، خاوياً، يرقد صامتاً، ملقى مثل عظم على الرمال بجانب النهر.

زمجر الصمت حول البيت وهدر في أرجائه فأرغم بيم على أن تضغط بيديها حول أذنيها ولعلها كانت ستستمتع بصوت الحاكي لو أنه نجح في طمس أصوات الصمت واكتساحها.

ثم ها هي الآن تضغط بيديها على عينيها، غير أن النتيجة لم تكن سوى ومضات ضوء ووخزات كانت تخترق أجفان عينيها، ولم يكن كل ذلك يمنحها بديلاً للجواب، فقد ظلت الأسئلة وحدها تهدر وتهدر في موجة حالكة أثر أخرى لماذا؟.. لماذا؟... لماذا اختارت (بابا) لتصب عليه آلامها وتنفس عن استيائها وإحباطها فوق رأسه؟..

لم تكتب رسالة إلى (راجا) وتفرغ فيها كل ما كانت تود قوله طوال تلك السنوات..

ولكنها بدلاً من ذلك تهاجم تارا لأنها لم تُنَح بعيداً بل تأتي

على الدوام زاحفة لتتشبث بعادة المحبة وتتمسك بعدم ثقتها بنفسها، أو باكول الذي اختارت أن تحطم كبرياءه واعتزازه وتحيله نثاراً علّها تشفي غلة حقدها بضربة قاصمة لأن باكول يتظاهر بعدم الاكتراث وكأن شيئاً لم يكن ويظل ثابتاً وعلى يقين من عدم وجود من يستطيع النيل منه.

كانت بيم تعرف السبب من دون شك، فهي قادرة على انتزاع الجواب بيسر، فقد عرفت تواً الإجابات التي كانوا سيقدمونها، وكانت كل أجوبتهم واضحة جداً، بالغة الوضوح، شديدة القسوة، إنها تدرك كل عبارة وتميز أدنى الفوارق في كلماتهم.

كان صمت (بابا) وتحفظه وانصرافه الذاهل إلى عالمه الخيالي هو الذي أرادت أن تقتحمه بالقوة وتنتهبه وتسطو عليه، أشبه بالصياد الذي كان يتنقل في حمى ورعاية الطائر الأبيض الذي يرفرف في الجو فوق رأسه فإذا به يرفع قوسه ونشّابه ويطلق نحوه ليدعيه لنفسه، يدعي أنه كنزه ولقيته وغيمته فيرديه ويتهاوى صريعاً عند قدميه، ولم تعد هناك روح بيضاء حامية ولا رمز للرحمة والفضيلة إنما مجرد طائر قطرس بحري كبير ميت، حزمة موت باردة.

إذاً، يجب عليها أن تنظف المكان من القذارة كما نظفته من البيضة المهروسة والفرخ الذي دق عنقه في الشرفة.

وانفتحت عيناها إزاء هذا المشهد على الرغم منها فطافت ببصرها في أرجاء الغرفة بشيء من الخشية لكن الغرفة كانت معتمة مظللة محجوبة بحاجز من الخيزران عند الباب، وكما غطت نوافذها من الخارج حصران رطبة كثيبة من الأسل وانسدلت عليها الستائر الثقيلة من الداخل وقد تبقعت الجدران التي تقشر طلاؤها

وفي ظلها المعتم اكتشفت بيم كم أحبته، كم أحبت راجا وأحبت تارا وكل من عاش معها في حمى هذا البيت، وأدركت لحظتها أنه ما من حب أشد حميمية واكتمالاً ورحابة من هذا الحب، وليس من حب سواه، كان قد انبثق منذ زمن بعيد جداً اقتضى زمناً بهذا القدر لينمو ويتسع.

كانوا من دون ريب أجزاء متلازمة متصلة بها يتعذر انتزاعهم منها فهي تشترك معهم في أشياء لا تحصى، حتى ذلك الغضب والإحساس بالخيبة اللذين تحسهما فيهم، ما هما في الحقيقة سوى الغضب والإحباط اللذين تحسهما في نفسها. وإن أي أذىً أو ألم يحسونه تحسه معهم، وكل ما من شأنه أن يحط من قيمتهم تجده يحط من قيمتها، وما يتهددهم فإنه بالضرورة يتهددها وليس من امرئ ـ سواهم في هذا العالم ترغب في مسامحته عن طيب خاطر والى أقصى درجات التسامح وتذود عنه بمزيد من التلقائية المباشرة، لم تكن لتصدق بسهولة في تلك اللحظة أنها ستواصل العيش بعدهم أو أنهم يرغبون بالعيش بعد رحيلها. فإذا ما حدثت مثل هذه الظاهرة التي لا يمكن أن تخطر على بال، فسيتصدعون بالتأكيد وتدمر حياتهم وسيسقط عن كيانهم كماله وينتهي.

استلقت خامدة دونما حركة حتى لتكاد أنفاسها تتوقف لخوفها من أن يخدش أي نفس من أنفاسها كمال ذلك الحب ومهابته.

وبالرغم من العتمة والظلال، إلا أن بيم كانت قادرة على الرؤية تماماً كما لو أنها (في ضوء النهار المشرق)، فهي لم تكن تحس بغير الحب والشوق إليهم جميعاً، ولو افترضت لحظتها أن ثمة أذى أو سوءاً سيمسهم فإن ذلك كان كفيلاً بتجريحها وطعنها في فؤادها المتصدع حزناً.

وما كان ذلك ليحدث إلا بسبب من حبها المجروح لهم، وعجزه وقصوره عن تطويقهم تطويقاً كاملاً وكافياً، ولأنه كان حباً مشروخاً غير لائق ولا ملائم ولا يتسع للجميع على حد سواء، فقد سعت إلى تعزيزه وترسيخه. لم تكن بيم تحمل أي مشاعر طيبة تجاه والديها الراحلين، فقد قصرت في فهمهما، وكان عليها أن تبذل جهوداً كبيرة لتبلغ مرحلة الفهم الأكيد لهما، أما حبها لراجا فقد كان منطوياً على قدر كبير جداً من المعايب والعدوانية، وشعرت أنها تعرضت لمهانة شنيعة برحيله عنها وهجره إياها بتحوله من دور أخٍ (الى مالك عقارات)، وذلك ما لم تغتفره له قط، ولم تشفَ مِن عذابها وتعود تلك الممشوقة المشرقة التي كانت في ما مضى..

أما حبها لأخيها الصغير (بابا) فقد كان ضرباً من حب يجّل عن الوصف تماماً، ويتعذر التعبير عنه أو التفكير فيه، إنها لم تفكر به على نحو وافٍ، ولم يكن قلقها بشأنه قلقاً حاداً أو مرهفاً إلى حد كبير، ويجب أن تصحح كل تلك المواقف وتصلح كل تلك الصدوع والتمزقات وترفأها وتعيد للشبكة اكتمالها، ليعينها ذلك في عبور المحيط.

ينبغي لها على أي حال أن تغفر لراجا رسالته التي لا تغتفر، وينبغي لها على نحو ما أن تنتزع الغفران من (بابا)، تلك هي التمزقات والثغرات التي خرقتها مدية الحب في الشبكة، بقع الدم التي خلفها الحب، البقع التي كانت تزداد قتامة وتكدرّ النور عصر ذلك النهار.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم حملت الشاي لأخيها (بابا) في غرفته، فألفته نائماً ولم يكن الحاكي قد صمت طيلة فترة

العصر بسبب غضبه وحزنه أو لرغبته في معاقبتها، ولأنه كان يغط في نوم عميق توجب عليها أن تدرك أن (بابا) لا يعرف الضغينة ولا فكرة العقاب، لمست وجنته باصبع واحد، وتراءى لها شحوب هذه الوجنة وبياضها أشبه بشحوب قديسٍ عرّض نفسه للمكابدة والتجربة من أجل أن تُقَّبل وجنتاه..

أفاق فجأة ورآها، فابتسمت وغمغمت:

ـ هو ذا شايُك، يا (بابا) لقد أحضرت لك شايك.

وشعرت برغبة عارمة لا تقاوم في الاستلقاء إلى جانبه في السرير، أن تتمدد بجواره وتتلامس أطرافهما، يرقدان صامتين ساكنين معاً، خيل إليهما أنهما سيكونان متناسبين في الطول، ذلك أن نحافته ستتلاءم مع حجم جسمها، وأن تجاويف جسده الناحل سوف تحتضن انحناءات جسدها وسيشكلان معاً وحدة كاملة تبلغ مرتبة المثال الخالص.

هي بحاجة إلى الرقاد بجانبه، تريد أن تتمدد بكامل جسدها إلى جوار جسده، ليصبحا وحدة متكاملة.

وبدلاً من ذلك، غادرت الغرفة. وفي الحديقة كان طائر الوقواق الهندي يجاهد لينتزع نفسه من السبات البليد في عصر ذلك اليوم، وأخذ يطلق صيحات مترددة، وكأنه يتساءل عن سر الوجود في ذلك المساء.

عندما حل المساء كانت الشقيقتان تذرعان الشرفة العليا جيئة وذهاباً في انتظار هبة نسيم تأتي لتخفف وطأة حرارة الجو..

حاولت تارا أن تتكلم فلم تتبق أمامهما أمسيات كثيرة لتمضياها معاً.

غير أن بيم لزمت الصمت وقد وضح عليها الإجهاد والتعب، وبعد برهة توقفتا عن السير واتكأتا على الحاجز معاً، لتطلا على الرمال الممتدة نحو النهر الهادئ في خموده وقد علته غلالة رقيقة من الغبار والتفت الشمس بها مثل فقاعة رائعة أو كرة من زجاج مليئة بسائل باهت لا يموج أو يترقرق، بل هو ساكن تماماً يسحب الكرة إلى أسفل ويرغمها على الهبوط والانحدار.

عكَسَ هذا المشهد تحتهما جموده وافتقاره إلى اللون والحياة، وقد بدا النهر وكأنه توقف عن الجريان وكانت العَبّارات ساكنة، وطيور البلشون البيض تقف جامدة بلا حراك في المياه الضحلة.

قالت تارا: سأنام مبكرة هذه الليلة، وهزت بيم رأسها وأطبقت جفنيها بادية الإنهاك والتعب، فقد كانت هي الأخرى تريد أن تنام بعد أن استنفدت قواها واستنزفت من قبل تارا وبابا، من قبلهم جميعاً. فهي تحبهم ولا تحبهم، تتقبلهم ولا تتقبلهم، تتفهمهم ولا تتفهمهم. كان الصراع الذي يحتدم في داخلها مع كل كلمة قالوها وكل إيماءة قاموا بها مبعث توتر كبير لها. وخطر لها الآن أن تسقط إرهاقها من حسابها بالرغم مما تحس به من ضنىً واستنزاف، لقد خشيت الليل والساعات الطويلة والظلام عندما كان عليها أن تواجه نفسها، وسألت نفسها:

كيف ستسبح في هذا الخضم المتلاطم وتخرج منه مرة أخرى؟

وإذاً، فقد صممت على عدم الذهاب إلى فراشها، متجاهلة أن فراشها يرقد منتظراً إياها في أقصى الشرفة إلى جوار فراش (بابا).

أرعبتها هيئة جسده النائم الساكن دونما أي استجابة مثل صنم

لإلهٍ، مثيراً لديها الشعور بالإثم كما يفعل قديس، وأفزعها نور القمر الزائف ونباح (بادشاه) المخبول، وأرعبها أن تسمع صوتي (تارا) و (باكول) يتهامسان في طرف الشرفة المخصص لهما فأرغماها على تخيل وحدس حوارهما ونبرات صوتيهما. . كلا. . إن من عادتها المكوث في غرفتها الخانقة الغاصة بالغبار. كانت تتكئ على الوسائد فوق أريكتها الخشبية القاسية وقد أضيء المصباح الذي صنعت مظلته من ورق أسمر والى جانبها كتبها التي تستعين بها على قضاء ليلتها.

وإذ كانت تصغي إلى الآخرين وهم يطفئون مصابيح غرفهم ويتمددون في أسرتهم، وهي تقلب صفحات الكتب صفحة بعد أخرى محدثة صوت حفيف من حولها، كانت أوراق عقلها تتساقط واحدة فوق الأخرى: سميكة كأنها أوراق اللعب، أوراق اللعب التي برعت يدا أمها ويدا أبيها في خلطها، وها هما، لا يزالان يخلطان الأوراق مع بعضهما، أوراق اللعب وأوراق العقل فتتساقط أحداها فوق الأخرى مصحوبة بخشخشة جافة متربة، لا معنى ولا نهاية لها شأنها شأن ألعابهما.

امتدت يدها إلى رف كتبها لكي تحاول إيقاف الرقصة المجنونة للأوراق وتناولت الكتاب الذي سيستل مزق ذهنها البالية ويضفرها معاً في وحدة ممتزجة مكثفة بعد نهار من الصراع المنهك وحل المشكلات المتشابكة.

كان كتاب (اورانغسب)(*) بين كدس من الكتب، فاستلته من

(*) اورانغسب: آخر ملوك المغول، شيد والده صرح تاج محل وقد يلفظ اورانك زيب.

بينها، ثم أطلقت تنهدة وغطست بين حشايا الأريكة بارتياح إذ عثرت على شيء من التاريخ، وقائمة من التواريخ والحقائق التي ستساعدها على تركيز أفكارها.. لكنها وكأن ذلك حدث بدافع غريزي، فتحت الكتاب على صفحة لوصف موت الامبراطور:

«كان قد عاش وحيداً، ووحيداً كان يستعد لموته..

وكتب إلى الأمير «عزّام»: كثيرون أحاطوا بي عندما ولدت، أما الآن فإنني أمضي وحيداً، أنا لا أعرف لماذا، أو لأجل أي شيء أتيت إلى الدنيا..

الحياة زائلة واللحظة المفقودة لا تعود أبداً وإذا فقدت الأمل في نفسي.. كيف لي أن أصنع الأمل في نفوس الآخرين، فليحدث ما يحدث، فقد أطلقت مركبي فوق المياه..».

أما إلى محبوبته (كام بقش) فقد كتب يقول:

«يا روح روحي، الآن أمضي وحيداً، وأنا أسيان لعجزك، ولكن ما الجدوى؟..

فأنا أحمل معي عواقب كل ألم كنت قد ابتليت به، وكل خطيئة كنت قد اقترفتها وكل خطأ ارتكبته، يا للغرابة أن آتي إلى هذا العالم صفر اليدين وأرحل الآن عنه مع هذه القافلة المهولة من الخطايا..».

ودفن وفقاً لوصيته: «احملوا هذا الكائن المخلوق من تراب إلى أقرب مدفن، وأوسدوه الأرض دونما نعشٍ عقيم..».

وهكذا دفن ببساطة قرب «دولت أباد» بجوار قبور أولياء المسلمين.

بدا ذهن بيم آنئذٍ وكأنه قد استقر وخيّم فوقه سكون، أشبه بكفن يدثر جثة ميت.

وضعت كتابها المفتوح فوق صدرها ورقدت مفتوحة العينين وهي تردد لنفسها آخر كلمات الامبراطور (اورانغسب) كأنها متعبدة تصلي وتتضرع، وأحست أن الدموع تسيل من تلقاء نفسها تحت أجفانها.

كانت الدموع دافئة وهي تنحدر على جانبي وجهها لتصل إلى أذنيها وقد خلفت خارطة لجريان نهر في التراب انسابت رقيقة ثم سرعان ما جفت.

وإذ تحركت بيم فإنها فعلت ذلك لكي تتجه نحو منضدتها وتسحب الدرج السفلي كله بعناية ثم تحمله وهو مثقل بالأوراق نحو الأريكة حيث تستطيع الركوع إلى جانب المتكأ وتأخذ الأوراق المربوطة في رزم وتعكف على قراءتها باهتمام بالغ وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة تحت ضوء المصباح ذي النور الكامد الذي تحجبه مظلة من ورق بني.

لم تكن تلك أوراقها الخاصة، بل هي ترجمات قامت بها ذات مرة لقصائد راجا، خشيت أن تجد صعوبة في قراءتها، وشحب وجهها مثلما يشحب في حالات الخوف، أو الألم، ثم تبينت مدى سهولة قراءتها، كان مرور السنوات قد سلخ هذه الأوراق عن أي علاقة بشخص ما، فلن تعثر على راجا في أي منها، ليس راجا الزمن الحاضر ولا راجا عهد الصبا والشباب، وإنما راجا الطفل، لأن قصائده كانت من دون ريب مستوحاة أو مقتبسة من أشعار آخرين. كان بوسع بيم أن تدرك بوضوح تأثير الشعراء الذين أحبهم وقلّدهم، فلم تتضمن القصائد أي رمز أو

استعارة ولا صياغة بارعة للعبارة الأصيلة المبتكرة، وكل بيت من أبياتها كان تقليداً مفرطاً لأدق التفاصيل في القصائد التي قرأها أو تلك التي حفظها في ذاكرته أو الأشعار التي ألقاها وردها من إبداع الآخرين. لم يبذل راجا أي جهد يذكر لكسر الصيغ الجامدة (الكليشيهات) وخيل إليها أنه كان قانعاً إلى حد كبير في إحداث مزاوجة في ما بينها ورصفها حلقة إلى جوار حلقة بدرجة تتيح لها أن تصلصل وتجلجل على امتداد قصائده، ولم تجد أنه كان يبدي أي دهشة أو انفعال إزاء مسألة الأصالة والابتكار ليبرز ويتألق في الوسط الأدبي باعتباره نجماً جديداً ناضراً مفعماً بالحيوية، وليس بوسع أحد أن يعثر في قصائده على غير الرغبة في المحاكاة وتوق للتقدم على خطى (الأبطال) من سابقيه.

وضعت بيم الأوراق وقد غلبها التأثر كومة إلى جانب ركبتيها، صفحة فوق أخرى وكأنها رزمة كبيرة من أوراق اللعب.

ولم تكن قد أدركت بعد أن طموحات راجا كانت بالغة التواضع ويعوزها العزم والإصرار. فبعيداً عن تقمص دور البطل كان راجا يتعبد أمام الأبطال الذين أعجب بهم في شبابه.

ومنذ أقدامه على محاكاتهم والاقتباس منهم بتلك الدقة والعناية المفرطة بالتفاصيل لم تعد قصائده رديئة جداً مثلما كان يُفترض بها لو أنه اعتمد على قدراته الشخصية وموهبته المحدودة فحسب. وقد اعترفت بيم بنجاحه في صقل موهبته إلى حد كبير. وإن اكتسبت قدرات مدهشة إلى جانب براعته في نظم الشعر (الأوردي) الذي تلقى فيها دروساً تعلم خلالها الأوزان والقوافي والإيقاع فأبرأ ذمته بحق.

ولبثت بيم طوال نصف ليلة تتساءل: أكان يريدها أن تظل

محتفظة بأوراقه؟ أيريد أن تُرى من جديد؟ أم أنها ستسبب له الكثير من الحرج والألم والفزع؟ فكرت بتمزيقها قطعاً صغيرة فتخلي أدراجها منها، وعندئذٍ سوف يختفي كل أثر لأيام (البطولة) الغابرة.

إنها غير متأكدة اللحظة من ذلك، فأجفانها تطرف أعياءً وتعباً بينما أصابعها تخلط الأوراق مرة بعد أخرى وشفتاها اللتان استحالتا إلى لون التراب تتحركان دونما صوت، بينما كانت تحاور نفسها في ما ينبغي لها أن تقوم به.

«أليس غريباً، أتيت صفر اليدين إلى هذه الدنيا، وأغادرها الآن مع هذه القافلة المهولة من الخطايا».

لم لا يوسّق المركب بذلك الركام الذي تكدس عبر حياة الطيش واللامبالاة؟ ألن تغرق السفينة؟ ألن يكون من الخير له أن يلقي بحمولتها كلها ليخفف عنها العبء فيمضي طليقاً؟..

«كثيرون أحاطوا بي عندما ولدت، أما اليوم فإنني أمضي وحيداً».

لكنها أوراق راجا وليست أوراقها ولا يسعها أن تقرر ما إذا كان ينوي استرجاعها أو أنه يريد أن يرميها أو ينكرها، إنها أشبه ببقايا وفضلات مما يتخلف أثر نزهة بشرية.

ولم تمزق سوى ورقة واحدة في النهاية، اختارت أن تمزق الرسالة التي كتبها ولم ترد عليها قط، وفات أوان الرد عليها. ولم يتبق أمامها سوى التظاهر بأنه لم يكتب لها الرسالة أبداً.

وعندما مزقتها، أحست أنها قد نظفت أدراج مكتبها، وأنها خففت حمولة سفينتها، ثم أمضت ما تبقى من تلك الليلة في تمزيق أكداس هائلة من أوراقها العتيقة اليابسة التي فقدت علاقتها

بها. أوراق امتحانات أجرتها لطالباتها، ملاحظات كتبتها أبان أيام تلمذتها، أوراق تخص الدروس الخصوصية لم تكن قد أعادتها، رسائل تافهة لا تطيق قراءتها ثانية، كراسات وفهارس أرسلت إليها من المكتبات والصحف المتخصصة، دفاتر صكوك نافذة، جوازات وتصريحات مرور، ملفات تعود إلى عهد والدها، واستغربت وتساءلت عن سبب احتفاظها بهذه الأشياء طوال تلك السنوات.

ها هي الآن تلقي بها، في كومة وسط أرض الغرفة وقد غدت أرفف مكتبتها وأدراج منضدتها عارية إلا من الغبار.

وبينما كانت عاكفة على تمزيق أوراقها أحست بوخز ناري موجع، فالكلية ستفتح أبوابها من جديد، وستستأنف بيم حياتها العملية المعتادة، وهي تتطلع إلى امتلاك القدرة على لجم هذه العاصفة من الانفعالات والإثارات التي تقاذفتها طوال فصل الصيف وكأنها كانت تسبح في محيط ساخن فسيح. سوف تعاود مزاولة الأعمال التي تؤديها بكفاءة واقتدار أكثر من سواها وبأقل قدر من المعاناة النفسية والألم من خلال التزامها باللوائح وجدول المواعيد وباستخدام العقل والمنطق لمواجهة الحقائق والأرقام والقوانين وتحليل الأمور.

أحست مرة أخرى بمرارة أكيدة، كم من جهد كلفتها زيارة تارا، فقد دأبت تارا على سحبها بعيداً إلى مواقف الحب والغل والاستياء والرضا والغفران والكراهية. لقد أنهكت فألقت بالورقة الأخيرة ورفعت درج منضدتها الخاوي من فوق الأريكة ثم استلقت فوقها واستغرقت في النوم وحتى بادشاه التزم الصمت بعد ذلك..

وعندما استيقظت بيم صباح اليوم التالي وجدت ابنتي اختها تجلسان على حافة الأريكة تنظران إلى وجهها المحرج وتضحكان

ثم انحنت عليها الصبيتان وأمطرتاها بالقبلات ودخلت تارا ضاحكة هي الأخرى لتقبلّهن كلهن.

كان باكول وتارا قد ذهبا مبكرين في عتمة الفجر لإحضار البنتين.

قالت تارا بزهو وانتصار كبيرين: ها هما، هنا، ذلك أنهما كانتا الثمرتين اللتين أنجبتهما أو الجائزتين اللتين كسبتهما.

- أنظري إليهما يا بيم، ها هما ابنتا أختك عادتا ثانية..

وضحكت تارا بينما جاهدت بيم لتحرير نفسها من آثار تلك الليلة ودنت منهما ولمست وجهيهما وسحبتهما إليها لتقبلهما.

منذ سنوات طويلة لم تكن قد عانقت أحداً بهذه الحميمية وقد هيمن إشراق وجهيهما ونضارتهما وتألقهما على مجال رؤيتها وهَبَّ عليها عبير بشرتهما النضرة وشعرهما البديع وغمرتها أشذاء الصابون الذي اغتسلتا به تواً وجعلها تتراجع قليلاً لتغوص بين الوسائد.

- هل أنت متعبة - بيم ماسي؟

- ضحكتا منها - ألم تستيقظي بعد؟.. ماذا فعلت طوال الليل، تبدو غرفتك وكأن عاصفة قد اجتاحتها.

- متعبة؟.. لم أفق من نومي؟ كلا.. كلا.

جلست منتصبة القامة قدر استطاعتها وهي تحس بألم شنيع في ظهرها بسبب مسند الأريكة الخشبي القاسي الذي أمضت الليل بطوله متكئة عليه.

- انتظرا قليلاً وستريان جيداً، سوف أنهض ويكون شايكم جاهزاً ونجلس لنشربه في الشرفة مجتمعين خلال خمسة دقائق،

وسوف تجد تارا أخيراً أن أسرتها قد التأم شملها.

واندفعت بسرعة متجاوزة البنتين ووقفت مهيمنة عليهما بقامتها الفارهة وتألقها وهي تتفحصهما بانتباه بالغ:

ـ ما الذي ترتدينه ماسي؟

سألتاها ساخرتين ـ إنه من آخر طراز في الموضة الحديثة ـ ماما لماذا لم تخبرينا أن بيم ـ ماسي قد أصبحت تساير آخر طرز الموضة؟

ولم يشر أحد ولو إشارة عابرة إلى وجهها الذي بدا وكأنه جُبِلَ من طين، طين عتيق مجفف بادي التشقق، وحدها بيم كانت تحس بهذا، تحسه إذ تلمسه بأطراف أناملها المرتعشة.

ـ وإذاً، أنتما تسخران مني ـ قالت ذلك وهي تعود إلى تلبس شخصية (الخالة) وطبيعتها:

ـ هيا، أسرعا إلى الشرفة، أريد شيئاً من البهجة والمرح، أريد أن أحتسي شايي أرأيتم كلبي بادشاه؟.. أرأيتم قطتي حالكة السواد؟

أمضت الفتاتان معظم وقتهما مع خالهما (بابا) فكانتا تتسللان إلى غرفته وتجلسان القرفصاء على سريره لتنصتا إلى الاسطوانات العتيقة التي سبق أن استمعتا إليها خلال زيارتهما السابقة للبيت. وكانتا تعبثان بجهاز الحاكي كما لو كان أحدث لعبة لهذه السنة، وكثيراً ما تنازعتا من أجل التناوب على تشغيله فتتدخل بيم وتارا لتحكما في أحقية كل منهما في نوبة تشغيل الحاكي وإدارة اسطوانته.

و(بابا) يجلس على كرسي «الخيش» بجوار السرير وقد ثنى

ركبتيه وأسند عليهما ذقنه وهو يتفرج على البنتين ويضحك ضحكات خافتة.

ثم عثرت الفتاتان على لوحة عتيقة للعبة البيغاتيلا، الشبيهة بلعبة (البليارد) وألحتا على خالهما (بابا) أن يشاركهما تلك اللعبة المثيرة للجدل والصياح والتي تفضي بهم إلى الهرج وإطلاق الضحكات الرنانة والصراخ الغاضب أثناء رصدهم للكرات المعدنية وهي تتدحرج مندفعة نحو القوانص (الفتحات) أو تسير في القنوات المهيأة لها.

وتناهى إلى سمع بيم وتارا ذات مرة صوت بابا وهو يصيح منفعلاً لأنه حصل على خمسمائة نقطة فنظرت إحداهما إلى الأخرى وهما لا تكادان تصدقان ما سمعتا.

هزت تارا رأسها بحركة رفضٍ قاسية عندما سألها باكول: متى ستأخذينهما إلى السوق؟ لقد قلت إنهما بحاجة إلى ردائي ساري من أجل حفل الزفافِ، هل أرسل في استدعاء سيارة عمي؟

رفضت تارا أن تخرق حفل (بابا) أو توقفه. كان عليهم أن يغادروا في الصباح الباكر، ولم يبق لديهم متسع من الوقت لغير فسحة قليلة تكفي لشرب الشاي الذي ستقدمه لهم بيم في الشرفة.

وإذ هم في نعاسهم بَدْوا مسترخين يعروهم الذبول، وجلست البنتان إحداهما بجانب الأخرى على الأريكة وهما تلاعبان القطة التي تمددت بينهما كأنها حبل أسود، وأصابعهما تتجاذبانها بشيء من الدعابة والعبث حتى التمست منهما بيم أن تكفا عن ذلك.

تبخترت الحمائم مختالة هنا وهناك وهي تسير على أقدامها ذات البراثن العنكبوتية الوردية، وغرزت مناقيرها في صدورها وأخذت تطلق منها تلك الأصوات المعاتبة اللاغية المتموجة.

وبعيداً، فوق المرج كان الكلب بادشاه يتعقب الشذى المريب الذي حط خفية في الليل، فتطبع أقدامه ما يشبه أقراصاً فوق طبقة الندى الرقيقة المنشورة فوق العشب كأنها غلالة من ضياء.

قرقعت أقداح الشاي فارغة في صحونها وانسابت أشعة الشمس أشبه بزيت دافئ وانسكبت على القرميد شيئاً فشيئاً راسمة عليه بقعاً من ضياء.

وطبيعي أن يكون باكول أول البادئين بالحديث إذ توقعت بيم ذلك، فوضع قدح شايه وسط الطبق الفارغ وقال وهو يطلق كلماته من بين شفتيه كأنها فقاعات تتصاعد من أنبوب:

ـ إنه يومنا الأخير في (دلهي)، اليوم الأخير للاجتماع العائلي، وغداً سيعود الشمل ليلتئم مرة أخرى في (حيدر أباد)..

وحلقت تارا بشيء من القلق وهي تحكم ربط حزام ردائها المنزلي حول خصرها:

آه، سيكون الأمر أكثر من اجتماع عائلي، فحفلات الزفاف تعني التجمهر والهرج البالغ، وسوف يحضر أقارب بنازير الكثر من (باكستان) وسيحدث إرباك وبلبلة كبيران، مما سيحول بيننا وبين الاجتماع وشرب الشاي في جلسة مثل هذه.

ندت عن إحدى البنتين صرخة قصيرة عندما هاجمتها القطة بخمشة شرسة من مخلبها ثم أخذت تضحك، وعاودت البنتان مداعبة بطن القطة ودغدغتها وجعلها ترفس بقوائمها.

قالت تارا رافعة صوتها فوق قهقهات البنتين:

ـ ولكن، سرعان ما سنعود يا بيم، سوف تجدينا أنا والبنتين قربك بعد انتهاء حفل الزفاف، وهذا في الحقيقة ما أتوق إليه

وأستعد له، بضعة أسابيع من الاستقرار والهدوء يقوم باكول خلالها برحلة عبر الهند، فالبنتان شغوفتان بالبقاء هنا.

قفزت القطة في حركة رافضة وهربت وانفجرت الصبيتان بالضحكات.

سألت بيم وهي تربت على ركبة إحدى البنتين:

ـ أحقاً تحبان العطلات الهادئة؟

قالت تارا مؤكدة: أجل ولكن، ربما لا تريدان الهدوء كله، لأنهما سوف تستمتعان بأوقات مرحة مع (بابا) أليس كذلك؟ أما سمعتيهم يلعبون (البيغاتيلا) وكيف كانتا تتنازعان من أجل تشغيل الحاكي؟.. أما سمعت ضحكات بابا؟

هزت بيم رأسها موافقة وأبقت يدها على ركبة (مالا) فأحست بها وهي في استدارتها بحجم واتساق تفاحة ناضجة.

قال باكول ثائراً: ولكن يجب عليهما أن تقوما بأشياء أخرى بالاضافة إلى الاستماع لاسطوانات (بابا)!!

ونهض وأخذ يذرع الشرفة جيئة وذهاباً، (أسمعتما، أنتما الاثنتان؟.. يجب ان تقوما بزيارة جميع الأقارب، فإنهم يودون أن يلتقوا بكما، ويسعون إلى تقديمكما إلى مجتمع الشباب في (دلهي الجديدة) وقاطعته بيم وهي تهز ركبة (مالا) هزاً هيناً:

ـ وسيزوجونكما حالما يتدبرون الأمر ويرتبونه.

توردت وجنات البنتين وغمزت إحداهما للأخرى، إلا أن تارا احتجت:

ـ كلا يا بيم: ما الذي يدعوك لأن تفكري بهذه الطريقة؟ إنهما ما تزالان تواصلان الدراسة.

قالت بيم: وذلك ينسجم ويتماشى مع أسلوب تفكيركم، فإذا عثرتما على شابين جديرين بهما فإنكما لن تصرا حينذاك على إتمامهما للدراسة.

وافقتها تارا: نعم، ولكن يجب أن تواصلا الدراسة رغم كل شيء.

وتفرست الفتاتان بوجه أمهما متوجستين فسألتهما بنبرة رقيقة:

ألا ينبغي لكما ذلك!..

فبدت البنتان وكأنهما لم تغادرا شرنقيتهما بعد، بل إنهما لا تزالان، طريتين مزغبتين، وعيونهما نصف مفتوحة أشبه بالقطيطات الصغار.

قالت بيم وهي تقف لتجمع أقداح الشاي في الصينية:

ـ أما وقد قررتم ذلك، فهذه أنباء طيبة، ستمنحونني مزيداً من الوقت لأمضيه مع ابنتي أختي وتعطونني الإذن بفرض نفوذي عليهما فللخالة من دون شك مثل هذا الحق.

قالت تارا متلطفة وهي تضع يدها فوق الأقداح الفارغة: بوسعك تمضية الوقت الذي تشاءين معهما، وأن تبسطي هيمنتك عليهما بالقدر الذي يروق لك فإن للخالات في أسرتنا مثل هذا الامتياز، كما كان الأمر مع (ميرا ماسي).

قفزت بيم فزعة وتناثر السكر بعد أن اختلجت يدها في حركة جانبية.

حدق بها الآخرون، كانت تتأمل صفوف أصص الزهور على درجات سلم الشرفة والجنبات المكسوة بالغبار على امتداد الحديقة كأنها رأت شيئاً ما يتحرك هناك...

ثم تمتمت: إم.. إم..

واستقر ذقنها على عنقها ورفعت الصينية ونزلت درجات الشرفة وسمعت تارا تقول:

- مالا ومايا، لماذا لم تنهضا، لماذا لا تساعدان خالتكما؟.. يجب أن تساعداها يا بنات.

وزمجر باكول: عليهما أن تذهبا لترتديا ثيابهما، لماذا يجلس الجميع هكذا؟.. هيا، أسرعن... هيا

وعندما اختفى الجميع في غرفهم خرجت بيم من المطبخ متأنية وهبطت الدرجات إلى الحديقة.

بدأ عليها التعب والإرهاق لأنها لم تنم جيداً، وأحست بغشاوة مزعجة أمام عينيها، ونفذ ضوء النهار الساطع إلى صدغيها مثيراً نوعاً من الألم لديها، فسعت إلى الظل بهدوء.

سارت نحو ممشى الورد لتختلي بنفسها برهة قصيرة، وإذ تقدم الصيف ولم يتبق الآن سوى هذين الحوضين الطويلين من أحواض الورد الجوري، والقباب ذات الخضرة الرمادية لأشجار التوت واليوكالبتوس عند أقصى الحديقة، وحنفية الماء التي تقطّر ماءها في بركة صغيرة من الوحل المخضوضر، تتحلق حولها مجموعة من طيور المينا الظامئة تشرب الماء وتغتسل فيه، وحالما رأت الطيور بيم قادمة مع الكلب (بادشاه) تفرقت مرفرفة باتجاه الممشى وحلقت وهي تطلق صيحات زاعقة مغيظة من أعالي الأشجار وتناثرت قطرات الماء براقة حادة كأنها المخالب من أجنحتها المختضة المهتاجة.

جرجرت بيم قدميها على امتداد ممشى الحديقة وهي تنظر

إلى قدميها لا إلى الأسيجة النباتية، حيث ثمة احتمال أن تتسلل أشياء بيضاء شبيهة بالأشباح في وهج حرارة النهار.

ولم تكن تنظر كذلك إلى ورود الجوري القرمزية التي اسودت حافات بتلاتها الآن بفعل الحرارة الحارقة.

وفكرت كم كانت الخالة ميرا سترتعش خشيةً لو طلبوا إليها أن تفرض سلطتها على ابنتي قريبتها، أن تكون مسؤولة عن بيم وتارا، وكيف سترتجف يداها وهي تحمل القنينة التي تخفي فيها مشروبها وتصر على أسنانها بعصبية عندما تبلغ مرحلة السكر ويزداد اهتزاز يديها الطويلتين وارتعاشهما.

صاحت تارا: بيم...

وعبرت المرج الذي سفعته الحرارة مسرعة نحو الظل عند ممشى الورد ويداها تحجبان الشمس عن عينيها.

راقبتها بيم قادمة فأذعنت للأمر على مضض وقد كانت تود أن تصرفها بإشارة من يدها لتظل وحيدة تحادث نفسها وتومئ بيديها وتتأوه بصوت عالٍ وتسلك سلوك إمرأة عجوز متوحدة لا سلوك أخت أو خالة.

سألت تارا بشيء من البرود: ألا تعتزمين حزم حقائبك؟

لعل هذا بالذات ما كانت الخالة ميرا بحاجة إليه، هذا ما شعرت به، ثم تخلت عنه، إنهم لم يتيحوا لها قط أن تنفرد بنفسها، ولم يكفوا عن ملاحقتها وتطويقها كل لحظة، ولم يدركوا ذلك قط، وهي من جانبها لم تعلن لهم رغبتها وليست قادرة على إخبار تارا بما تحسه.

أجابت تارا: أتممت كل شيء، وباكول والبنتان متأهبون

للرحيل، وتقدمت تارا نحوها وعلى مدى لحظة توهمت بيم أنها سوف تأخذها بين ذراعيها، لم تتعانقا أبداً، حتى عندما كانتا صغيرتين، فكيف ستفعلها؟

وقفت ويداها تتدليان متيبستين إلى جانبيها، لكن تارا لم تفعل شيئاً سوى الاقتراب منها ولمسها بحنان، ثم واصلتا سيرهما جنباً إلى جنب عبر الممشى والكلب يتبعهما وذنبه مرتفع في الهواء، أشبه بريشة وهو يتواثب مغيظاً طيور المينا إذ يصوب نحوها نظرة لماعة محذرة.

وعندما ظنت بيم أن الخطر قد زال وارتاحت، تحركت يد تارا فجأة وأطبقت أصابعها على ذراع بيم بإلحاح غير متوقع، وتمسكت بمرفق بيم مرغمة إياها على التوقف لتنصت إليها، وتعثرتا بأذيال ملابسهما الطويلة فتوقفتا على نحو سريع أخرق.

قالت تارا بطيش جعل بيم تدرك أنها كبتت تلك الكلمات حتى أوشكت على الانفجار:

ـ بيم كنت على الدوام أريد أن أقول..... ولا أستطيع الرحيل من دون أن أتحدث... إنني آسفة.. إنني لن أغفر لنفسي أبداً، ولن أنسى....

تأوهت بيم: اوه يا تارا، أتتحدثين عن ذلك النحل البري المتوحش من جديد؟

ـ كلا... كلا يا بيم، بل عن أمور أسوأ من ذلك يا بيم.
وأسرعت تارا وضمت رداءها بين ركبتيها وقالت:

ـ عن أشياء أسوأ من ذلك، عندما تزوجت وغادرت البيت ولم أحضر لمساعدتك في العناية بالخالة ميرا ماسي يا بيم، وكلما

فكرت بالأمر أسأل نفسي: كيف جرؤت على ذلك؟

ـ ماذا؟ أنتِ لم تفعلي شيئاً سوى أنك تزوجت ورحلت ولم يكن بوسعك العودة بعد مغادرتك مباشرة، يختلف الأمر تماماً لو كنت في نيودلهي...

لقد ذهبت بعيداً إلى سيلان.

بكت تارا وعضت على شفتها:

ـ كنت أستطيع الحضور، وذلك من ضمن واجباتي، كان يجب علي أن أحضر.

وحاولت أن تخبر بيم بما هو أسوأ من ذلك، أنها أُخذت مع زوجها إلى بيتها الجديد وحياتها الجديدة ولم تكن تفكر قط بالخالة ميرا ولم تهتم بها حين علمت بوفاتها أو بعد ذلك، حين تشييعها.

وأعولت تارا: تصوري، حتى أنني لم أحضر مراسم الجنازة.

داست بيم على طرف رداء نومها بنفاد صبر. يجب أن تضع حداً لكل هذا، ينبغي لها أن تضع حداً لكل شيء، لزيارة تارا، لهذا الصيف وكل مواسم الصيف السابقة.

نظرت بيأس وقنوط إلى ما حولها وهي تظلل عينيها بيدها حاجبة عنهما ضوء الشمس، وقالت:

ـ هوذا باكول في الشرفة، إنه يناديك، صاح باكول: تارا، تارا.

وأحست بيم لأول مرة خلال هذا الصيف أنها تميل إليه.

قالت لها: اذهبي إليه يا تارا.

غير أن تارا تشبثت بذراعها وقد احتقن وجهها بالغضب، إنها تنتظر شيئاً آخر من بيم، عقاباً أو تأنيباً، في أقل تقدير، ليكون

بوسعها أن تخفف ألم الحادثة وتعالجه.

- حتى أنني تخلفت عن حضور مراسم الجنازة.

كررت القول كأن بيم تسمعها، قالت بيم بنبرة قاسية: أنا لم اطلب منك الحضور، ولست بحاجة إلى ذلك.. لا تكوني بلهاء ساذجة يا تارا.. فذلك كله قد مضى أوانه منذ زمن بعيد.

ولولت تارا يائسة وهي تستدير باتجاه باكول والبيت وقالت كأنها مضطرة إلى ذلك:

- أجل، ولكن إن ذلك لم ينتهِ أبداً، لا شيء ينتهي أبداً..

وافقتها بيم وقد ازدادت لطفاً

- كلا.. لا شيء ينتهي...

ووجدت في انخذال تارا وقنوطها انعكاساً ليأسها، لم تكونا مختلفتين عن بعضهما كثيراً، بل إنهما أكثر تشابهاً وتماثلاً من أي اثنين من الناس، وكان عليهما أن تصيرا متشابهتين، فقط غطست أيديهما عميقاً في المياه الراكدة ذاتها وعكس وجهاهما الشبه ذاته.

وأمنّت على قولها:

- لا شيء ينتهي أبداً.

ووافقتها: أبداً.. أبداً.

وبدا على تارا ارتياحها الواضح لتأييد بيم لها، وعندما كررت بيم عليها:

- هيا اذهبي يا تارا، انصرفت تارا، واتفقتا أخيراً على مواصلة الحديث.

وعندما استعدت العائلة للرحيل تصاعدت ثورة بيم مدمدمة من أعماق روحها، وكانت سيارة عم باكول قد وصلت لتنقلهم إلى

المحطة، وها هي تقف الآن في الطريق الخاص داخل الحديقة.

وحضر البستاني ليساعد السائق في تحميلها بحقائبهم الأمريكية الأنيقة، وأخذت البنتان تتراقصان وهما في ثياب سفرهما: سراويل الجينز والقمصان القطنية الصغيرة (تي شيرت) وهما تتصايحان فزعتين طوال الوقت من احتمال انحراف إحدى الحقائب أو سقوطها.

نفح باكول الخدم هباتٍ سخية وقد اجتمعوا على درجات الشرفة كأنهم رصوا لألتقاط صورة من الطراز القديم لاتباع العائلة وحاشيتها، حتى أنهم اصطنعوا ابتسامات زهو، ابتسامات متكلفة وقد بسطوا راحات أيديهم قرب جباههم محيين.

بدا باكول في تميزه وشفته السفلى المبلولة التي قلبها استياءً، متلائماً كل التلائم مع متطلبات شخصيته واندفعت تارا مسرعة إلى داخل البيت وقد تذكرت شيئاً ما، وكان غرامافون أخيها (بابا) يطلق ألحان (سيراناداا الحمار) أشبه بحفلٍ مرح مختلط الأنغام. كان البستاني والسائق يربطان الحبل حول الحقائب ويحزمانها على حاملة السيارة العليا..

زعق باكول ملقياً بأوامره عليهما، ثم استدار نحو بيم وصاح بالنبرة العالية ذاتها ناسياً أن يخفض صوته وهو ينتقل في حديثه إلى شخص آخر:

- أين ذهبت أختك الآن؟

نادت بيم: تارا، تارا..

وقد ازداد توترها ونفد صبرها مثل باكول نفسه، ووقفت تحدق بالباب الموصد وهي في خشية من احتمال أن تأتي تارا

بأخيهما (بابا) معها، أو لربما يتبعها (بابا) ويستقل السيارة معها للذهاب إلى (حيدر أباد)، أولم يسبق لها أن أمرته بذلك وطلبت إليه أن يذهب إلى هناك؟. . وبين لحظة وأخرى كان خروج (بابا) ولحاقه بتارا متوقعاً. . أن يخرج ويذهب بصحبتهم. صاحت وقد بدا عليها الضجر والتبرم وهي تنقل ثقلها من قدم لأخرى كأنها هي التي ستسافر:

ـ سوف تتأخرون.

قال باكول وهو يحتدم غيظاً: «أعرف ذلك» وصاح: «تارا»!

فاندفعت تارا خارجة وحدها، أحست بيم إن قواها قد خانتها وتلاشى توترها قالت: (هيا، هيا، عجلي. .) غير مبالية بآخر أزمة من أزمات تارا وكربها وأساها، ثم حاولت أن تدفعها باتجاه باب السيارة المفتوح، لكن تارا مدت يدها لتغلق الباب ولم تصعد إلى السيارة.

وقفت منتصبة، مكابرة بجوار السيارة رافضة أن يزحزحها نفاد صبر الآخرين، وظلت متجهمة الوجه لفشلها في تحقيق تلك الرغبة.

ـ يرفض باباً أن يأتي.

همست لبيم بصوت خافت وهي ما تزال تحاول أن تدفع بأختها إلى السيارة.

قالت بيم وهي تنفخ كلماتها في فقاعات خفيفة تتدحرج من فوق لسانها تطفو طليقة في الجو البرتقالي:

ـ ليكن، إنه يحس بالفزع من الذهاب والإياب، تعرفين أنه لم يألف أشياء كهذه.

هزت تارا رأسها بحزن، غير أن هذا لم يكن الشاغل الوحيد لذهنها، فهناك عائق آخر يقف في سبيلها، وقد حاولت إرغام صوتها على تجاوزه:

- هل أبلغ راجا؟

قالت بيم بإصرار: أجل.

وتعالى صوتها برنة مرحة: قولي له إننا لم نعتد مثل هذا الأمر، أنا وبابا، أخبريه أننا لن نسافر أبداً، قولي له لا نريد أن نذهب إليه، وعليه أن يأتي إلينا.

بلغيه أن يحضر في الشتاء، ليأتوا جميعاً.

وسيكون بإمكانه الالتقاء بالسيد (شارما) بشأن مشاغل الشركة ليضع الأمور في نصابها، ويتفقد دار (حيدر علي صاحب) القديمة ويقوم بإصلاحها، قولي له إنني في انتظاره، أريده أن يأتي، أريد أن أراه.

وكأنها أدركت مع فزعها ذلك الانهيار في أعمق أعماق (بيم) ورأت انهيار الجدار الحجري - الكونكريتي - الهائل، انهيار السد الذي سيطلق طوفان مياه هادرة، فتركت يد بيم على غير انتظار وألقت بنفسها في السيارة.

وكان السائق ينتظر وقدمه على معجّل السرعة، فترك الكابح فجأة لتندفع السيارة في هزة مباغته ثم لتتوقف مقرقرة لتلقي بهم جميعاً نحو ظهور المقاعد.

فهقهت البنتان، وصاحت تارا متذمرة، فأوقف السائق المحرك، واسترخى باكول على ظهر المقعد مطلقاً آهة ارتياح.

ارتجت الحقائب فوق سطح السيارة، لوحت تارا والبنتان

لبيم، واصطف الخدم على الدرجات والسيارة تنساب إلى الأمام بالسرعة الأولى البطيئة، ثم ما لبثت أن تزايدت سرعتها في دفعة مفاجئة فتطاير الحصى الناعم من تحت عجلاتها، اتكأت تارا إلى الخلف فانطمست معالم وجهها من وراء النافذة بفعل السرعة المفاجئة، ثم عاد الآن، واتضح من وراء النافذة الخلفية وارتفعت يدها تلوح من جديد.

ردت عليها بيم بتلويحة يدها وهي تضحك، ثم كررت التلويح كأنها كانت تستجدي نسمة هواء وهي تنفث ضحكتها منهكة وتلهث.

وثبَ الكلب بادشاه نابحاً خلف السيارة وقد استدارت خارجة من بوابة الحديقة وأطبقت عليها شجيرات الجهنميات، كانت الشجيرات قد ازدادت نمواً وتطاولت وصارت بحاجة إلى التشذيب.

صاحت بيم: شاندو.

ثم استدارت بقامتها الرصينة نحو الخدم الذين كانوا يتفرجون معها.

هذه (الجهنمية) بحاجة إلى تشذيب شاندو، إلا أن الخدم كانوا قد تخلوا للحظة عن ابتساماتهم المصطنعة فبدت وجوههم جهمة عابسة من جديد. كانت أطراف الشجيرات معتدلة النمو ولا شيء منها بحاجة إلى قطع أو تشذيب.

هزّ (شاندو) رأسه بطريقة غامضة لا تنم عن شيء، ثم تنحى جانباً مثل من أربكه الخجل ومضى.

وعندما غادر الجميع، ارتقت بيم درجات الشرفة وألقت

بنفسها على أحد مقاعد الخيزران بحركة إمرأة عجوز متثاقلة تحس أنها ليست بحاجة بعدُ إلى من يرقبها ولا تريد أن تتظاهر بشيء.

وهُرعت نحوها هرتها السوداء وقفزت إلى حجرها.

تباطأ وخف ضجيج الحاكي وقرقعته المألوفة حتى توقف، ورفعت ستارة الخيزران وأقبل بابا وبدا على مدى برهة مذعوراً وعيناه تطرفان بسرعة كما لو إنه لم يكن يصدق حقاً أن الشرفة قد خلت وعمّها السكون المطبق.

طمأنته بيم: لقد رحلوا.

جاء وجلس إلى جانبها وساد الصمت تماماً بينهما، ورفعت بيم ذقن قطتها السوداء باصبع من اصابعها وقالت وهي تحدق مباشرة في عيني القطة الخضراوين الزجاجيتين.

ـ هل كنت تود الذهاب معهم يا (بابا) إلى حفل الزفاف..؟ أعني..؟

ونظرت إليه من بين أجفانها الثقيلة المرهقة واصبعها لا يزال تحت ذقن قطتها.

حدق (بابا) بالقطة أيضاً، وهز رأسه بهدوء.

وبغتة تملك القطة هياج مفاجئ فقفزت من حجر بيم فأمسكت بطرف ذيلها غاضبة. التزما الصمت مرة أخرى، لقد قيل كل شيء، أخيراً قيل كل ما يجب أن يُقال، واتضح الطريق آخر الأمر، على نحو مبين ولم يتبق ثمة شيء من عائق أو ظل، وحده كان الضوء الساطع ينهمر من الشمس فيتوجب عليهما أن يعوما طافيين في أمواج الضياء، الذي كان هائلاً، مترامياً كأنه المحيط، إنما كان صافياً رائقاً دونما لون أو ماهية أو حدود، كان الضياء

الأشد سطوعاً والأعظم إشعاعاً وانتشاراً من جميع العناصر الأخرى، وهما يعومان فيه.

وبرغم كل ذلك وجدا لديهما الشجاعة على العوم والسباحة فيه، وأتاحا له أن يضيء أعماقهما كلها من دون أن يدع لهما ظلاً واحداً يحتميان به.

كان يجلسان أبكمين لا يرتسم على وجهيهما أي تعبير أو انفعال، يجلسان داخل هذه الفقاعة الهائلة من الضياء عندما خرقت محيط هذه الفقاعة الضوئية هيئة سوداء دخانية أشبه بصرصار جاء يدب على امتداد الممشى الرئيس في غمامة الساري القطني الأبيض، ولم تكن تلك سوى (جايا ميسرا).

وانتظرا وهما يحبسان أنفاسهما لتأتي في احتدام هذا الجو بالانفعالات والمشاعر.

صاحت: ماذا؟.. أتجلسان ها هنا؟. آه وأنا مشغولة جداً، مشغولة جداً ورغم ذلك جئت أخبركما بنفسي لكي أؤكد الأمر، هل رحلت تارا؟ أليس كذلك؟.. أهذا ما يدعوكما للجلوس هكذا؟

وارتقت الدرجات وصندلاها يصطدمان ببعضهما بشكل مثير للانتباه.

ولكن لدي الكثير من الانشغالات وأنتِ تعلمين، فسيغني أخي مَلَك بمناسبة عيد ميلاد معلمه الروحي (الغورو)، ووافق أبي وسمح له بالاحتفاء بالمعلم وسيأتي لزيارتنا ويغني لنا، وجلست على المقعد ذي الصرير وبدأت تنسم لنفسها بطرف الساري: واستطردت:

ـ وسيحضر عدد كبير من الناس، فقد وجه (مَلَك) الدعوة للجميع وأنتما أيضاً يجب ان تحضرا الحفل، سيكون احتفالاً كبيراً في الحديقة مثل احتفالات تلك الأيام الخوالي، وأعددنا أنا وأختي سارلا كل الترتيبات اللازمة، أوه، إنني مشغولة جداً وليس لدي من الوقت إلا القليل، فهل تتفضلين بالحضور يا بيم؟..

يجب أن تأتي مع (بابا)..

ـ إنه يوم زفاف (مونيا)

قالت بيم لجايا وسارلا عندما استقبلتاها في الرواق، وفجأة عانقتاها، ضمتاها إلى صدري ثوبيهما القطنيين الناعمين وبكتا بانفعال وهما ترددان (مبارك) (Mubarak) (مبارك)..

ـ ولكنه عيد ميلاد المعلم الروحي، لمَلَك وأنت تعلمين ذلك..

ثم ابتعدتا بسرعة إذ لم يكن الزفاف هو الذي أثارهما في الحقيقة، فقد بلغتا درجة عدم المبالاة بحفلات الزفاف باعتبارها أشياء بالغة السخف والتفاهة، أو بشعة بالأحرى، ولا ضرورة لها على الإطلاق، إنه في الحق ذلك الضجيج والصخب اللذين لم يعتدهما جو البيت العتيق، إنها العودة إلى الأيام الخوالي وتأثيرات الموسيقى المحمومة الصاخبة التي كانت تدفعهم إلى التحليق والقفز.

كانت الشقيقتان سارلا تزعقان بالخدم ليحضروا المزيد من الصحاف والوسائد والسجاد، وترحبان بالضيوف الذين كانوا يتدفقون، وكلهم متخمون متبطلون جاؤوا الآن من المدينة الخانقة الرطبة.

الى هذا المرج البارد المعتم في (دلهي القديمة) للاستماع إلى شيء من الموسيقى تحت النجوم المغبشة.

ألقى كل من بيم وبابا جسديهما فوق بساط قطني مُدَّ فوق الحشائش الشائكة الجافة قرب حافة المرج حيث تتشبث نباتات الكنا والزهرة الصينية (الهيبسكوس) والدفلى في صراع أخضر من أجل الحياة.

همست بيم وهي تخفي قدميها تحت ساريها:

- هل تستطيع أن ترى من هنا يا (بابا)؟

أمال بابا رأسه ميلاً طفيفاً ونظر باهتمام، وبغتة ميّز أمامهما بين الأكتاف وفوق الرؤوس أريكة بيضاء كانت تنقل لتوضع أمام النافورة الجافة وهي مغطاة بمفرش أبيض وسجادة فارسية، وعليها بعض الوسائد الملونة، وسوف يتخذ الموسيقيون مجلسهم عليها فور انتهائهم من تناول طعامهم.

بدأوا يدوزنون آلاتهم بدأب حشرات العشب النطاطة أو أسراب النحل، وكانت الأصوات أيضاً شبيهة بأصوات الحشرات وأزيزها وهي تزن وتطلق صريرها في العتمة المبقعة للحديقة التي أضاءتها المصابيح.

وكان الجو مزحوماً ومعقداً كأنه أوتار آلة (السيتار)

كانت لعازف (التانبورا) نظرة عمياء ذاهلة، نظرة رجل مأخوذ مسه الجنون، وقد شوهد وجهه المستطيل النحيل الشبيه بعمود متفحم ببثور الجدري وانتشرت عليه بأكمله ندوب هائلة سود تبدو وكأنها حفرت في أنحاء وجهه بسطوح خشنة متفاوتة العمق، وفقد إحدى عينيه جراء إصابته بالجدري. ومع ذلك لم يكن الرجل

بحاجة إلى عينيه إذ كان يداعب أوتار (التانبورا) كأنه منوم مغناطيسياً وعيناه تحدقان على نحو أعمى في الظلام، وعلى النقيض منه كان ضارب الطبلة، سميناً مدملجاً كأنه ثمرة قرع، وهو رجل صغير بدين يتنطط ويرتد جالساً على عجزيه بانفعال، ويحرك عينيه، أمام المشاهدين وكأنه يقول لهم:

ـ انتظروا وحسب، وسترون ما سيأتي. . والذي لن يتوقف أبداً.

ثم يلقي برأسه إلى الوراء جذلاناً بما يتوقعه من استحسان وإعجاب الحضور.

أما «مَلَكْ» الذي كان أحد نجمين سيحُييان حفل هذا المساء. فقد جلس وهو يضع ساقاً فوق أخرى مرحاً، مسترخياً وعلى قدر من الهدوء وسط الموسيقيين، المدندنين على آلات الكمان والضاربين على الطبول وهم يترنحون ويتمايلون.

كان مرتدياً طاقماً هندياً أبيض ناصعاً مع قميص أزرق مطرز وهو يمرر أوراق جوز (الفوفل) في صينية فضية إلى رفاقه ويطلق الضحكات لمزحة أُلقيتْ أمامه باستمتاع مبالغ فيه.

كان أخوته يجلسون في الصف الأمامي مسترخين على الحشايا والوسائد والطنافس الكبيرة، يطبع وجوههم شيء من ارتباك الشك والاستغراق في المتع، في الوقت الذي لم يكونوا فيه متيقنين تماماً من قدرتهم على هضم الكميات الهائلة من العشاء الاحتفالي الذين كانوا قد فرغوا منه تواً.

صاح أحدهمْ بصوت مرتفع لتسمعه بيم وبابا الجالسان في الصفوف الخلفية.

- إبدأ يا أخي مَلَكْ بغناء تنويمة تقودنا إلى النوم وبعدها بوسعك أن تفعل ما يحلو لك..

ألقى مَلَكْ برأسه إلى وراء وفتح فمهُ الذي اصطبغ بالأحمر القرمزي من عصير أوراق (الفوفل) وأطلق قهقهة جشاء خشنة فياضة بالمرح.

تعالى أنين عالٍ من الآلات الموسيقية، ثم توقف، وتوقفت الآلات كلها، كفت الطبول عن القرع والطنبور عن العزف، وثبتت الأصابع فكف كل شيء عن الرنين.

أرخى مَلَكْ ذقنه، وجعله يغور في طيات عنقه وبدا كأنه استغرق في تفكير عميق، ثم رفع إحدى يديه، اليد التي يزين أحد أصابعها خاتم مرصع بحجر (الأوبال) الذي كان يتألق بفعل شعاع ضوء آتٍ من مصباح معلق في الرواق، ورفع ذقنه ثلاثي الطيات وتطلع بنظرة غامضة إلى النجوم الكامدة..

ثم غنى مقطعاً تجريبياً بصوته العميق القاتم، وتنقل من طبقة صوتية إلى أخرى باحثاً عن التناغم، مجرباً إداء ترنيمات مختلفة حتى توصل في النهاية إلى التوليفة المناسبة، الترنيمة التي أرضته بتناغمها، فأنشدها بصوت يتردد بنشوة الاكتشاف، ويصدح بالانتصار ورافقته جميع الآلات جاعلة إياه يحس بالثقة والزهو لنجاحه.

قرعت الطبلة بشيء من الحبور مع الإيقاع الذي اكتشفه مَلَكْ وتنقل (التانبور) من نغمة إلى أخرى كانت تتسارع لتتوافق معه، وتابعه العازفون الذين كانوا يطوحون برؤوسهم استحساناً وقد انسجموا تماماً..

كان مَلَكْ قد أنزل سفينتهم إلى عباب البحر، وغير الجميع

طبقات أنغامهم فحلقوا الآن إلى الذرى وانطلقوا قدماً فوق أمواج الصوت.

تمايلت بيم تمايلاً طفيفاً مع اللحن الذي كان يدور حولهم وتركت عينيها تطوفان حول الحاضرين الذين انتشروا فوق المرج وقد أضاءهم جزئياً النور المنهمر من بين أعمدة الشرفة وظللتهم الأشباح القلقة للنباتات الخضراء المتراقصة فظهروا لذلك أشبه بشخوص تهريجية في مسرح، وصل بعض الضيوف الآن وهم يسيرون على الطريق الخاص في الحديقة، وتململ آخرون من ضجر وسأم وقد اتخذوا مجالسهم فوق البسطة القطنية فنهضوا ودنوا من أصدقائهم ومن المجموعات الجديدة ثم تفرقوا متنقلين إلى أماكن أخرى.

كان البعض منهم ينسمون لأنفسهم بمراوح من خوص النخيل أحضروها معهم ويحركونها بانفعال تارة وبتأنٍ وبطء تارة أخرى.

ينسمون بانفعال وسرعة إذا تذكروا الحرّ وبشيء من الكسل إذا تناسوه، بينما فتح الآخرون علب أوراق (الفوفل) وأخذوا يلفون لأنفسهم مُصَنفَاً من الأوراق أو يتقاسمونها مع أفراد عوائلهم وأصدقائهم، ويكتفي أكثر الحاضرين هدوءً بالتدخين فقط، ولا يزيد كل منهم عن شعلة بحجم رأس دبوس صغير تومض في العتمة.

أشعلت بيم لنفسها سيكارة وسحبت قدميها وهي تفسح مكاناً لزوجين شابين جاءا وجلسا أمامهما مع ابنتهما الصغيرة التي ترتدي ثوباً بنفسجياً ومزركشاً بالفضة وقد وضعت في أذنيها أقراطاً ذهبية صغيرة، والتفتت تحدق إلى بيم بعينين محددتين بالكحل، ثم تشبثت بعنق أمها الرقيق المطلي بالبودرة وهمست لها:

ـ أنظري ماما، المرأة تدخن.

فانتزعت بيم سيكارتها من فمها وابتسمت، وظلت الصغيرة تحدق بها حتى فتحوا لها علبة من البسكويت فانقضت عليها أشبه بجرذ ثم داهمها النعاس واستسلمت للنوم في حجر أمها وبين يديها المثقلتين بأساور زجاجية تصلصل في وقت تعزف فيه الموسيقى.

كان لا بد لهذه الفوضى والضجيج أن يحجبا أغنية مَلَكْ غير أنهما عجزا عن ذلك، بل إن الضجيج شكل جزءاً من المشهد، شأنه شأن المصابيح والظلمة وأشذاء النباتات التي تتفتح أزهارها في الليل، نوعاً من زخرف مخشخش تسللت أغنية مَلَكْ من خلاله نحو هدفها ومقصدها، من دون أن تفقد مسارها أبداً، بل إنها تنبعث من فطرة صافية لا تخطئ، مع موسيقى العازفين الذين يصاحبونه. أما مغزى الأغنية وهارمونيتها ولحنها فقد كانوا جزءاً من ذلك الزخرف اللحني أيضاً، الخيط الذهبي الذي يرسم حدود الصورة على الخلفية الوامضة، من دون أن يخطر ببال أحد ما إذا كان الأمر قد حدث مصادفة أو على نحو عشوائي.

كفّ أخوة مَلَكْ عن الاسترخاء والاتكاء على الحشايا، فكانوا يجلسون متقاطعي السيقان باستقامة السهم، ويوقعون ضربات الإيقاع على ركبهم ويرخون رؤوسهم وفق تموجات اللحن ويصرخون:

واه... واه.. بصوت مرتفع مفعم بالحبور، وهم يتبادلون التهاني لدى كل مقطع مبهج أو استثنائي توحي به أغنية مَلَكْ أو إزاء ذلك الانسجام البديهي والتبصر الذي يخص العازفين المصاحبين، وكانت بهجتهم وتعاطفهم أمراً واضحاً في كل هزة من رؤوسهم أو ضربة إيقاع من أيديهم على ركبهم.

هم أيضاً كانوا جزءاً من ذلك الزخرف بقدر ما كان المغني والعازفون يؤدون أدوارهم بالأسلوب المتفق عليه لتلك المقطوعة باعتبارهم مجموعة استغرقها الأداء وذابت فيه.

كانت أغنية (مَلَكْ) المؤداة بذلك الصوت اللطيف الرنان قد شدتهم إلى بعضهم في صورة تحاكي تمام المحاكاة أسلوب منمنمة مغولية، تمثل مشهد بستان ليلي أهل بأمراء وعاشقين وعازفين منصرفين إلى العزف على آلاتهم...

وبقي شيء أخير لتتم تفاصيل الصورة، فقد أسرعت الأختان وهبطتا سلم الشرفة يتبعهما رجلان يحملان أباريق شاي ضخمة ومجامر صغيرة يتصاعد منها الدخان بينما حمل الباقون صواني محملة بالأقداح، وإذ كانوا يهيئون بسرعة طرازاً من مشرب شاي في الهواء الطلق إلى جانب نباتات (الكنا) كانت أغنية مَلَكْ تبلغ ذروة إبهاجها ويتعالى صوته إلى أبعد مدى ويتصاعد عزف الطنبور ونقر الطبلة حتى يبلغ مدى صوته ليلتقي الجميع عند الذروة التي لا يمكنهم بعدها إلا أن ينحدروا نزولاً وقد ضجوا بالضحكات هانئين جذلين، الشاي، الشاي، تعالوا، اشربوا شايكم..

كانت جايا وسارلا تناديان فينطلق الخدم بسرعة ليمروا بأقداح الشاي أعلى وأدنى الصفوف المتراصة على السجاد.

قررت بيم أن تنهض لتمطّ أطرافها التي تشنجت، وتذهب لإحضار قدحين من الشاي.

قالت وهي تأخذ قدحي الشاي اللذين وضعا تحت صنبور إبريق ضخم أسود وخادم صغير رث الثياب يسكب الشاي منه في الأكواب:

- لا يزال لدى مَلَكْ ذلك الصوت المذهل العجيب، سارلا.

إلا أن جايا وسارلا اللتين تفصد العرق من وجهيهما والتمعت حباته على جبينيهما ابتسمتا فحسب، هما تواصلان تحريك أيديهما، ترفعانها وتخفضانها وقد بدا عليهما انشغال الذهن والاستغراق وكأنهما لم تسمعا ما قيل، فوقت السماع والتفكير لم يحن أوانه بعد.

كان تقديم الشاي فرصة طيبة للانتعاش واستعادة النشاط لأن الجزء الأساسي من البرنامج سيأتي لاحقاً، فلم يكن غناء مَلَكْ ضمن الجزء الأساسي كما تراءى لهم.

سرت همهمة بين الجالسين على الأريكة الكبيرة بينما كان العازفون يحتسون شايهم ويتلمظون بصوت مسموع تعبيراً عن التذاذهم وتقديرهم لمذاقه، وكان سبب الهمهمة إن ابني ميسرا أقبلا يقودان شيخاً ضئيل الجسم يرتدي رداء (دهوتي) مدعوكاً وقميصاً حائل اللون ويعتمر قلنسوة سوداء، أوصلاه إلى الأريكة وأجلساه في منتصفها بينما أبعدوا الآخرين جانباً ليفسحوا له مكاناً في جو من التأثر والاحترام.

ـ إنه (الغورو). . إنه معلّم مَلَكْ.

أوضحت سارلا بسرعة بينما كانت بيم تمضي حاملة قدحي الشاي في يديها.

ـ التمس منه مَلَكْ أن يحضر ليغني هذه الليلة، قالت بيم: آها. .

وردد الجميع من حولها. . . أهاها. . بنبرة الرهبة والترقب ذاته إزاء (الغورو) الذي كان في ما مضى مغنياً شهيراً لامعاً، ولكنه يعيش الآن في عزلة تامة ولا يكاد يظهر بين الناس.

ـ الآن سيغني (الغورو).

قالت بيم لأخيها (بابا) وهي تناوله قدح الشاي الذي انزلق قليلاً، فوضعته بشيء من الاحتراس إلى جانب بابا ليذيب السكر فيه ويشرب شاياً ثقيلاً ممزوجاً بالحليب.

أحاط بهما الهرج والمرج عندما استعد الحاضرون لمشاهدة الفقرة الرئيسة في هذه الأمسية، ونشطت حركة دائبة على الأريكة الكبيرة، وساد جو من الاسترخاء وتزايد الحدس بينما كان الموسيقيون يتبادلون المزاح والإطراء، يرشفون الشاي أو يمضغون أوراق (الفوفل) ويمطون عضلاتهم أو يجلون حناجرهم ويدوزنون آلاتهم ويستعدون للعزف.

شعت البهجة والثقة والسعادة من أعطافهم وكأن الموسيقى كانت غذاءً لهم وشراباً، زاداً دسماً اقتاتوا منه وتشربوه ومنحوه بكرم للجميع، إلا (الغورو) الشيخ الذي بلغ وجهه وقامته الضئيلة الذابلة أقصى حدود الشيخوخة والجفاف وقتامة اللون والشحوب وعلت وجهه الغضون، فلا يتبينوا منه سوى الاستسلام الحزين.

كان مَلَكْ يمازحه ويزعجه بمزاحه، غير أن الرجل بسط راحتي يديه فوق ركبتيه وانحنى إلى أمام من دون أن يبتسم أو يستجيب بأي حال لشيء مما حوله، وبدا أنه كان يعاني من أسنانه الاصطناعية التي لم تكن مناسبة لقياس فكيه.

وبعد برهة وجيزة قلب إحدى يديه وأدارها فوق ركبتيه فالتزم مَلَكْ والعازفون الصمت وإنساب صوته العتيق من ذلك الصمت وأخذ يطوف في قلب الظلام مثل طائر عظمي بانقضاضات واندفاعات مترددة متفحصة، وتابعه العازفون بشيء من البرود والتحفظ كأنهم كانوا يتجنبون ازعاجه، وتجمد مَلَكْ في وضعية

السماع مسحوراً وقد استخفه الطرب وأخذ رأسه الضخم يترنح على نحو بالغ الرقة.

ورقد الأب الشيخ (ميسرا) فوق سرير واسع أبيض في الشرفة العالية وهو يصغي في سكون تام إلى الغناء، وبدأ جسده الثقيل يتململ متحولاً إلى ظل شبحي يلوح أمام الجدار المجصص وهو يتمايل مهتزاً مثل نصب تذكاري يتهاوى.

أنصتت بيم إلى الصوت العتيق الناعم وهي تراقب الظل الهرمي الذي كان يرتفع في الليل لدى سماع صوت المغني العجوز.

أنصتت إلى الصوت الضئيل العتيق والمحفوف بالقسوة، الصوت الدامي الذي بدا كأنه صادر عن ألم، وقد أحاطت بالصوت هالة من ألوان الحرائق، شيء من عصارة نبات الفوفل القرمزية والأخلاط، إلى جانب ما كان يشوبه من تنازع وإخفاق وإحباط. وكان التباين ما بين صوت مَلَكْ وصوته تبايناً هائلاً، فبينما كان صوت مَلَكْ أقرب شبهاً بصوت طفل، حلواً ورائقاً، صوت شاب مليء ناضج وبه مسحة حلاوة، كان صوت الرجل العجوز حاداً أجش مبحوحاً إلى حد ما، وقابلاً للتصدع، ولم يكن ذلك نتيجة شيخوخته، بل بسبب مرارة تجاربه وخيباته وأحزانه، فاستوطنت صوته كل العواطف وثورات الغضب والآلام التي مرت في حياته، وأدى ذلك إلى إضرام النيران في كل أغنية اختارها لغنائه ومنح قصائد العشق والهوى ذلك الإطار الخشن الجافي الذي يذكر بالخيبات والجراح.

غنى مثل أمرئ عائد بعد نهاية رحلته وهو يرى المسافة الفاصلة بينه وبين الموت، فوقف في ظله المطلّ وأخذ يقيس

الأرض وحياته عليها بإزاء ذلك الظل الشبحي الكبير.

لعلّ مَلَكْ سيغني ذات يوم غناءً شبيهاً بغنائه إذا ما تهيأ له أن يقوم برحلة الحياة ذاتها التي قام بها (الغورو) فهما، بعد كل شيء، ينتميان إلى مدرسة واحدة وأسلوب انشادي واحد، وبينهما ذلك التشابه رغم الهاوية التي تفصل بينهما.

وبينما كانت بيم تصغي إلى إنشاد (الغورو) دهمتها ذكرى قراءتها في نسخة راجا القديمة من كتاب (الرباعيات الأربع) لاليوت وحضرها هذا البيت بالذات:

(الزمان المدّمر هو الزمان الذي يصون)

وخيل إليها أن معانيه تهطل عليها من السماء الظلماء وتستقر فوقها مثل عباءة، أو أشبه بجناحي ريش هائلين فاستقرت في ظل عزائه وسلواه، رأت أمام عينيها كيف شملت مدرسة الغناء القديمة العتيقة الرجلين معاً: مَلَكْ الذي لا يزال مريداً فتياً لم تعركه الحياة بعد، ومعلمه الهرم المستنزف الذي تحرر من الوهم أمام تجاربه الطويلة، ورأت عبر بصيرتها كيف ارتبط بها بيته وتاريخه الشخصي واحتواها مثلما احتوى أسرتها بكل تواريخهم وتجاربهم، لا باعتقالهم داخل زنزانة مميتة راكدة الهواء، ولكن بمنحهم التربة التي تتيح لهم أن يمدّوا جذورهم فيها، والزاد الذي نموا منه وانتشروا ليصلوا تجارب جديدة وحيوات جديدة، لكنهم في كل ذلك يتحركون باستمرار من تلك التربة ذاتها والظلمة السرية ذاتها، تلك التربة تحتوي على الزمن بأجمعه، تحتوي على الماضي والمستقبل كليهما، التربة التي زادها الزمان عتمة، زادها الزمان غنىً.

في هذه التربة التي عاشت فيها روحها الأبعد وأرواح شقيقتها

وإخوتها وكل أولئك الذين شاركوها ذلك الزمان.

والآن أنشد (الغورو)

زمانك هو زمان السمكة والطير

أما زماني فإنه الصرخة في الفجر

وارتفعت يد بيم مزيحة الشعر الرمادي عن وجهها وإنحنت متأثرة نحو أخيها (بابا) وقالت له: إنه يغني من شعر (إقبال) شاعر راجا المفضل، وهزّ (بابا) رأسه هزة واحدة، كان وجهه وهو يصغي وقوراً مثل صورة نقشت في حجر.

ارتفع صوت المغني العجوز عالياً متلوياً من نشوة وألم:

(أنا تابع مغلول في عالمك،

أما أنت فتمتلك السلطان على دنياي)

صاح أحدهم جذلاً نشوان: واه...واه... ولعله كان الشيخ (ميسرا) العجوز الذي كان يصغي وحيداً في الشرفة، فرفع المغني يداً مرتعشة وهزها امتناناً.

المفردات الهندية التي وردت في متن الرواية

قميص نسوي طويل	Salwar Kameez
خالة	Masi
عراف، رجل دين	Swami Je
هيا، هيا ابتعدوا	Hato Hato
ابن الخنزير	suar sala kabchch
آخر أباطرة المغول في الهند شيد والده صرح تاج محل ثبتته في النص بلفظة اورانغسب وقد يلفظه البعض ـ اوران غيزاب أو يسمى أحياناً اورنك زيب	Aurangzeb
الصديق ألصغر أو الأخ الأصغر	Chatumia
الأصغر الأكبر أو الأخ الأكبر	Bare Mia
خبز	chapatti
الحياة	Zindagi

Rakhi bandhan	عيد الأخوة (خيط تربطه الشقيقات والأشقاء على أيديهم في عيد التآخي)
Norjehan	الملكة نورجهان زوجة شاه جهان
Samosas	نوع من سندويش
Jamia Millia	مسجد الأمة
Shikavai	صياد
Chameli	زهور بيض بديعة ربما تكون زهور (الكاميليا)
Ghalib	شعراء مسلمون غالباً يكتبون بالأوردية
Zauq	ذوق
Dagh	داغ
Hali	حالي
Pashim shawl	شال كشميري
Ahoty	رداء
tanpura	آلة الطنبور الموسيقية

أنيتا ديساي

ولدت «أنيتا ديساي» سنة ١٩٣٧ لأب بنغالي وأم ألمانية وتلقت تعليمها في «دلهي» وهي واحدة من بين مجموعة بارزة من الأدباء الهنود الذين يكتبون باللغة الإنكليزية ويستخدمونها لغة ثقافة وأدب وسط تعددية اللغات واللهجات في شبه القارة الهندية.

حصلت أنيتا ديساي على جائزة (ولفريد هولبني) الأدبية التي تمنحها الجمعية الملكية للآداب، وجائزة الأكاديمية الوطنية للأدب عن روايتها (نار فوق الجبل) ١٩٨١ وظهرت لها رواية (أطلق صيحتك أيها الطاووس) إضافة إلى مجموعتين قصصيتين الأولى «اللعب في الغسق» والثانية (قرية على البحر).

وتحتل رواية (ضوء نهار مشرق) مكاناً مرموقاً بين نتاجات الكاتبة، مما أهلها لنيل جائزة (بوكر ماكونيل) سنة ١٩٨٠ ثم فازت روايتها (تحت الحراسة) بالجائزة ذاتها سنة ١٩٨٤.



أنيتا ديساي

روائية هندية ولدت عام ١٩٣٧ من أم المانية وأب هندي ونشأت في مدينة نيو دلهي ونالت درجة الماجستير في الأدب من جامعة دلهي -تتحدث الألمانية والإنكليزية ولغة الأوردو - وتقوم بتدريس مادة الكتابة الإبداعية في معهد ماساشوتس للتكنولوجيا وقد رشحت رواياتها ثلاث مرات للقائمة القصيرة للبوكر البريطانية، نالت جوائز عدة من أبرزها جائزة البرتو مورافيا الأدبية من إيطاليا وجائزة أكاديمية ساهيتيا الهندية للآداب وجائزة الغارديان لروايات الأطفال، نشرت ديساي نحو ١٢ رواية وكانت أولى رواياتها (ابكِ أيها الطاووس) سنة ١٩٦٣ وتوالت رواياتها: (أصوات في المدينة) وقصص (غبار الماس) ورواية (نار على الجبل) و(رحلة إلى إيثاكا) ورواية (رهن الاعتقال) ورواية (قرية على البحر) التي فازت بجائزة صحيفة الغارديان لأدب الاطفال ثم مجموعتها القصصية (ألعاب الغسق) ورواية (قطة في بيت عائم) و(حديقة الطاووس) و(وداعاً أيها الطائر الاسود) ومجموعة قصص (غبار الماس) وأخيراً (الفنان المختفي) التي صدرت عام ٢٠١١. تعيش ديساي حالياً في ولاية ماساشوتس.


ISBN 2-84306-134-x
9 782843 061349

تصميم الغلاف: ريم